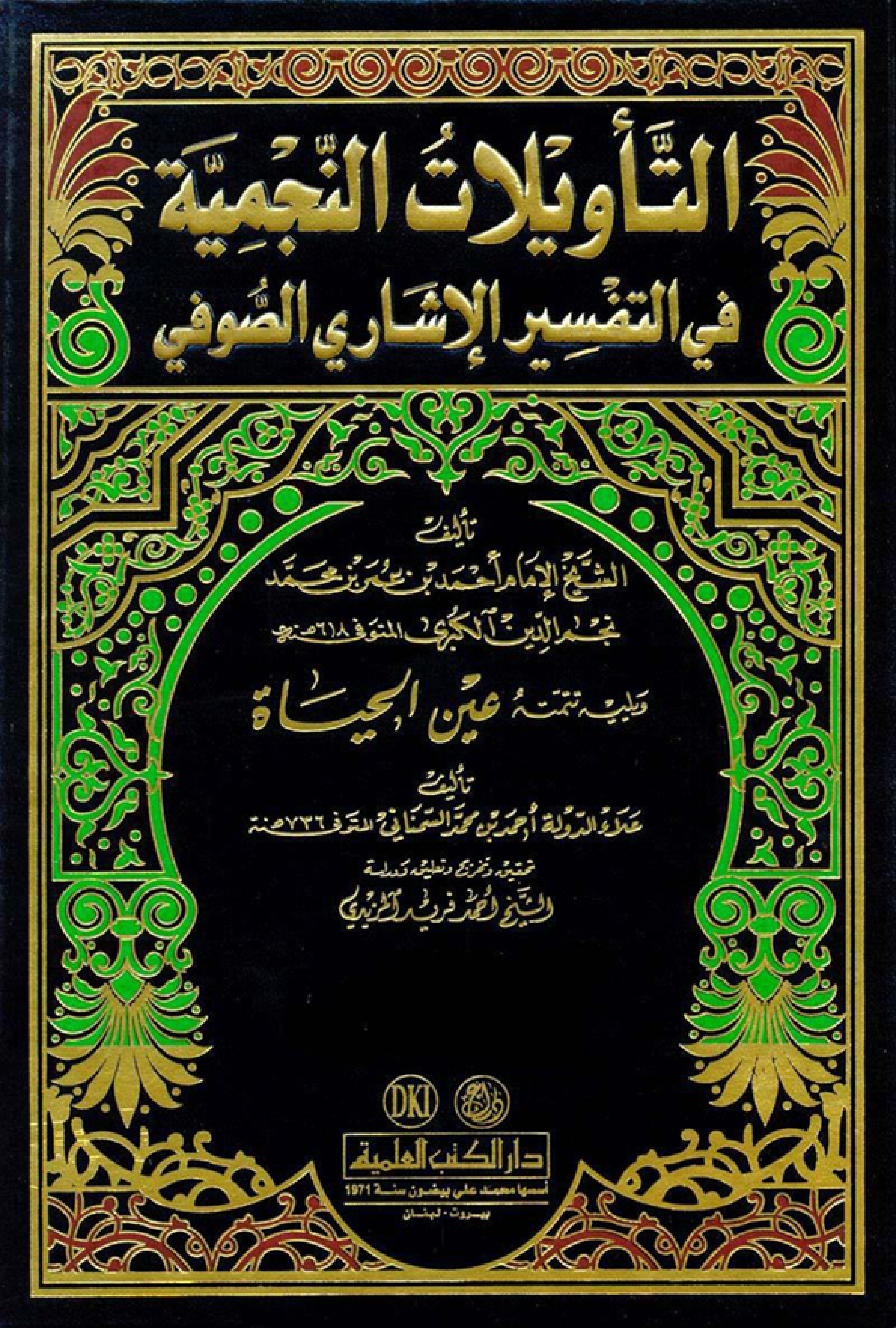


التأويلات النجمية
في التفسير الإشاري الصوفي
تأليف
الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد
نجم الدين الكبرى المتوفى ٦١٨ هـ
ويليه تتمة عين الحياة
تأليف
علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني المتوفى ٧٣٦ هـ
تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة
الشيخ أحمد فريد المزيدي
DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

التأويلات النجمية

في التفسير الإشاري الصوفي

تأليف

الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد

نجم الدين الكبرى

المتوفى ٦١٨ هـ

ويليه تتمته

عين الحياة

تأليف

علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني

المتوفى ٧٣٦ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق وتقديم

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثالث

المحتوى

من أول سورة الأعراف - إلى آخر سورة إبراهيم



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammed Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Fondée par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com ... sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

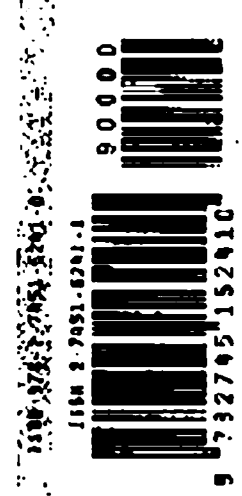
Title : AL-TA'WĪLĀT AL-NAJMIYYAH
Followed by: *ʿAYN AL-ḤAYĀT*

Classification: Exegesis of the Qur'an
Author : Najmuddīn al-Kubrā and ʿAlā'uddawlah al-Simnāni
Editor : Aḥmad Farīd al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiayh
Pages : 2464 (6 volumes)
Size : 17*24
Year : 2009
Printed In : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : **التأويلات النجمية**
ويليه تتمته : **عين الحياة**

التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : نجم الدين الكبرى
وعلاء الدولة السمناني
المحقق : أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات : 2464 (6 أجزاء)
قياس الصفحات: 17*24
سنة الطباعة : 2009
بلد الطباعة : لبنـــان
الطبعة : الأولى





سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: 1 – 7].

﴿المص﴾(1) [الأعراف: 1]، إلى قوله: ﴿مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3] والإشارة فيها:

---

(1) قال في عرائس البيان: ﴿الٓمٓصٓ﴾ كان الله سبحانه إذا أرد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والاعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، وتحيّره ممّا كان وما يكون إشارة إلى هذه الأشياء له بحروف التهجي، واعلم سر ذلك محض الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه ﷺ يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ونبأ طارق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه وخواص أمته، ربما يطلع على سر بعضها كالصحابة والتابعين والمتقدمين من الأولياء والعلماء.

كانت حروف المقطعات رموز معاني سور القرآن لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين، فهذا الألف إشارة إلى آدم عليه السلام، الا ترى أن أول اسم آدم عليه السلام ألف إشارة، الألف إلى حاله وقصته وبدو أمره وخلقته، وعرضه على الملائكة ودخوله الجنة وخروجه منها، وكان هو أصل الفطرة، ومَنْ تشعب منه فهو تابع له في الذكر، وإشارة الألف إلى علم الأسماء بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾ التي فيها أنباء جميع الذات والصفات والنعوت والأفعال، وعلم ما كان وما سيكون عرّف نبيه محمد ﷺ ما عرف آدم عليه السلام بجميع الأسماء بحروف الألف؛ لأنه كان ﷺ ألطف الأولين والآخرين وأكرمهم على الله، وعلى قدر قربه إشارة ألطف وأخفى وأخبر باللام هاهنا تعالى حبيبه قصة تجليه لموسى عليه السلام والجبل، وعرف بها تلك الأحوال الماضية.

ألا ترى إلى حرف اللام في التجلّي، وعرّف بحروف الميم شأن موسى عليه السلام وقصته من أوله إلى آخره، ألا ترى إلى حرف الميم مراسم موسى عليه السلام، وعرف بحرف صاد هاهنا قصص نوح وهود عليهما السلام وصالح

-

عليه السلام وشعيب عليه السلام ولوط عليه السلام وجميع ما جرى عليهم من بدئهم إلى آخر أعمارهم، وأخبر بحرف صاد صبرهم، وتحملهم في بلائه وصدق محبتهم بالوفاء والصدق بالأعمال والأقوال، وتصديق ذلك وهو أن تحت الحروف جميع الكتب مندرجة ما روي في الحديث عن قول النبي ﷺ: «إن الله سبحانه أعطى آدم عليه السلام حروف التهجي، وكان كل حروف كتابًا من الله تعالى إليه».

وأيضًا أخبر سبحانه بحرف الألف نبيه ﷺ عن عين القدم ووحدانية نفسه المنزَّه عن الاجتماع والافتراق، وإصدار جميع المخلوقات منه؛ لأنه تعالى مصدر جميع الوجود، كما أن الألف مصدر جميع الحروف، وأخبر بالألف سر الأسرار وصرف الأنوار، وما كان في جميع الحروف من علم الأولين والآخرين، وهذا أدق إشاراته إلى نبيه ﷺ ثم زاد وضوحه بحرف اللام لترقيه خاطره وزيادة إدراكه، ثم صرح الخطاب بحرف الميم وبيّن له بحرف الصاد ما كان في الأحرف الخاص؛ لأن بحرف الصاد صفا جميع علومها له، ثم عمّ العبارة للخلق بالسورة لقلة إدراكهم لعزّ الأسرار ولطائف ضمائر الإضمار، وأيضًا أخبره بلام ألف سر أوليته، وما في بحار أزليته.

ألا ترى كيف شقّ الألف من اللام لإخفاء الإشارة حتى لم يبق حديث العدم في القدم، وكيف يكون لها من لام وألف ومعناها العدم، فشقَّ أحدهما عن الآخر حتى لا يكون حديث النفي؛ لأن النفي علّة يقع على الحدثان، وليس ذكر للحدثان في القدم. أخبر بالألف عن أحدية الأولية، وباللام عن الأزلية السرمدية، وبالميم عن محبته القدمية، وبالصاد عن صفاتِهِ القائمة بذاته الأبدي، أخبر بالألف عن الذات؛ لأنها عين الواحد، ثم أخبر باللام والميم والصاد عن شمول صفاته القديمة، الألف من الذات، واللام من صفة الأزل، والميم من صفة المحبة، والصاد خبر جميع الصفات.

قال محمد بن عيسى الهاشمي: سمعت من ابن عطاء أنه قال: لمّا خلق الله الأحرف جعل لها سرًّا، فلمّا خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر ولم يبثه في الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجريان وفنون اللغات جعله الله صوره لها.

وقال الحسين: الألف ألف المألوف، واللام لام الآلاء، والميم ميم الملك، والصاد صاد الصدق.

وقال: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام تلك في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهُو، وغيبه الهو ليس كمثله شيء.

وقال أبو محمد الجريري: أن لكل لفظ وحرف من الحروف مشرب فهم غير الآخر.

ومن شرَّاح ذلك حين سمعه يقول: ﴿الٓمٓصٓ﴾ للألف عندهم فهم، وللفهم في محضرهم استماع إلى حسن مخرج وطعم عذب موجود نظر إلى المتكلم، وكذلك اللام حسن استماع ومخرج غير الألف وطعم فهم موجود، وكذلك للميم حسن استماع من مخرج غير اللام وطعم فهم موجود، والصاد حسن استماع إلى حسن مخرج وطعم فهم موجود غير الميم فممزوج ذلك كله بالملاحظة للمتكلم.

وقال الحسين: الألف ألف الأزل، واللام لام الأبد، والميم ما بينهما، والصاد اتصال مَنْ اتصل به، وانفصال مَنْ انفصل عنه، وفي الحقيقة الاتصال والانفصال، وهذه ألفاظ تجري على حسب العبارات

أنه تعالى بعد ذكره ذاته وصفاته بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، عرَّف نفسه بقوله: ﴿المص﴾؛ يعني: الله هو إله؛ من لطفه أفرد عباده للمحبة والمعرفة، وأنعم عليهم الله بالصدق والصبر؛ لقبول كمالية المعرفة والمحبة بواسطة: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 2] بأن نزله على قلبك وشرح به صدرك، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 2]؛ أي: مما فيه من كثرة الحقائق والمعاني والأسرار والأنوار والأفعال؛ إذ جعل خالقك معاني القرآن نور قلبك بأنواره وحقائقه، فاتسع به قلبك وانفتح له صدرك، فما بقي الضيق والحرج بخلاف الكتب المنزلة على الأنبياء من قبلك، فإنها كانت تنزل عليهم في الصحف والألواح، فكان من نزولها في صدر بعضهم نوع حرج حتى أن موسى عليه السلام ألقى الألواح من نوع ضيق وحرج أصابه مما فيه الألواح وخطاب الحق، فخصَّ نبيه وحبيبه ﷺ بتنزيل الكتاب على قلبه يشرح له صدره بأنواره فلا يكن في صدره حرج منه[1].

﴿لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: 2] الأمة حين تتلوه عليهم وليكون ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2]؛ أي: يتعقلون به وينتفعون بحقائقه في متابعة نبيه ﷺ كقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 3]، ومما نزل إليهم قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] فإن المؤمنين مأمورون بإتباع ما أنزل من ظاهر القرآن وباطنه؛ يعني: حقائقه وأسراره وحكمه، وبأن يأخذوه من النبي ﷺ؛ إذ هو به مبعوث لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: 2]، فالكتاب: هو ظاهر القرآن، والحكمة: هي باطنه وأسراره وحقائقه في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 3].

إشارة أخرى تتضمن ألف بشارة وهي: إن الله تعالى كما شرف النبي ﷺ بقوله: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 2] جعل له دخلاً في اتباع القرآن والتخلق بأخلاقه ونيل

ومعادن الحق مصونة عن الألفاظ والعبارات.

(1) قال ابن عجيبة: أي: ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يُكذب به، مخافة أن تكذّب فيه، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه، أو بحقوقه، وتوجيه النهي إلى الحرج للمبالغة. البحر المديد (2/ 231).

كمالات تندرج فيه بقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ﴾ [الأعراف:3]؛ أي: من دون الله، ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:3] أحباء [معاونين]، ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:3]؛ أي: قليلاً منكم يا بني آدم من يتعظ فلا يتخذ من دون الله أحدًا.

ثم أخبر عن الهالكين غير المتعظين بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف:4]؛ أي: أهلها، إلى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف:7]، والإشارة فيها: أن طول المهلة توجب الغفلة، وأن إكثار الغفلات توجب الإهلاكات، فكم ﴿مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ ركنوا إلى الغفلة، فاعتبروا بطول المهلة، فباتوا في حفظ الرعية، ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف:4] فأصبحوا وقد صادفهم البلاء بغتة وأدركتهم سطوات قهرنا فجأة.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأعراف:5]، والإشارة: فاعترفوا من الذنب بالاعتراف حين لا ينفعهم الاعتراف، فلا بلاء كشف عنهم، ولا دعاء سمع لهم، ولا إقرار نفعهم، ولا صريخ أنقذهم فما زالوا يقرعون إلى الابتهال، ويقرعون باب النوال، ويدعون إلى كشف الضر، ويبكون السر حتى هادوا جميعًا وهلكوا سريعًا.

وفيه إشارة أخرى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ أي: قرية قلب أفسدنا استعدادها، ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾؛ أي: قلبناها وأزغناها بإصبع القهارية إظهارًا للجبارية، وأهلها نائمون على فراش الحسبان قائلون في نهار الخذلان: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأعراف:5]؛ أي: ادِّعاؤهم، ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: 5]؛ أي: ادعوا أن القدرة على تغليب الحال إنما كان لهم؛ وذلك من دناءة همتهم وركاكة عقلهم وقصر نظرهم حتى أحالوا القدرة والتصرف فيهم إلى أنفسهم وهم لاهون عن قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام:110].

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:6]، [سؤال] تعذيب وتعنيف تسألون عن القبول، هل قبلتم الرسالة وعملتم بما أمرتم أم لا؟ وفيه معنى آخر؛ أي: فلنسألن الذين كانوا مخصوصين بالرسالة إليهم من المؤمنين قابلي الدعوة هل بقوله: هل بلغ إليكم

رسلنا رسالتنا ومواعيدنا، وهل بينوا لكم حقائق ما أنزل إليكم، ووصفوا لكم ما أعدونا من المقامات والدرجات والكرامات لكم، وهل دعوكم إلى كمالات الدين وكشف الغطاء عن اليقين؟ وهذا سؤال تقريب وتشريف، ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:6]، هل وجدتم في الأمم أقوامًا قابلي الدعوة والرسالة من أهل المحبة والعناية؟ كما وعدناكم بإتيانهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، وهذا سؤال إنعام وإكرام.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف:7]؛ أي: فلنبين لكل طائفة من الرسل والمرسل إليهم أن إرسالنا إليهم كان بعلم منا بقوله تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:124]، وما أرسلناهم عبثًا وإنما أرسلناهم لأمر عظيم وشأن جسيم، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف:7] عن الرسل والمرسل إليهم؛ أي: كنَّا مع الرسل، بالعظمة والكفاية ومع المرسل إليهم بالتوفيق والتثبيت والهداية.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: 8 – 13].

ثم أخبر عن تعيين الوزن للنبيِّين بقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾(1) [8]،

---

(1) للحق سبحانه وتعالى موازين يزن بها الأحوال والأعمال: يزن بميزان الإخلاص المعاملات، ويزن بميزان الصدق الحالات، فكل عَمَلٍ عُمِلَ برؤية الأعواض ورؤية العمل والالتفات فيه إلى غير الله، فهو ساقط عن محل القبول، وكل حالة صاحبها موجب بها فهي ساقطة عن درجة الوصول، فالنيات موازين المعاملات والصدق ميزان الحالات، فمَنْ هاهنا يزن نفسه بميزان الرياضات والمجاهدات، ويزن قلبه بميزان المراقبات، ويزن عقله بميزان الاعتبارات، ويزن روحه بميزان المقامات، ويزن سرّه بميزان المحاضرات ومطالعة الغيبيات، ويزن صورته بميزان المعاملات، الذي كفتاه الحقيقة والطريقة ولسانه الشريعة وعموده العدل والإنصاف يوزن نفسه يوم القيامة بميزان الشرف، ويوزن قلبه بميزان
=

اللطف، ويوزن عقله بميزان النور، ويوزن روحه بميزان السرور، ويوزن سره بميزان الوصول، ويوزن صورته بميزان القبول، فإذا ثَقُلَت موازينه بما ذكرنا فجزاء نفسه الأمن من الفراق، وجزاء قلبه مشاهدة مشوق في الأشواق، وجزاء عقله مطالعات الصفات، وجزاء روحه كشف أنوار الذات، وجزاء سره إدراك أسرار القدميات، وجزاء صورته الجلوس في مجالس وصال الأبديات.

وأيضًا هاهنا لأهل الحق موازين: ميزان الإرادة، وميزان المحبة، وميزان الشوق، وميزان العشق، وميزان المعرفة، وميزان اليقين، وميزان التوحيد، فهذه سبعة موازين فينبغي أن يزن المريد نفسه في كل نفس بميزان الإرادة، ويزن المُحب قلبه في كل نفس بميزان المحبة، ويزن المشتاق عقله في كل نفس بميزان الشوق، ويزن العاشق روحه في كل نفس بميزان العشق، ويزن العارف سره في كل نفس بميزان المعرفة، ويزن الموقن أنفاسه في كل نفس بميزان اليقين، ويزن الموحد جميع وجوده بميزان التوحيد، فيستوفي المريد بميزان إرادته عن نفسه انقيادها للحق عند جريان القضاء والقدر عليها، ويستوفي المُحب بميزان محبته عن قلبه شهوده في الحضرة بلا خطرات المذمومة، والالتفاتات المشوبة بنعت النيات الصافية، ويستوفي المشتاق بميزان شوقه من عقله جولانه في الشواهدات لطلب عرفان المشاهدات بلا فترة ولا رعونة، ويستوفي العاشق بميزان عشقه من روحه طيرانها في الملكوت لطلب الجبروت، ويستوفي العارف بميزان معرفته من سره إصغاء بنعت الشهود؛ لكشوف أنوار الغيب، وغوصه في بحر الهموم لطلب جوهر الإلهام، ويستوفي الموقن بميزان اليقين من أنفاسه صعودها عند تنفسها إلى معارف القرب بلا هواجس اليقين وغبار الوسواس، ويستوفي الموحد بميزان توحيده من جميع وجوده اضمحلاله في أنوار كبريائه القديم، وفنائه في سبحات الأبد، فمَنْ ثقلت هذه الموازين أفلح عن حجبة الامتحانات، وتُثَقِّل موازين الحضرة غدًا بفيض أنوار صفات الحق، ولطائف ذاته وكرامات قربته له، فيفلح هناك بالله عن غير الله ويصير أهلاً لله؛ لأنه خرج عن موازين صفاته وأنوار ذاته بنعت المعرفة والتوحيد والمحبة، فطُوْبَى لهذا المحاسب طُوْبَى له وحسن مآب.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير هذه الآية: ومَنْ وزن نفسه بميزان العدل كان من المحبين، ومَنْ وزن خطراته وأنفاسه بميزان الحق اكتفى بمشاهدته، والموازين مختلفة، ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسرّ، فميزان النفس والروح الأمر والنهي وكفتاه الكتاب والسُّنة، وميزان القلب والعقل الثواب والعقاب وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان المعرفة والسرّ الرضا والسخط وكفتاه الهرب والطلب.

وقال الأستاذ: يوزن أعمالهم بميزان الإخلاص وأحوالهم بميزان الصدق، فمَنْ كانت أعماله بالرياء مصحوبة لم يقبل أعماله، ومَنْ كانت أحواله بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحواله، وافهم يا صاحبي أن حكمة وزن الأعمال يوم القيامة للعباد أن الله يبيّن لهم ما كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ قبل الخلق مما يجري عليهم من القضاء والقدر، والرضا والسخط، والشقاوة والسعادة، مقابلة بما جرى عليهم في الدنيا الذي في أوراق الحساب التي في أيدي الملائكة ليزيدهم برهانًا وعيانًا وعلمًا بعلمه المحيط على كل شيء، وليكون حجة عليهم، خرّج أعمالهم على وفق ما كان مكتوبًا عليهم، وافهم يا صاحبي أن الأعمال

الإشارة فيها: أن الوزن عند الله يوم القيامة لأهل الحق وأرباب الصدق وأعمال البر كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، فلا وزن للباطل وأهله، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ [الكهف:105]، وروي أنه يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشَّروب فلا يزن جناح بعوضة، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [المؤمنون:102] بالأعمال الصالحة والصفات الحميدة والأوصاف الرضية والنعوت المرضيَّة والأحوال السنية والأخلاق الربانية، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:8] الفائزون بإبقاء الحق وبقائه، الناجون من مقام أنانيتهم لفنائهم، وإنما قال تعالى: ﴿مَوَازِينُهُ﴾ بالجمع؛ لأن كل عبد ينصب موازين القسط تناسب حالاته، فلبدنه: ميزان توزن به أعماله، ولنفسه: ميزان توزن بها صفاتها، ولقلبه: ميزان يوزن به أوصافه، ولروحه: ميزان يوزن به لغته، ولسره: ميزان يوزن به أحواله، ولخفيه: ميزان يوزن به أخلاقه، والخفي: لطيفة روحانية قابلة لفيض الأخلاق الربَّانية، ولهذا قال ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»[1] وذلك؛ لأنه ليس من نعوت المخلوقين بل هو من أخلاق رب العالمين، والعباد مأمورون بالتخلق بأخلاقه.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف:9] مما ذكرنا، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف:9] أفسدوا استعدادها لقبول هذه الكمالات التي ذكرناها، ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا

أعراض كيف تكون موزونة؟ ليس هذا في علم الخلق! إن ميزانه الحقيقي رده وقبوله، وهو قادر أن يخرج الأعراض بصور الجواهر فيزن بميزانه الذي يظهره لهم يوم القيامة، وذلك على لسان الشرع يوجب الإيمان به.

قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن يؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان وهو الحق فيثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة، فيعرفها بعمله. فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8]، وهم أعرف بمنازلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل؛ فيخف وزنه حتى تضع في النار، ثم يقال للكافر: إلحق بعملك.

(1) أخرجه الترمذي (4/ 363، رقم 2003).

﴿يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:9]؛ أي: يجحدون؛ يعني: أفسدوا استعدادهم حسن لقبول الكمالات بجحودهم.

ثم أخبر عن كرمه ونعمه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:10]، إلى قوله: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:16]، والإشارة فيها: أن التمكين لفظ جامع للتمليك والتسليط والقدرة على تحصيل أسباب كل خير وسعادة دنيوية وأخروية وكمال استعداد المعرفة والمحبة والطلب والسير إلى الله تعالى ونيل الوصول والوصال، وما شرف بهذا التمكين إلا الإنسان، وبه كرم وبه فضل وبه يتم أمر خلافته، ولهذا أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، وبه منَّ الله تعالى على أولاده بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:10]؛ أي: سيرناكم ووهبنا لكم في خلافة الأرض ما لم نمكن أحدًا غيركم في الأرض من الحيوانات، ولا في السماء من الملائكة، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ﴾ [الأعراف:10] خاصة، ﴿فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف:10]؛ لأنها مجموعة من الملكية والحيوانية والشيطانية والإنسانية، فمعيشة الملك: روحية، ومعيشة الحيوان هي: معيشة بدنية، ومعيشة الشيطان هي: معيشة نفسه الأمارة بالسوء، ولمَّا حصل للإنسان بهذا التركيب مراتب الإنسانية التي لم تكن لكل واحد من الملك والحيوان والشيطان وهي: القلب والسر والخفي، فمعيشة قلبه هي: الشهود، ومعيشة سره هي: الكشوف، ومعيشة خفيه هي: الوصول والوصال، ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:10]؛ أي: قليلاً منكم من يشكر هذه النعم؛ أي: نعمة التمكين ونعمة المعايش برؤية هذه النعم والتحديث بها، فإن رؤية النعم شكرها، والتحدث بالنعم أيضًا شكر.

ثم أخبر عن شرح هذا التمكين وبدوّ أمره، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:11]؛ أي: خلقنا أرواحكم قبل أجسادكم، يدل قوله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام»[1] ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا أجسادكم وجعلناها صور الأرواح.

واعلم أن للأجسام وتصويرها بداية في الخلقة ونهاية، فبدايتها: الذُّرِّيَّة التي

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (2/ 129)، والسيوطي في «اللآلي المصنوعة (1/ 349).

استخرجت من ظهر آدم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل: ذراتهم، وفي الحديث الصحيح: «إن الله مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كلهم كهيئة الذر»[1]؛ يعني: في الصغر، وهذا يدل على أنهم كانوا مصورين في صلب آدم،

ونهايتها: أيضًا لها بداية ونهاية، فبدايتها: عند تصوير الجنين في الرحم، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:6]، ونهايتها: عند كمال الصورة والجسد في حال الكهولة غالبًا، فمعنى الآية: خلقناكم أرواحًا ثم صورناكم في ظهر آدم ذرية كهيئة الذر ثم في أرحام الأمهات بصورة الجنين، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف:11] وأنتم في صلبه فهذا من التمكين أيضًا.

﴿فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف:11]؛ يعني: الملائكة؛ لاستعدادهم الفطري، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:11] لما فيه من الاستكبار للنارية واستعلائها، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:12] وهذا خطاب الامتحان لجوهر إبليس؛ ليظهر به استحقاق اللعنة، فإنه لو كان ذا بصيرة لقال: منعني تقديرك وقضاؤك ومشيئتك الأزلية، فلما كان أعمى بالعين التي ترى أحكام الله وتقديره وهويته، بصيرًا بالعين التي ترى أنانيته، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف:12]؛ يعني: منعتني خيرتي عنه أن أسجد لمن هو دوني، واستدل على خيريته بقوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:12]؛ يعني: النار علوية نورانية لطيفة، والطين سفلي ظلماني كثيف فهي خير منه، فأخطأ اللعين في الجواب وفي الاستدلال والقياس من وجوه،وقد قدرنا خطأه في الجواب.

فأمّا في القياس: فأحد الوجوه: أنّا لو سلمنا أن النار أفضل ما شرف وأعلى من الطين من حيث الظاهر والصورة، ولكن من حيث الحقيقة والمعنى الطين أفضل وأشرف منها؛ لأن من صفات الطين وخواصه: الثبات ومنه النشوء والنمو، ولهذا السر كان تعلق روح الإنسان به؛ ليصير قابلاً للترقي، فإن جوهره كان من قبيل جواهر الملائكة في

---

(1) رواه البيهقي في القضاء والقدر (1/ 51).

الروحانية والنورانية وقابل للترقي، والنار من خاصيتها الإحراق والإفناء.

وثانيها: أن في الطين لزُوُجَة وإمساكًا، فإذا استفاد الروح منه بالترابية هذه الخاصية يصير ممسكًا للفيض الإلهي، إذ لم يكن ممسكًا له في عالم الأرواح، ولهذا السر؛ استحق آدم عليه السلام سجود الملائكة، وسيأتي شرحه - إن شاء الله تعالى - وفي النار خاصية الإتلاف وهو ضد الإمساك.

والثالث: أن الطين مركّب من الماء والتراب، والماء مطية الحياة كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:30]، والتراب مطية النفس النامية، فعند ازدواجهما تتولد النفس الحيوانية؛ وهو الروح الحيواني وهو مطية الروح الإنساني للمناسبة الزوجية بينهما، وفي النار ضد هذا من الإهلاك والإفساد، ثم تقول: شرف سجود آدم وفضله على الساجدين لم يكن لمجرد خواص الطبيعة، وإن شرف طبيعته لشرف التخمير من غير واسطة لقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75]، ولقوله ﷺ: «خمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا»[1].

وإنما كانت فضيلته عليهم لاختصاصه بنفخ الروح للشرف، بالإضافة إلى الحضرة فيه من غير واسطة، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]، ولاختصاصه بالتجلي فيه عند نفخ الروح كما قال ﷺ: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»[2]؛ ولهذا السر ما أمر الملائكة بالسجود بعد تسوية قالب آدم من الطين بل أمرهم بالسجود بعد نفخ الروح فيه كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: 71- 72]، وذلك؛ لأن آدم عليه السلام بعد أن نفخ فيه الروح صار مستعدًا للتجلي؛ لما حصل فيه من لطافة الروح ونورانيته التي يستحق بها التجلي ومن إمساك الطين الذي يقبل الفيض الإلهي ويمسكه عند التجلي فاستحق سجود الملائكة؛

---

(1) أخرجه ابن وهب فى كتاب القدر (1/ 36، رقم 10)، وأخرجه ابن سعد (1/ 27) وقال عن سلمان أن ابن مسعود فذكره . وابن جرير فى تفسيره (3/ 225)، وأبو الشيخ (5/ 1546)، وأبو نعيم (8/ 264)، وقال عن سليمان فذكره . والدارقطني فى العلل (5/ 338، رقم 931).

(2) ذكره حقي في تفسيره (7/ 248).

لأنه صار كعبة حقيقة تفهم ـ إن شاء الله ـ وتنفع، فلا تكون كالشيطان أعمى عند مطالعة هذه الحقائق، والمتكبر عن الإيمان بها فتخرج من جنة هذه المعارف وروضة هذه العواطف وتخاطب أيضًا بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف:13]، وإنما لزمه الهبوط والخروج من معارف العز ومنازله؛ لأنه اعتصم بيد الإباء والاستكبار في جبل الأنانية بقوة الخيرية، فاستخرج وهبط من عالم العلو إلي عالم السفل، وصار من الصاغرين بعد أن كان من الكافرين، فلما ابتلي بالقضاء وطرد من الجوار أخذ في النوح وألبس من الروح ورضي بالعباد واطمأن بالحياة.

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾ [الأعراف: ١٤ – ١٨].

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف:14] فأجابه بما عليه ولم يجيبه بما له، فأجابه بأن يكون من المنظرين، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْـمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف:15]؛ ليكون هذا في الإنظار والإمهال وبالأعلمية ما يزيد في شقوته وشدة عذابه وإبعاده، ولم يجيبه بألّا يذيقه ألم الموت، قال تعالى: ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص:81] في موضع آخر.

ثم أخرج منه ما كان مودعًا في حق قهره من الجهالة والضلالة بالأرض والاعتراض علينا، أو مكايده مع الحق تعالى حتى قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْـمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:16]، فلم يكن حالة الإغواء إلى الله منه من نظر التوحيد ورؤية الأمور من الله تعالى؛ وإنما كان إثباتًا للحجة ومعارضة مع الله في الإغواء كما قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:82]، وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾، فلو كان من نظر التوحيد لم يكن اللعين مدّعيًا الإغواء والإضلال، ولو كان واقعًا عن الصراط المستقيم عن قوله: ﴿صِرَاطَكَ الْـمُسْتَقِيمَ﴾ حقيقية الذي هو الصراط إلى الله لم يتعد عن الصراط المستقيم بنفسه ولم يقعد الآخرين بل يدعوهم إليه، ولكن من نتائج القهر يجري الله على بعضهم أفعالاً وأقوالاً تكون هي حجة عليهم.

ثم أخبر عن بيان [جهات عداوتهم] بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف:17]، الإشارة فيها: أن الشيطان لا يأتي من جهة من الجهات إلّا وللنفس الإنسانية بقية من الصفة [التي] تتعلق بتلك الجهة، واعلم أن للنفس في كل جهة من الجهات حظوظًا مختلفًا بحسب صفاتها؛ ولذلك فسر كل واحد من المفسرين قوله: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ بمعنى آخر نظرهم على بيان صفة النفس التي هي مدخل الشيطان فقال: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قِبل الحسد فأزين لهم الحسد على الأكابر من العلماء والمشايخ في زمانهم؛ ليطعنوا في أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم وتنكرون عليهم فيضلوا ويعلموا الخلق بإغوائهم إظهارًا للخيرية لأنفسهم، كما كان حال إبليس مع آدم ﷺ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ومن خلفهم من قِبَل المعصية، فآمرهم؛ ليطعنوا في المتقدمين من الصحابة والتابعين والعلماء والمشايخ الماضيين ويقدحوا فيهم ويبغضوهم ويفتروا عليهم ويرون عليهم ما لا يرون.

﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأعراف:17] من قِبَل إفساد ذات البيِّن؛ فأفسد ما بينهم وبين الإخوان في الدين وألقى بينهم العداوة والبغضاء، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف:17]، من قِبَل ترك النصيحة مع أهاليهم وأقاربهم وأصدقائهم؛ فأمرهم بالخيانة معهم وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمكر والخداع مع عامة المسلمين وفي معاملاتهم.

وأيضًا: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قِبَل الرياء والعجب وأفسد عليهم طاعاتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من قِبل الصلف، فاذكرهم ما صدر منهم من أعمال البر في الأيام السالفة؛ ليباهوا بها على الإراءة ويتفاخروا بها رياء وسمعة فيحبط أعمالهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من نيل الادعاء فأزين لهم الدعاوي كالأحوال والمقامات من غير المعاني وآمرهم بإظهار حالات في مواجيد لم تكن فيهم، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من قِبل الافتراء، فسوّل لهم المرئيات بالوقائع والكشوف والمقامات الكاذبة.

وأيضًا: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قِبل الاعتراض للمريدين، فأملي لهم ليعترضوا من [أنفسهم] ومرتبتهم، فأقطع طريق الإرادة والطلب، وأخرجهم من مواهب ولايتهم

وفوائد محبتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من قِبل التفريق فأخرجهم من صحبة المشايخ بتسويل الحجج و[الشبهات] والبيّنات وتحصيل العلوم لأظفر عليهم عند الفرقة ما لم أظفر عليهم في الصحبة، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل الارتباط، فحرضهم على سوء الأدب في صحبة المشايخ وترك الحشمة والتعظيم والتوسع في الكلام والمزاح؛ لإنزالهم عن رتبة القبول ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من قِبل المخالفة فأمرهم بترك أوامر المشايخ ونواهيهم لأوردهم به موارد الرد، وأهلكهم بسطوة غيرة الولاية وردها بعد القبول.

وأيضًا: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أثوّر عليهم أهاليهم وأولادهم؛ ليمنعوا عن طلب الحق ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أثور عليهم آباءهم وأمهاتهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أثور عليهم أحبابهم وأصدقائهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أثور عليهم أعداءهم وحسادهم؛ ليمنعوه عن الطلب باللطف والعنف، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:17]؛ لنعماتك التي أنعمت بها عليهم من السعادات الدنيوية والأخروية، فإنهم قبلوا مني تمويهات ووساوس في الإضلال لمّا كانت موافقة لنفوسهم وملائمة لطباعهم، فكفروا بنعمك وخالفوا طاعتك فانسلخوا عنها.

فلما ادّعى اللعين هذه الدعوى وأخذ في تحقيق المعنى، قال الله تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف:18]؛ أي: غاية الذم ونهاية الطرد فإنك عزمت على غاية الذنب ونهاية السر.

ثم قال تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:18]؛ يعني: من الذين تأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فيقبلوا منك ما أمرتهم، ويتبعوا من بني آدم من يتبعك في الإضلال والإغواء ومن قبلوا منهم كما قبلوا منك ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:18].

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 19 – 23].

ثم أخبر عن إعزاز آدم وإسكانه في الجنة بعد طرد إبليس ولعانه بقوله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:19] إلى: ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:22]، الإشارة فيها: أن الخطاب مع آدم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ إنما كان خطاب الابتلاء والامتحان، والنهي نهي التعزز والدلالة كأنه قال: يا آدم أتيحت لك الجنة وما فيها إلا هذه الشجرة، فإنها شجرة المحبة، والمحبة مطية المحنة، اسكن أنت وزوجك الجنة واسكن إليها وإنما خلقتها لتسكن إليها، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف:19] من أنهار الجنة وأشجارها ونعمتها بنعيمها وأزهارها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف:19] شجرة المحبة احترازاً عن المحنة.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:19] على أنفسكما؛ لأن للمحبة نارًا ونورًا، فمن لم يرد نارها لم يجد نورها، ومن يرد نورها تحترق بنارها منه أنانيته وما هو به هو فيبقى بهوية ربه، فهاهنا يجد نور المحبة ويتنور به كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] فشجرة المحبة غرسها الرحمن بيده لأجل آدم كما خمر طينة آدم بيده لأجل هذه الشجرة، وإن منعه منها كان تحريضًا على تناولها، فإن الإنسان حريص على ما منع ولم تكن الشجرة طعمة لغير آدم وأولاده، فلمَّا ابتلى آدم بهذا الخطاب وامتحن جوهره بترك هذه الطعمة المخصوصة والالتفات بغيرها؛ ليظهر أنه خلق لها وهي خلقت له سكنت نفس آدم إلى حواء إلى الجنة وما فيها إلا إلى الشجرة المنهي عنها؛ لأنها كانت مشتهى لقلب أعداؤه فما كان للنفس فيها حظ، ولم يسكن قلبه إلى شيء منها إلا إلى هذه الشجرة ولا يزال يزداد توقانه إليها فيقصدها ويمنعه النفس عنها وتمسك في منعه بحبل النهي.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف:19]؛ حتى أعنى القلب، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾[1] [الأعراف:20] من

(1) قال العارف التستري (1/ 154): الوسوسة ذكر الطبع، ثم النفس، ثم الهم والتدبير، ووسواس العدو =

الكمال والنقصان فيهما، ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف:20]؛ يعني: إذ لا يتناولان من شجرة المحبة يكونان من أهل العلو كالملكين في زوايا الجنة، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:20]؛ يعني: الذي هم خلقوا في الجنة كالحور ورضوان خزَّان الجنان وغيرهم، فأثر بعض هذا في قلب آدم وتنسم منه رائحة الأنس بمسام الروح؛ إذ كان قلبه وروحه متعطشين إلى دلال ذلك الجمال وكان ورد وقتهما ما قيل:

واللهَ ما طلعت شمس ولا غربت	إلا وأنت مني قلبي ووسواسي
ولا جلست إلى قوم أحدثهم	إلا وأنت حديثي بين جلاسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش	إلا رأيت خيالاً منك في الكاس(1)

فتساكر القلب وغاب النفس في عزم على التناول فداخله خوف البشرية ولامته النفس اللوامة فكاد القلب أن يهن في الغرم وتذكر النهي فسقاه إبليس كأس القسم شراب ذكر الحبيب.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21]، فسكر القلب واشتد شوقه وعرف أن هذا كلام حق وصدق يريد به باطل، وإن لم تشعر نفسه بهذه الحقيقة، ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾(2) [الأعراف:22]؛ أي: فغرهما بالله وشكرهما بذكره وشوقهما إليه، فلمَّا استغرق آدم في بحر الشوق تاق إلى الذوق فنسي النهي وتناول الشجرة، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف:22] فلمَّا ذاقا المحبة وجد ذوقها، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف:22]؛ أي: بدت لهما نار المحبة قبل نورها، وهي التي تبدي سوآتها للمحنة والفرقة بين الأحبة في

على ثلاث مقامات: فالأول يدعوه ويوسوس له، والثاني يأمن إذا علم أنه يقبل، والثالث ليس له إلا الانتظار والطمع، وهو للصديقين.

(1) الأبيات لإبراهيم يحيى العاملي، من بحر البسيط.

(2) أي: بسبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذبا وكان اللعين أول من حلف بالله كاذبًا، وظن آدم أن أحداً لا يحلف بالله كاذبا فاغتر به، فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكن عظمة اسم الله تعالى في قلبه، تفسير حقي (4/ 121).

البداية، وتظهر كمالات القربة والوصلة في النهاية، وهي ما روي عنهما، فأخرجت منهما التاج والإكليل والحلة وكل حلي وزينة دنيوية وأخروية، وأخرجا من الجنة ونادى كل شجر وورق وثمر على آدم بلسان الملامة ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه:121].

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:22]؛ أي: لاشتمال فائدة المحبة كانا يجعلان كل نعيم الجنة على ناديها، فكلما التهبت احترقت بلظى نار حبة الوصلة بينهما، ونعق غراب البين بالفرقة بينهما، فراحت الراحة وأبدل الروح بالنوح، فقال:

فبينما نحن في لهو وفي طرب بدا سحاب فراق صوبه هطل

وإن من كنت مشغوفًا بطلعته مضى وأقفر منه الرسم والطلل

فالصبر مرتحل والوجد متصل والدمع منهمل والقلب مشتغل

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف:22] نداء الكبرياء والعزة، ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:22]، فإنه تذل العزيز وتزيل النعيم وتذهب بالطرب وتأتي بالتعب ﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:22]؛ أي: هو مبين بالعداوة لكما صداقة مخفية تظهر ولو بعد حين، فلما ناداهما بالعتاب حل بهما من سطوة الخطاب ما حل:.

واخَجلَتي مِن وُقوفي وَسطَ دارِكُم وَقولِ واشيكُمُ مَن أَنتَ يا رَجُلُ

وانغسل بماء الخجل منهما رعونات البشرية، ولوث العجب وأنحرقت حجب الأنانية، وانكشفت ألطاف الألوهية فرجعا عما كانا عليه، وطمعًا فيما لديه عن إنابة أنانيتهما بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23] إلى ﴿تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:25]، الإشارة فيها: أن آدم عليه السلام لمّا استغرق في لجة بحر المحبة، وضاقت عليه الأرض بما رحبت قد علم أنه لا ملجأ إلا إليه وكذا حواء رجعا إليه.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23] بأنا تناولنا من شجرة المحبة فوقعنا في شبكة المحنة تفنينا عن الوصال ولا المحنة تفنينا بالزوال، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ [الأعراف: 23] بنوال الوصال، ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بتجلي الجمال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، الذين خسروا الدنيا والعقبى ولم يظفروا بالمولى، فأدركتهما العناية واستقبلتهما

الهداية، وأمرا بالصبر على الهجر ووحدا بالوجد بعد الفقر.

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف: 24 – 28].

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾ [الأعراف:24]؛ يعني: للنفس والقلب والروح في أرض البدن مقام وتمتع في الشريعة باستعمال الطريقة للوصول إلى الحقيقة، ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:24]، تصير النفس فيه مطمئنة فتستحق لخطاب: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، من الهبوط وتدفع بعد السقوط كما قيل:

إِنَّ الأُمُورَ إِذا انْسَدَّتْ مَسالِكُها فالصَّبْرُ يَفْتَحُ منها كُلَّ ما ارْتَتَجا
لا تَيْأَسَنَّ وإِن طالَتْ مُطالَبَةٌ إِذا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجا
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بحاجَتِهِ ومُدْمِنِ القَرْعِ للأَبْوابِ أَنْ يَلِجا

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ [الأعراف:25]؛ أي: في المحبة، وصدق الطلب، وقرع باب الفزع بالصبر والثبات على العبودية، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ [الأعراف:25] في طلب الحق على جادة الشريعة بإقدام الطريقة، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:25] إلى عالم الحقيقة يدل عليه قوله ﷺ: «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تحشرون»(1).

ثم أخبر عن منّه على الناس باللباس بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف:26] إلى قوله: ﴿ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:28]، الإشارة فيها: أن لكل جزء من أجزاء الإنسان لباسًا يواري سوءة ذلك الجزء من ظاهره وباطنه، فقال

(1) تقدم تخريجه.

تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ فهو لباس الشريعة فيواري سوءة الأفعال القبيحة بأحكام الشريعة في الظاهر سوءة الصفات الذميمة النفسانية والحيوانية بآداب الطريقة في الباطن.

﴿وَرِيشًا﴾ [الأعراف:26]؛ يعني: وليكون الشريعة زينة وجمالاً لكم في الظاهر والباطن، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ [الأعراف:26]، والتقوى: هو لباس القلب والروح والسر الخفي، فلباس القلب من التقوى: هو الصدق في طلب المولى فيواري به سوءة الطمع في الدنيا وما فيها، ولباس الروح من التقوى: هو محبة المولى فيواري به سوءة التعلق بغير المولى، ولباس السر من التقوى: هو رؤية المولى فيواري بها رؤية غير المولى، ولباس الخفي من التقوى: إبقاؤه بهوية المولى فيواري بها هويته وهوية غير المولى؛ ولهذا قال: ذلك خير؛ لأن لباس البدن بالفتوى وهو شريعة إلباس القلب بالتقوى وهو حقيقة.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ [الأعراف:26]؛ أي: أنزل الشريعة والحقيقة مما يدل عليه المولى، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:26]؛ لكي يذكروا عزمهم عن لباس الوجود في عالم الشهود، ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف:27] بالدنيا وما فيها ولا يضلنكم عن سبيل الله بإتباع الهوى، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:14]، فيخرجكم عن جنة الصدق في طلب الحق، ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف:27] من الشرع وذلك نهيهما عن شجرة المحبة ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف:27] مخالفة وما علما أن فيها هذه الصفة ومن جملة سوءاتهما كل كمال ونقصان كان مستورًا فيهما فأراهما بعد تناول الشجرة، ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:27]؛ يعني: من الروحانيين الذين لا صورة لهما في الظاهر، فإنهم يرون بنظر الملكوتي الروحاني من الإنسان بعض الأفعال التي تتولد من أوصاف البشرية كما رؤوا في آدم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30] من حيث البشرية التي هي منشأ الصفات الحيوانية، وإنكم محجوبون بهذه الصفات عن رؤيتهم لا من حيث الروحانية التي هي منشأ العلوم للأسماء والمعرفة، فإنهم لا يرونكم في هذا المقام وأنتم ترونهم بنظر الروحاني بل النور الرباني.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:27]؛ أي: خلقناهم مستعدين لتولية أمور أهل الغفلة والطبيعة الذين لا إيمان لهم بالله وطلبه ولا بالوصول إليه؛ ليزينوا لهم زخارف الدنيا وشهواتها، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ [الأعراف:28] وهي طلب الدنيا وجمعها والحرص على جمعها، فإن أفحش الفواحش حب الدنيا؛ لأنه رأس كل خطيئة؛ والمعنى: إذا وقع أهل الغفلة في طلب الدنيا وزينتها والتمتع بها بتلقين الشيطان وتدبيره وتزينه، فيدعوهم داعٍ إلى الله وطلبه وترك الدنيا وطلبها.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف:28]؛ يعني: على محبة الدنيا وشهواتها، ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:28]؛ أي: بطلبها بالكسب والحلال، ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:28]؛ أي: لا يأمر بحب الدنيا والحرص على جمعها، وإنما يأمر بالكسب الحلال بقدر الحاجة الضرورية لقوام القالب بالقوة واللباس؛ ليقوم بأداء حقوق العبودية، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:28]؛ أي: تفترون على الله ما لا تعلمون آفته ووبال عاقبته، ولا تعلمون أن ذلك من فتنة الشيطان وتزينه وإغوائه.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: 29 – 31].

ثم أخبر عن أمر الحق أنه بالحق بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[1] [الأعراف: 29] إلى ﴿مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:30].

والإشارة فيها: أن القسط في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾؛ هو القسط إلى الله

---

(1) القِسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق نفسك؛ فالعدلُ في حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير في المأمور بِهِ أو إقدامٍ على المنهيِّ عنه، ثم ألا تدخِّر عنه شيئاً مما خوَّلك، ثم لا تُؤثِرَ عليه شيئاً فيما أحلَّ لك، وأمَّا العدل مع الخلْق - فعلى لسان العلم - بذلُ الإنصاف، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف. وأمَّا العدل في حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نَفَس. تفسير القشيري (2/ 362).

تعالى بجميع أسبابه النازلة من الله ﷻ ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 29]؛ يعني: استقيموا في التوجه إلى الله عند كل صلاة وطاعة ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف:29]؛ أي: اطلبوا منه ولا تطلبوا من غيره شيئًا، فإن المخلص من يكون مقصده ومطلوبه ومحبوبه في كل حال من الأحوال قبل القيام بالطاعة وعند القيام بها وبعد الفراغ منها.

فإنكم ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:29]؛ يعني: كما بدأكم منه تعودون إليه إما باللطف، وإمّا بالقهر، فأما أهل الصدق فيعودون إليه على قدم الإخلاص، وصدق التوجه إلى الله تعالى وعدم الالتفات إلى ما سواه وهو قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ [الأعراف:30]، وأهل النار يسبحون في النار على وجههم، فإنهم توجهوا إلى الدنيا وزخارفها على قدم الشرك فضلوا عن سبيل الله وكانوا ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف:30]؛ وذلك لأن من سيرتهم ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف:30]، فإن الشياطين يتولون أمورهم على وفق طبعهم فيخرجونهم من نور الطاعة والعبودية إلى ظلمات الشرك والطبيعة فيغيرون بذلك، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:30] فيؤديهم الحسبان دركات النيران.

ثم أخبر عن سبيل الرشاد للعباد بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] [الأعراف:31]؛ أي: عند كل طاعة ظاهرة وباطنه، فزينة الظاهر التواضع

(1) قال العارف البقلي: قال الواسطي: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ تعيّر كأنه يقول: يا بني النقص والعيب، يرد ذلك عليهم حتى لا ينظروا إلى أنفسهم، ولا يلتفتوا إليها.

وقال الأستاذ: على موجب الإشارة زينة العبد بحضور الحضرة ولزوم السدة والاستدامة لشهود الحقيقة.

ويقال: زينة نفوس العابدين آثار السجود، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود، فالعابد على الباب بنعت العبودية، والعارف على البساط بحكم الحرمة، فشتان بين عبدٍ وبين عبدٍ.

وقال: زينة النفوس مدار الخدمة، وزينة القلوب حفظ الحرمة، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة. ويقال: زينة اللسان الذكر، وزينة القلب الفكر. ويقال: زينة الظاهر السجود، وزينة الباطن الشهود. ويقال: زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات، وزينة القلوب دوام المواصلات من حيث المشاهدات، وأذكر هذه الزينة التي هي آثار قربة على أهل محبته الذين يلبسون

والخضوع، وزينة الباطن الانكسار والخشوع، وقد يقال: زينة نفوس العابدين آثار السجود، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود، فالعابد على الباب بنعت العبودية والعارف على البساط بحكم الحرية فشتان بين عبد وعبد، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الأعراف:31]؛ أي: وكلوا مما يأكلون أهل البيان في مقام العندية، واشربوا مما يشربون، كما قال ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقين»(1).

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31]، والإسراف نوعان: إفراط، وتفريط، فالإفراط: ما يكون فوق الحاجة الضرورية، أو على وفق الطبع والشهوة، أو على الغفلة، أو على ترك الأدب بالشره، أو على غير الذكر، والتفريط: أن ينقص من قدر الحاجة الضرورية ويقصر في حفظ القوة والطاقة للقيام بحق العبودية، أو يبالغ في أداء حق الربوبية بإهلاك نفسه فيضيع حقها، أو فيضيع حقوق الربوبية بحظوظ نفسه، أو يطبع حقوق القلب والروح والسر الذي هو مستعد لحصولها بحظوظ النفس؛ فالمعنى: لا تسرفوا لا تضيعوا حقوقنا ولا حقوقكم بحظوظكم.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: 32 - 33].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾

لباس أهل البسط والأنس والانبساط من لبن الحب الذي لا يليق إلا بعشاق الله وعرائس بساط الله، ويأكل أكل الحتانيين من أطيب المباحات في مقام الرفاهية غير بعد ذلك أهل إنكارهم الذين ينكرون أولياء الله بلبس الفاخرات، وأكل الطيبات في مقام المشاهدات التي هي أعياد العارفين والموحدين.

(1) أخرجه الإمام البخاري (2/ 694، رقم 1865)، والإمام مسلم (2/ 774، رقم 1103) . وأخرجه أيضًا: مالك (1/ 301، رقم 668)، وعبد الرزاق (4/ 267، رقم 7754)، وابن أبي شيبة (2/ 331، رقم 9595)، وإسحاق بن راهويه (1/ 212، رقم 168)، والإمام أحمد (2/ 231، رقم 7162)، والدارمي (2/ 14، رقم 1703)، وأبو يعلى (10/ 475، رقم 6088)، وابن حبان (8/ 342، رقم 3576)، والبيهقي (4/ 282، رقم 8158).

[الأعراف:32]، يشير إلى أن من يمنعكم من كمالات أخرجها الله من غيب الغيب لخواص عباده من الأنبياء والأولياء، ومن حرَّم عليكم نيل هذه الكرامات والمقامات، فمن تصدى لطلبها وسعي لها سعيها في مباحة له من غير تأخير ولا قصور، وإضافة الزينة إلى الله تعالى؛ لأنه أخرجها من خزائن ألطافه وحقائق أعطافه، فزين الأبدان بالشرائع وآثارها، وزين النفوس بالآداب وأقدارها، وزين القلوب بالشواهد وأنوارها، وزين الأرواح بالمعارف وأسرارها وبالطوالع وأثمارها، وزين الظواهر بآثار التوفيق، وزين البواطن بأنوار التحقيق، وزين الظواهر بآثار الجود، وزين الباطن بأنوار الشهود، وزين الظواهر بآثار الجود، وزين البواطن بأنوار الوجود والطيبات من الرزق، إن أرزاق النفوس بحكم أفضاله، وأرزاق القلوب بموجب إقباله، والطيبات من الرزق على الحقيقة ما لم يكن مشوبًا بحقوق النفس وحظوظها، ويكون خالصًا من مواهب الحق وحقوقه.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف:32]؛ أي: هذه الكرامات والمقامات لهؤلاء السادة في الدنيا مشوبة بشوائب الآفات النفسانية، وكدورات الصفات الحيوانية، ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:32] من هذه الآفات والكدور كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:43]، ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأعراف:32] أي: نبين الباطل ونظهر بشواهد الحق، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:32] الحق والباطل ونبين لهم الحق.

ثم أخبر عن ما حرم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ [الأعراف:33]، الإشارة فيها: أن أعمال الظواهر وأعمال البواطن معتبرة في طلب الحق تعالى والسلوك إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [1]، والفواحش: ما يقطع العبد عن طريق الرب ويمنعه عن السلوك إليه فيه، ففاحشة العوام: ما ظهر منها ارتكاب المناهي وما بطن خطورها بالبال، وفاحشة الخواص: ما ظهر منها لأمة كل زمان مستحقة

---

(1) مَا أحدٌ أغيرَ مِنَ الله، ولذلكَ حرَّم الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنهَا وما بَطَنَ، وما أحدٌ أحبَّ إليهِ المدحُ من الله، ولذلكَ مدَحَ نفسَهُ، وما أحَدٌ أحبَّ إليهِ العذرُ مِنَ الله تعالى، ولذلِكَ أرسَلَ الرّسلِ وأنزَلَ الكُتبَ». البحر المديد (2/ 20).

لدخول النار.

﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف:38]، وإنها قدم الجن على الإنس؛ لتقدمهم عليهم في الخلقة، وذلك أن الله تعالى لما خلق الجن جعل منه حكمة؛ فمنهم: مؤمن، ومنهم: كافر، فلمّا استولى أهل الكفر منهم على أهل الإيمان وغلبوهم بالحرب والقتال حتى استأصلوهم بعث الله إليهم جندًا من الملائكة، قيل: كان رئيسهم إبليس، فسلطهم الله عليهم حتى أهلكوا جميعهم، ثم خلق الله تعالى آدم عليه السلام بعدهم فخلق منه ذريته فكان منهم كافر: كقابيل، ومنهم مؤمن: كهابيل إلى أن كان في كل زمان منهم أمة كافرة مستحقة لدخول النار، وأمة مؤمنة مستحقة لدخول الجنة حتى الآن وإلى انقراض العالم؛ لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:2].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ*فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ [الأعراف:29-30]، وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله الله»(1).

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (39) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)﴾ [الأعراف: 38 - 41].

فقال في الأزل للأمة المستحقة للنار في كل زمان: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ [الأعراف:38]؛ أي: في الأزمنة الماضية على الجن والإنس، فالمخاطبون بهذا الخطاب والمأمورون بهذا الأمر معنيون في علم الله، معدودون وهم غير مخلوقين بعد، فلا

(1) تقدم تخريجه.

يزيدون ولا ينقصون ولا يتجاوزون عمّا أمروا وهم يدخلون النار على أقدام الأعمال التي هي الموجبة للنار التي سبقت الأمة المتقدمة، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ [الأعراف:38] في أعمال أهل النار ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:38]؛ يعني: الأمة التي سبقت إلى هذه الأعمال قبلها، ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف:38]؛ أي: حتى تداركوا الكل في الأعمال الموجبة للنار واجتمعوا في النار، ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ [الأعراف:38]؛ أي: التابعة للمتقدمة عليها في كل زمان، ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف:38] عن سبيل الحق وقطعوا علينا طريقنا إليك بأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وسنتهم التي سنوها.

﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف:38]؛ يعني: مضاعفًا مما تؤتينا من العذاب؛ لأنهم سنوا هذه السنة السيئة، وقال ﷺ: «من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(1) ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف:38] من العذاب؛ يعني: للمتقدمين والمتأخرين؛ لأن المتقدم متأخر أسن سنة، وكل متأخر هو متقدم لمتأخر به فيسنون بسنته، ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:38] أيها المتأخرون أنكم متقدمون بمتأخريكم، ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [الأعراف:39]؛ لأنكم سننتم لأخراكم كما سننا لكم وكنتم قادتهم كما كنا قادتكم، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:39] من السنة السيئة ولا تكسبون من السنة الحسنة التي سنها الأنبياء - عليهم السلام - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:40]؛ وهي السنن الحسنة المنزلة على الأنبياء، وما أظهره الله تعالى على الأولياء من الكرامات والعلوم اللدنية فأنكروها.

﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف:40]؛ أي: تكبروا عن قبولها والإيمان بها، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف:40]؛ أي: أبواب سماء القلوب إلى الحضرة، ﴿وَلَا

(1) رواه أخرجه الطيالسي (ص 92، رقم 670)، وأحمد (4/ 357، رقم 19179)، ومسلم (4/ 2059، رقم 1017)، والترمذي (5/ 43، رقم 2675)، والنسائي (5/ 75، رقم 2554)، وابن ماجه (1/ 74، رقم 203)، وابن حبان (8/ 101 رقم 3308) وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (2/ 350، رقم 9803)، والطبراني (2/ 343، رقم 2437)، والبيهقي (4/ 175 رقم 7530).

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:40] جنة القربة والوصلة، ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ [الأعراف:40] جمل النفس المتكبرة، ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:40]، وهو مدخل الطريقة التي تربي النفوس الأمارة وتزكيها؛ لتصير مطمئنة فتستحق بها خطاب: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]؛ فالمعنى: النفس المتكبرة لمَّا صارت كالجمل؛ لتكبرها لا تصلح لدخول جنة الحقيقة إلا بعد تزكيتها بأحكام الشريعة وآداب الطريقة؛ حتى تصير بالتربية في إزالة الصفات الذميمة وقطع تعلقات ما سوى الله أدق من الشعرة بألف مرة فتلج في سم خياط الفناء فتدخل الجنة جنة البقاء، فافهم جدًّا.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:40] الذين أجرموا على أنفسهم الضعيفة اللطيفة حتى صارت من الأوزار كالجمل، بأن يجعل لهم من جهنم المجاهدة والرياضة فراشًا وهو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:41]؛ يعني: من مخالفات النفس وقمع الهوى يكون فراشهم ولحافهم، حتى تحيط بهم فتذيبهم وتحرق عنهم أنانيتهم مع أثقال أوزارهم ليستحقوا دخول الجنة، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:41]؛ يعني: بهذه الطريقة تضع عنهم أوزارهم وترد مظالمهم في الدنيا؛ ليردوا القيامة مستعدين لدخول الجنة، ومن لم يجز في الدنيا بهذه الطريقة فيجزى في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:21].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف: 42 – 46].

ثم أخبر عن أحوال أهل الجنة بعد أهوال النار بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ﴾ [الأعراف:42] إلى قوله: ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:45]، والإشارة فيها: أن الله تعالى بفضله وكرمه خفف عن أنفس أهل الغاية الإيمان والطاعة فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف:42]، رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة الإيمان والعمل فسيرنا عليهم العبودية بحسن التوفيق.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:42]؛ أي: الذي خلقناهم للجنة مستعدين للسير إليها بأقدام الطاعات، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:42] إذ خلقوا لها، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:43]؛ أي: بنور قذفناه في قلوبهم وهو نور الإيمان فشرحنا صدورهم للإسلام بضوئه، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ من ظلمة صفات البشرية وهي: الغل، فأخرجناهم من الظلمات إلى النور، وبدَّلنا أخلاقهم الدنيئة الذميمة بالأخلاق العلية الحميدة، وطهرنا قلوبهم بالإيمان والعمل الصالح، وأرواحهم بماء العرفان، وأسرارهم بشراب طهور تجلي صفات الجمال وجعلناهم ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47]؛ أي: إخوانًا في الله على سرر من السرور بالله، متقابلين لألطاف الله وشهود أنوار الغيب وكشوف أسرار الحق تعالى.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف:43]؛ أي: تجري من تحت أسرارهم أنهار الحكمة وعيون المعرفة، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ [الأعراف:43] اعترافًا منهم وإقرارًا على أنفسهم بأنهم ينالوا ما نالوا، ولم يصلوا إليه من جزيل تلك العطيات وعظيم تلك المواهب والرتب والمقامات بجهدهم واستحقاق فعلهم؛ وإنها ذلك جمع ابتداء فضل منه ورحمة، ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا﴾ [الأعراف:43] في أسرارهم: ﴿أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف:43] يا أهل المحبة من أهل السهو والغفلة، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:43] وتطلبون ما تحبون في متابعة الحبيب فوجدتم ما طلبتم، وإنهم لا يعملون بما يعلمون ويطلبون ما يحبون من الدنيا وشهواتها فيجدون دركات السفلى ونهاية البعد.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:44]؛ أي: أرباب المحبة، ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف:44]؛ يعني: أهل نار القطيعة، ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف:

44]؛ أي: فيما قال: ألا من طلبني وجدني، ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: 44]؛ أي: فيما قال: من يطلب غيري لم يجدني، ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف:44] فأجابوهم: بل وجدنا حقًا، ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [الأعراف:44] العزة والعظمة، ﴿بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:44] الذين وضعوا استعداد الطلب في غير موضع مطلوبه، وصرفوه في غير مصرفه، ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ [الأعراف:45]؛ أي: هم الذين يصدون القلب والروح، ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأعراف:45] وطلبه، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: 45]؛ أي: يصرفون وجوههم إلى الدنيا وما فيها، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 45]؛ أي: وهم منكرون على أهل المحبة فيما يطلبون فيما تأخر عن حسهم وهم يطلبون ما يدركون بالحواس الظاهرة دون ما في الآخرة.

ثم أخبر عما بين الفريقين من الحجاب بقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: 46] إلى قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:49]، الإشارة فيها: أن بين أهل النار وأهل الجنة حجابًا وهو من أوصاف البشرية والأخلاق الذميمة النفسانية، فلا يرى أهل النار أهل الجنة من وراء ذلك الحجاب، وبين أهل الجنة وأهل الله وهم أصحاب الأعراف حجابًا وهو من أوصاف الخلقية والأخلاق الحميدة والروحانية، فلا يرى أهل الجنة أهل الله تعالى من وراء ذلك الحجاب، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾(1) [الأعراف:46] من آثار نور القلب وظلمته، وسميت

---

(1) إن لله عبادًا في الدنيا قلوبهم تطير في الملكوت، وأرواحهم تطير في أنوار الجبروت، وعقولهم تستشرف على الأسرار، وأسرارهم تطلع على الأنوار، فيرون بنور الله بالله من العرش إلى الثرى، ويعرفون جميع الخلائق بسمات البعد والقرب التي تظهر من وجوههم، وهي منقوش خاتم السعادة والشقاوة الذي لا يقرأه إلا عارف رباني، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وهؤلاء على أعراف ذروة شرفات الحضرة يوم القيامة، مطلعون على أحوال الدارين ينظر إليهم أهل الجحيم فيحتملون برؤيتهم أثقال العذاب، وينظر إليهم أهل الجنة فيستزيدون من وجوههم سرور العيش، وهم يشفعون على كل مقصر، وينعمون على كل متوفر والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام منهم عليهم زيادة قربه أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ يعني أهل الأعراف من أعظم شأنهم عند الله في حضرته وقفوا شفاعة الخلق، وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة، ويعيشون مع عوام الجنة كالملوك يجلسون مع أهل الدناءة، لتطييب قلوبهم، والفرح

الأعراف أعرافًا؛ لأنها مواطن أهل المعرفة، إنما سمي الله تعالى أهل المعرفة رجالاً؛ لأنهم بالرجولية يتصرفون فيما سوى الله تصرف الرجال في النساء ولا يتصرف فيهم شيء منه؛ لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور:37].

وحيث ما ذكر الله تعالى الخواص ذكرهم برجال كقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:23]، وكقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: 108]؛ لأن وجه الامتياز بين الخواص والعوام بالرجولية في طلب الحق وعلو الهمة، فإن أصحاب الأعراف بعلو همتهم ترقوا عن حضيض البشرية ودركات النيران وصعدوا على ذروة الروحانية ودرجات الجنان، وما التفتوا إلى نعيم الدارين وما ركنوا إلى كمالات المنزلين؛ حتى عبروا على المكونات وأقاموا على الأعراف وهي: مرتبة فوق الجنان في حظائر القدس عند الرحمن، وهم مشرفون على أهل الجنة والنار، فلمّا رأوا أهل الجنة وهم ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس:55] وقد شغلوا بنعيمها على المولى، ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف:46]؛ يعني: هنيئًا لكم؛ يعني: ما أنتم فيه من النعيم المقيم والقصور.

ثم أخبر عن همة أصحاب الأعراف فقال تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف:46] نعيم الجنة ودرجاتها، ولم يركنوا إلى شيء منها فعبروا عليها ولم يدخلوها، وهم على الأعراف يطمعون في الوصول إلى الله تعالى والدخول في الجنة التي أضافها الله تعالى إلى نفسه بقوله: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:30].

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ

=

بملكهم. روى أبو الحسن الفارسي عن سهل بن عبد الله يقول: أهل المعرفة هم أصحاب الأعراف قال الله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أقاموهم لإشرافهم على الدارين وأهلها، يعرفهم الملكين كما أشرفهم على أسرار العباد في الدنيا وأحوالهم. ويقال: عرفوهم غدًا بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم، فأر موسومين بأنوار القرب وآخرون موسومون بآثار الرد والحجب.

أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: 47 - 51].

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الأعراف:47] ابتلاء ليريهم أنه تعالى من أي دركة خلصهم؟ وبأي كرامة اختصهم؟ فيعرفوا قدر ما أنعم الله عليهم، ومن هذا القبيل يكون ما سنح لأرباب الكمالات من الخواطر النفسانية، وما ابتلاهم الله بشيء من الدنيا والجاه والقبول والاشتغال بالخلق؛ ليعرفوا قدر العزلة والتجريد والأنس مع الله تعالى في الخلوات.

ففي أداء الشكر ورؤية النعمة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 47] بعد أن خلصتنا من أوصافهم وأخلاقهم ودركاتهم ومما هم فيه لا تجعلنا مرة أخرى من جملتهم ولا تدخلنا في زمرتهم، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا﴾ [الأعراف:48]؛ يعني: الفريقين، ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ [الأعراف:48] يا أهل النار من الدنيا وزخارفها للخلاص من النار، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48] عن قول: لا إله إلا الله، ويا أهل الجنة من الطاعات ورؤيتها من الخلاص من الجنة، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن السر في حقيقة لا إله إلا الله.

ثم يقول الله تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ﴾ [الأعراف:49] يا أهل الجنة، ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف:49] من الوصول والوصال، وذلك أن من المؤمنين والعلماء بعلم الظاهر في بعض الأوقات يقولون لأهل المحبة والمعرفة وأرباب الطلب من دناءة هممهم: إن أحدًا منكم لا ينال درجة الوصول ومرتبة الوصال ويقسمون على ذلك، ويا أهل النار برحمة من دخول الجنة.

ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:49]؛ أي: الجنة المضافة إليّ في حظائر القدس وعالم الجبروت، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف:49] من الخروج منها، ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:49] على ما فاتكم من نعيم الجنة؛ إذ فزتم بشهود جمالنا ووجود وصالنا.

فاعلم أن أهل الجنة وأهل النار يرون أهل الله وهم: أصحاب الأعراف بالصورة ما داموا في مواطن الكونين، فإذا دخلوا جنة الحقيقة المضافة إلى الله تعالى في سرادقات العزة وعالم الجبروت انقطع عنهم نظرهم ونظر الملائكة المقربين، فافهم جيدًا.

وقد حكي عن أبي جعفر الأبهري أنه دخل على أبي طاهر الهمداني فقال: أين كنت فإني حضرت البارحة مع الخواص على باب الله فما رأيتك؟ ثم قال أبا طاهر: صدقت كنتَ على الباب مع الخواص، وكنتُ داخلاً مع الأخص فما رأيتني!

ثم أخبر عن مقامات الفريقين بعد تفرد حالات أهل الله بقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:50] إلى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف:53]، الإشارة فيها: أنه تعالى بعد ذكر أصحاب الأعراف وما أنالهم من الهمم العلية وأنهم لم يدخلوا الجنة وطمعوا فيها عند الله، ذكر حالة أهل الجنة وأهل النار ومعالمهم وأنهم على قدر هممهم فيها يتناظرون على ما يتفاضلون.

فقال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الأعراف:50]؛ يعني: من الطعام، فإنهم كما كانوا في الدنيا عبيد البطون حريصين على الطعام والشراب؛ حتى ماتوا على ما عاشوا فيه فحشروا على ما ماتوا عليه، وإن أهل الجنة لَمّا أطالوا الجوع والعطش في الدنيا وإنما جوعوا بطونهم لوليمة الفردوس كان اشتغالهم في الجنة بشهوات الأنفس ومضايقهم بها، ﴿قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:50]، وفي الحقيقة: إن الله حرَّمهما عليهم حين حرَّم عليهم توفيق معاملات تورثهم الجنة وما فيها، وهم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف:51]، عند عدم التوفيق للطاعة اتخذوا الدنيا وشهواتها دينًا، يعبدون الدنيا ويلعبون فيها، وباللهو يشتغلون، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف:51] وزينتها عن الله وطلبه وعن الآخرة والسعي لها، فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ [الأعراف:51]، واليوم هو يوم اللقاء.

﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف:51]؛ أي: نسوا طلبنا وطلب ما عندنا لما كان عندهم من الدنيا، ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:51]؛ يعني: بما كانوا

ينكرون على أهل كمالات الدين، ويجحدون بما أعطيناهم من الكرامات والمقامات.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 52 – 54].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ﴾ [الأعراف:52]؛ يعني: لهؤلاء المنكرين كما جئنا للمؤمنين، ﴿بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف:52]؛ أي: بقرائن مبينًا فيه من العلوم ما يكون، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:52] به ويهتدون به، فاهتدى المؤمنين به إلى الله، وضل المنكرون والجاحدون به عن الله، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأعراف:52]؛ أي: هل ينتظرون الفريقان ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف:52]؛ أي: ما تؤول إليه عاقبته في شأنهم، فأما المؤمنين فيكشف عنهم الغطاء ويرش عليهم العطاء؛ ليجدوا الشفاء من محنة البعاد، وينالوا الضياء بقرب الوداد، ويصلوا في الدنيا والعقبى؛ أي: جميل المراد، وما لأهل الجحود والإنكار إلى العزة في قسمهم إلا الذلة والافتقار، وفي الآخرة إلا العذاب الشديد في دركات النار، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:53] فإذا كشف جلال الغيب وانتفى عن قلوبهم أغطية الدين فلا بكاء لهم ينفع، ولا دعاء لهم يسمع، ولا شكوى عنهم ترفع، ولا شافع لهم يشفع، ولا دافع عنهم العذاب يدفع، ولا البلوى من دونهم تقطع، ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف:53] بإفساد استعداد نيل الكمالات، وتاهوا في تيه الضلال، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف:53] من هواجسهم النفسانية ووساوسهم الشيطانية في طلب الدنيا ومتابعة الهوى.

ثم أخبر عن عزة ربوبيته وقدرة ألوهيته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ

﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي ستة أيام﴾ [الأعراف:54]، الإشارة فيها: أن الله تعالى يعرِّف ذاته إلى الخلق بصفاته وهي: الربوبية، والإلوهية، والقادرية، والخالقية، والمدبرية، والحكيمية، والاستوائية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:54]، فيشير إلى أن الذي هو ربكم وسيدكم الذي تجب طاعته عليكم لربوبيته هو: الله المستحق للعبادة بالإلوهية، الذي خلق بالقادرية والخالقية السماوات والأرض بالمدبرية والحكيمية خلقها في ستة أيام، وإنما حصر في ستة أيام؛ لأن أنواع المخلوقات ستة وهي:

الأول: الأرواح المجردة.

والثاني: الملكوتيات، فمنها: الملائكة، والجن، والشياطين، وملكوت السماوات، ومنها: العقول المفردات والمركبات.

والثالث: النفوس: كنفوس الكواكب، ونفس الإنسان، ونفس الحيوان، ونفس النبات والمعادن.

والرابع: الأجرام والبساط العلوية. من الأجسام اللطيفة كالعرش، والكرسي، والسماوات، والجنة والنار.

والخامس: الأجسام المفردة وهي: العناصر الأربعة.

والسادس: الأجسام المركبة الكثيفة من العناصر فتصير عن خلق كل نوع منها بيوم، وإلَّا فالأيام الزمانية كونها مستحيل قبل خلق السماوات والأرض، فلما أتم خلق المكونات من الأنواع الستة استوى على العرش بعد الفراغ من خلقها استواء التصرف في العالم وما فيه التدبير في أموره من العرش إلى تحت الثرى، وإنما اختص العرش بالاستواء؛ لأنه مبدأ الأجسام اللطيفة القابل للفيض الرحمانية.

واعلم أن الاستواء صفة من صفاته تعالى لا تشبه استواء المخلوقين، كالعلم صفة من صفاته تعالى لا يشبه علم المخلوقين؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، ولو أمعنت النظر في خصوصية خلافتك عن الحق تعالى لعرفت نفسك فعرفت ربك، وذلك أن الله تعالى لَمَّا أراد خلق شخصك من النطفة المودعة في الرحم

استعمل روحك بخلافته؛ ليتصرف في النطفة أيام الحمل فيجعلها عالمًا صغيرًا مناسبًا للعالم الكبير، فيكون بدنه بمثابة الأرض، ورأسه بمثابة السماء، وقلبه بمثابة العرش، وسره بمثابة الكرسي، وهذا كله بتدبير الروح وتصرفه خلافة عن ربه، ثم استوى الروح بعد استواء من الشخص الكامل على عرش القلب استواءاً لا مكانيًا لا استواءاً مكانيًا؛ ليتصرف في جميع أجزاء الشخص ويدبر أموره بإفاضة فيضه على القلب، فإن القلب هو: القابل لفيض الروح، ثم يفيض على سائر الأعضاء، كما أن من العرش ينصب الفيض الإلهي إلى سائر المخلوقات، فالعرش مقسم فيض الحق تعالى إلى المخلوقات كلها، كما أن القلب مقسم فيض الروح إلى القالب كله، فإذا تأملت في هذا المثال تأملاً شافيًا وجدته في نفي التشبيه عن الصفات المنزهة المقدسة كافيًا، وتحققت حقيقة: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» -إن شاء الله تعالى- فيقول تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾(1) [الأعراف: 54]، يخبر عن تصرفاته في المماليك بالمدبرية عند استوائه على العرش، وفيه إشارة إلى ليل ظلمات النفس عند استيلاء صفاتها وغلبات هواها على نهار أنوار القلب،

---

(1) قال العارف روزبهان البقلي: بدأ بذكر الليل لأنه ستر الأولياء، وحجال الأصفياء، وملجأ النقباء، وخيام عرائس أهل المناجاة بلبس القبض البسط؛ لأنها ضدان ويقبض ويبسط الليل قبض العارفين، والنهار بسط المشاهدين يكون أحدهما طالب الآخر لأن وصفه الحضور والغيبة من خفاء التجلّي، ويدأ به الليل النفس، والنهار القلب، والشمس الروح، والقمر العقل، والنجوم المعلوم مسخرات في أسماء الملكوت، وهو الجبروت بأمره بقدرته الكاملة وعزّته الشاملة ومحبته القديمة التي تؤلف أرواح القدسية إلى مشاهد الأزلية، ثم إن الله سبحانه أضاف الكل إلى أمر مشيئته ونفاذ قدرته وأخرج الجميع من تكلف الحدثان وعلمه الأكوان بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الخلق فعله، والأمر صفته الخلق في الأشباح، والأمر في الأرواح بنور الخلق سبب العقول وحيرها من إدراك كنه الآيات، وبتجلّي الأمر جذب القلوب إلى عالم الصفات وعشقها بجمال الذات، ثم أثنى على نفسه حيث تقتصر الإفهام عن وصف صفاته، وتقصر الألسن عن البلوغ إلى مدح ذاته بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تقدس عن كل ما يجري على خواطر خلقه رب العالمين رب الجميع بظهور صفته في خلقه، ورب العارفين بظهور ذاته في صفته.

قال الأستاذ: في هذه الآية تعرف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهي أفعاله وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخاص بنعوته الذاتية التي هي جماله وجلاله، فشتان بين قوم وبين قوم.

وإلى نهار القلب في غلبات أنواره واستيلاء المحبة عليه.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:54]؛ عنى بالأمر الخطاب بلا واسطة، كما خاطب النار ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً﴾ [الأنبياء:69] بلا واسطة، فكانت؛ يعني: هذه العلويات مدبرات السفليات ومؤثرات فيها؛ لأنها مسخرات بأمرنا بلا واسطة، وهن واسطة بيننا وبين السفليات كتابة للقدرة وإيصالاً للتصرف، كما أن يعني حركة القلم بأمر الكاتب بلا واسطة، والكتابة بواسطة القلم تصدر عن الكاتب، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:54]، فسمي ما خلق بأمره من غير واسطة أمرًا، وما خلق بواسطة خلقًا، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾؛ أي: له القدرة والتصرف في العالمين بالربوبية ما خلق بالواسطة وما خلق بغير واسطة.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)﴾ [الأعراف: 55 - 58].

ثم أخبر عن رفع الوسائط أخذًا بالحقائق بقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:55] إلى قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:57].

الإشارة فيها: إنه تعالى لَمَّا رفع حجب الوسائط بينه وبين العباد بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أمرهم بالرجوع في الحاجات إليه، والتضرع في المناجات بين يديه، فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، والتضرع: ما يطلع عليه الخلق، والخفية: ما يطلع عليه الحق؛ أي: تضرعًا بالجوارح وخفية بالقلوب، وفيه معنى آخر: ادعوا من ربكم بربكم تضرعًا قيامًا بأداء حق العبودية وخفية بمطالعة حق الربوبية، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:55] الاعتداء في الدعاء: طلب الغير منه والرضا بها سواه، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:56] في أرض القلوب، ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:56]؛ أي: بعد أن أصلحها الله برفع الوسائط بينه وبين القلوب وفساد القلوب في رؤية غير الحق.

ويقال: من إفساد القلوب بعد إصلاحها إرسالها في أودية المنى بعد إمساكها عن متابعة الهوى، ومن ذلك الرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:56]؛ أي: لا تدعوا أحدًا غيره في الخوف والرجاء فإنه الذي يجيب ويرجى؛ لأنه الضار والنافع والمعطي والمانع والمعز والمذل، وأيضًا ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا﴾ من الانقطاع، ﴿وَطَمَعًا﴾ في الاصطناع، وأيضًا: خوفًا من الاثنينية، وطمعًا في الوحدة.

﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ﴾ [الأعراف:56] بذل هذه الملتمسات، ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] [الأعراف:56] الذين يذوقون الله في الطاعات؛ أي: يعبدونه طمعًا فيه لا منه، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:57]؛ أي: رياح العناية فينشر سحاب الهداية، ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [الأعراف:57]؛ أي: كل قلب ميت، ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ [الأعراف:57] المحبة، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:57]؛ وهي المشاهدات والمكاشفات وأنواع الكمالات، ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ [الأعراف:57] موتى القلوب من قبور الصدور، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:57]؛ أي: تذكّروا أيام حياتكم في عالم الأرواح؛ إذ كنتم تردون حياض الأنس ورياض القرب عند حظائر القدس.

ثم أخبر عن البلد الطيب بقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ الإشارة فيها: أن البلد الطيب هو القلب الحي الذي أحياه الله، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:122]؛ أي: يعامل الخلق بأنوار أخلاقه الحميدة، ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[2] [الأعراف:58]، يشير به إلى: أرض

---

(1) مصدران في موقع الحال أي خائفين من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطامعين في إجابته تفضلا وإحسانا لفرط رحمته. تفسير حقي (4/ 169).

(2) قال المحقق روزبهان الشيرازي: ألا يا أخي أرض القلوب تُنْبِتَ آزهار المواجيد ورياحين المواريد بقدر كشوف أنوار الصفات والذات، فكل قلب بذرة المحبة فنباته المشاهدة، وكل قلب بذرة الشوق فنباته الأنس والوصال، وكل قلب بذرة العشق ونباته كشوف الجلال والجمال، وكل قلب بذرة الهوى فنباته الشهوات؛ فالقلب المنور يظهر على الجوارح آثار المحبة وهي الموافقة، وكل قلب مظلم يظهر بالظاهر آثاره وهي المخالفة.

النفوس الأمارة التي لا يخرج منها إلّا الأخلاق الذميمة والأفعال الرديئة، فمن كان حيًا بنور الله ينعكس نور قلبه على نفسه، فتنورت النفس فتبدلت أوصافها بأوصافه وتلاشت ظلمتها بنور القلب فتطمئن إلى ذكر الله وطاعته، كما هو من أوصاف القلوب كقوله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، وإن كان القلب ميتًا والنفس حية فظلمات صفات النفس تطل على القلب، وتبدل صفاته بصفاتها عند استيلاء صفاتها عليه فتجعل اطمئنانه بالدنيا وما فيها.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأعراف:58]؛ أي: تصرف النفوس أوصافها إلى أوصاف القلب وأخلاقه، ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:58]؛ أي: يعرفون قدر إنعامنا وأفضالنا في تصريف أوصاف النفس إلى أخلاق القلب، وتصريف أخلاق القلب إلى أنوار

ثم أشار تعالى إلى تبديل الأخلاق ونشر الأفضال وثبوت المقامات وطيران الأحوال بالإرادة السابقة والمشيئة الأزلية المنزهة عن التغاير في التدبير، بل هو موصوف بأصل التقدير بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لقوم يعرفون المشكور قبل وجود الآلاء والنعماء، يجدونه شاكر أنعامه بنفسه فيخجلون عن شكره بعرفانهم بعجزهم عن محل شكره.

قال أبو عثمان: أسعد الطيب مثل قلب المؤمن التقي يخرج نباته بإذن ربه يظهر على الجوارح أنوار الطاعات والزينة بالإخلاص والذي حيث قلب الكافر لا يظهر منه إلا النكد والشؤم والظلمات على الجوارح من إظهار المخالفات.

وقال الواسطي: البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه أي بتوليه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا حجب عن التجلي والخطاب كذلك نصرف الآيات، كذلك تحرق الشمس طوائف من النبات وتنبتها وتغذي طوائف من النبات وتطيبها، وذلك على قدر جوهرها، كما أن بإرادة واحدة ظهرت المخالفات والموافقات.

قال بعضهم: البلد الطيب الذي طيبها بدوام الأمن وعدل السلطان.

ويقال: النسيم الساطع يدل إلى الجوهر اللازم، إن خبث الجوهر لم يطلب ما لم يحل منه وإن طاب العنصر، فالحر يحاكي أصله، والأسرة تدل على السريرة، فمَنْ صفا ساكن قلبه زكى ظاهر فعله، ومَنْ كان بالعكس فحاله بالضد.

وقال الأستاذ: وإذا زكى الأصل نمى الفرع.

قال بعضهم: هو قلب المؤمن الذي طهره الله وطيبه طهر الله الروح بهاء القربة، وطيبه بطيب الكرامة، وطهر القلب بهاء العلم، وطيب السرّ بنور المعرفة، وطهر اللسان بالصدق والذكر، وطهر الجوارح بهاء العظمة وطيبتها بنور التوفيق.

أخلاقنا فتشكروننا على ما أظهرنا من آياتنا.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 59 – 64].

ثم أخبر عن الذي خبث بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 59] إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ (1) [الأعراف:64]، الإشارة فيها: أن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ يشير إلى: قوم لهم أرض نفس خبيثة، فمن خباثتها ما نفعتها أمطار الدعوة النوحية مدة أيام حياته ألف سنة إلّا خمسين عامًا، وما أخبثها إفاضة الوعد والوعيد، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:59]؛ أي: عظيم نفعه وضره، فإن من انتفع فيه انتفع برب عظيم، فما أنجع فيهم ما أظهر من الدلالة؛ لأن المحروم لا تنجيه الدلالة من الضلالة.

﴿قَالَ الْـمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف:60] نسبوه إلى الضلالة؛ لأنهم نظروا إليه بنظر الضلالة فرأوا الحق ضلالة والضلالة حقًا، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف:61]؛ أي: بكم الضلالة عن الحق، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف:61] في الوعد والوعيد ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:62] لكم بالدعوى لكم من الدنيا إلى العقبى، ومن العقبى إلى المولى، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:62]؛ أي: من طلبه وجده، ومن طلب غيره لم يجده، ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:63] وهو نظر العناية لأهل الهداية،

---

(1) أصله عميين جمع عم، وأصله عمى على وزن خضر فأعل كإعلال قاض. قال أهل اللغة: يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر والمعنى عمين قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد غير مستبصرين وهذا العمى مانع عن رؤية الآيات ومشاهدة البينات. تفسير حقي (4/ 179).

﴿عَلَى رَجُلٍ مِنكُمْ﴾ [الأعراف:63]؛ أي: مثلكم في الإنسانية والبشرية. ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:69] ويوقظكم من نوم الغفلة ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ [الأعراف:63] عمّا يقطعكم عن الله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:63] بالوصلة عن الفرقة ﴿كَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف:64] فيما دعاهم إليه بسوء حظهم، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ [الأعراف:64] من ظلمات كفرهم وشؤم ضلالتهم، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [الأعراف:64] فمن كان له أرض النفس طيبة أنبتت لهم زرع الإيمان بأمطار الدعوى؛ ففازوا بأزهار النجاة وإثمار الدرجات والقربات، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف:64]؛ أي: لأنهم كانوا قومًا عمين عن رؤية آياتنا فما استحقوا لرؤيتنا ولا لطلبنا ولا لقبولنا، وفيه إشارة إلى نوح الروح الذي أرسله إلى قومه ببلاء القلب وهم القلب وصفاته، والنفس وصفاتها.

ومن صفة الروح: العبودية، والطاعة، ودعوة القلب والنفس وصفاتهما إلى الله تعالى وعبوديته.

ومن صفات النفس وشأنها: تكذيب الروح ومخالفته، والإباء عن قبول النصيحة، والتعجب والاستبعاد عمّا يلاحظ الله به الروح ويكرمه بالإنذار؛ ليتقوا قومه من عبادة الدنيا وزينتها لئلا تحرموا عن مساعدة الرحمة ومواصلة القربة، فكذبوه قومه من النفس وصفاتها، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾؛ أي: الروح من ظلمات النفس وتمردها،﴿والذين معه﴾ وهم القلب وصفاته الذين قبلوا دعوة نوح الروح وركبوا معه في الفلك وهو فلك الشريعة والدين، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: النفس وصفاتها في بحر الدنيا وشهواتها، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن رؤية الله والوصول إليه.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن

سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: 65 - 72].

ثم أخبر عن قوم هود عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:65]، القصة الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ إلى قوله: ﴿الكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف:66]، إشارة إلى أن قلوب قوم هود أيضًا نسخة خبيثة كما كانت لقوم نوح لم يخرج منها الأنكد، فلما أراد هود عليه السلام أن يبذر فيها بذر التوحيد والمعرفة لم تكن صالحة، فما خرج منها إلا نبت التشقية والتكذيب سلكوا طريق سلفهم وإخوانهم وسنوا بمثل حالهم، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:65].

قال: ﴿قَالَ الْـمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف:66]؛ أي: بكم السفاهة، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:67] وأنتم مكذبي لسفاهتكم، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1] [الأعراف:68] فيما أدعوكم إلى الله، وإن من أسقطته القسمة لم تنفعه النصيحة، ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: 69]؛ أي: يوقظكم من نوم الغفلة، ويخبر عن يوم الحسرة من قوت الدولة، فمن فرط الجهالة وغاية العنادة عجبوا من كون رجل سأل سؤلاً، ولم يتعجبوا من كونهم جعلوا الصنم شريكًا له!!

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:69] جعل الله الخلق بعضهم خلفًا عن بعض، وجعل الكل خلفاء في الأرض ولا يفني جنسًا منهم إلا أقام فوجًا منهم في ذلك الجنس، فأهل الغفلة إذا انقرضوا خلف عنهم قومًا، وأهل الوصلة إذا انقرضوا خلف عنهم قومًا، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْـخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف:69] كما زاد قومًا على من تقدمهم في بسطة الخلق، وكما وقع التفاوت بين شخص وشخص فيما يعود إلى

(1) قال سهل: ومن لم ينصح الله في نفسه ولم ينصحه في خلقه هلك، ونصيحة الخلق أشد من النفس، وأدنى نصيحة النفس الشكر، وهو ألا يعصي الله تعالى بنعمه. وقال أيضًا: النصيحة ألا تدخل في شيء لا تملك صلاحه. تفسير التستري (1/ 162).

المعاني أوقع التفاوت بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ﴾ [الأعراف:69]؛ أي: إذا لم تستحقوا لذكر الله فاذكروا نعمة الله عليكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:69] بذكر الله على الحقيقة، فلما لم يعرفوا قدر نعم الله، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:70] جعلوا الآلهة من فرط جهالتهم وغاية ضلالتهم عدلاً لله وشريكًا له.

ثم قالوا من عكوفهم على التفرقة: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:70] فشتان بين من لا يخرج من عنق التفرقة، ومن لا يجد لحظة عن ستر التوحيد فلا يعبد إلا واحدًا، وكما لا يعبد إلا واحدًا لا يشهد إلا واحدًا، كما قال قائلهم: لا يهتدي قلبي إلى غيركم؛ لأنه سد عليه الطريق، قال: يعني هود في جوابهم، ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:71]؛ أي: مقالتكم تدل على حالتكم أنه أحيا بكم سطوات غضب الله وسخطه، فإن من علامات الغضب: الإعراض، ومن إمارات الإعراض والبعد إلى شهود الأغيار وتفريقه إياه في بحار الظنون؛ إذ لا تحصل للأغيار في معنى الإثبات، ﴿مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف:71].

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [الأعراف:71] الآلهة، ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ [الأعراف:71] من غير أن يكون معكم من الله في ذلك حجة وبرهان، فانتظروا معاملتكم مع الله من الله، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:71]؛ يعني: جزاء معاملتكم وجزاء معاملتي، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الأعراف:72]؛ يعني: جازيناهم على معاملتهم، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:72]؛ يعني: وجازيناهم على معاملتهم بإهلاكهم، ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾،وفيه إشارة إلى أن هود عليه السلام مع رتبته في النبوة ودرجته في الرسالة إنما نجا برحمة الله هو والذين آمنوا معه؛ ليعلم أن النجاة لا تكون باستحقاق العمل، وإنما تكون ابتداء فضل من الله ورحمة، فما نجا من نجا إلا بفضل الحق سبحانه.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا

تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: 73 – 77].

ثم أخبر عن ثمود أنهم كانوا مثل قوم هود بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف:73]، الإشارة فيها: أن الله تعالى غاير بين الرسل من حيث الشرائع، وجمع بينهم في التوحيد، فقال: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:73] أمرهم بالعبودية، وأخبرهم عن الوحدانية في الألوهية والشرائع التي هي عبادات مختلفة، والكل مأمورون بالتوحيد على نسق واحد من أجزاء سنة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب وإظهار المعجزات كما قال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف:73] على نسق، فالمعجزة للعوام: أن يخرج لهم من حجارة الصخرة ناقة عشراء، والمعجزة للخواص: أن يخرج من حجارة القلب ناقة السر عشراء بشعب سر السر وهي الخفي، وناقة الله تعالى التي تحمل أمانة معرفته وتعطي ساكني بلد القلب من القوى الحواس لبن الواردات الإلهية.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ [الأعراف:73]؛ أي: ترتع في رياض القدس، وتشرب من حياض الأنس، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف:73] مخالفات الشريعة ومعارضات الطريقة، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:73] بالانقطاع عن مواصلات الحقيقة، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:74]؛ يعني: من بعد هلاك عاد جعلكم خلفاء؛ لتستعيدوا حقيقة الخلافة ما لم يستعد به عاد وقوم نوح، ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:74] أرض القلوب، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف:74] سهولها الصدور والقصور هي المعاملات بالصدق والإخلاص وهي تبني القصور في الجنان، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:74]؛ هي جبال أطوار

القلب، والبيوت مقام السائرين إلى الله فيها.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ﴾ [الأعراف:74] النعماء عامها وخاصها، فهذا يتضمن ترويح الظاهر، والثاني يتضمن التلويح في السرائر، والترويح بوجود المسار، والتلويح بشهود الأسرار، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:74] بإفساد الاستعداد الفطري، ﴿قَالَ الْـمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:75] وهو الأوصاف البشرية والأخلاق الذميمة، ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:75] من أوصاف القلب والروح، ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأعراف:75] أي: صالح الروح مرسل بنفخة الحق تعالى إلى بلد القلب وساكنيه؛ ليدعوهم من الأوصاف الردية السفلية الظلمانية الحيوانية إلى الأخلاق الحميدة فالعلوية النورانية الروحانية، ﴿قَالُوا﴾ [الأعراف: 75]؛ يعني: الأوصاف القلبية.

﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:75]؛ أي: متبعون مشفقون، ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [الأعراف:76] من النفس وأوصافها، ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [الأعراف:76] أيتها الأوصاف القلبية، ﴿كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:76] جاحدون منكرون، ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف:77]؛ يعني: النفس وصفاتها، عقروا سر القلب بسكاكين مخالفات الحق والاستكبار، ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف:77] من التوحيد والمعرفة، ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْـمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:77] وهذا من صفات النفس الأمارة بالسوء وهواها إن لم يؤثر فيها النصح، وتجترئ على الله؛ لا الدليل تأملته، ولا السبيل لازمته، ولا النعمة عرفت قدرها، ولا المنة قدَّمت بشكرها.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأعراف:78- 84].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:78] رجفة الموت، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:78]؛ أي: دار قالبهم جاثمين، جاثمين جثوم الموت ولزوم الفوت، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [الأعراف:79] الروح العلوي، ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [الأعراف:79]؛ يعني: أخبرتكم أيتها النفس وصفاتها عن الأخلاق الحميدة التي أرسله الله معي، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:79]؛ لتتصفوا بها وتتخلقوا بأخلاقي، ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:79] ؛لأن قول الناصح ثقيل والحق مر، وهي تستفيد أن البغضة كما قال فافهم:

وَكَمْ سُقْتُ فِي آثَارِكُم مِن نَصِيحَةٍ ... وَقَدْ يَستفيدُ البِغْضَةَ الْمُسْتَنْصِحُ

وذلك أيضًا من حبّاته أرض النفس الخبيثة ألّا تقبل بدر النصيحة ولم يتب فيها.

ثم أخبر عن قوم لوط عليه السلام وفواحشهم بقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:81]، الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ الآيتين دالة على أن اللواطة فاحشة، وإسراف ما سبق الإنسان بها من الجن والشياطين والحيوانات كلها، وأنها أفحش الفواحش وأقبحها؛ لأن الله تعالى ما أمطر الحجار على أهل الذنوب العظام، مثل: الزنا والعقوق والسرقة والقتل بغير الحق وغير ذلك من الكبار حتى الشرك.

ومن معاملاتهم ما قال عنهم.﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:82] عابوا عليهم ما أحبه الله تعالى وهو التطهر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222] وأتوا بما أبغضه وهو الإسراف لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31]، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ [الأعراف:83] حجة لهم، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف:83] الهالكين بغضًا لها ولهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:84] من سحاب القهر، ﴿مَطَرًا﴾ [الأعراف:84] من الخذلان بالغفلة حتى لم يتوبوا من أفعالهم، ولم يرجعوا من أعمالهم، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:84] المصرين على فاحشتهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: 85 – 87].

ثم أخبر عن قوم شعيب ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:87]، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف:85]، الإشارة: أن في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ [الأعراف:85] دلالة على الأنبياء ـ عليهم السلام -كلهم دعوا عباد الله إلى عبادة الله وتوحيده بالبينات الظاهرات، والحجج الواضحات، والمعجزات الباهرات، وفيه أن بخس الناس، ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:85] في المكيال والموزون من خساسة النفس، ودناءة الهمة، وغلبة الحرص، ومتابعة الهوى، وهذه الصفات الذميمة من شيم النفوس، وقد ورد الشرع بتبديل هذه الصفات وتزكية النفس، فإن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:85]؛ أي: في الأرض الطيبة التي جبلت على حسن الاستعداد وخلقت في أحسن تقويم، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [الأعراف:85]؛ يعني: إبقاء الكيل والميزان تزكية النفوس، وصرف الاستعداد في طلب معالي الأمور تحلية القلوب، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:85] بنيل الدرجات وتحصيل الكمالات، ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف:86]؛ يعني: لا تقطعوا الطريق على الطالبين بأنواع الحيل والمكائد.

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأعراف:86]؛ يعني: تمنعون أرباب الطلب عن

الحق، ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ [الأعراف:86] بالطلب، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:86] يعني: تطلبون الاعوجاج في طريق الحق بإظهار الباطل؛ لكي تقطعوا عليهم الطريق كما قطعتم على أنفسكم، كما أن شر المعاصي ما لا يكون لازمًا لصاحبه ويكون متعديًا عنه إلى غيره؛ لأن ضر التعدية عائد إلى المبتدئ بقدر الأثر في التعدي، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:86] من عليهم بتكثير العدد؛ لأن التناصر والتعاون في الأمور بكثرة العدد نعمة تامة في تصرفاتها في إعلاء كلمة الدين فهي السعادة العظمى، ومن صرفها في إعلاء كلمة الكفر فهي الشقاوة الكبرى.

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:86] الذين أفسدوا حسن الاستعداد الفطري، وصرفوا أنعم الله في غير مصرفها، ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف:87] يشير إلى القلب والروح، ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ [الأعراف:87] وهي النفس وصفاتها، فإن أكثر المؤمنين من آمن قلبه وروحه ولم تؤمن نفسه، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف:53]؛ يعني: من نفوس الأنبياء - عليهم السلام - والأولياء، ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف:87]؛ يعني: بين الروح والقلب والنفس، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:87] لا تجعلوا الروح والقلب المؤمنين تبعًا للنفس الكافرة في العذاب، وإذاقة ألم الهجران وتجوروا عليهما بجرمهما ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:15].

﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: 88 - 91].

ثم أخبر عن المستكبرين وعاقبة الكافرين بقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:88] إلى قوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:78]، الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ إلى قوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾، إشارة إلى أن

من شأن المتكبرين ودأب المتحيرين استعداد على الأزل وذلك لما فيهم من نظر التنعم وطغيان الاستغناء في دعمه الاستبداد، ولمَّا كان حب الدنيا رأس كل خطيئة، وفتنتها أعظم من كل بلية جعل الله تعالى أهلها في البلاد سببًا للهلاك والفساد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء:16].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:88]، يشير إلى التأهل للخير كما لا يميلون إلى أشكالهم، فكذلك أهل الشر لا يرضون لمن رأوا، وإلا بأن يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم، والأوحد في بابه من باين نهج إضرابه، ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:88]؛ يعني: نعود في ملتكم ونقول لكم: قد جعلنا الله معكم فنكون من المغترين، ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ﴾ [الأعراف:89] من حكم في القسمة الأزلية وتغيرها، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف:89] وأن يغيرها، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف:89]؛ أي: لأن واسع علمه الأزلي يسع فيه أن يقدر شيئًا على أنه يمحوه في وقته ما ويقدر شيئًا على أنه يثبته، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:39].

﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:89] أي: تيقنًا بالله أن تثبتنا على ما قدر لنا من الدين ولا يغتر علينا الحال، ثم انقطعوا عن الخلق قالوا: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:89]؛ أي: أحكم بيننا وبينهم بإظهار ما قدرت لنا، من أمن خاتمة السوء، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:89] الحاكمين بين أهل الحق والباطل، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:90] لغاية جهالتهم ونهاية ضلالتهم، ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:90] فمن أعماهم رأوا الحق باطلًا، والباطل حقًا، والفلاح خسرانًا والخسران فلاحًا، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:91] فصارت صورتهم تبعًا لمعناهم فإنهم كانوا جاثمين الأرواح في ديار الأشباح.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ [الأعراف: 92 – 95].

ثم أخبر عن حالهم ومافهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف:92] إلى قوله: ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:93]، الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، إشارة إلى: أن المكذبين والمنكرين وإن كانت لهم غلبة في وقته ولكن تندرس أيامهم بأسرع حال ويسقط ميتهم ويحمل ذكرهم وتضمحل أثارهم ويكون أهل الحق بالحق غالبًا في كل أمر والباطل زاهق بكل وصف، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾؛ يعني: شعيب وقومه هم الفائزون المفلحون، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:93] فما علي من إقراركم وإنكاركم شيء، إن أحسنتم فالميراث الجميل لكم،وإن أسأتم فالضرر بالمتألم عائد عليكم ومالك الأعيان أولى بها من الأعيان، فالخلق خلقه والملك ملكه، إن شاء هداهم وإن شاء غواهم، ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:93]، فما تأسف على نفي وفقد ولا أثر من كون ووجود؛ لأن لكل صادر من حكيم بالغ في حكمة كامل في قدرته.

ثم أخبر عن حكمته في البأساء والضراء بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأعراف:94] إلى قوله: ﴿الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149]، الإشارة فيها: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ﴾، يشير إلى أن سبب البأساء والضراء ابتلاءه لأوليائه وأعدائه، فالولي يتضرع إليه عند البلاء ويرجع إليه، ويتوكل عليه، ويتمسك بحبل الصبر والتسليم والرضا، ويتمسك بالعروة الوثقى، والعدو يأخذ في الجزع والكفران ولا يصبر على البلاء بالخذلان ولا يستسلم للقضاء، ويرجع في ذلك إلى الخلق ويذهل عن الحق.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف:95]؛ يعني: فإذا تمادوا في غيهم ولم ينتبهوا من غفلتهم مَدَّ عليهم ظلال الاستدراج، ووسعنا عليهم أبواب الزور

مكرًا بهم في الحال، فإذا وطنوا على مساعدة الدنيا قلوبهم وركنوا إلى ما سوّلت لهم في امتداد أيامهم نفوسهم، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الأعراف:95]، فلمّا لم يعتبروا بها اغتروا من الشدة والرضا أبرز لهم من مكامن التقدير ما نغص لهم طيب الحياة وأوردهم موارد الهلكات، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف:95] أنهم يعاقبون ويعذبون.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: 96 - 100].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف:96] في أن ﴿أَهْلَ الْقُرَى﴾ إشارة إلى أن صفات القالب لو آمنوا بها يروا إلى صفات القلب والروح من ألطاف الحق ﴿وَاتَّقَوْا﴾ مشتهيات النفس ومستلذات الطبع، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:96]؛ أي: لفتحنا على صفات النفس أسباب العواطف من سماء الروح وأرض القلب، ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ [الأعراف:96] بالواردات الربانية والأخلاق الروحانية، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:96]؛ أي: عاقبناهم بعذاب البعد بما كسبوا من مخالفات الحق وموافقات الطبع، ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ [الأعراف:97]؛ أي: هذه الصفات، ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ [الأعراف:97] في صورة القهر وفي حقيقة اللطف فأما في صورة القهر فيأتهم الموت، ﴿بَيَاتًا﴾ [الأعراف:97] بالليل، ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف:97]، وأما في حقيقة اللطف فيأتيهم سطوات جذبنا فجاءة وهم غافلون.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:98]؛ أي: يشتغلون بالدنيا فإنها لهو ولعب، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ [الأعراف:99] فمكره مع أهل القهر بالقهر، ومع أهل اللطف باللطف، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ﴾ [الأعراف:99] أي: أهل

القهر، ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:99] الذين خسروا سعادة الدارين، ومن أهل اللطف إلا ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ من الذين خسروا الدنيا والعقبى وربحوا المولى، فعلى هذا أهل الله هم الآمنون من مكر الله في حقهم مكر باللطف، دل عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:82] ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]؛ لأن مكرهم مكر في مستحقيه وغير مستحقيه، ومكره في مستحقيه بالقهر وفي غير مستحقيه باللطف، فافهم جيدًا واعتبر جدًّا.

ثم أخبر عن إظهار اللطف مع مستحقي القهر بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف:100] إلى قوله: ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:102] الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ دليلاً على أنه تعالى يمن على نبينا ﷺ في قومه، أو سار بسيرة من ورثوهم الأرض وعملوا أعمالهم، ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الذاريات:44] وخالفوا نبيهم وقاتلوا معه استحقوا الهلاك، وإن يصيبهم كما أصابهم ولكن الله تعالى ببركة النبي ﷺ ما أهلكهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:33] فأمهلهم حتى أسلموا أكثرهم، واسلموا أولادهم، وأولاد أولادهم فيه يشير إلى أن الذنوب، وإن كانت موجبة للعذاب لو شاء الله يعذبهم بها ولو شاء يعفو عنهم ويغفر لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:100] إشارة إلى أن من سمع قول الأنبياء وقبل دعوتهم إنما كان بمشيئة الله تعالى وحسن توفيقه، ومن لم يسمع إنما كان ببغضاء الله وخذلانه إياه.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ

بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: 101 – 105].

وبما يؤكد هذه المعاني قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ [الأعراف:101]؛ أي: القرى التي أهلكنا أهلها، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأعراف:101] عند مجيء الرسل وإظهار المعجزات، ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:101] إيصال أرواحهم بالقالب يوم الميثاق؛ إذ قال الله تعالى لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] وهم ذُرِّيَّات في صورة ذرة، ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172] أقروا بالربوبية كلهم، ولكن كان من أركان الإيمان: إقرار باللسان وتصديق بالجنان، فوجدا في حق المؤمنين منهم، ووجد الإقرار دون التصديق في حق الكافرين منهم بأن الله قد طبع قلوبهم عند استماع الخطاب ورد الجواب.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:101]؛ أي: كما طبع على قلوب الكافرين اليوم طبع على قلوب الذريات يوم الميثاق حتى أقروا بلا تصديق القلب من نتائجه، فما كانوا ليؤمنوا اليوم بما كذبوا من قبل، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف:102]، يشير إلى أن أكثرهم كان مما طبع الله على قلوبهم يوم الميثاق فما وفوا بما عاهدوا عليه.

﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:102]؛ أي: وما وجدنا أكثر هؤلاء إلا خارجين عن الإسلام والوفاء بالعهود[1].

ثم أخبر عن قوم موسى عليه السلام وأنهم ساروا بسيرتهم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف:103] إلى قوله: ﴿رَبِّ مُوسَى

(1) قال العارف البقلي في العرائس: كأن هذه الآية أُنزلت في شأننا مع هؤلاء البطالين الذين سلكوا الطريقة وأخطأوا بما وجدوا فيها من الجاه والمال، ونقضوا عهد الإرادة واشتغلوا بالرياسة وخانوا في الطريقة وأنكروا على المشايخ، أعمى الله قلوبهم ما أشد إنكارهم على أهل الحق وما أشد خروجهم عن طريق الحق، جمعهم الله في الاستدراج وطردتهم عن أنوار المنهاج كأنه تعالى عاتب الجمهور حيث لم يفوا عهد الأزل، حيث وقف الكل على ما وجدوا، وهكذا شأن ما ألتفت في مشاهدة المحبوب إلى غير المحبوب، ولكن هم معذورون لأن الحدثان لا يستقل أثقال محامل الكبرياء ومطايا القدم، والبقاء في أودية الفناء. قال الجنيد: أحسن العباد حالاً مَنْ وقف مع الله على حفظ الحدود، والوفاء بالعهود.

وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:122] الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إشارة إلى أن الأغلب أهل كل زمان وقرن، أكثرهم غافلون عن الدين وحقائق مستغرقون في بحر الدنيا، مستهلكون في أودية الشهوات واللذات النفسانية الحيوانية ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، وإن الله من كمال رأفته ورحمته على خلقه يبعث عند انصرام كل قرن وانقراض كل هدم نبيًا بعد نبي، كما يخلف قومًا بعد قوم وقرنًا بعد قرن ويظهر المعجزات على ذلك النبي؛ ليخرجهم بظهور نور المعجزات من ظلمات الطبيعة إلى نور الحقيقة، فبعث موسى نبيه ﷺ، وختم إليه هارون ﷺ صفيه إلى فرعون وأيد معه الآيات والمعجزات.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف:103] أي: ظلموا على المعجزات بأن جعلوها سحرًا فوضعوها في غير موضعها، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:103] الذين أفسدوا الاستعداد الفطري بركونهم إلى الدنيا وشهواتها، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:104] يعني: رسولاً من رسله الذي أرسلهم من مكارم ربوبيته إلى عالم كل زمان، ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: 105]؛ لأن الرسول ما ينطق عن الهوى إلا بوحي حق يوحى من الحق، فالناطق بالحق قائم بحقائق الجميع، فانٍ عن الخلق وآثار التفرقة، ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:105] بحجة قائمة من اليد والعصا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 105] لأهديهم إلى صراط مستقيم، وأنجيهم من عذاب أليم.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: 106 – 116].

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ [الأعراف:106] تدل على صدق دعواك، ﴿فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:106] لعلنا نهتدي بها، ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:107] وإنما جعل الله تعالى عصاه ثعبانًا؛ لأنه أضاف العصا إلى نفسه حين قال له:﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قال:﴿هِيَ عَصَايَ﴾، ثم جعلها متوكأ، فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾، ثم جعلها محل حاجاته، فقال:﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾، فيه إشارة بأن كل شيء أضفته إلى نفسك ورأيته محل حاجاتك فإنه ثعبان يبتلعك، ولهذا قال القهار:﴿ يَا مُوسَى﴾؛ يعني: لا تمسك بها ولا تتوكأ عليها، وإلا كان قادرًا على أن يجعلها في يده ثعبانًا فلما ألقاها من يده ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف:108] فيه إشارة إلى أن الأيدي قبل تعلقها بالأشياء وتمسكها بها كانت بيضاء نقية نورانية، فلما تمسكت بالأشياء صارت ظلمانية، فكلما ترغب عنها تصير بيضاء كما كانت، فافهم جدًّا.

وإنما قال:﴿بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾؛ لأنه تعالى أظهر النور الروحاني على اليد الجسماني؛ ليكون منظورًا للناظرين، فإن اليد الروحاني لموسى عليه السلام كانت نورانية في جميع الأوقات ولكن ما كانت منظورة للناظرين، فلما أظهر نورانيتها في بعض الأوقات خرقًا للعادات على يده الجسمانية صارت منظورة للناظرين، ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:109].

فلما لم يكن لهم بصيرة ترى بها الآيات نظروا ببصر البشرية فرأوا الآيات سحرًا والنبي ساحرًا ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:110]، ولا شك في أن موسى عليه السلام أراد أن يخرجهم من أرضهم، ولكن من أرض بشريتهم الظلمانية إلى نور الروحانية، ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف:111]، توهموا أنهم بالتأخير وحسن التدبير وبذل الجد والتشمير يغيرون شيئًا من التقدير، ولم يعلموا أن الحق غالب والحكم سابق، وعند حلول الحكم فلا سلطان للعلم والفهم، ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف:113] ظنوا أنهم يغلبون بما يسحرون، وأن لهم أجرًا وإن كانوا هم الغالبين، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أبلغ من تأثير سحرهم، وإن

أجرهم فيها لو كانوا مغلوبين.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف:114] أجرى تعالى هذا على لسان فرعون حقًا، وصدق بأنهم صاروا من المقربين عند الله لا عند فرعون، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ [الأعراف:115] فلمّا أكرموا موسى بالتقدم وعظموه بالاستئذان أكرمهم الله بالسجود والإيمان، قال ألقوا: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:115].

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:115]؛ أي: عظيم في الإثم، كما قال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 16] وعظم إثم السحر لمعارضته بالمعجزة.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: 117 – 126].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف:117] فيه إشارة إلى أن عصى الذكر كلمة قوله: «لا إله إلا الله» إذا ألقيت عند إلقاء سحر سحرة صفات النفس تبتلع إلا بنعم «لا» النفي جميع ما سحروا به أعين الناس، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ [الأعراف:118] بإثبات إلا الله.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:118] من تزيين زخارف الدنيا في العيون، ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ [الأعراف:119] سحرة صفات النفس بنور الذكر، ﴿وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف:119] ذليلين تحت أوامر الشرع ونواهيه.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾(1) [الأعراف:120]؛ أي صارت صفات النفس بعد

(1) أي: فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقياً ألقاهم بغير اختيارهم من قوة إسراعهم، علماً منهم بأن هذا من عند الله، فأمسوا أتقياء بررة، بعد ما جاؤوا في صبح ذلك اليوم سحرة.

التمرد ومنقادة للعبودية، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:121]، ﴿رَبِّ مُوسَى﴾ [الأعراف:122] الروح، ﴿وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:122] القلب.

واعلم أن صفات النفس إذا تنورت بنور الذكر يبدل كفرها بالإيمان، ولكن النفس بذاتها لا تؤمن ولا تتبدل، اللهم إلا عند غرقها في بحر الواردات والمواهب الربانية؛ كفعل فرعون وإيمانه عند الغرق إذ قال: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾.

ثم أخبر عن كفر فرعون النفس بعد إيمان سحرة صفاتها بقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف:123] إلى قوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:129] الإشارة فيها أن من صنائع حكمة الله وبدائع قدرته أن يظهر العدو في صورة الولي، كما كان بمقام وبرز الولي في كسوة العدو، كما كان حال السحرة أصبحوا في ذي الأعداد كفارًا سحرة، وأمسوا في زينة الأولياء شهداء بررة، وفيما قال فرعون لهم لمَّا آمنوا بموسى عليه السلام: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف:123].

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:123] الإشارة إلى أن: فرعون قد ظن أن الإيمان يكون موقوفًا على إذنه، ولم يعلم من كمال جهله أن الإيمان موقوف بإذن الله ونظر رحمته، فخاطبهم على أنهم الذين كانوا فيما علم أنهم كانوا ثم يأتوا، وأن تلك الأسرار جرت عن رق الأشكال، وأن قلوبهم طهرت عن دنس الشبهة والأشكال، وأن شموس العرفان قد طلعت من أفق العناية واستوت في سماء الهداية، فأشهدوا الحق بنظر البقاء، وشهدوا الخلق بنظر الفناء لم يكن لتخويفات النفس فيهم سلطان ولا لشيء من العلل فيهم برهان لتقول لهم، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [الأعراف:124] لمَّا تحقق لهم أن مصيرهم إلى الله سهل عليهم ما لقوا في مسيرهم إلى الله، ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف:125] ولمَّا علموا الله وأوذوا في الله قالوا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف:126] فصدقوا القصد إلى الله، وطلبوا الصبر على البلاء من الله تعالى بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف:126] على المقامات في الدين.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:126] وقلوبنا تطمئن بالإيمان واليقين، وفي القضية

إلى أن فرعون النفس أيضًا منكر على إيمان شجرة صفاتها ويقول: ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ أي: بموسى الروح ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يعني: بالإيمان إن هذا المكر مكرتموه يا سحرة الصفات في موافقة الروح في مدينة القالب والبدن؛ لتخرجوا منها أهلها وهم: اللذات والشهوات البدنية الجسمانية، فإن صفات النفس إذا آمنت ووافقت الروح وصفاته خرجت من البدن لذات الدنيا وشهواتها؛ فسوف تعلمون حيلي ومكائدي في إبطالكم واستيفاء اللذات والشهوات ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ﴾ بسكين التسويل عن الأعمال الصالحة، ﴿ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:124] في جذوع تعلقات الدنيا وزخارفها.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ لا إلى الدنيا وما فيها، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾؛ يعني: انتقامك منا إنما يكون بسبب إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا، بعد أن جاءنا من ألطاف الحق ما جاءنا، فلا ينفعك الانتقام منا مع الألطاف ولا يضرنا، فإننا نتقلب إلى ربنا ونقول: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على قطع تعلقات الدنيا، فنترك لذاتها وشهواتها، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ لعبوديتك وأحكامك الأزلية.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131)﴾ [الأعراف: 127 – 131].

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف:127] من الهوى والغضب والكبر لفرعون النفس، ﴿أَتَذَرُ مُوسَى﴾ [الأعراف:127] الروح، ﴿وَقَوْمَهُ﴾ [الأعراف:127] من القلب والسر والعقل، ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف:127] أرض البشرية، ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف:127] من الدنيا والشيطان والطبع، ألّا تعبد، ﴿قَالَ﴾

[الأعراف:127] فرعون النفس، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:127] وأبناء صفات الروح والقلب والنفس أعمالها الصالحة؛ أي: نبطل أعمالهم بالرياء والعجب.

﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:127]؛ أي: الصفات التي تتولد منها الأعمال، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:127] بالمكر والخديعة والحيلة، ﴿قَالَ مُوسَى﴾ [الأعراف:128] الروح، ﴿لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف:128] وهم السر والقلب والعقل، ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:128] على جهاد النفس ومخالفتها ومتابعة الجن، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ [الأعراف:128]؛ أي: أرض البشرية، ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف:128] أرض البشرية السعداء الروح وصفاته فتتصف بصفاته، ويورث أرض بشرية الأشقياء النفس وصفاتها فيتصف بصفاتها ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] [الأعراف: 128]؛ يعني: لما فيه من الخير والسعادة للأتقياء والسعداء منهم، ﴿قَالُوا﴾ [الأعراف: 129]؛ يعني: قوم الروح له.

﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف:129]؛ أي: من قبل أن تأتينا الواردات الروحانية قبل البلوغ كما نتأذى من أوصاف البشرية، ﴿قَالَ﴾ [الأعراف: 129]؛ يعني: الروح، ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف:129] النفس وصفاتها بالواردات الربانية ويدفع أذيتها عنكم، فيه يشير إلى أن الواردات الروحانية لا تكفي لإفناء النفس وصفاتها ولا بدَّ في ذلك من تجلي صفات الربوبية، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ [الأعراف:129]؛ يعني: إذا تجلى الرب بصفة من صفاته لا يبقي، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:129] أرض البشرية من صفات النفس إلا ويبدلها بصفات الروح والقلب

---

(1) انظر في هذه الآية إلى جميل أدب سيدنا موسى عليه السلام كيف علّم قومه معاملة طريق الله أمرهم بالالتجاء إليه والاستعانة به والاستغاثة به في تحمل مشقة الصبر ووجدان حسن الرضا في البلاء، وأخبرهم أن مَنْ كان بالله صبر يكون مظفرًا على جميع المراد ويكون خليفة الله في أرضه.

قال أبو عثمان: مَنْ استعان بالله في أموره، وصبر على ما يلحقه في مسالك الاستعانة، أتاه الفرج من الله، قال الله استعينوا بالله واصبروا.

قال سهل: أُمروا أن يستعينوا بالله على أمر الله، وأن يصبروا على أدب الله، ولمّا أمرهم بالاستعانة والصبر شكوا عن عقوبة الأعداء لهم. [العرائس بتصرف].

ويستخلفها في الأرض، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:129] في إقامة العبودية وأداء شكر نعم الربوبية.

ثم أخبر عما اختبر به آل فرعون بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف:130] إلى قوله: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:136] الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:130] الآية دلالة على أن المحن والشدائد والمصيبات موجبات الانتباه والاعتبار ولكن لأهل السعادة وأولي الأبصار، فأما أهل الشقاوة فلو شدَّد عليهم وطأة القدرة وضاعف عليهم أسباب النعمة، فلا الوطأة أصلحتهم شِدَّتُها، ولا النعمة نبهتهم كثرتها، لا بل إنْ مَسَّهم يُسْرٌ لاحظوه بعين الاستحقاق، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ وإن منهم عُسر حملوه على التطير كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف:131] الكفور لا يرى فضل المنعم فيلاحظ الإنسان بعين الاستحقاق، ثم إذا اتصل به شيء مما يكره تجنَّى وحل الأمر على ما كان يتمنى كما قال:

مَلَّ الوصال وقال كان وكان ... وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعة

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:131] هو الواحد المنفرد بالإيجاد لكن بصائرهم مسدودة، وعقولهم عن شهود الحق معدودة، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137)﴾ [الأعراف: 132 - 137].

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:132] فلمّا رأوا الآيات بعين الجهالة والضلالة رأوها سحرًا، وجعلوا الإصرار على الإنكار شعارهم، وهتكوا بألسنتهم في العتو أستارهم، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف:133] فلمّا توغلوا في فنون المخالفات صب عليهم أنواع العقوبات، فلا في التكفير رغبوا ولا إلى التطهير قصدوا.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:133] في أصل الخلقة، فكانت عقوباتهم بصرف قلوبهم عن شهود الآيات والحقائق أبلغ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا ونعوذ بالله من مكامن المكر، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ [الأعراف:134] وهو الغضب من الله، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف:134] ولم يقولوا: ربنا إذ لم يهتدوا إلى ربوبيته، وما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بُعدًا وأجنبية، ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ [الأعراف:134] بأن تدعوه ويجيب لك من فضله، ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف:134]؛ يعني: لو انكشف عنا حجاب الغضب والسخط، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف:134] ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: 135]، يعني: صورة الغضب والسخط وهو العذاب، ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف:135] فلمّا رفع عنهم صورة الرجز آمنوا بالصورة لا بالحقيقة، فلمّا بلغوا أجل المشيئة في إغراقهم نقضوا ما عاهدوا عليه، ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: 136] قهرًا وغضبًا، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:136] بأنهم كذبوا بآياتنا في الظاهر وفي الحقيقة، فتكذيبهم من نتائج الغضب الحقيقي، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف:136]؛ يعني: من حقائق أحكامنا، ﴿غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:136] فما نفعهم العهد مع المشيئة القديمة، ولا خلفهم العقل مع الإرادة الأزلية.

ثم أخبر عن نتائج العناية لأهل السعادة بقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:137]، الإشارة فيها: أن العزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، ومن صبر على مقاساة الذل في الله توجه الله بتاج العزة، ويورثه عزة مذليه ومستضعفيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾؛ أي:

يطلبون مذلتهم وهوانهم ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:137] بإخراجها من أيدي الكفار والظلمة والفسقة وإيراثها المؤمنين الموحدين الصالحين، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف:137]؛ يعني: بالكلمة الحسنى ما قدر لهم في الأزل، قال فيهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وقوله: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، فإنه قدر لهم من السعادة بما صبرهم على الشدائد في الدين كقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف:137] والصبر من أعمال أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:12]، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ [الأعراف:137]؛ يعني: ببني إسرائيل من الإذلال والإهانة، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:137]؛ أي: يرفعون بالتكبر والتحيز لأنفسهم، والتعريش: الارتفاع، يقال: عرش الطائر إذا ارتفع بجناحيه على ما تحته.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)﴾ [الأعراف: 138 - 141].

ثم أخبر عن إعزاز أوليائه، وإذلال أعدائه بقوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [الأعراف:138] إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: 141] والإشارة فيها: أن بني إسرائيل القلب كانت معذبة في مصر القالب وصفاتها، فلمَّا أخلص الله تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ ؛ أي: خلصنا بني إسرائيل صفات القلب من بحر الدنيا ومن فرعون النفس، ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ [الأعراف:138]؛ أي: وصلوا إلى صفات الروح، ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ [الأعراف:138] من المعاني المعقولة والمعارف الروحانية، فاستحسنوها وأرادوا العكوف على عتبة عالم الأرواح، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ [الأعراف:138] الوارد الرباني الذي جاوز بهم بحر الدنيا.

﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:138]، يشير إلى أنه لولا فضل الله ورحمته

مع العبد يثبته على قدم العبودية وصدق الطلب إلى أن يبلغه المقصد إلَّا إذا كان العبد يركن إلى كل شيء من حسائس الدنيا فضلاً عن نفائس العقبى كقوله تعالى لسيد البشر ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء:74]، قال لهم موسى الوارد الرباني عند ركونهم إلى الروحانيات ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138] قدر الله وعنايته معكم، ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ [الأعراف:139]؛ يعني: صفات الروح، ﴿مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف:139] من الركون والعكوف على استجلاء المعاني والمعارف الروحانية، ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:139] في غير طلب الحق والوصول إلى المعارف والحقائق الإلهيات، ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف:141] يعني النفس وصفاتها ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف:141]؛ أي: سوء عذاب البعد، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأعراف:141]؛ أي: يبطلون أعمالكم الصالحة التي هي متولدات من صفات القلب بآفة الرياء والعجب النفساني، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: 141]؛ يعني: صفاء القلب لاستخدام النفس وصفاتها، ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف:141]؛ يعني: وكان في استخدام صفات القلب النفس وصفاتها بأن يعمل الصالحات رياء وسمعة؛ لجذب المنافع الدنيوية لحظوظ النفس بلا تعظيم من ربكم، فخلصكم منه لئلا تطلبوا غيره ولا تبعدوا سواه، فلا تركنوا إلى الروحانية ولا المعقولات؛ كي تظفروا بمراتب الوصول ودرجات الوصال.

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: 142 - 145].

ثم أخبر عن صفات وأهل القربات بقوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف:142] إلى قوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143] الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ إشارة إلى الميعاد في الحقيقة كان أربعين ليلة وإن كان في الظاهر ثلاثين ليلة لقوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ فالتمام هو: الأربعون، والثلاثون ناقص، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (1) [البقرة:51] وإنما أظهر الوعد ثلاثين ليلة؛ لضعف البشرية قواعد ثلاثين ليلة ثم أتمها بالعشر، وفيه أن الأربعين خصوصية في استحقاق استماع الكلام للأنبياء، كما أن لها اختصاصًا في ظهور ينابيع الحكمة من قلوب الأولياء بقوله ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»(2) والحكمة في تعيين عدد

(1) أي: من سنة الله سبحانه إذا أراد أن يشرف عبدًا من عباده بمقام لم يكن له ذلك وقربه منه وناجاه وأظهر عليه عجائب ملكه وملكوته، يصفيه عن كل كدورة، ويخلصه عن كل همه، ويروضه بأنواع مجاهدة، ويخلي بطنه عن الطعام والشراب إلا ما يقوي به صلبه ليحرق بنيران الجوع غواشي قلبه، وتقدس من قلبه مكان نظره، ويغسل بمياه المجاهدة جوارحه، ويزويه في الخلوات، ويشوقه بلطائف المناجاة إلى المشاهدات وله أوقات وساعات لفتح أذان قلوب أوليائه وأبصار أرواح أصفيائه؛ ليسمعها كلامه ويبصرها جماله وجلاله، وتلك أوقات تضوع عطر مشاهدته لأهل خلواته ومناجاته لا يستنشق تلك الروائح إلا المعترضون لها في المراقبات والرعايات، وأخبر من تلك الأسرار سيد أهل الأنوار ﷺ بقوله: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لنفحات الله»، ومن تلك الأربعين صارت الأربعين سنة لأولياء الله في بداية أمرهم في الخلوة والرياضة بخلوص نياتهم مع الله سبحانه؛ لوجدان حكمته الأزلية وآياته العجيبة، ومكاشفته البديعة؛ لأنها عرائس الله لا تنكشف إلا للمتفرد عن غير الله، وأخبر بشرائف ذلك النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أخلص الله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، ما طاب زمان الوصال ومواعيد كشف الجمال لمّا طاب وقت كليم الله في مناجاته حبيبه بعد تمام ثلثين ليلة لم يستوف وطره من لذيذ خطابه ولطف جماله؛ فعلل بالسؤال ليستزيد المقام في شهود العين، فعلم تعالى حرق شوقه وغيب حزنه وزيادة عشقه ومحبته، فزاد على أوقات الوصال بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾، وقال: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ومراده بالأربعين تواتر الحالات والاستقامة في الواردات؛ ليحتمل بعد ذلك بها أوقات بديهيات الكشوف وبروز أنوار القدم ذكر الليالي لخلو الأسرار عن نظر الأغيار وصفاء المواصلة عن غبار المخالفة، فيالها من سماع ما أطيبه ومن خطاب ما ألذّه من جمال ما اشهاه ومن قرب ما ألطفه.

(2) رواه هناد في الزهد (670) بتحقيقنا، وأبو نعيم (5/ 189).

الأربعين: إن فيها كمال الكمال ذكرنا في البقرة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:142] أيضًا دليل على أن ميعاد ربه في الحقيقة كان أربعين ليلة، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي﴾ [الأعراف:142] الإشارة فيها: إلى أن موسى ﷺ الروح يقول لأخيه هارون القلب عند توجهه لميقات الحق ومقام المكالمة والتصدي لتجلي ربه: كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي﴾ من أوصاف البشرية ونعوت الإنسانية ﴿وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:142] ذات بينهم على وفق الشريعة وقانون الطريقة، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:142]؛ يعني: سبيل الهوى والطبيعة الحيوانية النفسانية؛ وهذا هو السر الأعظم في بعثة الروح من ذروة عالم الأرواح إلى حضيض عالم الأشباح؛ ليحصل منه خليفة من القلب الروحاني القابل للنور الرباني يكون خليفة، وخليفة رب العالمين بخلافته عند مجيء الروح لميقات ربه كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾(1) [الأعراف:143]؛ يعني: ولمَّا

(1) وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ إشارة إلى تفضله لموسى ﷺ لما جاء بنعت الشوق والهيمان والعشق والهيجان بخطرات الواهين إلى موعد رب العالمين، وصار موسى ﷺ فانيًا عن موسى ﷺ ولم يبق في موسى ﷺ إرادة موسى ﷺ بنعت التحير في موقف الفناء على جناب القدم والبقاء، ولم يعلم من غيره: أين هو؟ وأين يطلب؟ وأين يفرّ؟ حيث لا حيث علم سبحانه أنه في ذهاب الذهاب، فكلمه بالبداهة فطار سرُّ موسى ﷺ في هواء الهوية، وطار روح موسى ﷺ في سماء الديمومية، وطار عقل موسى ﷺ في قفار الأحدية، وطار قلبه في أنوار الوحدانية، وكان كلا شيء. الأول كلام التعظيم والهيبة والآخرة كلام اللطف والبسط ففنا في الأول وبقي في الثاني، ولولا لطفه وكرمه بكليمه كان يتلاشى في أول خطاب، ولكن من عطفه ورحمته اسمع عجائب كلامه كليمه؛ ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح لكنوز الصفات والذات. ولولا اصطفائيته الأزلية لموسى ﷺ واختياره بالتكليم معه، وأنه لم يخل في طول عمره عن كلامه ووحيه وإلهامه في كل نفس لم يبق في الميقات عند بداهة خطابه أثره ويصفه لذة كلامه وحلاوة خطابه؛ يا ليتني لو أن لي لسانا أزليًّا من ألسنة القدم، لأصف به تلك الحلاوة؛ لكن لا يفهم مَنْ لم يذق طعمه، ولمَّا طاب ذوقه من لذيذ خطابه سكر من شراب بحر وصاله، هاج شوقه إلى طلب مزيد القربة وكشف المشاهدة؛ فأطلق لسان البسط وخطا خطوات الانبساط وهتك ستر الحياء عن وجه المحبة، وغاص في بحر الجرأة، حتى كان حاله ما أخبر الله سبحانه عنه بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾. غلب عليه مواجيد الوصالية فخرج من مشيئة الأمر وأسقط في مقام العشق والسكر رسوم الأدب فسكره استنطقه بطلب دنو الدنو وشهوده عين العين؛ لأن نسيم برد المشاهدة يحويه بلطائف الوصلة، فلمْ يبق له قرار ولم يجد من ساكن السكر مفرًا، وكيف يكون السكون

حصل على بساط القرب تتابع عليه كاسات الشرب من صفو الصفات، ودارت أقداح المكالمات، واثر فيه لذا ذات أسماع الكلمات فطرب واضطرب، إذ سكر من شرب الواردات وتساكر من سماع الملاطفات في المخاطبات، فطال لسان انبساطه عند التمكن على بساطه، وعند استيلاء سلاطين الشوق وغلبات دواعي المحبة في الذوق ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] قال: هيهات أنت للإثنينية منكوب وبحجب جبل الأنانية محجوب،وإنك إذا نظرت بك إلي ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]؛ لأنه لا يراني إلا من كنت له بصرًا فبي يبصر، ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف:143] جبل الأنانية، ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ [الأعراف:143] عند التجلي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: 143] ببصر أنانيتك، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:143] أنانيته ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:143] فانيًا كأن لم يكن، ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:143] بالأنانية، فكان ما كان بعد أن بان، ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:69]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء:81].

قد كان ما كان سرًا أبوح به ... فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

ولو لم يكن جبل أنانية النفس بين موسى الروح وتجلي الرب لطاش في الحال وما عاش، ولولا القالب خليفته عند الفناء بالتجلي لما أمكنه الإفاقة والرجع إلى الوجود، فافهم جدًا.

ولو لم يكن تعلق الروح بالجسد لما استسعد بالتجلي ولا بالتحلي تفهم - إن شاء الله تعالى - ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ [الأعراف:143] من غشية الأنانية بسطوة تجلي الربوبية، ﴿قَالَ﴾ [الأعراف:143] موسى؛ أي: هويته ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [الأعراف:143] تنزيهًا لك من خلقك واتصال الخلق بك ﴿تُبْتُ﴾ [الأعراف:143] من أنانيتي، ﴿إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143] إلى هويتك بك، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:143] بأنك لا ترى ولا ترى إلا بنور هويتك بك.

-

للعاشق عن طلب مشاهدة المعشوق في فنائه؟ حيث دنا الشائق من المشوق. [العرائس].

ثم أخبر عن اصطفائه لأوليائه بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف:144] الآيتين الإشارة فيهما: أن الله تعالى اصطفى كل نبي على الخلق بنوع أو نوعين أو أنواع من الكمال عند خلقته، وركب في ذروة طينته استعداد ظهور ذلك النوع من الكمال حين خمر طينة آدم بيده؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف:144]؛ يعني: اصطفيتك عند تركيب هذين النوعين من الكمال في طينتك وهما: الرسالة والمكالمة، وفيه إشارة إلى أن نوع كمال الرؤية التي سألتنيها وما اصطفيتك به وما ركبت استعداده في طينتك، وإنما اصطفى به نبينا ﷺ وخصَّه بذلك من بين الأنبياء - عليهم السلام كلهم - واصطفيه بجميع ما اصطفاهم به، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:90]، ثم قال لموسى عليه السلام: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف:144]؛ يعني: وما ركبت فيك استعداده واصطفيتك به من الرسالة والمكالمة، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:144] فإن الشكر يبلغك إلى ما سألت من الرؤية؛ لأن الشكر يستدعي الزيادة لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:7]، والزيادة هي: الرؤية لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26]، وقال ﷺ: «الزيادة هي الرؤية، والحسنى الجنة»[1].

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ [الأعراف:145]؛ يعني: ثبتنا في الألواح كل المواعظ التي بها حاجة مجملاً، ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:145]؛ يعني: فصلناه بتبيين كل نوع من أنواع الكمال وما يبلغ إلى ذلك الكمال، ومن جملته أنه بيَّن في الألواح أن الرؤية مخصوصة بمحمد ﷺ وأمته حتى استدعى موسى عليه السلام لنيل مقام رؤية ربه، فقال موسى عليه السلام: اللهم اجعلني من أصحابه، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 145]؛ يعني: خذ هذه المواعظ وما بيَّنا لك بقوة الصدق والإخلاص والجد والاجتهاد، وأيضًا بقوة منا وصدق الالتجاء إلينا؛ لنعينك ونقويك على العمل بها، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:145]؛ يعني: هذه المواعظ تدلهم على ترك الدنيا وطلب

(1) رواه النحاس في «رؤية الله» (6) بتحقيقنا، واللالكائي في «أصول السنة» (609).

الآخرة، ودرجات بعضها فوق بعض، وأعلاها وأحسنها فيأخذوا بأحسنها بأعلاها درجة وأكملها فضيلة، وأيضًا كما طلب الآخرة أحسن من طلب الدنيا كذلك طلب الله أحسن من طلب الآخرة فيأخذوا بأحسنها، ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:145]؛ يعني: الخارجين عن طلب الآخرة إلى طلب الدنيا فدارهم أسفل السافلين؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5] ودار الخارجين من طلب الله إلى طلب الآخرة فدارهم الجنة، ودار الخارجين من طلب الآخرة إلى طلب الله هي ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، فافهم جدًّا.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)﴾ [الأعراف: 146 – 149].

ثم أخبر عن تصرفات القدرة للعزة بقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:146] إلى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:182] الإشارة فيها: أن الكبر والتكبر من أعظم حجب أوصاف البشرية؛ لأنه يزيد في الأنانية وما لعن إبليس وطرد إلَّا للتكبر، وقيل له: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:13]، وحجاب التكبر يحرم المتكبر عن رؤيات الآيات، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ يعني: اجعل حجاب التكبر على أبصارهم لئلا يعرفوا أحبابي، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ [الأعراف:146]؛ يعني: وإن يروا كل آية نؤمن على أمثالها، ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ [الأعراف: 146]؛ أي: طريقًا يهدي إلى الحق، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:146] لا يمشون فيه، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ [الأعراف:146] طريقًا يهديهم إلى الباطل ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾

[الأعراف:146] يمشون فيه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:146] من الكتب المنزلة بما أظهروا من المعجزات تكبرًا عليهم، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:146]؛ أي: معرضين عن الآيات بالتكبر.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الأعراف:147] جزاء على تكبرهم كما حبط على أعمال إبليس جزاء على تكبره، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:147]؛ يعني: لما حبطت أعمالنا عندهم من بعثة الأنبياء وإنزال الكتب وإظهار المعجزات؛ لتكبرهم عنها جازيناهم بأن حبطت أعمالهم عندنا تكبرًا عنها، نظيره قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:40].

ثم أخبر عن جهل اليهود واتخاذهم العجل بالمعبود بقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾(1) [الأعراف:148] إلى قوله: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ

(1) كان القوم في طلب الحق غلب عليهم رعونات الطبيعة من جهة ما شموا بعض روائح القرب، فصار في قلوبهم حلاوة فباشرت تلك الحلاوة قلوبهم، ولم يكن غالبًا يفني صفات الإنسانية منها، فاختلط ذلك الحظ بحظوظ البشرية، فلمّا هاجت حلاوة البشرية غابت حلاوة القرب، وعشقه في عشق الإنسانية وحظ البشرية، فطلبت القلوب المطلوب بعد ذلك في كل منظور من الحدثان على صورة المخاييل، لأن حظوظ بشريتهم أورثت في قلوبهم الخيالات المختلفة فسقطوا عن رؤية التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، وبقوا في طلب الخيال وبحثه عن كل شيء، فكل متحرك يتحرك لهم قبلوه بالمعبود من قصورهم عن كمال العشق وحقائق التوحيد، فكسا الحق سبحانه العجل كسوة من قهر ربوبيته امتحانًا للقوم، فوقعوا في حسن اللباس واحتشموه، واحتجبوا من رؤية القهر والامتحان، ولو خرجوا من أوائل الالتباس لأحرقوه كما أحرقه موسى ﷺ، وكذا حال مَنْ لم يبلغ إلى درجة التوحيد، وبقى في رعونة العشق حتى يؤول جلاله إلى حد غار عليه التوحيد وألجأه إلى القتل؛ لأنه بقى في رؤية غير الله، والمشرك في التوحيد وجب قتله في طريق المعرفة، ألا ترى أن الله سبحانه أمرهم بقتل أنفسهم بقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

قال سهل: عجل كل إنسان ما أقبل عليه وأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد فناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا من بعد قتلهم أنفسهم.

وقال الأستاذ: لم يظهر قلوبهم في ابتداء أحوالهم عن توهم الظنون، ولم يتحققوا بخصائص القدم وشروط الحدوث، فعثروا عن أقدام ذكرهم في وهاد المغاليط.

ويقال: إن أقوامًا رضوا بالعجل أن يكون معبودهم، شمت أسرارهم نسيم التوحيد، هيهات لا ولا من لاحظ جبرائيل أو ميكائيل أو العرش والثرى أو الخلق والورى.

﴿الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:151] الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ إشارة إلى أن سامري الهوى من بعد توجه موسى الروح لميقات مكالمة الحق اتخذ من حلي زينة الدنيا ورعونات البشرية التي استعارها بنو إسرائيل صفات القلب قبط صفات النفس، ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ وهي الدنيا، ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ يدعوا الخلق به إلى العبادة، ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ﴾ [الأعراف:148] عبدة عجل الدنيا أنه ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ [الأعراف: 148] بالخير، ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:148] إلى الحق، ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ [الأعراف: 148] إلهًا ومعبودًا بالجهل، ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:148] في ذلك؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، وبدلوا طلب الحق ومحبته بطلب الدنيا ومحبتها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ [الأعراف:149] إشارة إلى أن صفات القلب لمَّا أيدت بتأييد الحق علمت أنها ضلت طريق الحق، وأخطأت فيها تعلقت برعونات البشرية عند غيبة موسى الروح إلى قوم أوصاف الإنسان، وتغييره إياها فيما فعلت من الالتفات إلى الدنيا وزينتها ندمت من فعلها وعادت إلى ما كانت فيه من عبودية الحق والإخلاص في طلبه، وذلك قوله تعالى ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ [الأعراف:149]؛ يعني: بجذبات العناية، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:149] الذين يعبدون الدنيا وزينتها وشهواتها من صفات النفس.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (153)﴾ [الأعراف: 150 - 153].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى﴾ [الأعراف:150] الروح من صفات مكالمة الحق، ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:150] من أوصاف الإنسانية، ﴿غَضْبَانَ﴾ [الأعراف:150] مما عبدت

صفات القلب عجل الدنيا، ﴿أَسِفًا﴾[1] [الأعراف:150] على ما فات لها من عبودية الحق، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ [الأعراف:150] بصفات القلب، ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ [الأعراف:150]؛ أي: غيبتي، ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:150]؛ أي: استعجلتم بالرجوع إلى الدنيا وزينتها والتعلق بها قبل أوانه من غير أن يأمركم به ربكم، وفيه إشارة إلى أن أرباب الطلب وأصحاب السلوك لا ينبغي أن يلتفتوا إلى شيء من الدنيا، ولا يتعلقوا بها في إناء القلب والسلوك؛ لئلا ينقطعوا عن الحق، اللهم إلا إذا قطعوا مفاوز النفس والهوى ووصلوا إلى كعبة وصال المولى فيأمرهم المولى أن يرجعوا إلى الدنيا لدعوة الخلق إلى المولى، وتسليكهم في طريق الدنيا والعقبى، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: 150]؛ يعني: ما لاح الخروج من اللوائح الربانية عند استيلاء الغضب الطبيعي، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ [الأعراف:150] يعني: القلب فإنه أخ الروح، ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: 150] قهرًا وفرًا عند استيلاء الطبيعة الروحانية، ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ [الأعراف:150] وهما من أب وأم، أبوهما الأمر وأمهما الخلق، وإنما نسبه إلى الخلق؛ لأن في عالم الخلق تواضعًا وتذللاً بالنسبة إلى عالم الأمر، فافهم جدًا.

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ [الأعراف:150]؛ يعني: أن أوصاف البشرية استذلوني بالغلبات عند غيبتك، ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف:150] وكذلك يكون استيلاء صفات البشرية وغلباتها حلل غيبة الروح وشغله بنوع من الأنواع قهر القلب وهلاكه، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف:150] وهم: الشيطان والنفس والهوى، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:150] الذين عبدوا عجل الدنيا وهم: صفات

---

(1) وصل إلى كليم الله المضرب قهر ﴿لَن تَرَانِي﴾، ورجع غضبانًا منه عليه، من غلبة انبساطه وشربه كأس سم أفاعي الفراق، أسفًا مما فات من وصول الوصول، ورجع إلى قومه مع شريعة العبودية في تلك الحالة، ورأى عبدة العجل صار كأسود جياع مع قومه وأخيه، فإن الكليم رجع من باب الأزل الذي كان الحدثان هناك بأسرها أقل من ذرة، فرأى دناءة همم القوم حين اختاروا مصنوعهم بالإلهية، وأين العقل والفهم والعلم والإنسانية هناك؟

والعقل لا يقبل من وصفه التغير والأصوات والخوار، والمشابهة، والجسدية والمماثلة بالإلوهية المنزّهة عن المتشابه بأشكال الحدثان. [العرائس].

القلب، يشير إلى أن صفات القلب تتغير وتتلون بلون صفات النفس ورعوناتها؛ ومن هنا يكون شنشنة الشيطان من أرباب الطريقة ورعوناتهم وزلات أقدامهم، ولكن القلب من حيث هو هو لا يتغير عما جبل عليه من محبة الله وطلبه وإنما يمرض بتغير صفاته، كما أن النفس لا تتغير من حيث هي هي عما جبلت عليه من حيث الدنيا وطلبها وإنما تغير صفاتها من الأمارية إلى اللوامية والملهمية والرجوع إلى الخالق، ولو وكلت إلى نفسها طرفة عين لعادة المشومة إلى طبعها وجبلتها ﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح:23].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف:151] الإشارة إلى: السير في الصفات؛ لأن المغفرة والرحمة من الصفات، فيشير إلى أن لموسى الروح، ولأخيه هارون القلب استعدادًا لقبول الجذبة الإلهية التي تدخلها في عالم الصفات، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:151]؛ لأن غيرك من الراحمين عاجز عن إدخال غيره في صفاته، وأنت قادر على ذلك لمن تشاء، يدل عليه قوله تعالى:﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الشورى:8].

ثم أخبر عن أهل الغضب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف:152] الإشارة فيها: أن الذين اتخذوا العجل؛ أي: اتخذوا عجل الهوى إلهًا يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43]، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف:152]؛ يعني: عبادة الهوى موجبة لغضب الله تعالى، دل عليه قول النبي ﷺ: «ما عبد في الأرض آله أبغض على الله من الهوى»[1]، وإن عابد الهوى يكون ذليل شهوات النفس وأسير صفاتها الذميمة الحيوانية والسبعية والشيطانية ما دام يميل إلى الحياة الدنيوية، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:152]؛ يعني: كذلك نجازي بالغضب والطرد الإبعاد وذلة عبادة الهوى المدَّعين الذين يفترون على الله أنه أعطانا قوة لا تضر بنا عبادة الهوى والرجوع إلى طلب

(1) تقدم تخريجه.

الخلق، ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف:153]؛ يعني: يعفو عنهم تلك السيئات، ويرحمهم بنيل القربات والكرامات.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾ [الأعراف: 154 – 156].

ثم أخبر أن رضا الرب في سكون الغضب بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف:154] الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف:154] إشارة إلى أن موسى عليه السلام الروح مهما اتصف بصفة من صفات النفس مثلاً: الغضب وغيره وباقي ما لاح له من اللوائح الربانية عند استيلاء تلك الصفة، ولمّا سكت عنه تلك الصفة واضمحلت يعود إليه ما كان بحاله من تلك اللوائح الربانية والكشوف الربانية، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ [الأعراف:154]؛ أي: في المتنسخ منها؛ يعني: في الذي عاد إلى الروح من اللوائح التي ألقاها عند غلبة صفة من صفات النفس ﴿هُدًى﴾ [الأعراف:154] ما يهدي إلى الحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف:154] ما هو يرحم، ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:154]؛ أي: على أهل الرغبة والرهبة ممن يرغب إلى الله بصدق الطلب، ويرهب من عذاب أليم والانقطاع عنه.

ثم أخبر عن اختيار أهل الاختيار بقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف:155] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:156] الإشارة فيها: أن الله تعالى امتحن موسى عليه السلام باختيار قومه، كما قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ ليعلم أن المختار من الخلق من اختاره الله لا الذي اختاره الخلق، وأن لله الاختيار الحقيقي؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾

[القصص:68] وليس للخلق الاختيار الحقيقي لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:68] ثم استخرج من القوم المختار ما كان موجبًا للرجفة والصعقة والمهالك وهو: سوء الأدب في سؤال الرؤية جهارًا، وكان ذلك مستوراً عن نظر موسى ﷺ متمكنًا في جبلتهم وكان الله المتولي للسرائر، وحكم موسى بظاهر صلاحيتهم فأراه الله تعالى أن الذين اختارهم يكون مثلك لقوله تعالى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه:13]، والذي يختاره يكون كالقوم، فلما تحقق موسى ﷺ أن المختار من اختاره الله حكم بسفاهة القوم، وأظهر الاستكانة والتضرع والاعتذار والتوبة والإنابة والاستغفار والاسترحام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف:155] وفيه إشارة أخرى: أن نار شوق الرؤية كما كانت متمكنة في قلب موسى ﷺ بالقوة، وإنما ظهرت بالفعل بعد أن سمع كلام الله تعالى، فإن من اصطكاك حجر القلب ظهرت شرر نار الشوق فاشتعل منه كبريت اللسان الصدوق وصعدت شعلة السؤال، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]، كذلك كانت نار الشوق متمكنة في أحجاره قلوب العوام فباصطكاك زناد سماع الكلام ظهر شوق الشرر فاشتعل منه كبريت اللسان، ولمَّا لم يكن اللسان لسان النبوة صعد منه دخان السؤال الموجب للصعقة والرجفة؛ والسر فيه أن يعلم موسى ﷺ وغيره أن قلوب العباد مختصة بكرامة إيداع المحبة فيها؛ لئلا يظن موسى أنه مخصوص به، ويعذره غيره عن تلك المسألة فإنها من غلبات الشوق فظهر عند استماع كلام المحبوب؛ ولهذا قال ﷺ: «ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»[1] وبالأصبعين يشير إلى صفات الجمال والجلال، وليس لغير الإنسان قلب مخصوص بهذه الكرامة، وإقامة القلب في أن يجعله مرآة صفات الجمال فيكون الغالب عليه الشوق والمحبة لطفًا ورحمة، وإزاغته في أن يجعله مرآة صفات الجلال فيكون الغالب عليه الحرص على الدنيا والشهوة قهرًا وعزة، فالنكتة فيه أن قلب موسى ﷺ لما كان مخصوصًا بالاصطفاء

---

(1) رواه ابن الأعرابي في معجمه (1622)، وإسحاق بن راهويه (1229).

للرسالة والكلام دون القوم كان سؤاله للرؤية شعلة نار المحبة مقرونًا بحفظ الأدب على بساط القرب بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] قدم عزة الربوبية وأظهر ذلة العبودية وكان سؤال القوم من القلوب الساهية اللاهية، فإن نار الشوق تصاعدت بسوء الأدب، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:55] قدموا الجحود والإنكار وأخروا طلب الرؤية جهارًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة:55] بظلمهم، فشتان بين صعقة موسى ﷺ وبين صعقة قومه، فأن صعقته كانت صعقة اللطف مع تجلي الربوبية، وإن صعقتهم كانت صعقة القهر عند إظهار العزة والعظمة، ولمَّا كان موسى ﷺ في مقام التوحيد ثابتًا كان ينظر بنور الوحدة فيرى الأشياء كلها من عند الله تعالى، فرأى سفاهة القوم وما صدر منهم من آثار صفات قهره فتنة واختبارًا لهم، فلما دارت كؤوس شراب المكالمات وسكر بأقداح المناجاة زل قدمه على بساط الانبساط فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾[1] [الأعراف:155]؛ أي: تزيغ قلب من تشاء بإصبع صفة القهر.

﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف:155]؛ أي: تقيم قلب من تشاء بأصبع صفة اللطف؛ ليرى جمالك في مرآة القلب، ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ [الأعراف:155] المتولي لأمورنا والناظر في هدايتنا، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ [الأعراف:155] ما صدر منا، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ [الأعراف: 155] بنعمة الرؤية التي ساكناها، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ الأعراف:155]؛ أي: خير من يستر على ذنب المذنبين؛ يعني أنهم يسترون الذنب ولا يعطون سؤالهم، وأنت الذي تستر الذنب وتبدل السيئات بالحسنات وتعطي سؤال أهل الزلات، ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [الأعراف:156] بعد حسنة الرؤية كما كتبت لمحمد ﷺ ولخواص أمته هذه الحسنة في الدنيا.

---

(1) أي: محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يثبتوا فطمعوا في الرؤية.

يقول الفقير: هذا يدل على أنهم سمعوا كلامه تعالى على وجه الامتحان والابتلاء لا على وجه التكرمة والإجلال وذلك لا يقدح في كون موسى ﷺ مصطفى بالرسالة والكلام مع أنه فرق كثير بين سماعهم وسماعه ﷺ والله أعلم. تفسير حقي (4/ 287).

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف:156]؛ يعني: خصنا بهذه على الفضيلة في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:156]؛ أي: رجعنا إليك في طلب هذه الفضيلة في السر لا بالعلانية وأنت الذي تعلم السر وأخفى؛ فأجابهم الله تعالى سرًا بسر وإضمارًا بإضمار، ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف:156]؛ أي: بصفة قهري آخذ من أشاء، وبقراءة من قرأ أساء من الإساءة؛ أي: من أساء في الأدب عند سؤال الرؤية، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:55]، آخذهم على سوء أدبهم، فأدبهم تأديب عذاب الفرقة، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:156] نعمة وإيجادًا وتربية، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [الأعراف:156] مني حسنة الرؤية والرحمة التي أنتم تسألونها، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف:156]؛ يعني: يتقون الله عن غيره، ويؤتون عن نصاب هذا المقام الزكاة طلابه، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:156] الذين هم يؤمنون؛ يعني: الذين هم يؤمنون بأنوار شواهد الآيات لا بالتقليد بل بالتحقيق وهم خواص هذه الأمة، كما عرف أحوالهم وصرَّح أعمالهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:157].

ثم أخبر عن أمة هذا النبي من المؤمن والولي بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ إشارة إلى أن في أمته من يكون مستعدًا لاتباعه في هذه المقامات الثلاثة وهي: مقام الرسالة والنبوة: التي هي شركة بينه وبين الأنبياء والرسل، والمقام الأمي: الذي هو مخصوص به ﷺ من بين الأنبياء - عليهم السلام -؛ ومعنى الأمي: أنه كان أم الموجودات وأصلها سمي أمياً، كما سميت مكة أم القرى؛ لأنها كانت مبدأ القرى وأصلها، وكما سمى أم الكتاب أما؛ لأنها مبدأ الكتب وأصلها، فأما إتباعه في مقام الرسالة فإنه يأخذ منه ما آتاه الرسول وينتهي عما نهاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:7].

فإن الرسالة تتعلق بأحكام الظاهر، والنبوة تتعلق بأحكام الباطن، فللعوام شركة

مع الخواص في الانتفاع من الرسالة، وللخواص اختصاص بالانتفاع من النبوة، فمن أدى حقوق أحكام الرسالة في الظاهر يفتح له أحوال النبوة في الباطن، من مقام الأنبياء تنبئة الحق تعالى بحيث يصير صاحب الإشارات والإلهامات الصادقة والرؤيا الصالحة والهواتف الملكية، وربما يؤول حاله إلى أن يكون صاحب المكالمة والمشاهدة والمكاشفة، ولعل ما يصير مأمورًا بدعوة الخلق إلى الحق في المتابعة لا بالاستقلال، كما قال ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[1] يشير إلى هذا المقام، وذلك أن المتقدمين من بني إسرائيل في زمن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لما وصلوا إلى مقام الأنبياء أعطوا النبوة ـ والله أعلم ـ وكانوا مقررين لدين رسولهم، حاكمين بالكتب المنزلة على رسلهم، فكذلك هؤلاء القوم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:37].

وأما أتباعه في مقام أمته ﷺ فكذلك مخصوص بأخص الخواص من متابعيه، وهو أنه ﷺ رجع بالسير من مقام بشريته إلى مقام روحانيته الأولى، ثم بجذبات الوحي أنزل في مقام التوحيد، ثم اختطف بأنوار الهوية عن أنانيته إلى مقام الوحدة كما قال: «أنا بشر مثلكم يوحي إليَّ إنما إلهكم إله واحد» [الكهف: 110] كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:8 ـ 9]، فقاب قوسين عبارة عن: مقام التوحيد، أو أدنى: عن مقام الوحدة تفهم ـ إن شاء الله تعالى ـ فمن رجع بالسير في متابعته عن مقام البشرية إلى أن بلغ مقام الروحانية، ثم بجذبات النبوة في مقام التوحيد، ثم اختطف بأنوار المتابعة عن أنانيته إلى مقام الوحدة، فقد حظي بمقام أميته ﷺ.

وفي قوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:157] يشير إلى أنه مكتوبًا عندهم وإلّا فهو مكتوب عنده ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر:55]، ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الأعراف:157] وهو طلب الحق والميل إليه، ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف:157] وهو طلب ما سواه والانقطاع عنه، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأعراف:157] إلى القربات إلى الله تعالى، وإن الطيب هو الله تعالى، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (2/ 64).

﴿الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:157] وهي الدنيا وما يباعدهم عن الله، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:157]؛ يعني: إصرهم من العهد الذي كان بين الله تعالى وبين حبيبه ﷺ، بأن لا يوصل أحد إلى مقام أميته وحبيبته إلا أمته وأهل شفاعته تبعيته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:31]، وقال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم»(1)، فكان من هذا العهد عليهم شدة وأغلال منعهم من الوصل إلى هذا المقام.

فقد وضع النبي ﷺ عنهم الإصر والأغلال بالدعوة إلى متابعته، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ [الأعراف:157]؛ أي: وقروه، واختصاص هذا المقام أنه مخصوص به من بين سائر الأنبياء والرسل، ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف:157] بالمتابعة، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف:157]؛ يعني: حين اختطف بأنوار الهداية عن أنانيته فاستفاد نور الوحدة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ﴾ [المائدة: 15]؛ يعني: محمد ﷺ، ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15]؛ يعني: القرآن، فأمروا بمتابعة هذا النور؛ ليقتبسوا منه نور الوحدة فيفوزوا بالسعادة الكبرى والنعمة العظمى.

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) ﴾ [الأعراف: 157 - 159].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:157] من حجب الأنانية الفائزون بنور الوحدة، ثم أمر الله تعالى حبيبه ﷺ أن يخبرهم أنه هو رسول الله المبعوث إليهم جميعًا، ثم بعد تعريفه لهم عرف نفسه فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي

(1) ذكره النيسابوري في تفسيره (4/ 18).

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:158]؛ أي: سماوات القلوب وأرض النفوس، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:158]؛ أي: لا مدبر فيهما غيره، ﴿يُحْيِي﴾ [الأعراف:158] قلب من يشاء بنور الوحدة، ﴿وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف:158] نفسه عن صفات البشرية والأنانية، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف:158]؛ يعني: آمنوا إيمان أهل التوحيد بالله وبرسوله المخصوص بعد الرسالة والنبوة بالله بنور الله وهو: نور الوحدة، وكلماته وهي: ما أوحى الله إليه ليلة المعراج بلا واسطة، كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة:285]؛ يعني: إيمان العيان في مقام الوحدة.

ثم أمرهم باتباعه للوصول إلى مقام الوحدة وخصوصية أميته، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:158-159] إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:162] الإشارة فيها: أن الله تعالى بعد إظهار كمالات أمة محمد ﷺ وهم خواص القوم، ثم أخبر عن عوامهم؛ ليظهر الفرق بين الفريقين، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يعني: خواصهم الذي يرشدون الخلق بالكتاب المنزل بالحق على موسى عليه السلام.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:159]؛ أي: به يحكمون بين العوام فشتان بين أمة أمية بلغوا على مراتب الروحانية بالسير في متابعة النبي الأمي، ثم اختطفوا عن أنانية روحانيتهم بجذبات أنوار المتابعة إلى مقام الوحدة التي هي مصدر وجودهم في بقاء الوحدة كما قال تعالى: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق»(1) وللرجوع والوصول إلى هذا المقام سُموا أميون، فإنهم رجعوا إلى أصلهم الذي صدروا منه إيجادًا وبين أمة كان نبيهم محجوبًا بحجاب الأنانية عند سؤال الرؤية بقوله تعالى: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] فأجب: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:143] لأنك كنت بك لا بي، فإنه لا يراني إلا من كان بي لا به، فأكون بصره الذي يبصر به، وهذا مقام الأمة الأمية، فلهذا قال موسى عليه السلام: اللهم اجعلني من أمة أحمد شوقًا إلى لقاء ربه، فافهم جدًّا.

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف: 160 – 161].

ثم أخبر عمن أنعم به على تلك الأمة، وعمَّا كفروا بأنعمه، فقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:160]؛ لأنهم ما حمدوا الله على ما أنعم عليهم، ولا شكروه على نعمه التي أعطاهم؛ ليستحقوا المزيد بل كانوا [يستبدلون] الذي هو أدنى بالذي خير، وكفروا بأنعم الله فاستحقوا العذاب الأليم هذا فيما أنعم الله عليهم من الدنيوية النعمة والأخروية أيضًا أفسدوا على أنفسهم وكفروا بها كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:161].

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: 162 – 166].

أفسدوا هذه النعمة على أنفسهم بتبديل القول،كما قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا

﴿مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف:162] فاستحقوا الرجز والهلاك بظلمهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:162] وقد مرَّ تحقيق هذه الآية في سورة البقرة.

ثم أخبر عن بعض مقالاتهم وسوء حالاتهم بقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف:163] إلى قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: 166] يشير إلى أن القرية الجسد الحيواني على شاطئ بحر البشرية وأهل قرية الجسد الصفات الإنسانية، وهي على ثلاثة أصناف:

منها: صنف روحاني: كصفات الروح.

وصنف: ما هو قلبي: كصفات القلب.

وصنف: نفساني: كصفات النفس الأمارة بالسوء، وكل قد نهوا عن صيد حيتان الدواعي البشرية في سبت محارم الله، فصنف أمسك عن الصيد ونهي عنه وهو: الصفات الروحانية، وصنف أمسك ولم ينه وهو: الصفات القلبية، وصنف يحرمه وهو: الصفات النفسانية.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف:163] إذ يعدون في سبت المحارم، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ [الأعراف:163] بعد الدواعي البشرية عند هيجان ظهور المحارم، وإغواء الشيطان في تزينها فيتوفر الداعي فيما حرم الله تعالى؛ لأن الإنسان حريص على ما منع، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف:163] فيما لم يحرم الله لا تهيج لهم حسان الدواعي ولا يتوفر، ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ [الأعراف:163]؛ أي: الصنف الذي هو الصفات النفسانية، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:163]؛ أي: بما كانوا من طبيعة النفس وصفاتها الخروج من أمر الله وطاعته وأنها أمارة بالسوء، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:164]؛ أي: صنف هو من صفات القلب لصنف من صفات الروح، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ [الأعراف:164]؛ أي: صنفًا من صفات النفس، ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف:164]؛ أي: مهلكهم بالمخالفات عند استيفاء اللذات والشهوات، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف:164] وهو المسخ بتبديل الصفات الإنسانية إلى

الصفات الحيوانية.

﴿قَالُوا﴾ [الأعراف:164]؛ يعني: الصفات الروحانية، ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:164]؛ أي: لتكونوا معذورين عند ربكم، فيما خلقنا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، فإنا فعلنا ما كان علينا، وما تغيرنا عن أوصاف الروحانية الملكية، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:164]؛ أي: ولعل النفس وصفاتها يتقون عن الأمارية وتصفون بالمأمورية والظلمانية إلى ذكر الله وطاعته فإنها قابلة لها، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأعراف:165]؛ أي: تركوا النصيحة والمواعظ الروحانية، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف:165]؛ يعني: الروح وصفاتها، فإنهم كانوا ينهون النفس عن الأمارية بالسوء، المعنى: أن من كان القلب عليه صفات الروح وقهر النفس وبذل صفاتها بالتزكية والتخلية، فإنه من أهل النجات وأرباب الدرجات وأصحاب القربات.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف:165]؛ يعني: النفس وصفاتها، فإن الظلم من شيم النفس، ومن كان الغالب عليه النفس صفاتها، ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف:165] وهو عذاب إبطال الاستعداد؛ لقبول الفيض الإلهي وعذاب البعد عن حوار الخلق، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:165] بشؤم ما كانوا يخرجون من أنوار الصفات الروحانية إلى ظلمات الصفات النفسانية الحيوانية، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأعراف:166]؛ أي: فلما بلغوا في اليم الطبعي والأوصاف السبعية والبهيمية، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:166]؛ يعني: بدلنا صفاتهم الروحانية الملكية بالصفات القردية والخنزيرية بأمر التكوين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [النحل:40] خاسئين؛ أي: قانطين بعد فساد الاستعداد الفطري عن إصلاحه، كما قال تعالى تقنيطًا لأهل النار: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:108].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا

عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف: 167 - 170].

ثم أخبر عن ابتلاء أهل البلاء بالحسنات والسيئات بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف:167] إلى قوله: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:170] يشير بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ إلى أن الله تعالى حكم بقضائه وقدره في الأزلية أن الأرواح والقلوب اللاتي يتبعن النفس وهواها، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ﴾ [الأعراف:167] وهو الشيطان، فإنه هو المنظور إلى يوم يبعثون، وهو يوم القيامة يسومهم، ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف:167] وهو الإبعاد عن العبودية والإضلال عن الصراط المستقيم، فيعذبون بعذاب الفرقة والقطيعة عن الحق، وعذاب الخزية والمذلة للنفس والشيطان، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ [الأعراف:167]؛ يعني: عقابهم يزيد في الدنيا، وهي لهم ليزدادوا إنما هذا عقوبة في الدنيا وهو يورث العقوبة في الآخرة.

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ [الأعراف:167]؛ يعني: يغفر ذنوب من يرجع إليه ويتوب؛ أي: الأرواح والقلوب إن رجعت عن متابعة النفس وهواها وتابت إلى الله واستغفرت لغفرت، فإنه ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأعراف:167] يرحم من تاب إليه، وفيه معنى آخر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: يعاقب المؤمنين في الدنيا بأنواع البلاء، ﴿مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:155]، ويوفقهم الصبر على ذلك؛ ليجعله كفارة لذنوبهم حتى إذا خرجوا أتقياء من الدنيا لا يعذبون في الآخرة ولا يعاقبون ويجدون الله، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم في الآخرة، ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ [الأعراف:168]؛ يعني: فرقنا الأرواح والقلوب، ﴿فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف:168] أرض الأجساد، ﴿أُمَمًا﴾ [الأعراف:168] فرقًا، ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ [الأعراف:168]؛ أي: قابلون لفيض نور الله، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف:168] في القبول.

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:168]؛ يعني: جعلنا الحسنات وهي: الطاعات والخيرات، والسيئات وهي: المعاصي والمظالم وسيلة الرجوع إلى الحق وقبول فيض النور، فأما الحسنات فبقدم الطاعات والخيرات يتقرب

العبد بها إلى ربه، وأما السيئات فبقدم ترك المعاصي ورد المظالم يتقرب بها إليه، فقال تعالى: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[1]، وقال: لن يتقرب إلي المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، وعن بعض المشايخ أنه قال: خطوات وقد وصلت، وفيه معنى آخر: وبلوناهم بالحسنات؛ ليرجعوا إلينا بالشكر والسيئات؛ ليرجعوا بقدم الصبر، فبقدمي الشكر والصبر يرجع إلينا الأرواح والقلوب، وأيضًا: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾؛ أي: بكثرة الطاعات ورؤيتها والعجب بها، كما كان حال إبليس، ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: بالمعاصي ورؤيتها والندامة عليها والتوبة منها والخوف والخشية من ربه، كما كان حال آدم ﷺ فرجع إلى الله تعالى وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23].

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف:169]؛ أي: فخلف الأرواح والقلوب من بعدهم لمّا سلكوا طريق الحق ووصلوا إلى مقعد الصدق، خلف السوء وهم: النفوس الأمارة بالسوء، ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف:169] وهو ما ألهمهم الله به الأرواح والقلوب من المواعظ والحكم والمعاني والأسرار ورثت النفوس، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف:169]؛ يعني: من شان النفوس؛ أي: يجعلون المواهب الربانية والكشف الروحاني ذريعة العروض الدنيوية ويصرفوها في تحصيل المال والجاه واستيفاء اللذات والشهوات، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:169]؛ أي: لأنا وصلنا إلى مقام ورتبة يغفر لنا ويعفو عنا مثل هذه الزلات والخطيئات كما هو مذهب أهل الإباحة جهالة وغرورًا منهم، وفيه معنى آخر: وهو أنهم يقولون: سيغفر لنا إذا استغفرنا عنها، وهم يستغفرون باللسان لا بالقلب.

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف:169]؛ أي: لم يمنعوا عن مثله بعد الاستغفار، بل يتعرضونه ولا يبالون به، ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 169]؛ يعني: ألم يكن من مقتضيات مواهب الحق والمواعظ والحكم والإلهامات الربانية، ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف:169]؛ أي: لا ينطقون بما لم يعقلوا ولا

(1) تقدم تخريجه.

يفترون على الله، بل يقولون على الله ما هو الحق، ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾[1] [الأعراف:169]؛ أي: قرءوا على أنفسهم وعلى غيرهم ما هو الحق والحقيقة لتلك الكشوف الروحانية من خرجها بتسويلات النفس والوساوس الشيطانية، ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:169]؛ يعني: من حقائق تلك الكشوف، وإن الدار الآخرة ونعيمها والسعادة المؤخرة فيها خير من الدنيا وما فيها للذين يتقون بالله عما سواه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف:169]؛ يعني: النفوس التي تطلب الدنيا وشهواتها بالدين بعد أن يتمتعوا بمواهب الحق بتبعية الأرواح والقلوب، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 170]؛ يعني: النفوس المتمسكة بتلك المواهب والكشوف والإلهامات.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف:170]؛ أي: وأداموا على العبودية والرجوع إلى الله والمناجاة معه، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:170]؛ أي: لا نضيع أجر النفوس القابلة لأنوار الله تعالى مالها بالاقتباس من نور الله من الأرواح والقلوب، فإن النفوس مع أماريتها بالسوء تصير باتباع الأرواح والقلوب وتزكيتها على وفق الشريعة وقانون الطريقة صالحة لأنوار الله لفيضه ورحمته، ولهذا ذكر النفوس بالمصلحين هاهنا، كما ذكر القلوب والأرواح ثمة بالصالحين حين قال تعالى: ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ [الأعراف: 168] وإنما قال لها الصالحون؛ لأنها خلقت في أصل الخلقة صالحة لقبول فيض نور الله بالتربية والتزكية والتخلية بعد أن لم تكن صالحة له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:7 - 10].

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا

(1) يعني تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان، يعني التعرض لنفحات فضله - سبحانه - خيرٌ لمن أمَّلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بَذَلَ - في تحصيل هواه - مجهودَه، تفسير القشيري (2/ 461).

مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: 171-174].

ثم أخبر عن طبيعة الإنسان إن وكل إليها بالخذلان بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف:171] يشير إلى أن الإنسان لو وكل إلى نفسه وطبيعته لا يقبل شيئًا من الأمور الدينية طبعًا، ولا يحمل أثقاله قطعًا؛ إلا أن يعان على القبول والحمل، كما كان حال بني إسرائيل لما أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة ويعملوا بها رفع الله على رأسهم جبلاً، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف:171] فاضطروا إلى القبول، فكذلك أرباب العناية رفع الله تعالى على رؤوسهم جبل رحمة، ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ إن لم يتوجهوا على الطلب ولم يطلبوا أثقال المجاهدات والرياضيات؛ أي: لو وكلوا إلى أنفسهم ما حملوا، وفي قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 171] إشارة إلى أن على رؤوس أهل الطلب جبل أمر الحق تعالى وهو أمر التحويل؛ أي: يحولهم بالقدرة؛ أي: بأن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة منه لا بقوتهم وإرادتهم، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف:171]؛ يعني: فيما أتاكم الله من فضله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171] عما سواه به.

ثم أخبر عن حال الإنسان أنه ما وكله إلى طبيعة طينته في أصل الخلقة، بل ألزمه التوحيد في حال التجريد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا﴾ [الأعراف:172] إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:174] يشير إلى أن أخذ المخلوقين يكون أخذ الشيء الموجود من الشيء الموجود، وأن أخذ الخالق تارة هو أخذ الشيء المعدوم من العدم، كقوله تعالى: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9]، وتارة هو أخذ الشيء المعدوم من الشيء المعدوم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:172] فكانوا معدومين، فأخذ من كمال قدرته ذريتهم المعدومة إلى يوم القيامة من ظهورهم المعدومة من بني آدم المعدومين، فأخذ الله تعالى تلك وأعطاهم وجودًا مناسبًا لتلك الحالة، وإنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ خصَّ النبي ﷺ

بهذا الخطاب، وما قال: ربكم ليعلم أن في معنى الآية دقة وغموض لا يطلع عليها غيره ومن أنعم الله به عليه من خواص متابعيه.

﴿مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: فاستخرج الذريات المودعة في ظهور بني آدم ﷺ من ذريته إلى يوم القيامة من ظهر آدم ﷺ وهو في العدم بعد، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ فكان هذا الاستخراج قدميًا، وآدم ﷺ عدميًا فتجلى عليهم بالصفة الربوبية ورباهم بلا هُمْ، فبوجوده جعل وجودهم وجودًا هو به؛ أي: أعطاهم شهودًا هو به يشاهدون به بأنفسهم المعدومة، فكانوا يسمعون الخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[1] [الأعراف: 172] من لسان حال التجلي، وبه أجابوه: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172] أنت ربنا الذي أعطيتنا وجود الأنانية ربانية به سمعنا كلامك وبه أجبنا خطابك، فالمسبحون منهم كانوا على ثلاث طبقات:

السابقون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل:78] كما يناسب تلك الحالة، ثم نظر إلى السابقين بنظر المحبة فجعلهم مستعدين لمحبته؛ كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، ونور سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بأنوار المحبة، فلما قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فبالسمع المنور بنور المحبة سمعوا خطابه، وبالأبصار المنورة شاهدوا جماله، وبالقلوب المنورة نظروا لقائه وفهموا خطابه، فأجابوه بلسان المحبة شوقًا وصدقًا وتعبدًا ورقًا وإيمانًا حقًا؛ لاختصاصهم بنور المحبة،

---

(1) ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: لأهل اللطف خطاب تعطف، ولأهل القهر خطاب تعظم، خاطب العارفين بتعريف المشاهدات، وخاطب الجاهلين بالقهر والامتحانات، فاعترفوا جميعًا بوحدانيته طوعًا وكرهًا، طوعًا لأهل العرفان، وكرهًا لأهل العماء والطغيان.

ولولا خطابه وإنطاقه بالقدرة الأزلية ما قالوا جميعهم ﴿بلى﴾ إلا أهل شهود جماله، فلما خاطبهم فرح أهل محبته، فطاروا بأجنحة توحيده في هواء وحدانيته فرحًا وسرورًا بجماله، وتحيّر أهل الحجاب، فبهتوا وتاهوا في أودية قهره، ثم عظّم ميثاقه تعالى معهم بشهوده إياهم بقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾: أخبر عن كشف نقاب الأزلية عن وجه السرمدية لأهل المعرفة؛ لئلا ينسوه طرفة عين إلى أبد الآبدين، وإن كانوا في حجب الامتحان؛ لأن العاشق يرى معشوقه في رؤية جميع البلاء، وكيف يحتجب المحبّ عن محبوبه، ومحبته محيطة بجميع وجوده.

قالوا: بلى أنت ربنا ومحبوبنا ومعبودنا.

وأمّا أصحاب الميمنة: فإن لم يختصوا بنور المحبة فلم يبتلوا بنار المحبة كما ابتلى بها أصحاب المشأمة، فسمعوا الخطاب بالسمع الرباني، وأبصروا الشواهد بالأبصار الربانية، وفهموا تعريف الوحدانية بالقلوب الربانية، فأجابوه بلسان الإيمان: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أنت ربنا ومعبودنا.

وأمّا أصحاب المشأمة: فامتحنوا بإظهار العزة والعلا، وحجبوا برداء الكبرياء، فسمعوا الخطاب من وراء الحجاب وعلى الأبصار غشاوة الاختيار والقلوب في أكنة العزة عن الأغيار، فلم يسمعوه بسمع القبول والطاعة، فأجابوه بلسان الإقرار بالاضطرار، وهم في دهشة الوقار ورعشة الافتقار.

وأمّا الاستخراج الفطري: فلمّا استخرج الله تعالى من ظهر آدم ذرات بيّنة استخرج من ظهورهم ذرات ذرياتهم المودعة فيها إلى يوم القيامة، والأرواح في تلك الحالة جنود مجندة في ثلاثة صفوف:

الصف الأول: أرواح السابقين.

والصف الثاني: أرواح أصحاب الميمنة.

والصف الثالث: أصحاب المشأمة.

وأمّا ذرات السابقين في الصف الأول: بحذا أرواحهم.

وذرات أصحاب الميمنة في الصف الثاني: بحذا أرواحهم.

وذرات أصحاب المشأمة في الصف الثالث: بحذا أرواحهم، فتنورت الذرات بأنوار أرواحها وكسبت تلك الذرات الموجودة بالوجود الرباني لباس الوجود الروحاني، وكسبت تلك السمع والأبصار والأفئدة الربانية لباسًا روحانيًا.

ثم خاطبهم الحق تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فسمع السابقون بسمع روحاني رباني نوراني خطابه، وشاهدوا بأبصار روحانية ربانية نورانية جماله، وأجابوا بأفئدة روحانية نورانية بنور المحبة لقائه، فأجابوه على المحبة: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أنت ربنا المحبوب والمعبود، ﴿شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:172]؛ أي: شاهدنا محبوبيتك؛ فأخذوا مواثيقهم ألّا يحبوا ولا

يعبدوا إلا إياه، وسمع أصحاب الميمنة بسمع روحاني خطابه، وطالعوا بأبصار روحانية جلاله، وآمنوا بأفئدة ربانية بإلهيته، فأجابوه على العبودية: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أنت ربنا المعبود و﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:285]، فأخذ مواثيقهم ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:23]، وسمع أصحاب المشأمة خطابه بسمع روحاني من وراء حجاب العزة، وفي آذانهم وقر العزة، وعلى أبصارهم غشاوة الشقاوة، وعلى أفئدتهم ختم المحنة، فأجابوه على الكلفة: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أنت ربنا سمعًا كرهًا، فأخذ مواثيقهم على العبودية؛ فلهذا يرجع التفاوت بين الخليقة في الكفر والإيمان؛ أي: تفاوت الاستعدادات الروحانية والربانية، فافهم جدًّا.

ثم اعلم أننا لا نجد الله تعالى ذكر أنه كلم أحدًا وهو بعد في العدم إلا بني آدم، فإنه كلمهم وهم غير موجودين، فأجابوه وهم معدومون، فجرى بالجود في الوجود ما جرى إلا الوجود، فهذا بدايتهم وإلى هذا ينتهي نهايتهم بأن يكون الله تعالى هو سمعهم وأبصارهم وألسنتهم، كما قال تعالى: « كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق»[1]، وإلى هذا أشار الجنيد ـ رحمه الله ـ حين سئل ما النهاية، وإنما أخذ الله عنهم هذا الميثاق في هذه البداية.

﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:172]؛ أي: لا تقولوا، ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:172]؛ أي: كما أغفل عن هذه المرتبة البرية كلها، ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف:173]؛ أي: أشركوا بأن رضوا الأثنينية، وما رجعوا إلى الوحدة بالفناء في الله، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف:173] مقتديًا بهم؛ لأنَّا استخرجنا الذرية من ظهور آبائهم لهذا الميثاق؛ لئلا يقولوا ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:173] الذي أبطلوا استعداد الرجوع إلى الوحدة، ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأعراف:174]؛ أي: نبينها، والآيات تدلك على الرجوع إلى الله تعالى، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:174] بهذه الآيات التي شرحناها عن البداية إليها في النهاية وهو مقام الوحدة تفهم إن شاء الله تعالى.

---

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 175 - 179].

ثم أخبر عمن أبطل الاستعداد الفطري، وانسلخ من الآيات بقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1] [الأعراف: 175] إلى قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:178] الإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الإشارة إلى من خصَّه الله تعالى بآياته وهي: الكتاب والحكمة والكرامات والمعجزات، وهي مخصوصة للأنبياء والأولياء، ثم وكله إلى نفسه فمن خاصته نفسه الأمارة بالسوء أن تنسلخ منها بأن تميل إلى الدنيا وزخارفها وشهواتها، ويتبع هواها في طلب المال والجاه والقبول والشهرة والرئاسة، فلمَّا وقع فرغ همته العلية عن ذكر طلب الحق ومحبته أدركته؛ فغره الشيطان وجعله من الهالكين الضالين عن الحق وطلبه؛ ليعلم أن المعصوم من عصمه الله تعالى، كما قال - ﷺ - في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:24]، وفيه إشارة: إلى أن لا يأمن السالك المحق مكر الله ولو بلغ أقصى مقامات الأنبياء والمرسلين، فلا يغلق على نفسه أبواب المجاهدات والرياضات ومخالفات النفس وهواها في كل حال، كما كان حال النبي ﷺ والأئمة الراشدين والصحابة والتابعين وأئمة السلف والمشايخ المتقدمين، ولا يفتح على نفسه

(1) ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحبه استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجًا بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه. البحر المديد (2/ 312).

أبواب التنعم والتمتع الدنيوي في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمركب والمسكن؛ لأنه كما أن الله تعالى جعل في مكان الغيب للسعداء ألطافًا خفية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكذلك في مكامن الغيب للأشقياء أصنافًا من البلايا خفية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فليحترز السالك الصادق بل البالغ الواصل والكامل الحاذق أن يتعرض لتلك البلايا بالتوسع في الدنيا والتبسط في الأحوال وتتبع الهوى.

فإن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف:176] إشارة إلى أن الطالب الصادق وإن بلغ في سيره إلى الدرجة العليا والرتبة القصوى بحيث يستحق الرفعة الإلهية؛ وهي عبارة عن: اجتذابه من الأنانية إلى الهوية بالجذبات الربوبية، ثم يلتفت إلى ما سوى الحق، ويركن إلى شيء من الدنيا، ويميل إليها، [فتأخذه] الغيرة الإلهية وتستدرجه إلى أسفل دركة يماثل فيها الكلب، كما قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف:176] يشير إلى أن يصير بالاستدراج بحيث أن نصحته ووعظته ونبهته عن حاله لم يقبل النصح ولم يتنبه، ويتسلك بالدعاوي ويتثبت بالأعداء ويقابلك بالإنكار ويسبك بالإعراض، وإن تركته في بلد الأرض البشرية ويتبع دعاوي الهوى فلا يغترن جاهل مغبون بأن اتباع الهوى لا يضره، فإن الله تعالى ما حذر الأنبياء عن إتباع الهوى وأوعدهم بالضلال كقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص:26].

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:176]؛ أي: قوله: ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ مثل قوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ والتكذيب بالآيات: ترك العمل بها، أو الغرور و[إنكار] ظهورها ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ [الأعراف:176] أخبرهم عن أحوال المغرورين الممكورين، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:176] في أحوالهم ويحترزون عن أعمالهم، ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ [الأعراف:177]؛ يعني: ويعملون ساء مثلاً، ﴿الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:177]؛ لأن مثلهم ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾، ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:177] بأنهم نزلوا عن مرتبة الملكية إلى الدركة الكلبية، ثم قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ [الأعراف:178]؛ يعني: من أدركته العناية، وحقيقة الهداية اليوم؛ لئلا ينزل عن المراتب العلوية إلى المدارك السفلية فهو الذي أصابه رشاش النور الذي رش عليهم من نوره، وقال ﷺ: «من أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأ فقد ضل»، ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:178]؛ يعني: من خذله الله تعالى حتى اتبع هواه فأضله الهوى عن سبيل الله فهم الذين أخطاهم ذلك النور ولم يصبهم فوقعوا في الضلالة والخسران.

ثم أخبر عن أمارات المخلوقين لأجل النار وصفات الكفار بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف:179] يشير إلى أن الله تعالى خلق الخلق أطوارًا، خلق طورًا منها للقرب والمحبة؛ وهم: أهل الله وخاصته إظهارًا للحسن والجمال، وكانوا به يسمعون كلامه ويبصرون جماله، وبه يعرفون كماله، وخلق طورًا منها للجنة ونعيمها؛ وهم: أهل الجنة إظهارًا للطف والرحمة، فجعل لهم قلوبًا يفقهون بها دلائل التوحيد والمعرفة، وأعينًا يبصرون بها آيات الحق في الآفاق والأنفس، وآذانًا يسمعون بها خطاب الحق وكلامه ودعوة الأنبياء إلى الحق، وخلق أطوارًا منها للنار وحجبها؛ وهم: أهل النار إظهارًا للقهر والعزة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:179]؛ يعني: دلائل التوحيد والمعرفة.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:179]؛ يعني: آيات الحق، ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:179]، يعني: خطاب الحق بسمع القلوب، وفي الحقيقة كان يوم الميثاق هذا القول محجوبين عن شواهد بحجب الكبرياء والعزة فأثمرهم اليوم تلك البذر أثمار صفات، ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾(1) [الأعراف:179]؛ لأن الأنعام لا يعرفون الله

(1) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل والشاة أو خاص

ليحبوه ويطلبوه فهم كذلك، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179]؛لأنهم لم يكن للأنعام استعدادهم للمعرفة والطلب، وأنهم كانوا مستعدين للمعرفة والطلب فأبطلوا الاستعداد الفطري للمعرفة والطلب بالركون إلى شهوات الدنيا وزينتها وإتباع الهوى، فباعوا الآخرة بالأولى، والدين بالدنيا، وتركوا طلب المولى فصاروا أضل من الأنعام لإفساد الاستعداد، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:179] عن الله وكمالات أهل المعرفة والطلب وعزتهم.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: 180 - 186].

ثم أخبر عن أسمائه الحسنى وصفاته العليا بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:180] إلى قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:182] يشير إلى أن اسم الله له بمثابة العلم للحق وهو: اسم ذاته تعالى، والباقي من الأسماء هو أسماء الصفات؛ لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ فأضاف الأسماء إلى اسم الله، وأسماؤه كلها مشتقة من صفاته إلا اسم «الله» فإنه غير مشتق عندنا وعند الأكثرين؛ لأنه اسم الذات، وكما أن ذاته تبارك وتعالى غير مخلوقة من شيء كذلك اسمه غير مشتق من شيء، فإن الأشياء غير مخلوقة وما اشتق من مخلوق فهو أيضًا مخلوق، فأسماء صفاته

بالإبل كذا في القاموس (بل هم أضل) بل للإضراب وليس إبطالا بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقا فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهي بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

تعالى بعضها مشتق من الصفات الذاتية فهو غير مخلوق، وبعضها مشتق من صفات الفعل فهو مخلوق؛ لأن صفات الذات: كالحياة والسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة والإرادة والبقاء قديمة غير مخلوقة، وذاته سبحانه تبارك وتعالى في الأزل بها موصوفة، وصفات الفعل: كالخلق والرزق والعطاء والمنع وغيره من صفات الفعل مخلوقة تضاف إليه عند الإيجاد، فلمَّا أوجد الخلق وأعطاهم الوزن سمي خالقًا ورازقًا، إلا أنه تعالى كان في الأزل قادرًا على الخالقية والرازقية، فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: الصفات الحسنى.

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:180]؛ أي: فادعوا الله بكل اسم مشتق من صفة من صفاته، بأن تتصفوا وتتخلقوا بتلك الصفة كالاتصاف بها بالأعمال والنيات الصالحة كصفة الخالقية، فإن الاتصاف بها أن تكون مناكحة للتوالد والتناسل لخلافة الخالق، كما قيل لحكيم وهو يواقع زوجته: ما تعمل؟ قال: إن تم فإنسانًا، والاتصاف بصفة الرازقية بأن: ينفق ما رزقه الله على المحتاجين ولا يدخر منه شيئًا فعلى هذا قس الباقي، وأمَّا التخلق بها فبالأحوال وذلك بتصفية مرآة القلب ومراقبته عن التعلق بما سوى الله وبوجهه إليه؛ ليتجلى له بتلك الصفات فيتخلق بها وهذا تحقيق قوله: «كنت له سمعًا وبصرًا فبي يسمع وبي يبصر»(1).

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:180] قال: يميلون صفاته؛ أي: لا يتصفون بها، وتسميته تعالى باسم لم يسم به نفسه أيضًا من الإلحاد، كما يسمونه الفلاسفة بـ«العلة الأولى» و«الموجب بالذات» يعنون به: أنه تعالى غير مختار في فعله وخلقة وإيجاده تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ومن وصفه لم يرد به النص فأيضًا إلحاد، ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:180] سيجزون الخذلان؛ ليعلموا بالطبع والهوى ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بالإلحاد في الأسماء والصفات فيكونوا ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

---

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:181]؛ يعني: وزروا هؤلاء الملحدين في الأسماء فإنهم ضالون، وإنا خلقنا طائفة من الخواص ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ ؛ أي: يتصفون بصفات الحق، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:181]؛ أي: وبالحق يحكمون ويميلون إلى الأعمال والأحوال والصفات والأخلاق، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:182]؛ أي: لم يعملوا بها ولم يتصفوا بصفاتنا، يشير إلى: أحوال أرباب الظواهر فإنهم يعملون بأعمال الشريعة ظاهرًا ويستحقون بها المراتب العلية، ولم يعملوا بأعمال بواطنها في عمارة الباطن؛ ليتصفوا بصفات الحق، وإن تحصل لهم شيء من الأعمال الظاهرة والأحوال الباطنة يجعلونه وسيلة وذريعة لتحصيل المقاصد الدنيوية من الجاه والمال والشهوات فهذا تكذيب الآيات، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182] بأن نكلهم إلى أنفسهم وهواها؛ ليميلوا بالطبع عن الحق، ثم يفتح عليهم أبواب ما يميل إليه هوى أنفسهم بالتدريج؛ ليندرجوا فيها ولا شعور لهم بالانحطاط عن مراتبهم والتدرج من منازلهم، بل ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف:104]، وهذا حقيقة قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:183] في إملائهم وخذلانهم بأن ينزلوا إلى الدركات وهم يحسبون أنهم يصعدون على الدرجات.

ثم أخبر عن بداية الهداية أنها التفكر والتذكر بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:184] إلى قوله ﴿ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:186] الإشارة فيه: أن التفكر بالعقل السليم يورث النظر والاعتبار، فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ يدل على أن العاقل لو يتفكر بالعقل السليم عن آفات الوهم والخيال والتقليد والهوى في حال النبي ﷺ وأخلاقه وسيرته فضلاً عن معجزاته؛ لتحقق عنده أنه النبي الصادق ﷺ، وإنما يدعوه إليه كل حق وصدق وأنه ينجوا بهذا التفكر من النار، كما أخبر تعالى عن حال أهل النار بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:10].

وفي قوله ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[1]

(1) قال سيدنا البقلي: مَن لم يكن من نظّار الحقائق، والمكاشفين أسرار الجبروت في الملكوت من أهل

[الأعراف:185] إشارة إلى أن المكونات من نوعين:

نوع منها: ما خلق من غير شيء؛ وهو الملكوت الذي هو باطن الكون، والكون به قائم بالقدرة كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:83]، ونوع منها: ما خلق من شيء؛ وهو الملك الذي ظاهر الكون، فكما أن النظر في الملك بحس البصر فالنظر إلى الملكوت بالعقل والقلب، فنظر أرباب العقول فيه يفيد رؤية الآيات والاستدلال بها إلى معرفة الخالق وإثبات الصانع، ونظر أصحاب القلوب فيه يفيد شواهد الغيب، بالولوج فيه يصير إيمانه إيقانًا بل عيانًا، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75]؛ ليكونوا مستدلين بنظر العقول أو الموقنين بنظر القلوب.

﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف:185]؛ يعني: إن شاهدوا

=

الدقائق، كيف ينظر إلى مرآة الصفات، التي تبرز فيها أنوار الذات؟ نَدَبَهم الحق إلى طلب مشاهدته وقربه، وإلى النظر من القلوب إلى الغيوب؛ ليدركوا بصفاء العقول، وأبصار الأرواح، وعيون الفؤاد، ما لم يدركوا بجميع العبادات؛ لأنَّ النظر يورِّث الفكرة، والفكرة تورِّث الذكر، والذكر يورث المعرفة، والمعرفة تورث الحكمة، والحكمة تورث المحبّة، والمحبة تورث الشوق، والشوق تورث العشق، والعشق يورث الأنس، والأنس يورث الانفراد، والانفراد يورث التوحيد، والتوحيد يورث الفناء، والفناء يورث البقاء، والبقاء يورث رؤية الأزل، ورؤية الأزل تورث رؤية الأبد، والعبد هناك يطير بهذه الأجنحة من الأزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال.

ولو كان القوم أهل مناهج كبرى من المشاهدات أحالهم الحق بالنظر إليه، لا إلى الملك والملكوت، فإن النظر منه إلى غيره شرك في التوحيد، وهؤلاء ضعفاء مسالك المعرفة.

قال بعضهم: النظر في الملكوت يورث الاعتبار، والنظر إلى المالك يسقط منك الاشتغال بسواه.

وقال بعضهم: النظر إلى الملكوت على مراتب ثلاث: «أولها»: النظر بعين العبرة لا بعين الشهوة، و«الثانية»: النظر بعين اليقين إلى قدرة القادر، و«الثالثة»: النظر بعين المعرفة من المُلك إلى المالك. فأمّا الناظر بعين العبرة، فإنه يجد حقيقة التوحيد، والناظر بعين اليقين يجد حقيقة الإخلاص، والناظر بعين المعرفة يجد حقيقة المعرفة. قال الأستاذ: أطلع الله سبحانه أقمار الآيات، وأماط بضيائها سحاب الشبهات، فمَن استضاء بها ترقَّى إلى شهود القدرة.

ويقال: ألاح الله لقلوب الناظرين بعيون الفكر حقائق التحصيل، فمَنْ لم يعرج في أوطان التقصير أنزلته مراكب السير بمباحات التحقيق.

بمطالعة الملكوت إنهم من الفانيات فعل أجل فنائهم قد اقترب، فإن لم يؤمنوا بطريق النظر استدلالاً ومشاهدة، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:185]؛ يعني: والآجال قريبة فيموتون عن الفكر، ثم قال تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: 186]؛ أي: من خذله الله لينظر في الملكوت بنظر العقل والقلب يبقى على ضلالة البشرية وجهالة الإنسانية فلا هادي غير الله، ولا يهديه الله، ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:186]؛ أي: ونذرهم في طغيانهم بالخذلان إلى طبيعتهم في العصيان يتيهون بنعمة البصيرة ولا يرون حقًا ولا يتركون باطلاً.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف: 187 - 192].

ثم أخبر عن سؤالهم من سوء حالهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف:187] إلى قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:188] الإشارة فيها: أن الساعة عبارة عن: الساعة التي يظهر الله تعالى فيها آثار الصفة القهارية؛ لإفناء عالم الصورة وهو الملك ظاهر الكون كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16] حين تطوى السماوات وتبدل الأرض ولا يبقى من الملك وأهله داعٍ ولا مجيب، فيجيب هو سبحانه ويقول: ﴿لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:187] دليل على أن للساعة ثقلاً من ظهور صفة القهر يضيق منها نطاق طاقة السماوات والأرض، وأنه مما استأثر الله به نفسه، وأنها هي الساعة التي يموت فيها الخلق؛

لأنه يقول ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:187] معنى آخر من الإخفاء: وهو المنع، منعت علمها عنهم، ومنه في حديث خليفة كتبت إلى ابن عباس أن يكتب إلي ويخفي عني؛ أي: يمسك عني بعض ما عنده مما لا أحتمله وعطس رجل عند النبي ﷺ فوق ثلاث فقال له: خفوت؛ أي: منعتنا أن نشمتك بعد الثلاثة، والخفو: المنع، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ﴾ [الأعراف:187] لا عندي، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:187] أن علمها عند الله وليس عندك، يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:189] بمشيئة حادثة، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعراف:189] في الأزل بمشيئة القديمة أن يكون لي أو يملكني ما شاء لي تمليكه، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأعراف:189]؛ يعني: ولو كنت كذلك، ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف:188] من الحياة الأبدية ورفع الحاجات البشرية والأحكام الإلهية، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف:189]؛ أي: الموت والحاجات، ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [الأعراف:189] لمن كان حيًا بالحياة الحقيقية فيسمع كلامي وينتفع بإنذاري فيؤثر ما يبقى علي ما يفنى، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ [الأعراف:189] بما فضل الله به على خواص عباده من الدرجات العلية المقامات السنية والكرامات والقربات، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 189] بها والسعي في تحصيلها، فإن الإيمان الحقيقي هو: السعي في طلب ما آمنوا به والإتيان بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه.

ثم أخبر عن الذي عنده علم الساعة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف:189] إلى قوله: ﴿ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف:195] والإشارة فيها: أن في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ؛ تعريف نفسه بالخالقية والقادرية على أنه يخلق النفوس كلها من نفس واحدة وهي: نفس آدم ﷺ، وفيه يشير إلى أن النفوس كما خلقت من نفس واحدة فكذلك الأرواح خلقت من روح واحدة وهو: روح محمد ﷺ، فكان هو أبا الأرواح كما كان آدم أبا البشر لقوله ﷺ: «أنا لكم كالوالد لولده»[1]

(1) ذكره السيوطي في «جامع الأحاديث» (39/ 177)، وعزاه للضياء.

وقوله ﷺ: «أول ما خلق الله روحي»(١) فإن أول كل نوع هو المنشأ منه ذلك النوع من الحيوانات والنبات بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:189] يشير إلى أن آدم ﷺ لما خلق ونفخ فيه الروح كان روحه مستوحشًا من القالب الجسماني؛ لأنه كان أنيس الحق تعالى في حظائر القدس بكذا ألف سنة؛ ولهذا سمي إنسانًا، ثم ولد له من نفسه بالنفخة الإلهية حواء، فلو لم يخلق حواء من نفسه لما سكن روحه إلى غير الحق، ومع هذا ما كان ليسكن روحه وروحها إلى شيء حتى أمر بالسكون إلى الجنة ونعيمها تأكيدًا لمساكنة كل واحد منهما إلى الآخر بقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35] وهذا أمر التكوين إلى سكون الروح إلى القلب؛ لأنه خلق منه؛ ولأنه كان مخصوصًا بين الأصبعين من أصابع الله تعالى، وكان الروح يشم من القلب نسيم نفحات ألطاف الحق تعالى.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف:189]؛ أي: الروح القلب، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف:189]؛ أي: حمل القلب بالنفس وصفاتها حملاً خفيفًا في البداية بظهور أدنى أثر من أثار الصفات، خافًا على أنفسهما الروح والقلب من تبدل الصفات الروحانية الأخروية النورانية بالصفات النفسانية الدنيوية الظلمانية، ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:189].

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ [الأعراف:190]؛ أي: نفسًا قابلة للعبودية، ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:190]؛ أي: جعل الروح والقلب وجه النفس إلى الدنيا ونعيمها؛ ليقوم القالب بها؛ ولقيامها صلاحًا للعبودية، فلما استلذت النفس من الدنيا عبدتها وعبدت ما فيها فصارت عبد البطن وعبد الخميصة وعبد الدرهم والدينار، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:190] بأن يجعلوه شريك الدنيا في التعبد والعبودية، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:191] يعني: الدنيا وما فيها، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف:192]؛ أي: لا يستطيع الدنيا وما فيها للروح والقلب والنفس تقوية وتربية إلا بالله تعالى، ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف:

(١) تقدم تخريجه.

192] للبقاء والدوام.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: 193 - 197].

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ [الأعراف:193] يعني: الروح والنفس والقلب، ﴿إِلَى الْـهُدَى﴾ [الأعراف:193]؛ أي: طلب الحق، ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف:193] بحولهم وقوتهم، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف:193] فإنهم لا يهتدون بدعائكم إلا بدعاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس:25].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الأعراف:194]؛ أي: تعبدوا من الدنيا وما فيها، ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:194] محتاجون كما تحتاجون، ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ [الأعراف:194] في حاجاتكم، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [الأعراف:194] بقضاء حاجاتكم ونجاتكم من النار، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف:194] أن للدنيا وما فيها منفعة أو مضرة بنفسها بل الله الضار النافع، ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:195] إلى أحد باختيارهم فيعينوه، ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:195] من أحد شيئًا فيغفروه، ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:195] حال أحد أو فساد حاله، ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:195] استدعاء أحد أو التماساته، ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ [الأعراف:195] يا روح ويا قلب، وبالنفس من الدنيا وما فيها، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ [الأعراف:195]؛ أي: أجمعوا إلى كيدكم، ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف:195] ولا تمهلون، فإنكم لا تملكون نفعًا ولا ضرًا.

ثم أخبر عن الولاية في الخير والشر أنها لله تعالى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ [الأعراف:196] إلى قوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:200] الإشارة

فيها: أن عقب قوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ يشير إن حافظي وناصري هو: الله الذي نزل الكتاب قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:67]، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:196] فإن بتوليته إياهم وإعانته لهم يعملون الصالحات، ولو وكلهم إلى أنفسهم كانوا يعملون السيئات، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف:53].

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الأعراف:197]؛ أي: تعبدون من دون الله من الدنيا والهوى والشيطان والخلق، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 197] إلا بالله؛ لأنه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران:126]، كقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:160].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: 198 - 203].

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ [الأعراف:198]؛ يعني: النفوس المتمردة وأهلها، ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ [الأعراف:198] بآذان القلوب وسمع القلوب؛ لأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:18]، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:198] إليك بالخواص الظاهرة، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198] بنور البصيرة أنوار نبوتك ورسالتك وما أعطاك الله من الفضل العظيم والمقام الكريم.

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف:199]؛ أي: تخلق بخلق الله، فإن العفو من أخلاقه تبارك وتعالى، ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف:199]؛ أي: بالمعروف وهو: طلب الحق تعالى لا في معروف العارفين، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:199] عن كل ما يدعوهم إلى غير الله وعمن يطلب ما سوى الله، فإن الجاهل هو الذي لا يعرف الله ولا يطلبه، والعالم يعرف الله ويطلبه، ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف:200] في طلب غير الله

تعالى، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ [الأعراف:200] من غير الله بأن تفر إلى الله وتترك ما سواه، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ [الأعراف:200] يسمع القبول والإجابة لما تدعوه إليه، ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200]؛ أي: ينفعك وما يضرك فيسمع بها لا ينفعك ولا ما يضرك.

ثم أخبر عن أحوال الأتقياء والأشقياء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأعراف:201] إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:203] الإشارة فيها: أن الذين اتقوا هم: أرباب القلوب، والتقوى من شأن القلب، كما قال ﷺ: «التقوى هنا» أشار إلى صدره والتقوى نور يبصرون به الحق حقًا والباطل باطلاً، لهذا قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ ؛أي: إذا مس طائف خيال القلب النقي نوع طيف من عمل الشيطان يراه القلب بنور التقوى ويعرفه، فيتذكر أنه يفسده ويكدر صفاءه ويقسيه فيجتنبه ويحترز منه فذلك قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ [الأعراف:202]؛ يعني: النفوس إخوان القلوب، فإن النفس والقلب توأمان ولدا من ازدواج الروح والقالب يمد النفس في الطاعة، ولولا ذلك ما صدرت من النفس طاعة؛ لأنها جبلت على الأمارية بالسوء، والنفس تمد القلب في الغواية والضلالة، ولولا ذلك لما صدر من القلب معصية؛ لأنه جبلت على الاطمئنان بذكر الله تعالى وطاعته، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:202] لا يسأم كل واحد من فضلها ولا يدع ما جبل عليه؛ لئلا يأمن أرباب القلوب من كيد النفوس، ولا يقنط أرباب النفوس المسرفين على أنفسهم من رحمة الله في إصلاح أحوال قلوبهم، ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ [الأعراف:203]؛ يعني: لم تأت القلوب بآية من الله؛ لتعجز النفوس عن تكذيبه، ﴿قَالُوا﴾ [الأعراف:203]؛ يعني: النفوس للقلب، ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف:203] هلا أخلقتها من خاصية قلبك لتزكية النفوس، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف:203]؛ يعني: إنما أتبع إلهام الحق تعالى فلا أقدر على تزكية النفوس إلا بقوة الإلهام الرباني، ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:203]؛ يعني: هذا الإلهام وقوته واردات ربانية ترد على القلوب فتعجز النفوس عن تكذيبها فيها تتقوى القلوب على

تزكية النفوس، وذلك ﴿وَهُدًى﴾ [الأعراف:203] من الله تعالى، ﴿وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] [الأعراف:203] يصدقون أن القلوب مهبط واردات الحق ومهبط أنوار أسراره.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ۝﴾ [الأعراف: 204 – 206].

ثم أخبر عن دأب القلوب في اجتلاب إلهامات الغيوب بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الأعراف:204] إلى آخر السورة الإشارة فيها: أن الإنصات شرط في حسن الاستماع، وحسن الاستماع شرط في الأسماع، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف:204] بلسانكم الظاهر؛ لتسمعوا له بأذانكم الظاهرة ﴿وَأَنصِتُوا﴾ بألسنتكم الباطنة؛ لتسمعوا بآذانكم الباطنة، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204] بالاستماع بالسمع الحقيقي، وهو قوله تعالى: «كنت له سمعًا بي يسمع»[2]، فمن

(1) ذكر سبحانه امتنانه على المؤمنين بما خاطبهم بمجموع كلامه القديم الذي أبان ما عنده لهم من مدخور السعادات، وسني الكرامات، وعظيم الدرجات، ودعاهم به إلى أعمال زكية، وأحوال شريفة، ومقامات عزيزة، وعرّفهم به أسمائه ونعوته وصفاته وذاته تعالى وأفعاله في انتظام صنائعه، وأعلام قدرته ودلهم به إلى معرفة كل صفة من صفاته القديمة التي معرفتها معرفة ذاته تعالى، عرّف نفسه به للعارفين، وفتح بمفاتيحه كنوز غيبه للروحانيين، وكشف قناع الجهل بأنواره عن قلوب الغافلين والعالمين، وجذب بلطائفه قلوب المحبين والمشتاقين والعاشقين إلى مشاهدته ووصاله، ورتّب فيه مقامات العبودية ومعارف الربوبية، وذلك صدر منه بسابق علمه وقديم حكمه، ويهدي به إلى نفسه قلوب المؤمنين به، وذلك منه رحمة كافية للعموم والخصوص، وكان رحمته سبقت في الأزل لمَنْ خاطبه سبحانه بنعمة هدايته به إليه، وأي نعمة أعظم من إنزاله كلامه إلينا الذي يعتقنا من رق النفوسية، ويخلصنا من شهوات الشيطانية، ويهدينا بنور إلى أنوار الربانية، والحمد لله الذي أمتن علينا بفواتح إنعامه ولطائف إكرامه واصطفانا بخطابه، وجعل استماعنا محل استماع كلامه وقلوبنا أوطان بيانه وأسرارنا أوعية أنوار سلطانه وأرواحنا خزائن عرفانه، وعقولنا مشاهد برهانه وأبداننا مساقط شرائعه من قرآنه. قال بعضهم: أنزل الله كتابًا فيه هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب، وفرقانًا بين العدو والولي، لا يعلم معانيها إلا المؤمنين بمتشابهه والعاملون بأحكامه والتالون به آناء الليل والنهار فيه الفلاح لمَنْ طلب الفلاح، والنجاة لمَنْ رام النجاة، لا يهلك عليه إلا هالك ولا ينجو به إلا ناجي.

(2) تقدم تخريجه.

سمع القرآن بسمع بارئه فقد سمع من قارئه، وهذا سر ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 1-2]، فهو مستعد لخطاب، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾ [الأعراف:205] بالأفعال والأخلاق والذات، ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف:205] بأن تبدل أفعال نفسك بالأعمال التي أمر الله بها، وتبدل أخلاقها بأخلاق الله تعالى وتفني ذاتها في ذات الله، وهذا كما قال الله تعالى: «وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»[1] وهو سر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، ألا ترى أن الفراش لما ذكر الشمعة في نفسه بإفناء ذاته في ذاتها كيف ذكر الشمعة في نفسه بإبقائها ببقائه على أن تلك الحضرة منزهة عن المثل والمثال، قوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف:205] التضرع: من باب التكلف:

بداية هذا الذكر: بتبديل أفعال النفس بأعمال الشريعة يكون بالتكليف ظاهرًا، ووسطه: بالتخلق بأخلاق الله بآداب الطريقة يكون مخفيًا باطنًا، ونهايته: بإفناء ذاتها في ذاته بأنوار الحقيقة يكون منهياً عن جهر القول، وهذا حقيقة قوله ﷺ: «إفشاء سر الربوبية كفر»[2].

قوله تعالى: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف:205] يشير إلى: غدو الأزل وآصال الأبد، فإن الذاكر الحقيقي هو: المذكور الحقيقي، والذاكر والمذكور في الحقيقة هو: الله الأزلي الأبدي؛ لأنه تعالى قال في الأزل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ففي الأزل خاطبهم وكان هو الذاكر والمذكور على الحقيقة، على أنا نقول: ما ذكره إلا هو، وهذا حقيقة قول يوسف ابن الحسين الرازي: ما قال أحد الله إلا الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾»[3] [الأعراف:205] الذين لا يعلمون أن الذاكر والمذكور هو: الله تعالى في

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره حقي (4/ 369).

(3) فيه إشارة إلى أن الذكر القلبي يجب أن يداوم عليه ولا يزال الإنسان يستحضر جلال الله وكبرياءه بحسب الطاقة البشرية ليتنور جوهر النفس ويستعد لقبول الإشراقات القدسية فيضاهي سكان حظائر الجبروت. [تفسير النيسابوري (4/ 54)].

وقال حقي: للدلالة على أن الانسان ينبغي له أن لا يغفل قلبه عن استحضار جلال الله تعالى وكبريائه وفي الحديث: «ألا أنبئكم بما هو خير لكم وأفضل من أن تلقوا عدوكم فتضربوا رقابهم ويضربوا
-

الحقيقة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:206]؛ يعني: الذين أفنوا أفعالهم وأخلاقهم وذواتهم في أوامر الله وأخلاقه وذاته، فما بقوا عند أنفسهم وإنما بقوا ببقاء الله عنده، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف:206]؛ لأن الاستكبار من أخلاقهم وقد أفنوها في أخلاقه، فما بقي لهم الاستكبار فكيف يستكبرون عن عبادته وقد أفنوا أفعالهم في أوامر الله وهي عبادته، فأعمالهم قائمة بالعبادة لا بالفعل، وهم في حال الفناء عن أنفسهم والبقاء بالله، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ [الأعراف:206] ينزهونه عن الحلول والاتصال والإتحاد، وعن أن يكون هو العبد أو العبد إياه، بل هو كما كان في الأزل ﴿لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان:1].

﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:206] في الوجود والعدم من الأزل إلى الأبد، سجدوا له من الأزل في العدم منقادين مسخرين لأحكام القدرة في جادة الوجود، وسجدوا له إلى الأبد في الوجود ببذل الموجود منقادين لقربه قائمين لأحكام القدرة في تصاريف الإعدام والإيجاد والإفناء والإبقاء.

رقابكم ذكر الله» أي: ما هو خير لكم مما ذكر ذكر الله سبحانه لأن ثواب الغزو والشهادة في سبيل الله حصول الجنة والذاكر جليس الحق تعالى كما قال: «أنا جليس من ذكرني» والجليس لا بد أن يكون مشهودًا، فالحق مشهود الذاكر وشهود الحق أفضل من حصول الجنة ولذلك كانت الرؤية بعد حصول الجنة وكمال تلك النعمة. والذكر المطلوب من العبد أن يذكر الله باللسان ويكون حاضرًا بقلبه وروحه وجميع قواه بحيث يكون بالكلية متوجهًا إلى ربه فتنتفي الخواطر وتنقطع أحاديث النفس عنه. ثم إذا داوم عليه ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه ولا يزال يذكر بذلك حتى يتجلى له الحق من وراء أستار غيوبه فينور باطن العبد بحكم ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ وبعده إلى التجليات الصفاتية والأسمائية ثم الذاتية فيفنى العبد في الحق فيذكر الحق نفسه بما يليق بجلاله وجماله فيكون الحق ذاكرًا ومذكورًا وذلك بارتفاع الثنوية وانكشاف الحقيقة الأحدية، كذا في «شرح الفصوص» لداود القيصري في الكلمة اليونسية.

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنفال: 1 – 5].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾[1] [الأنفال:1] إلى قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:4] يشير إلى أن كثرة السؤال توجب الهلاك، ولهذا نهى النبي ﷺ عن القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال[2]، فلما أكثروا السؤال، قال ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنه أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»[3] ومن كثرة سؤالهم قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ وإنما سألوه لتكون الأنفال لهم فقال على خلاف ما تمنوا.

﴿قُلِ الْأَنفَالُ لله وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:1] يعملا فيها ما شاءا لا كما شئتم؛ لتتأدبوا ولا تعترضوا على الله والرسول بطريق السؤال، وتكونوا مستسلمين لأحكامها في دينكم ودنياكم، ولا تحرصوا على الدنيا؛ لئلا تشوبوا أعمالكم الدينية بالأعراض الدنيوية ﴿فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:1] أي اتقوا بالله عن غير الله وأصلحوا ما بينكم من الأخلاق الرديئة والهمم الدنيئة، وهي الحرص على الدنيا والحسد على الإخوان وغيرهما من الصفات الذميمة التي يحجب بها نور الإيمان عن القلوب ﴿وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ﴾

---

(1) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُل لهم أنها لله مِلْكًا، ولرسوله ﷺ الحُكْمُ فيها بما يقضى به أمرًا وشرعًا. قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيبوا لأمر الله، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحُكمَ بمقتضى أحوالهم، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقّ على مراد النَّفس، وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وذلك بالانسلاخ عن شُحّ النَّفس، وإيثار حقّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظّ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد.

(2) رواه البخاري في «صحيحه» (9/ 33)، ومسلم في «صحيحه» (11/ 388).

(3) رواه البيهقي في «الكبرى» (7/ 103).

[الأنفال:1] بالتسليم لأحكامها والائتمار بأوامرها والانتهاء عن نواهيها ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:1] تحقيقًا لا تقليدًا، فإن المؤمن الحقيقي هو الذي كتب الله بقلم العناية في قلبه الإيمان وأيده بروح منه فهو على نور من ربه.

كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:2] فإن دخل القلوب عند سماع ذكر الله من خصوصيته النور المنبسط فيه؛ لأنه من شأن نور الإيمان أن ينقي القلب ويصفيه عن كدورات صفات النفس وظلمتها، ويلين قسوته فيلين إلى ذكر الله فيجد شوقًا إلى الله، وهذا حال أهل البدايات، وأمَّا أهل النهايات الطمأنينة والسكون بالذكر؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

وقال ﷺ: «أحب القلوب إلى الله أصلبها في دين الله، وأصفاها عن الذنوب، وأرقها على الإخوان»[1]، ولمَّا جاء قوم حديثو العهد بالإسلام فسمعوا القرآن كانوا يبكون ويتأوهون، فقال أبو بكر ﷺ : هكذا كنا في بداية الإسلام، ثم قست قلوبنا.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:2] فجعل من شرط الإيمان الحاصل في القلوب: ازدياده عند سماع القرآن وتلاوته، وذكر الله وطاعته وعبادته؛ وذلك لأن الإيمان الحقيقي هو النور الواقع في القلوب بعد انفتاح روزنة القلوب من أنوار تجلي شموس صفات مالك يوم الدين للقلوب المشتاقة، فتكون وجوه القلوب النافرة من دنس حب الدنيا بذلك النور إلى ربها وحبيبها ناظرة، فلمَّا تليت على أصحابها الآيات، أو تلوها، أو ذكروا بالله، أو ذكروه، أو عملوا عملاً صالحًا زاد انفتاح روزنتها بقدر صدقها وشوقها، فيزيد فيها نور الإيمان فيزدادون إيمانًا مع إيمانهم.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2] يعني: فحينئذ على ربهم يتوكلون لا على الدنيا وأهلها، فإن من شاهد بنور الإيمان جمال الحق وجلاله، فقد استغرق في بحر لجي من شهود الحق بحيث لا مستغرق لغيره، ويرى الأشياء مضمحلة تحت سطوات جلاله

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (3/ 61).

فيكون توكله عليه لا على غيره.

ومن صفاتهم أنهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [الأنفال:3] أي: يديمونها بملازمة العبودية ظاهرًا وباطنًا، ولا يشتغلون بطلب الدنيا وإن كانت حاجتهم، قائمة بها لإدامة الصلاة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال:3] أي: ومما أعطيناهم من غير طلبهم يصرفون في مصالح الدين وحراثة الآخرة وتقربًا إلى الله تعالى، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:4] لاستكمال شرائط الإيمان فيهم بالتحقيق لا بالتقليد، ووقوع نور الحق في قلوبهم، وتهون ظلمة الباطل عنها، ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال:4] على قدر استعلاء ذلك النور وتمكنهم في مقام العندية، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ [الأنفال:4] أي: عطف من عواطفه يستر بنوره ظلمة وجودهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:4] أي: عطاء كريم يناسب كرمه.

ثم أخبر عن تحقيق هذا لنبيه بقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال:5] إلى قوله: ﴿إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:10] الإشارة فيها أنه تعالى أخرج المؤمنين الذين هم المؤمنون حقًا عن أوطان البشرية إلى مقام العندية بجذبات العناية، ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ [الأنفال:5] أي: من وطن وجودك ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بمجيء الحق من تجلي صفات جماله وجلاله.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:5] أي: القلب والروح، ﴿لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال:5] يعني: للفناء من التجلي، فإن البقاء محبوب والفناء مكروه على كل ذي جود.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: 6 – 11].

﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ [الأنفال:6] الروح والقلب، ﴿فِي الْـحَقِّ﴾ [الأنفال:6] أي: في مجيء الحق، ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْـمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال:6] الفناء كمن يساق إلى الموت، ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ﴾ [الأنفال:7] أيها السائرون إلى الله، ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال:7] إمَّا الظفر بالأعداء وهي النفوس، فإن الظفر بها نهاية إقدام الرجال السائرين، وعزيز الواردات الروحانية وغنائم الأسرار الربانية.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾(1) [الأنفال:7] أي: أردتم ألا تجاهدوا عدوّ النفس ذات المكر والحيلة والهوى، واستحليتم الواردات والشواهد الغيبية وذلك أن السير قسمان: سير السالكين على أقدام الطاعات وتبديل الصفات النفسانية إلى جنات الروحانية، وسير المجذوبين على أجنحة عنقاء الجذبات إلى وراء قاف الأنانية، ألا ترى إلى حال موسى عليه السلام أنه لما كان من السالكين كان سيره إلى ميقات ربه قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف:143]، وكان مقامه مع الله المكالمة؛ إذ لم يجاوز طور النفس، ونبينا محمد ﷺ لما كان من المجذوبين كان سيره على جناح جبريل عليه السلام إلى سدرة المنتهى ومنها على رفرف الجذبة الإلهية إلى قاب قوسين أو أدنى فكان مقامه مع الله المشاهدة لما جاوز عن قاف الأنانية، فمن العناية ألَّا يكل الله السائر إلى ما يوافق طبعه وهواه؛ بل يخرجه من ظلمات الطبيعة إلى نور الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْـحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنفال:7] بجذباته.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:7] يعني: يقطع بمجيء الحق دابر كفار النفوس عن المجذوبين، ﴿لِيُحِقَّ الْـحَقَّ﴾ [الأنفال:8] بالمجيء، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال:8] بالزهوق عند مجيء الحق، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْـمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال:8] أي: النفوس الأمارة بالسوء، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال:9] يعني: عند استغاثة الروح والقلب من

---

(1) أي: ذات الحرب (تكونُ لكم) وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُددهم، (ويريد الله أن يُحق الحق) أي: يظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة، (بكلماته) أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالأمداد، أو بنفود كلماته الصادقة بهلاكهم، (ويقطع دابر الكافرين) أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم. البحر المديد (2/ 336).

النفوس إلى الله عند استيلاء صفاتها وغلبة هواها على الروح والقلب.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأنفال:9] أي: ألف صفة من الصفات الملكية والروحانية، ﴿مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:9] متعاقبين؛ لتكون صفات النفس بها مغلوبة، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ﴾ [الأنفال:10] يعني: هذا الإمداد، ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ [الأنفال:10] أي: إلا بشهادة لكم بتبديل الأخلاق.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾ [الأنفال:10] أي: بهذا التبديل، ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال:10] وتتحقق عندكم النتائج من أمارات النصر والظفر بالنفوس، ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ [الأنفال:10] الحقيقي الذي هو الظفر بالنفس وهلاكها واضمحلال صفاتها، ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [الأنفال:10] يعني: بتجلي صفة القهارية، ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ [الأنفال:10] لا يوصل إلا بعد فناء الوجود، ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:10] بمن يفنيه عنه ويبقيه به.

ثم أخبر عن آثار لطفه مع الأخيار وأثار قهره مع الأشرار بقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ [الأنفال:11] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال:14] يشير إلى: النعاس في المعركة عند مواجهة العدو وقتاله والأمن منه بدل الخوف، إنما هو من تقليب الحال إلى ضده بأمر التكوين.

كما قال تعالى للنار: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] فكانت كذلك، قال للخوف: كن أمنًا على محمد وأصحابه فكان، ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنفال:11] يعني: من سماء الروحانية ماء الإلهام الرباني، ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال:11] من دنس الصفات النفسانية والحيوانية، ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال:11] أي: وساوسه وهواجسه، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال:11] بالصدق والإخلاص والمحبة والتوكل واليقين، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:11] على استقامة الطلب.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنفال: 12 – 16].

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:12] أي معكم في تثبيتهم يعني: التثبيت من الله لا من غيره نظيره قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم:27].

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال:12] يشير إلى تثبيت المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين وكل خير وشر منه سبحانه، قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:12] هذا كله وأمثاله منه تعليمًا وتقديرًا وتيسيرًا.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال:14] أي: إلقاء الرعب في قلوب الكافرين، وضرب أعناقهم بأنهم شاقوا الله ورسوله أي: خالفوهما وتركوا رضاءهما واتبعوا الهوى. يشير إلى أن كل سعادة وشقاوة تحصل للعبد في الدنيا والآخرة يكون للعبد فيه مدخل بالكسب موجب لذلك، دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:14] أي: من شدة عقاب أنهم شاقوا الله ورسوله يعني: سبق منهم ما عاقبهم الله بالمشاقة.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ [الأنفال:14] أي: ذوقوا العاجل منه صورة ومعنى، أما صورة: فبالقتل والأسر والمصائب والمكروهات، وأما معنى: فبالبعد والطرد عن الحضرة، وتراكم الحجب، وموت القلب، وعمى البصيرة، وضعف الروح، وقوة النفس، واستيلاء صفاتها وغلبة هواها وما يبعده عن الحق ويقربه إلى الباطل، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:14] في الآخرة، ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال:14] عذاب نار القطيعة والحرمان.

ثم أخبر عن آداب القتال مع الكفار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال:15] الإشارة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ القلوب المؤمنة، ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾ كفار النفوس وصفاتها، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي: لا تنهزموا من سطوات النفوس وغلبات صفاتها فتقعوا عن صراط مستقيم الطلب،

وتستولي النفوس، وتنكسر القلوب وتضمحل صفاتها عند استيلاء صفات النفوس فتهلك القلوب، بل اثبتوا بالصبر عند صدمات النفوس فإن الصبر عند الصدمة الأولى، ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ [الأنفال:16] ومن ينهزم من القلوب عن النفوس يوم استيلائها وغلبات صفاتها.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ [الأنفال:16] يعني: إلا قلبًا ينحرف لتهيئوا أسباب القتال مع النفس، أو راجعًا إلى الاستمداد من الروح وصفاته، أو إلى ولاية الشيخ يستمد منها، أو إلى الحضرة الربانية مستمدًا في قمع النفس وقهرها بطريق المجاهدة والرياضة؛ لتنكسر غلبات صفات النفس، وتنطفئ ثورتها فيظهر شواهدها القلوب فيها بالتقوى، فإن المجاهدات تورث المشاهدات، وأمَّا ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ [الأنفال: 16] يعني: بطرد وإبعاد منه، ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ [الأنفال:16] البعد عن الحضرة ونار القطيعة، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:16] أي: بئس المرجع والميعاد.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)﴾ [الأنفال: 17 - 21].

ثم أخبر عن إحسانه مع أهل الإيمان والعرفان بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:17] نفى عن الصحابة القتل بالكلية، وأحال القتل إلى نفسه تعالى بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾؛ لأنه تعالى كان مسبب أسباب القتل من إمداد الملائكة، وإلقاء الرعب في قلوب الكفار، وتقوية قلوب المؤمنين بتثبيت أقدامهم، وإذهاب رجز الشيطان عنهم، وربط الصبر على قلوبهم، فالفعل يحال إلى السبب والمسبب كقولهم: القلم يكتب مليحًا، وهو السبب، والكاتب يكتب مليحًا، وهو المسبب للكتابة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:17] نفى الرمي عن

النبي ﷺ بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:17] ثم أثبت له الرمي بقوله: إذ رميت، ثم نفى عنه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ أثبت الرمي لنفسه تعالى، والفرق فيما بين النبي ﷺ وبين الصاحبة نفي القتل عن الصحابة بالكلية، وأحاله إلى نفسه تعالى فجعلهم سببًا للقتل وهو المسبب، وهاهنا ما نفى الرمي عن النبي ﷺ بالكلية؛ بل أسند إليه الرمي ولكن نفى وجوده بالكلية في الرمي وأثبته لنفسه، وما رميت بك إذ رميت ولكن رميت بالله وذلك في مقام التجلي، فإذا تجلى الله لعبد بصفة من صفاته يظهر على العبد منه فعل يناسب تلك الصفة كما كان من حال عيسى عليه السلام، فلما تجلى له بصفات الإحياء كان يحيي الموتى بإذنه أي: به، وهذا كقوله تعالى: «كنت له سمعًا وبصرًا...الحديث»[1]، فلما تجلى للنبي ﷺ بصفة القدرة كان يرمي به حين رمى وكان يده يد الله في ذلك لمَّا كشف الغطاء عن هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:10].

ثم أخبر الله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:17] أي: لينعم عليهم مما جرى على النبي ﷺ من إظهار القدرة بالرمي بأن يهديهم إلى هذا المقام الكريم، فيجتهدوا في متابعته إلى أن يبلغوا هذا المقام إذ هم في رسول الله أسوة حسنة، ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ [الأنفال:17] أي: مجيب لدعائهم عند طلب هذا المقام، ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:17] بنياتهم فيما يطلبون منه.

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:18] أي: ذلك الإبلاء مما صدر عن النبي ﷺ بالله وقدرته؛ ليعلموا أن الله مضعف مبطل يد كفار النفوس واستيلاء صفاتها بالتجلي، ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال:19] أي: إن تفتحوا قلوبكم بمفتاح الصدق والإخلاص وترك ما سوى الله في طلب التجلي فقد جاءكم الفتح بالتجلي، فإن الله متجل في ذاته أزلاً وأبدًا فلا تغير له وإنما التغير في أحوال الخلق، فإنهم عند انغلاق أبواب قلوبهم إلى الله محرومون عن التجلي وعند انفتاح أبوابها محظوظون به، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ [الأنفال:19] أي: عن غير الله في طلب الله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (4/ 6).

لَكُمْ﴾ [الأنفال:19] من سواه، ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ [الأنفال:19] إلى الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها وزخارفها وإلى ما سوى الله، ﴿نَعُدْ﴾ [الأنفال:19] إلى خذلانكم ونكفكم إلى أنفسكم وهواها ودواعيها وغلبات صفاتها.

﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا﴾ [الأنفال:19] أي: لا تقوم لكم الدنيا والآخرة وما فيها مقام شيء من مواهب الله وألطافه، ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ [الأنفال:19] يعني: وإن كثرت نعم الله تعالى من الدنيوية والأخروية فلا توازي شيئًا مما أنعم الله على أهل الله وخاصته، ﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ [الأنفال:19] بأصناف ألطافه، ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:19] بهذه المقامات وطالبها؛ ليبلغهم إليها بفضله ورحمته لا بحولهم وقوتهم.

ثم أخبر عن طريق الوصول إلى هذه الأصول بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:20] إلى قوله: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:23] الإشارة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الإيمان الحقيقي لا الإيمان التقليدي، ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ [الأنفال:20] فيما يدعوكم إلى حضرة جلاله، ﴿وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال:20] أي: أطيعوا رسوله الذي أرسله إليكم؛ ليكون داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ولتهتدوا بنور نبوته في متابعته إلى حضرة جلاله، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال:20] ولا تعرضوا عن الرسول ومتابعته لكيلا تنقطعوا عن الله وتهلكوا في ظلمات البشرية، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:20] ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:21] بآذان القلوب.

﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (23) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)﴾ [الأنفال: 22 – 26].

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ [الأنفال:22] أي: شر من دب في الوجود، ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ [الأنفال:22] في مراتب الموجودات، ﴿الصُّمُّ﴾ [الأنفال:22] عن استماع كلام الحق

بسمع القبول والقلوب، ﴿الْبُكْمُ﴾ [الأنفال:22] عن كلام الحق والكلام مع الحق، وإنما خص الصم والبكم بالذكر؛ لأن الأصم لا بدَّ وأن يكون أبكم.

﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:22] أي: لا يعلمون لماذا خلقوا وما لهم من الاستعداد في طلب الكمال وانصرافهم في إفساد الاستعداد، فاعلم أن الإنسان خلق في أحسن تقويم قابلاً للتربية والترقي مستعدًا للكمال لا يبلغه الملك والقرب في بدء الخلقة دون الملك وفوق الحيوان، فبتربيته الشريعة يصير فوق الملك فيكون خير البرية وبمخالفة الشريعة ومتابعة الهوى يصير دون الحيوان فيكون شر البرية فيؤول حال من يكون خيرًا من الملك إلى أن يكون شر الدواب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:23] كلامه بسمع القبول، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:23] بسمع القلوب قدرة عند عدم استحقاق الخيرية، ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ [الأنفال:23] عن متابعة الرسول في أثناء السلوك، ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:23] عن الله وطلبه ومقبلون على الدنيا وزخارفها لما قدرهم من الشقاوة وخصوصية شر الدوابية.

ثم أخبر عمن أودع له استحقاق الخير في استجابة الله ورسوله من البرية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:24] إلى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:25] الإشارة فيها: أن الله تعالى يطلب للحجة من العبد الإجابة، كما يطلب العبد للحاجة منه الإجابة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ والاستجابة لله استجابة الأرواح للشهود، واستجابة القلوب للشواهد، وإجابة الأسرار للمشاهدة، وإجابة الخفي للفناء في الله، والاستجابة للرسول بالمتابعة، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:24] بنور الله؛ يعني: يفنيكم عنكم ويبقيكم به، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:24] يعني: إذا تجلى الله على قلب المرء يحول بسطوات أنوار جماله وجلاله بين مرآة قلبه وظلمة أوصاف قالبه، ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:24] بالفناء عنكم والبقاء به.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا﴾ [الأنفال:25] أيها الواصلون، ﴿فِتْنَةً﴾ [الأنفال:25]

يعني: أن ابتلاء النفوس بشيء من حظوظها من الدنيوية والأخروية، ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:25] يعني: لا تصيب تلك الفتنة النفوس الظالمة فقط؛ بل تصيب ظلمتها الأرواح النورانية والقلوب الربانية، فتجذبها من حضائر القدس ورياض الأنس إلى خصائص صفات الإنس، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:182]، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:25] فيما يعاقب الواصلين بالانقطاع والاستدراج عند التفاوت إلى ما سواه.

ثم أخبر عن الذاكرين الشاكرين بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال:26] إلى قوله: ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:29] والإشارة فيها: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ﴾ أيها الروح والقلب، ﴿قَلِيلٌ﴾ ثم تنشأ بعد ذلك الصفات والأخلاق الروحانية، ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ من غلبات صفات النفس وهواها واستيلاء الشيطان وحزبه؛ وذلك لأن الروح والقلب في بدء الخلقة وتعلقهما بالقالب، وكذا صفاتهما مستضعفون لأعوان التربية بلبان آداب الطريقة، وانعدام جريان أحكام الشريعة عليهم إلى إذان البلوغ والتربية في هذه المدة للنفس وصفاتها لاستحكام القالب بحمل أعباء تكاليف الشريعة، وهما أعني: الروح والقلب، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ﴾ [الأنفال:26] إلى حضائر القدس.

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال:26] بالواردات الربانية، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال:26] من المواهب الظاهرة من لوث الحدوث، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26] فتستحقون المزيد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: 27 – 30].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:27] أي: أيها الأرواح والقلوب المنورة بنور

الإيمان المستعدة بسعادة العرفان.

﴿لَا تَخُونُوا اللهَ﴾ [الأنفال:27] فيما أتاكم من المواهب فتجعلوها سبيكة الدنيا واصطياد أهلها، ﴿وَالرَّسُولَ﴾ [الأنفال:27] فخيانة الرسول ترك السنة وقيام البدعة، ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ [الأنفال:27] والأمانة: هي محبة الله تعالى، وخيانتها بتبديلها بمحبة المخلوقات، يشير إلى أن أرباب القلوب وأصحاب السلوك إذا بلغوا إلى أعلى مراتب المقامات والقربات ثم التفتوا إلى شيء من الدنيا وزينتها، وخانوا الله بنوع من التصنع، وخانوا الرسول بالتبدع وترك التتبع، وتتعدى الخيانة وآفاتها إلى الأمانة التي هي المحبة، فتسلب عنهم بالتدريج فيكون ركونهم إلى الدنيا وسكونهم إلى جمع المال حرصًا على الأولاد، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:27] أنكم تبيعون الدين بالدنيا والمولى بالأولى، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ﴾ [الأنفال:28] تعرضون على الله لها، ﴿فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:28] لها فتنة يخبركم الله بها لكي يميز الموافق من المنافق والصديق من الزنديق، فمن يعرض عن الدنيا وما فيها صدقًا في طلب المولى، ﴿وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:28] فمن ترك ما عنده في طلب ما عند الله يجده عنده وعنده أجر عظيم، والعظيم هو الله على تحقيقه فيجد الله تبارك وتعالى.

ثم أكد الكلام بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ﴾ [الأنفال:29] أي: يا من آمن بهذه المقامات والكرامات إن تتقوا بالله من غير الله، ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:29] يفيض عليكم من يحال نواله فيضًا من أنوار جماله القديم، فيفرق به بين الحدوث والقدم وهذا أمر عظيم لا تحتمله العقول المشوبة بآفة الوهم والخيال، ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال:29] سيئات وجودكم الفاني، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:29] أي: يستركم بأنوار جماله وجلاله، ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:29] لمن يجاوز عما عنده راغبًا فيه عند الله، والفضل العظيم هو البقاء بعد الفناء.

ثم أخبر عن حال الماكرين الممكورين بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:30] إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال:35] الإشارة فيها: أن للمخلوق مكرين: مكر بخلق الحيلة والعجز، ومكر الخالق من القدرة والحكمة،

فمكر الخلق مع مكر الخالق باطل زاهق؛ لأن مكر الخالق حق ثابت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:30] لأن مكره بالخير لمحمد ﷺ ودفع الشر عنه ومكر الكفار بالشر له؛ وأيضًا لأن مكره مع أهل المكر والخذلان ومكرهم مع أهل الحق العرفان؛ وأيضًا لأن مكره لإصلاح حال أهل الصلاح وإفساد حال أهل الفساد، ومكرهم لإفساد حال الصلاح وإصلاح حال أهل الفساد، وذلك الإصلاح يؤدي إلى فساد حال الماكرين وحال من يريدون به الصلاح لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:43].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنفال: 31 – 35].

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ [الأنفال:31] وما سمعوا على الحقيقة؛ لأنها قرآن يهدي إلى الرشد كما سمعت الجن وأنهم سمعوا أساطير الأولين، ولهذا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:31] فإنهم يقدرون على أن يقولوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ولكن لا يقدرون على أن يقولوا مثل القرآن؛ لأن القرآن كلام الله وصفته القديمة وما يقولون هو كلامهم المحدث المخلوق، فلا يكون مثل القرآن في الصلاة والصفة والمعنى والحقيقة والأسرار والأنوار، ولا يقدر على مثله الخلائق كلهم كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء:88].

ثم انظر كيف استخرج الله منهم عقيب دعوتهم ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ﴿وَإِذْ قَالُوا اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال:32] ليعلم أن غاية عقلهم ونهاية فهمهم أن يقولوا مثل هذه المقالة من غاية

الضلالة والجهالة، ولا يقولوا بدلاً عنها: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ومتعنا به واجعله شفاء قلوبنا ونور به صدورنا، وأمثال هذا فكيف بمن يكون هذا حاله أن يكون مثل القرآن مقاله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[1] [الأنفال:33] يا محمد وإن طلبوا العذاب بالجهل؛ لأنك رحمتي فيهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]، وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[2]، فالرحمة والعذاب ضدان، فالضدان لا يجتمعان، ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾[3] [الأنفال:33] في الدنيا والآخرة، ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:33] يعني: وهم أهل الاستغفار أي: أهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء:147]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: 82].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ [الأنفال:34] إذ لم يستغفروا لم يؤمنوا، ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ [الأنفال:34] يعني: أهل الإيمان، ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ [الأنفال:34] فيه إشارة إلى أن الله تعالى لا يعذب أولياءه وإن فعلوا؛ بل يتوب عليهم ويجعلهم من المتقين كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:34] وفيه إشارة إلى أن الأولياء هم الأتقياء بالله عمّا سواه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:

(1) فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ﴾ إلخ، كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سببًا لارتفاع العذاب، وباعثًا على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن كان دونه؛ فكذا القلب بمنزلة الوجود المحمّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله تعالى، والتبتّل إليه، فإذن بالإنسان الكامل وبظاهره يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

(2) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (7/ 441)، والحاكم في «المستدرك» (1/ 103).

(3) المراد بالتعذيب الأول هو: التعذيب الدنيوي؛ لأن وجود النبي ﷺ أمان للمذنبين، وعبارة الخطاب له ﷺ، وإشارة لاصطفاء أمته؛ فيكون كقوله: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»؛ فإن المراد به: لولاك ولولا ما هو شعبة من شعب أنوارك لِما خلقت العالم من العرش، والكرسي وغيرهما.

34] ولكن أكثر المتقين لا يعلمون أنهم أولياء الله، وبه يشير إلى إيمان بعض الأولياء لا يجوز أن يعلم الأولى، ولكن الأكثرين من الأولياء لا يعلمون أنهم أهل الولاية، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ [الأنفال:35] يعني: ما كان الكفار يوم كفرهم، ﴿عِندَ الْبَيْتِ﴾ [الأنفال:35] مع عظم قدره بدل الصلاة التي تصيب أهل السعادة بشقاوتهم، ﴿إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [الأنفال:35] أي: عذاب هذه الشقاوة، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال:35] أي: بشؤم كفركم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال: 36 - 40].

ثم أخبر عن خسارة أهل الكفر وخسارتهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال:36] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال:37] الإشارة فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا﴾ أي: كما أن من دأب الكفار أن ينفقوا أموالهم التي لها صلاحية الإنفاق في سبيل الله، ولتقبل القلوب بها إلى الله؛ ليصدوا عن سبيل الله الخلق بها، كذلك دأب كفار النفوس، أن تنفقوا أموال الاستعداد الفطري التي لها صلاحية الصرف في طلب الله وتحصيل الكمال الإنساني؛ ليصدوا القلوب والأرواح المقبلة إلى الله تعالى عن سبيل الله وطلبه باتباع الهوى وطلب شهوات الدنيا، ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ [الأنفال:36] يعني: الاستعدادات في استيفاء اللذات الحيوانية والشيطانية، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال:36] أي: عند تحقيق فسادها وتضييع فرصتها، كما قيل:

أيها القانص ما أحسنت صيد الظبيات   فاتك السرب وما ازددت غير الحسرات

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:36] أي: لا يظفرون بالمرامات الدنيوية التي هي مرام النفوس كلها في الأعمال القصيرة المتشابهة وتفوت لهم السعادات الكاملة الأخروية الأبدية، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:36] يعني: من الأرواح والقلوب باتباعهم الهوى، وطلب شهوات الدنيا في موافقة النفوس ومخالفة الشريعة والطريقة، ﴿إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:36] أي: يجمعون في جهنم البعد والقطيعة عن الله تعالى مع النفوس المتمردة.

﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:37] أي: ليميز الأرواح والقلوب الخبيثة التي تخدع النفوس تميل إلى الدنيا وزخارفها، وتتبع الهوى وتتحرى لغة الشرائع والأنبياء - عليهم السلام - من الأرواح والقلوب الطيبة التي لا تتبع الهوى، ولا تركن إلى الدنيا، ولا تنخدع بخداع النفوس وحيلها؛ بل تقبل إلى الله وطلبه في متابعة الأنبياء ومخالفة الهوى، وأيضًا الطيب من الأحوال ما يبذل في طلب الله تعالى على الطالبين، والخبيث ما يلتفت إليه الغالب من غير حاجة ضرورية، فينقله الله تعالى وطلبه فيكون قاطع طريقه.

﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الأنفال:37] أي: بعض أرواح القلوب الخبيثة على بعض النفوس، ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ [الأنفال:37] وذلك أن الله تعالى خلق الروح نورانيًا علويًا وخلق النفس ظلمانية سفلية ثم أشرك بينهما وجعل رأس مالهما الاستعداد الفطري القابل للترقي والكمال في القربة والمعرفة والخسارة والنقصان فيهما؛ لربح كل واحدة منها على تجارة قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:10-11] ولتستعين كل واحدة منهما في الترقي من مقامه بما أودع فيهما، فمن الناس من ربح روحه ونفسه جميعًا على هذه التجارة بأن آمن وجاهد بنفسه وماله في سبيل الله وطلبه وبلغ مبلغ الرجال البالغين، ومنهم من ربح روحه بأن آمن بالله ورسوله وخسرت نفسه بأن عصت الله وخالفت الشريعة، ومنهم من خسر روحه ونفسه جميعًا بأن لم يؤمن بالله ورسوله وكفر بهما.

قيل: دُخِلَ على الشبلي ـ رحمه الله ـ في وقت وفاته وهو يقول: «يجوز يجوز»، فقيل له: ما معنى قولك: «يجوز»؟

فقال: خلق الله الروح والنفس وأشرك بين الروح والنفس فعملا واتجرا سنين كثيرة فحوسبا؛ فإذا هما قد خسرا وليس معهما ربح فقد عزما على الافتراق، وأنا أقول: شركة لا ربح فيها يجوز أن يقع بين الشريكين افتراق.

ثم أخبر عن مغفرته مع أهل رحمته بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:38] إلى قوله: ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:40] الإشارة: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الأرواح والقلوب بأن ستروا النور الروحاني بظلمات الصفات النفسانية الحيوانية السبعية في اتباع الهوى واتباع الدين بالدنيا، ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن اتباع الهوى ومطاوعة النفس ومخالفة الشرع، ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: تستر تلك الظلمات بنور المغفرة وهو النور الرباني الذي يمحو بالظلمات الإنسانية، ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ [الأنفال: 38] لمتابعة الهوى ومخالفة الشرع، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:38] من الأنبياء والأولياء في أن اتبعوا الهوى يضلهم عن سبيل المولى، كما قال تعالى لداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:26].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ [الأنفال:39] يعني: قاتلوا كفار النفوس والهوى بسيف الصدق تحت راية الشريعة في جهاد الطريقة، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ﴾ [الأنفال:39] النفس والهوى عند الاستيلاء وغلبات صفاتها، ﴿فِتْنَةٌ﴾(1) [الأنفال:39] آفة مانعة لكم عن الوصول إلى عالم الحقيقة، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:39] ببذل الوجود وفقد الوجود لنيل الجود، ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ [الأنفال:39] النفوس عن معاملاتها، وتبدلت عن أوصافها، وطاوعت

(1) الإشارة إلى كفرة النفوس الأمارة بسوء أي: جاهدوها، وأميتوها حتى تتقدّس مزارع أنوار اليقين، ومرابع سنا الإسلام والدين، ويتفرد القلب بنور الموحّد والتوحيد من كلّ خاطرٍ غير خاطر الحقّ، ويكون القلب كلّه مستغرقًا في بحار محبّته، والروح هائمة في أودية هويته، والعقل تائهًا في صحاري أزله وأبده، ولا يكون منها جميعًا نظرٌ إلى غيره.

فإن النفس حجاب القهر بينها وبين بارئها، الذي هو منعم عليها بإلقاء محبّة وجهه فيها، ونصرها على نفوسها وهواها. [عرائس البيان].

القلوب والأرواح، وصارت مأمورة مطمئنة تحت الأحكام، ﴿فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنفال:39] في عبوديته وصدق طلبه، ﴿بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:39] لا يخفى عليه نقير ولا قطمير فيجازيهم على قدر مساعيهم.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [الأنفال:40] أي: أعرضوا النفوس عن الحقوق، وأقبلوا إلى الشهوات والحظوظ، ﴿فَاعْلَمُوا﴾ [الأنفال:40] أيها القلوب والأرواح، ﴿أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الأنفال:40] في الهداية وناصركم على قهر النفوس وقمع الهوى، ﴿نِعْمَ الْـمَوْلَى﴾ [الأنفال:40] هو مولاكم لتهتدوا به، ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:40] في دفع ما يقطعكم عنه، وناصركم في الوصول إليه.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: 41 - 45].

ثم أخبر عن دعائم الغنائم بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال: 41] إلى قوله: ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال:44] الإشارة فيه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يا أهل الجهاد الأكبر عند الفطرة النفوس التي هي عدوكم وغنائم النفوس المقتولة ما تبدلت به صفاتها من التخلق بأخلاق الله تعالى: ﴿فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْـمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال:41] يشير إلى أن ما غنمتم عند رفع حجب من أنوار المشاهدات وأسرار المكاشفات فلكم أربعة أخماسه تعيشون بها مع الله وتكتمونها عن الأغيار، ولا تنفقون أكثر من خمسها في الله مخلصًا وللرسول متابعًا ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾

يعني: الإخوان في الله تواصلاً، ﴿وَالْيَتَامَى﴾ يعني: أهل الطلب الذين غاب عنهم مشايخهم قبل بلوغهم إلى حد الكمال.

﴿وَالْـمَسَاكِينِ﴾ يعني: الطالبين الصادقين، والذين تمسكوا بأيدي الإرادة أذيال إرشادكم، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يعني: الصادر والوارد من أهل الصدق والإرادة مراعيًا جانب كل طائفة منهم على حسب صدقهم وإرادتهم وطلبهم واستعدادهم واستحقاقهم مؤديًا حقوقهم لله في الله وبالله في متابعة الرسول إلى مقام المعاينة.

﴿آمَنتُم بِاللهِ﴾ [الأنفال:41] عيانًا كما آمن الرسول به ليلة المعراج وكوشفتم بحقائق، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [الأنفال:41] في سر: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾، ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:41] الذي فيه ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1-2]، ﴿الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْـجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:41] جميع الصفات الإنسانية، وجميع الأخلاق الربانية، فصار لمحمد ﷺ مع الله تعالى خلوة لا يسع فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل، ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:41] أي: قادر على أن يوصلكم في متابعة رسوله إلى هذا المقام وهو الفناء من الوجود والبقاء بالمعبود، كما أوصل إليه رسوله، وقد أعطاكم هذه المرتبة وقدركم وأكرمكم بها أيها الصادقون في الطلب، ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال:42] أي: نفوسكم بجانب الدنيا نازلة، ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال:42] يعني: الأرواح بأقصى عالم الملكوت.

﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال:42] يعني: الهياكل والقوالب بأسفل من الأرواح والنفوس، فإنها أسفل سافلين أي: إلى القوالب، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ [الأنفال:42] أيها الأرواح والنفوس والأجساد بالإجماع، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْـمِيعَادِ﴾ [الأنفال:42] لما بينكم من التباين والاختلاف والضدية يعني: لما جمعتم بالاختيار لاختلاف طبائعكم، ﴿وَلَكِن﴾ [الأنفال:42] جمعكم الله بالقدرة والحكمة، ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:42] ليجعل مرافق أرواحكم في مقصد صدق عند مليك مقتدر بعدما كانت في أقصى الملكوت ومنازل نفوسكم في عالم الأرواح مع الملائكة المقربين.

كما قال تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:29] بعدما كانت محبوسة في سجن

الدنيا، ومقامات أجسادكم في جنات النعيم وأعلى عليين بعدما كانت أسفل سافلين، ﴿لِيَهْلِكَ﴾ [الأنفال:42] من أرواح الأشياء المزروقة لجهنم، ﴿مَنْ هَلَكَ﴾ [الأنفال:42] بمخالفة الشرائع، وتكذيب الأنبياء، ومتابعة الهوى، ومحبة الدنيا واستيفاء لذاتها وشهواتها، ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:42] أي: عن حجة ثابتة علية بعد اجتماع الأرواح والنفوس والأجساد، مستعدة لقبول الإيمان والكفر وتصديق الأنبياء وتكذيبهم ومتابعتهم ومخالفتهم مستجمعة أسباب تمتعات الدنيوية والأخروية.

﴿وَيَحْيَا﴾ [الأنفال:42] من أرواح السعداء المخلوقة للجنات والقربات، ﴿مَنْ حَيَّ﴾ [الأنفال:42] بالإيمان وأنواره والإيقان وأسراره والعرفان وحقائقه، ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:42] حجة ثابتة عليه بعد كماله الاستعداد، وصرفه في طلب الكمال والوصول إلى حضرة ملك ذي الجلال، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ﴾ [الأنفال:42] لمن دعاه بالوصول والوصال إليه بالغدو والآصال، ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:42] بأحوال العباد ومصالحهم.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال:43] مع كثرتهم في الصورة ليعتبر نومكم بأنهم قليلو المعنى قليلو القوة والشوكة، وأنه تعالى يكثر قلبكم بالملائكة وقوة القلب ويظهركم عليهم، ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا﴾ [الأنفال:43] في الصورة والمعنى فحسبتموهم ذات الشوكة، ﴿لَفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال:43] كما هو طبع الإنسان، ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال:43] أمر القتال، ﴿وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال:43] قلوبكم عن الموت البشري بما أراكهم قليلاً، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال:43] عالم بما في القلوب.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ [الأنفال:44] أي: في أعين الصحابة كما أراكهم في النوم قليلاً؛ ليعلم أن نومكم وحي ولا خلف فيه لئلا تفشلوا، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال:44] لأنهم ينظرون إليكم بالأبصار الظاهرة لا يرون كثرة معناكم وقوة قلوبكم ومددكم من الملائكة، فإنهم عمي البصائر والقلوب ولئلا يفروا من القتال كما فر إبليس لما رأى مدد الملائكة وهو قد جاء مع الكفار في صورة سراقة فقالوا له: أين تفر؟ فقال: لهم إني أرى ما لا ترون، والحكمة في ذلك ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:44] في علم الله، ومشيئته بقضائه وقدره وحكمة بالغة منه، وفيه إشارة إلى أن

من سنة الله تعالى أنه يرى النبي ﷺ حقائق الأشياء حقًا وصدقًا وهو يخبر بها ثم يرونها أرباب الصورة في الظاهر بضدها ابتلاءً واختيارًا للمؤمن والمنافق يزل قدمه ويشوش حاله، وبالاعتراض يزيد نفاقه على النفاق وعماه على العمى، ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال:44] فحال المؤمن وأمره يرجع إلى رضاه، وحال المنافق يرجع إلى سخطه، والرضا والسخط من آثار لطفه وقهره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم أخبر عن أسباب الفلاح لأرباب الصلاح بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال:45] إلى قوله: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:48] والإشارة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:45] يشير إلى أن القلوب والأرواح المؤمنة بشواهد الحق، ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ [الأنفال:45] جماعة العدو، فالنفس وهواها والشيطان وأعوانه والدنيا وزينتها، ﴿فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال:45] على ما أنتم عليه من اليقين والصدق والإخلاص والقلب، ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال:45] فإنكم بمداومة الذكر تعبرون عن ظلمات الوجود، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45] تخلصون عن ظلمات الخلقية وتفوزون بأنوار الحقيقة.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: 46 – 48].

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ﴾ [الأنفال:46] ببذل الوجود في هويته.

﴿وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال:46] فيما يقربكم إلى الله بأعماله وأحواله، فإن طاعته طاعة الله على الحقيقة وطاعة رسوله فيما يتيسر للعبد خلاصه عن صفات الوجود بآثار الوجود، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ [الأنفال:46] مع الإخوان في الله والأقران، فإنه يثبت الأنانية ويحجب عن الهوية ويزل الإقدام في طلب المرام، ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:46] عند الأعداء فتستولي النفس والشيطان، ﴿وَاصْبِرُوا﴾ [الأنفال:46] عند

تنازع الأقران والإخوان على الدين والتواضع وخفض الجناح وترك الرعونة وإخفاء السر، ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:46] الذين لا تنازع فيهم لحفظهم عن الرجوع إلى البشرية بالنصرة الربوبية.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الأنفال:47] أي: ديار أوصافهم، ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال:47] يعني: إذا كان الله معكم عند صبركم معينًا لكم على الاستقامة، فلا تكونوا كالذين خرجوا من الدنيا وزينتها وتركوا أوطانهم وتزيوا بزي القوم تصنعًا وشرفًا في الإرادة، وما خرجوا عن أطوارهم ودواعي نفوسهم وداروا البلاد وزاروا العباد، وتفرحوا ليتباهوا بذلك على الإخوان ويتنافسوا مع الأقران، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال:47] الطالبين الصادقين بأقوالهم وأعمالهم وأحوالهم، ﴿وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:47] أي: بما يعملون مهلكهم يعني: إنما يهلكون بما يعملون.

ثم أخبر عن أحوال أهل التنازع، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأنفال: 48] حين ظفر بهم عند التنازع، ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال:48] التي بها تنازعوا واختلفوا وتفاخروا.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ [الأنفال:48] أي: النفس والهوى والدنيا والشيطان فغرهم بذلك، قال: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال:48] أي: مجيركم من آفة الرياء والعجب، وذلك أن الشيطان إذا ظفر بالسالك يغره بالقوة والكمال والبلوغ إلى مرتبة الرجال أنه لا يضره التصرف في الدنيا وارتكاب بعض المنهيات؛ بل يضعه في نفي الرياء إذ هو طريق أصل الملامة وبه ليسلك سبيل السلام.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ [الأنفال:48] فئة الأرواح والقلوب، وفئة النفوس وصفاتها وهواها والدنيا وشهواتها، وأمد الله تعالى فئة القلوب والأرواح بالأوصاف الملكية والواردات الربانية، وانهزمت النفوس وعساكرها، وزهقت أباطيلهم بمجيء الحق، ﴿نَكَصَ﴾ [الأنفال:48] الشيطان.

﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال:48] فيه إشارة إلى أن الشيطان عند استيلاء النفس وغلبات أوصافها وهواها يزين الدنيا وشهواتها وزخارفها للنفوس، ويعينها على طلبها

واستيفاء لذاتها؛ ليضلها عن سبيل الله، فلمَّا استولت القلوب والأرواح على النفوس، وانقادت النفوس لحزب الله انكسرت أوصافها وهواها، واطمأنت بذكر الله وطاعته يكون الشيطان مخالفًا لها بعد أن كان موافقًا ومحبًا ومعاونًا لها، فيفر منها ويتبرأ منها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:48] فلا يبقى له مدخل يدخل بها في النفوس ويوسوسها؛ لأنه يرى بنظر الروحاني على النفوس من القلوب أنوار الرباني ولو وقع على الشيطان منها تلألؤ يحرقه في الحال ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:48] وقد صدق الكذوب أنه يخاف من شدة عقاب الله تعالى، فإن عقابه وومضان بروق صفة قهره لو وقع عليه لتلاشى، ولذلك كان من يفر من ظل عمر و«ما سلك عمر ﷺ فجًا إلا وسلك الشيطان فجًا آخر»؛ لئلا يقع عليه عكس نور ولاية عمر ﷺ فيحرقه، وقد علم الشيطان أنه من المعذبين المعاقبين، وإنما خوفه من الله من شدة عقابه؛ لأنه يعلم أن لا نهاية لشدة عقابه والله قادر على أن يعاقبه بعقوبة أشد من الأخرى، وفيه إشارة أخرى إلى أن خوفه من الله تعالى يدل على أنه غير منقطع الرجاء، والله أعلم.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (51) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)﴾ [الأنفال: 49 – 54].

ثم أخبر عن مرض قلوب أهل الشقاوة وسلامة قلوب أهل الوفاق بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأنفال:49] إلى قوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال:54] الإشارة فيه: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ومرض القلب على نوعين: نوع منه الشك في الإيمان والدين وحقيقته فذلك مرض قلوب الكفار والمنافقين، والثاني:

ميلها للدنيا وشهواتها وملاحظة الحظوظ النفسانية وهو مرض قلوب المسلمين، والإشارة فيه: أن المرض كما يكون في قلوب الكفار والمنافقين بقدر كفرهم ونفاقهم وبقية ظلمات الكفر يكون في قلوب المسلمين بقدر معاصيهم من الأوصاف الذميمة الحيوانية، فمعالجة مرض قلوب الكفار والمنافقين بالإيمان والتصديق واليقين، ومعالجة مرض قلوب المسلمين بترك الدنيا وشهواتها وترك الحظوظ النفسانية، فإن ماتوا في مرضهم فهم من أهل النجاة من النار بعد العذاب وشفاعة الأنبياء، وربما يؤدي مرضهم بترك المعالجة والاحتمال إلى الهلاك وهو الكفر كما كان حال بعض المسلمين من الذين قالوا: غر هؤلاء دينهم، فلمّا تركوا العلاج وانقطعوا عن الطبيب وهو النبي ﷺ وما اجتمعوا من الغذاء والمخالف وهو قولهم: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:49] هلكوا مع الهالكين ومن مرض قلوبهم فاعلموا أن ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ [الأنفال:49] منيع شر الأعداء من المتوكلين عليه، ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:49] بنصرة المقللين على المكثرين، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:50] أي: الذين قالوا: غر هؤلاء دينهم، وكفروا باستحقاقهم بالدين، وأهل الدين ﴿الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ [الأنفال:50] يعني: إذا يقلبون وجوههم عن الإيمان إلى الكفر، ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال:50] عن الكفر إلى الإيمان، ويقولون يوم القيامة ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:50] والندم على ما فعلوا وارتدوا، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال:51] من الارتداد والكفر، ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:51] بأن يجازي أهل الأيمان بجهنم وعذابها، وإنما يجازي أهل الكفر والنفاق والارتداد بظلمهم على أنفسهم.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [الأنفال:52] أي: بمعجزات الأنبياء، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:52] أي: جازاهم الله بقدر ذنوبهم، ﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ﴾ [الأنفال:52] في المجازات إظهارًا للعزة والعظم، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:52] لو يعاقبهم على قدر كماليته، فإن غير متناه، وإنما يعاقبهم على قدر ذنوبهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ [الأنفال:53] أي: يكن مبدلاً أحسن تقويم واستعداد عطانهم بضده، ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ [الأنفال:53] بالكفر والتكذيب

وسوء العمل، ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:53] من نعمة الاستعدادات الحسنة، ﴿وَأَنَّ الله سَمِيعٌ﴾ [الأنفال:53] لمن دعاه إلى قهره بسوء أعماله ولسان حاله، ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:53] بما يستحقون في المجازاة، وبقدر استحقاقهم العذاب فيجازيهم به، ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال:54] إذا غيروا ما بأنفسهم من نعمة حسن الاستعداد بأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال:54] من معجزات الأنبياء والكتب المنزلة عليهم، فلمّا غيروا ما بأنفسهم من النعمة غيرنا نعمة حسن الاستعداد الفطري.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:54] أي: أفسدنا استعدادهم بشؤم معاملاتهم السيئة فهلكوا، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال:54] يعني: فرعون وقومه أغرقناهم في بحر الهلاك لفساد استعدادهم بالكلية، فاختصوا بالاستغراق في بحر الهلاك عن غيرهم ادعاء فرعون بالربوبية وإقرار قومه وتصديقهم إياه بها، وهذا غاية فساد جوهر الروحانية باستيلاء الصفات النفسانية، ثم قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال:54] يعني: كل من كفر بالله وكذب بآياته كانوا ظالمي أنفسهم؛ لاستعدادهم أن يبلغوا في الظلم والكفر وما بلغ فرعون وقومه.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۝ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝﴾ [الأنفال: 55 – 60].

ثم أخبر عن أهل الكفر أنهم شر الدواب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ الله الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:55] إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:60] الإشارة فيه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ الله الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: بالذين كفروا النفوس المتمردة الأمارة بالسوء هم عند الله محكومون بالشقاوة في الأزل مكتوبون بشر الدواب كقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:44]، ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:55] لما حكموا

بالشقاوة الأبدي وإنما صاروا شر الدواب لأنهم ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال:56] يوم الميثاق والخطاب مع الروح؛ لأن النفس المودعة في الذرة التي أخذ الله تعالى من ظهر آدم عليه السلام أقرت بربوبية الحق تعالى وعاهدته بتبعية الروح؛ لأن نوره وصفته غلبت على ظلمة النفس وصفاتها، ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال:56] بمعصية من المعاصي وذنب من الذنوب، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال:56] من خاتمة السوء فيما ينقضون العهد مع الله بالإشراك وعبادة الهوى.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [الأنفال:57] أي: لو ظفرت يا روح ببعض صفات النفس في جهادها، ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال:57] أي: بالغ في تبديل تلك الصفات التي هي خلقها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:57] يعتبرون ويتبدلون بالصفات الروحانية والأخلاق الربانية، ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال:58] أي: تفرست من بعض تلك الصفات خيانة نقض العهد، والعود إلى طبعها الخسيس، والرجوع إلى أوصافها، ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال:58] يعني: أظهر عليهم عداوتك معهم، وجاهدهم على سوية رجوعهم حتى يفنوا إلى العهد، ويتركوا خيانة النقض، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال:58] معه في العهود، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ [الأنفال:59] أي: النفوس التي كفرت ونقضت العهود ورجعت إلى أوصافها أنهم سبقونا وخرجوا من تصرفنا.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال:59] أي: لا يعجزوني عن التصرف فيهم فلا يقنطوا من رحمتي في صلاح حالهم، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(1) [الأنفال:60] أي: من

---

(1) قال العارف البقلي: أعلم الله المؤمنين والعارفين الاستعداد لقتال أعداء الله، وسمَّى آلة القتال القوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يُلبسه الله لباسًا من الله بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته، ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطًا، حتى يقول في همته وسرّه: إلهي خذهم، فيأخذهم بلحظة، ويُسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلّي قلب وليّه، ويريحه من شرور معارضيه ومنكريه، وذلك سهمٌ رُمي بقوس الهمّة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه، حين قال: «شاهت الوجوه». وهذا الوحي من الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

قوة الروح وغلبات صفاتها وأعداءه بمداومة الذكر وقطع التعلق، ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:60] أي: من رباط القلب بطريق المراقبة لئلا يلتفت إلى الدنيا وزينتها، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ [الأنفال:60] يعني: بالذكر والمراقبة، ﴿عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:60] أي: الشيطان والنفس، ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ [الأنفال:60] من نفوس شياطين الأنس، ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ [الأنفال:60] أنهم عدوكم من الأحباب والأصدقاء والأقرباء، ﴿الله يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:60] أنهم عدو لكم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:14].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال:60] أي: في شهوات النفس ولذاتها والدنيا وزينتها بطريق الذكر والمراقبة، ﴿فِي سَبِيلِ الله﴾ [الأنفال:60] في طلبه والسير إليه، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [الأنفال:60] أي: يوف لكم فوائده في مزيد القربة، كما قال تعالى: «من تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا»(1)، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:60] فيما تقربتم به إليه إلى الله تعالى، بل يضاعفه ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا.

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) ﴾ [الأنفال: 61 - 64].

ثم أخبر عن التوسل والتوكل بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله﴾ [الأنفال:61] إلى قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:64] الإشارة فيه: ﴿وَإِنْ

-

وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ سمعت أن ذا النون كان في غزو، وغلب المشركون على المؤمنين، فقيل له: لو دعوت الله، فنزله عن دابته وسجد، فهزم الكفار في لحظة، وأُخذوا جميعًا، وأُسروا وقُتلوا.

وأيضًا اقتبسوا من الله قوة عن قوى صفاته لنفوسكم؛ حتى تقوّيكم في محاربتها وجهادها.

قال أبو علي الروذباري: «القوة»: هي الثقة بالله. قيل: ظاهر الآية أنه الرمي بسهام القسي، وفي الحقيقة رمي سهام الليالي في الغيب بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحقّ، معتمدًا عليه، راجعًا عمّا سواه.

(1) تقدم تخريجه.

جَنَحُوا﴾ أي: النفس وصفاتها لتسلم بينها وبين القلب والروح ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وذلك أن النفس لما رأت صدق الطالب الصادق في الصدق وشاهدت جده في الاجتهاد، وتحقق عندها ثباتها على مخالفتها، ومواظبته في العبودية، وتألفت مع الطاعات والعبادات، فتنور بأنوارها وتنقاد لأحكام الشريعة، وتزكى بتزكية الطريقة، وتتنسم روائح الحقيقة، وتطمئن إلى ذكر الله تعالى، فحينئذ يجوز مصالحتها على القيام بأداء الأوامر والنواهي والفرائض والسنن وترك الدنيا وزينتها وشهواتها على تبديل الصفات النفسانية الحيوانية بالأخلاق الروحانية الربانية، وألَّا يحمل عليها إصرًا من دوام المجاهدة والرياضة البدنية ولكن مع هذا لا يعتمد على النفس وصلحها، بل يكون الطالب متيقظًا محتاجًا متوكلاً على الله تعالى في مراقبتها؛ لئلا تخدعه وتمكر به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ أي: ثق بلطفه وكرمه ولا تثق بالنفس وخديعتها ومكرها، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [الأنفال:61] لما دعوته إليه في رعايتك من خداع النفس ومكرها، ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:61] بمكائدها، ومنعها منها، ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ [الأنفال:62] يعني: النفس والشيطان والدنيا.

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:62] أي: وأيدك بالروح والقلب وسر المؤمنين وألَّف بين الروح والقلب والسر المؤمنين، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:63] يعني: ألَّف بين الروح والقلب والسر وبين النفس وصفاتها، ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الأنفال:63] يعني: في أرض وجودك من السعي والجد والاجتهاد، ﴿مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:63] أي: بينهم لما فيهم من التضاد الروحاني والنفساني الظلماني، ﴿وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:63] بالقدرة الكاملة والحكمة البالغة، ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ [الأنفال:63] لعزته ألَّف بين الروح والنفس والقلب والقالب؛ ليكون الشخص الإنساني طلسمًا على كنز وجوده، ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:63] فيما حكم ووتر بكسر الطلسم والوصول إلى كنز، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾ [الأنفال:64] مطلوبًا ومقصودًا ومعبودًا ومحبوبًا، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:64] أي: لمتابعيك المخصوصين بالاتباع الحقيقي بأن يكون مطلوبهم ومحبوبهم الله سبحانه وتعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال: 65 – 69].

ثم أخبر عن طريق الوصال أنه بالقتال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال:65] إلى قوله: ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:66] الإشارة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ يعني: بالإقدام عليه بنفسك؛ ليقتدوا بك، ويحرضوا على القتال بحرصك عليه، ولهذا كان النبي ﷺ إذا اشتد الحرب أقرب إلى العدو، ومنهم كما قال علي - رضي الله عنه وكرم الله وجهه -: كنا إذا احمر البأس في القوم فعينا برسول الله ﷺ فما يكون أحدًا أقرب إلى العدو منه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ [الأنفال:65] جعل النبي ﷺ منهم عند لقاء العدو وصابرون في البأساء والضراء وتحت أحكام القضاء، ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:65] لأن الله مع الصابرين بالنصر والعون، ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ﴾ [الأنفال:65] متوكلة على الله هم صابرة في بذل الروح يعلمون بفقه القلب أنهم لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم.

﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال:65] أي: ليسوا يفقهون بفقه القلب ليتوكلوا على الله، وليعلموا أنه لا يصيبهم إلا ما قدر لهم، ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال:66] أيها الضعفاء، ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال:66] في التوكل واليقين، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ [الأنفال:66] يعني: من أهل يصبرون على لقاء المائتين، ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [الأنفال: 66] يعني: الغلبة والظفر ليس من قوتكم؛ لأنكم ضعفاء، وإنما هو بحكم الله الأزلي ونصره، وإلى الأقوياء وهم محمد ﷺ والذين معه أشداء على الكفار؛ لقوة توكلهم ويقينهم

وفقه قلوبهم لا يفر واحد منهم من مائة من العدو كما كان حال النبي ﷺ ومن معه من أهل القوة، ما قال عباس بن عبد المطلب ﷺ: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلم أفارقه ورسول الله على بغلة بيضاء أهداها له فرقة بن بغامة المذامي، فلما التقى المسلمون بالكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق النبي ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال عباس ﷺ: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ إرادة ألَّا تسرع، وأبو سفيان آخذ ركاب رسول الله ﷺ، فلمَّا كان رسول الله ﷺ ومن معه صابرين أولى قوة لم يفروا مع القوم، ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:66] في التثبيت والتصبر كما قال ﷺ: «من يصبر يصبره الله تعالى»(1).

ثم أخبر عمن اختار الأولى عن الآخرة بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ [الأنفال:67] إلى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:69] الإشارة فيها: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ ما كان أخذ الفداء من الأسارى شيمة للنبي ﷺ ولا لنبي من الأنبياء - عليهم السلام - فإنه رغبة في الدنيا، ومن شيمة النبي ﷺ أنه قال: «ما لي وللدنيا»(2)، ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال:67] أي: يبالغ في قهره الأعداء، وقذف الرعب في قلوبهم، ورسوخ أمر الدين في قلوب المؤمنين، فأمَّا أخذ الفداء كان لرغبة بعضكم في الدنيا بعد أن شاوركم فيه بأمر الله تعالى إذ أمره بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:159] فرغب أكثركم فيه.

والذي يدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال:67] خاطب به القوم إلا النبي ﷺ، وبه يشير: أن الإنسان إذا وكل إلى نفسه وطبعه يكون مائلاً إلى الدنيا راغبًا فيها بالطبع، ﴿وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال:67] يعني: والذي يريد الآخرة منكم ليس سجيته وطبعه، وإنما هو من توفيق الله إياه وتأثير نظر عنايته ورحمته إلى قلبه ونفسه، فإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ [الأنفال:67] لا ينظر بنظر العناية إلا الجاهل العزة، ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:67] فيمن يعزه بنظر العناية، وفيمن يذله بالسخط والخذلان، ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال:68] بالبقاء على

(1) رواه أحمد في «مسنده» (3/ 47)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (1/ 370).

(2) رواه البخاري في «صحيحه» (9/ 382)، والحاكم في «المستدرك» (18/ 228).

هؤلاء الأسارى ليؤمن بعضهم ويؤمن أولاد بعضهم وذراريهم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال:68] من الغنائم وملتم إلى الدنيا وأخذتم جعلا على الجهاد في سبيل الله، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:68] بأن يجعل جهادكم في سبيل الدنيا، ويخرجكم عن ثوابه في الآخرة بل يعاقبكم عليه، ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا﴾ [الأنفال:69] بأن تجعلوه في عدة الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر.

﴿طَيِّبًا﴾ [الأنفال:69] أي: طيبًا به نفوسكم في الإنفاق طيبًا عن لون محبته وتعلقه بقلوبكم، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [الأنفال:69] أي: اتقوا بالله عما سواه، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [الأنفال:69] يغفر بأنوار جوده ظلمات وجودكم، ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنفال:69] بكم فيما يفنيكم عنكم ويبقيكم به.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾ [الأنفال: 70 - 72].

ثم يخبر عمن حكمة استبقاء الأسارى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ [الأنفال:70] يشير إلى النفوس المأسورة التي أسرت في الجهاد الأكبر عند استيلاء سلطان الذكر عليها والظفر؛ يعني: قل لها: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال:70] من الاطمئنان على ذكر الله والعبودية والانقياد تحت أحكامه، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال:70] يعني: إن أخذ منكم شهوات الدنيا ونعيمها وزينتها يبدلكم الله نعيم الجنة ودرجاتها وهي خير منها؛ لأن الدنيا ونعيمها فانية والجنة ونعيمها باقية، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:70] يستر ظلمة صفاتكم بأنوار صفاته، ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ [الأنفال:70] ساتر بأنوار صفاته لمن طلب ستره، ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنفال:70] بهم بأن رحمهم يستر الوجود من أنوار الشهود، ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ [الأنفال:71] يعني: إن

سامحت النفوس المأمورة في إطلاقها عند إشرافها على بعض شهواتها المشروعة فتريد خيانتك؛ أي: التجاوز عن حد الشريعة أو الطريقة، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنفال: 71] بالتجاوز عن الشريعة أو الطريقة، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال:71] عند استيلاء الذكر عليها والمجاهدة، فجاهدها بملازمة الذكر ونفي الشهوات عنها، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:71] بأحوالها، ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:71] فيما دبره من أمر جهادها وتزكيتها عن أوصافه الذميمة.

ثم أخبر عن أهل الجهاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ [الأنفال:72] إلى آخر السورة، الإشارة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأن طلب الله حق وواجب وهاجروا غير الله، فهاجروا عن أفعالهم القبيحة الطبيعية إلى الأفعال الحسنة الشرعية، وعن أوصافهم الذميمة إلى الأخلاق الحميدة، وعن وجودهم المجازي إلى الوجود الحقيقي، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:72] ببذلها، ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال:72] أي: في طلب الحق وترك كل باطل هو غير الحق، ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾ [الأنفال:72] ذكر الله ومحبته وصدق طلبه في القلوب، ﴿وَنَصَرُوا﴾ [الأنفال:72] المحنة بالذكر الدائم والطلب القائم، ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:72] في المرافقة والموافقة والطلب والسير إلى الله، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:72] بأن الطلب حق، ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال:72] عن أفعالهم وأوصافهم ووجودهم المجازي، ﴿مَا لَكُمْ﴾ [الأنفال:72] أيها الطالبون الصادقون، ﴿مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال:72] من موالاتهم ومخاطبتهم.

﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [الأنفال:72] أي: وإن استمردوكم في طلب الدين، ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال:72] أي: الهداية ليتحقق عندهم وجوب الطلب؛ يعني: الذين آمنوا بالطلب ولم يهاجروا من أوصافهم بعد، فإن جاءوكم واستعانوا بكم في الطلب وتمسكوا بأذيال الوصال منكم فعليكم أن تدلوهم طريق الحق بمعاملتكم وسيركم؛ ليقتدوا بكم بأحوالكم، ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال:72] يعني: إلا على بعض أحوالكم مما صالحتم نفوسكم بعدما جاهدتموها وأسرتموها سرًا فلا تدلوا الطلاب على هذه الأحوال فإنهم بعد في بدء أمر الجهاد لا يصلح

لهم الاطلاع على مصالحة الواصلين مع نفوسهم ليميلوا إلى الصلح في أوان الجهاد والقتال مع النفوس، ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الأنفال:72] من الصلح والجهاد، ﴿بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72] يسلم الصلح للواصلين دون المجاهدين الطالبين.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [73-75].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:73] أي: ستروا الحق وأنكروا على أرباب القلب وركنوا إلى البطالة، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:73] في الضلالة والإضلال، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ [الأنفال:73] أي: لا تتركوا اطلاعهم على مصالحتكم النفوس وعلى بعض أحوالكم، ولا تحترزوا عن موالاة أهل البطالة، ولا تكونوا أولياء مرافقيكم وموافقتكم، ﴿تكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ﴾ [الأنفال:73] أي: في أرض قلوب الطالبين فيفتروا عن جهاد النفوس، ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:73] في موالاتكم أهل البطالة لكم ونفركم بالإنكار عليكم فيها، وفي ترك الموالاة مع مرافقيكم وموافقتكم، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:74] بأن طلب الله واجب، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ [الأنفال:74] عمّا سواه، ﴿وَجَاهَدُوا﴾ [الأنفال:74] أنفسهم، ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال:74] أي: في طلب الله، ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾ [الأنفال:74] محبة الله في قلوبهم، ﴿وَنَصَرُوا﴾ [الأنفال:74] أي: أمدوا المحبة بملازمة الذكر حتى يصير المحب محبوبًا والذاكر مذكورًا لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:74] يعني: هم المؤمنون مستكملين الأيمان الذين وجدوا الحق تعالى في فقد وجودهم، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [الأنفال:74] أي: صفة من صفات الحق سترتهم عنها بها، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:74] أي: رزقوا من كرم الكريم لتخلقوا بأخلاق الكريمة، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال:75] يشير إلى أن كل سالك صادق يسلك طريق الحق لقي من

المتأخرين على قدر الإيمان والهجرة والجهاد الحقيقي - كما مر ذكره - فهو من المتقدمين؛ لأنه ليس عند الله صباح ولا مساء، فالواصلون كلهم كنفس واحدة وهم متبرئون عن الزمان والمكان، استوى عندهم الأمس واليوم والغد، والقرب والبعد، والعلو والسفل ولهذا قال النبي ﷺ: «أمتي كالمطر لا تدري أولهم خير أم آخرهم»[1] وقد ألمت آخرين من إخوانه، وقال: «واشوقاه إلى لقاء إخواني»[2]، ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾[3] [الأنفال:75] هم أولوا رحم الوصول في كتاب علم الله السابق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:101] إن الله بكل شيء في الأزل، ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:75] من المقبولين والمردودين، ومن الواصلين والمنقطعين.

[والحمد لله رب العالمين]

---

(1) رواه الروياني في «مسنده» (2/ 367)، والديلمي في «الفردوس» (4/ 129).

(2) ذكره الغزالي في «الإحياء» (1/ 77) بنحوه.

(3) بيّن سبحانه أن ميراث الأولياء والصدّيقين من العلوم الغيبيّة، والحِكَم الغريبة، والأنباء العجيبة، وبيان المكاشفات والمشاهدات، وأسرار الجذبات، وأحكام المواجيد والواردات، ولطائف المقامات، والسير في المجاهدات لا يصل إلا إلى المريدين الصادقين، والطالبين الموفّقين، والقاصدين المودين، والمحبّين، والمستغرقين في أنوار الأذكار، والطيّارين من المشتاقين بأجنحة الأفكار؛ لأنهم في محاضر الولايات خرجوا برسم الأرواح جميعًا من معادن الأفراح، وأظهروا من أرحام العدم بتجلّي القِدم، ومَن لم يكن منهم من أهل الدعاوي والمترسّمين، لم يصل إليه ميراث بلابل بساتين الملكوت، وعنادل رياض الجبروت. ولا يعرف ألحان تلك الأطيار إلا طير يطير بجناح الرسالة والمحبّة، والنبوّة، والولاية الأذى كيف وصف الله سبحانه خليفة ملكه سليمان صلوات الله عليه، حيث نشر فضائل ما مَنّ الله عليه، بقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:16]. نُسب إليهم بطريق من هذه الطرق، فهو نسبهم في الولاية، وله منهم ميراث علوم الحقيقة، وأنّ الله سبحانه بيّن في كتاب الأزل، بقوله في كتاب الله قُسمت أرباب هذه المواريث. قال ﷺ في هذه الإشارة: «العلماء ورثة الأنبياء»، ورثوا علومهم بقدر حواصلهم وفهومهم وأحوالهم، وسرعة سيرهم في الملكوت، واقتباسهم أنوار الجبروت، أولئك هم إلهيون، ورثوا نعيم مشاهدته، وهم فيها خالدون، ثم أثنى على نفسه أنه كان عالمًا في الأزل باختياره هؤلاء الصدّيقين بهذه الكرامات، محيطًا بعلمه على اصطلاحهم بعد إيجاده إيّاهم بوصف قبولهم هذه الكرامات، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان:32]، وبقوله في تمام السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: «عليم»: بما أبدى لهم من الاصطفائية الأزليّة، وما يبدو منهم من سنيّات طاعته، والزفرات في شوقهم إلى لقائه إلى الأبد، والله أعلم.

سورة التوبة

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة: 1 - 4].

قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ [التوبة: 1] إلى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4].

الإشارة فيها: فاعلم أن الحكمة ترك كتابة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول السورة براءة، وكتابتها في سورة النمل؛ ليعلم أنها آية مكررة في القرآن، وأنها أكثر مما أنزلت في أوائل السور؛ لتكون فاصلة بين السورتين، ولتكون كل سورة متوجة بتاج اسم الله تعالى وصفة جماله وجلاله، فحيث نزلت كتبت، وحيث لم تنزل لم تكتب، فلما لم تنزل في أول براءة ما كتبت في أولها ونزلت في أول النمل وفي أثنائها كتبت في الموضعين جميعًا.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 1] يشير إلى أن النفوس المتمردة المشركة التي اتخذت الهوى إلهًا وتعبدت صنم الدنيا فهادها الروح والقلب في أوان الطفولية، وعاهدها على ألا يجاهداها ولا يقاتلاها إلى حد البلوغ، وهي أيضًا لا تتعرض لهما لاستكمال القالب واستواء القوى البشرية التي بها يتحمل حمل الأمانة، واعيًا لأركان الشريعة وظهور كمال العقل الذي يستعد لقبول الدعوة وإجابتها، وبه يعرف الرسل ومعجزاتهم، وبه يثبت الصانع ويرى تعبده واجبًا لأداء شكر نعمه، وإن الله ورسوله بريء من تلك المعاهدة بعد البلوغ، فإنه وإن نقض عهد النفوس مع القلوب والأرواح؛ لأن النفس قبل البلوغ كانت تتصرف في المأكول والمشروب والملبوس؛ لتربية القالب ودفع الحاجة الماسة غالبًا وذلك لم يكن فقرًا جدًا للقلب والروح، فأمَّا البلوغ فزاد في تلك التربية بالمأكول والمشروب والملبوس الضروري الشهوة، ولمَّا ظهرت الشهوة

شملت آفتها المأكول والمشروب والنكوح واشتعلت نيرانها وأشعلت يومًا بيوم وفيها مرض القلب والروح وبعثت الأنبياء ولدفع هذا المرض وعلاجه، كما قال ﷺ: «بعثت لرفع العادات وترك الشهوات»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة:2] إشارة إلى أن للنفوس في أرض البشرية سيرًا وساحة لتكميل الأوصاف الأربعة النباتية والحيوانية والشيطانية والإنسانية التي تتولد بازدواج الروح العلوي النوراني المفرد والقالب السفلي الظلماني المركب من العناصر الأربعة، فالنباتية: تولد الماء، والحيوانية: تولد الريح، والشيطانية: تولد النار، والإنسانية: تولد التراب.

فلتكتمل هذه الصفات أرخيت أزمة النفوس في مراتع الدنيا ونعيمها إلى البلاغة»[2] ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ [التوبة:2] يعني: نفوس أهل السعادة ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ [التوبة:2] أي: لا تعجزونه أن ينزعكم عن المراتع الدنيوية ويمتعكم بالمنافع الأخروية ﴿وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:2] يعني: مهلك أهل الشقاوة في تيه الغفلات والشهوات، ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة:3] أي: أعلام وأخبار منهما.

﴿إِلَى النَّاسِ﴾ [التوبة:3] أي: إلى الصفات الناسوتية، ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة:3] يوم الوصول إلى كعبة الوصال والحج الأكبر يوم الوصول إلى كعبة القلب، ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:3] يشير إلى أن زيارة كعبة الوصال وطوافها حرام على مشركي الصفات الناسوتية؛ لأنها تميل إلى غير الله، وتركن إلى ما سواه فلا تطوف الناسوتية حول كعبة اللاهوتية إلا بعد فنائها فيها، ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ [التوبة:3] على الناسوتية بإفنائها في اللاهوتية.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يشير إلى أن قيامكم بالله خير لكم من قيامكم بالناسوت، ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الله وركنتم إلى غيره، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ أي: لا تعجزونه عن التصرف فيكم، أمَّا لأهل السعادة فبالجذبات الإلهية يفنيكم عنكم ويبقيكم به، وأمَّا

(1) تقدم تخريجه.

(2) انظر: تفسير حقي (4/ 481).

لأهل الشقاوة فبالطرد والتعذيب بألم الفراق ونار القطيعة، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة:3] أي: تولوا وأعرضوا عنا، ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:3].

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:4] يشير إلى أن النفوس المشركة بأنها من مع ميلها إلى غير الله عاهدت مع القلوب على أن توافقهم في العبودية وتحمل أحباء الشريعة، ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:4] من شرائط العبودية، ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ [التوبة:4] أي: لم يعاونوا عليكم أعداءكم من الشيطان والدنيا وزخارفها ولم يتابعوا الهوى وتداركوا العهد بالوفاء تجانبًا عن الجفاء، ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ [التوبة: 4] بالمدارة والرفق، ﴿إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة:4] إلى أوان طلوع شمس سعادتهم عن أفق العناية، فإن لكل أجل كتاب فتداركهم العناية الأزلية بخطاب ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر:27- 28] إمّا في حال الحياة، وإمّا في وقت الوفاة، ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:4] الذين يتقون به عما سواه.

ثم أخبر عن حال المشركين وقتلهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة:12].

الإشارة فيه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ يشير إلى استكمال الأوصاف الأربعة التي بها قوام الإنسان من النباتية والحيوانية والشيطانية كما مرَّ ذكرها في الآيات المتقدمة؛ يعني: مهما كملت النفس هذه الصفات بها تصير مشركة؛ لأن بهذه الأوصاف تميل إلى الدنيا وزخارفها وتعبد الهوى والشيطان، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: النفوس المشركة بسيف الصدق وقتلها في نهيها عن هواها ومنعها عن مشتهاها واستعمالها على خلاف طبعها وضد طبيعتها.

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا

عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: 5 - 8].

﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة:5] يعني: في الطاعة والمعصية، فقتلها في الطاعة بملازمتها ومداومتها عليها، وفي المعصية بنظافتها عن مشاربها فيها وإعجابها بها وتحصيلها إياها، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة:5] بآداب الطريقة، ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة:5] والجأوهم إلى حصار الحقيقة.

﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:5] يشير إلى مراقبة أحوال النفوس وشد طرف خيلها، أي: ارقبوا مقرها ومهربها، ﴿فَإِن تَابُوا﴾ [التوبة:5] رجعوا إلى الله ورجعت النفوس عن هواها إلى طلب الحق تعالى، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [التوبة:5] أي: داومت على العبودية والتوجه الحق، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [التوبة:5] عن أوصافها الذميمة، ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:5] عن مفلسات الشدائد بالرياضات والمجاهدات؛ ليعملوا بالشريعة بعد الوصول إلى الحقيقة، فإن النهاية هي الرجوع إلى البداية، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ [التوبة:5] يستر بصفاته الراجعين إليه، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:5] بإقباله إليهم لحصولهم لديه.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:6] يعني: من مشركي النفوس يشير إلى إحدى صفات النفوس، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة:6] بالقلب يعني: بعض صفات النفس إن مال إلى جوار القلب، ويرغب في نوع من العبودية وترك ما هو المخصوص به من الصفات الذميمة، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:6] حتى يلهم بإلهام الله ويميز به الفجور والتقوى، فتتزكى عن الفجور وتتحلى بالتقوى، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ [التوبة:6] بالإخلاص والاجتهاد، ﴿مَأْمَنَهُ﴾[1] [التوبة:6] وهو دار الجذبة الإلهية، وإن الجذبة إذا تعلقت بصفة

(1) قال العلامة البحر المحقق سيدي البيطار: اعلم - رحمك الله تعالى - أنه لم يكن بين الله تعالى وبين محمد ﷺ ثنية البتة، بل الأمر واحد، وذلك أن الحقيقة الإلهية باطن الحقيقة المحمدية، والحقيقة المحمدية ظاهر الحقيقة الإلهية، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «أنا من الله والعالم مني» فالله تعالى واحد الذي منه محمد ﷺ فهو أوله وباطنه؛ إذ لا أصل للحقيقة المحمدية النورانية إلا الواحد تعالى وتقدس، وقد تجلى الواحد باسمه المحب فأحب نفس أن يعرف لنفسه، فأفاض من ذاته مرآة واحدية، فكانت المرآة حقيقة =

محمد ﷺ ، فرأى نفسه بتلك المرآة المحمدية، ففي الرتبة الأولى التي هي الكنز المخفي كان الواحد أولاً باطنا، ولما ظهرت له حقيقة نفس في مرآة محمد ﷺ ، التي هي من فيض ذاته صار الواحد آخرا ظاهرًا، والواحد أولاً هو الواحد آخرًا؛ لأنه لم يظهر في تلك المرآة إلا نفسه، كما أنك إذا ضربت الواحد في الواحد لم يخرج إلا واحد بعينه، ولهذا السر قال تعالى في محمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]. وقال تعالى ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعظموا الرسول، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: الرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الرسول ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ، وشاهد هذا التوحيد أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:62] ولو كان بينهما تثنية لقيل: أحق أن يرضوهما وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24] ولم يقل دَعَوَاكم بالتثنية، فصحّ قوله ﷺ : «ومن رآني فقد رأى الحق» .

فإن قلت: إنه قال: «لا تقولوا سيدًا إنما السيد الله» فلم يرض إلا باسم العبد قلت: إنما النهي عن إطلاق اسم السيد على غير الله، ولا غير.

ألا ترى قوله: « أنا سيد الناس»؟ وكيف لا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:80]، ولما بايعوه على الأنفس والأموال نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111]، فهذا الشراء ليس شراء غائب من حاضر، بل هو شراء حاضر من حاضر .

ومما قرّرناه تدرك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:56] فالمعنى أن النبي قبلة لرؤية الله نفسه فيه؛ لأنه ما رأى واحديته إلا في مظهر محمد ﷺ الذي هو مرآة ظهور واحديته، فما رأى في محمد ﷺ سواه، وكذا الملائكة؛ لأنه أصلهم وهم جميعًا فرعه، فهو حقيقتهم والسراج المنير لهم، وهذا معنى ما ورد أن الملائكة خُلقوا من النور، ولا نور في الوجود إلا محمد ﷺ فهو نور السموات والأرض أي: حقيقة وجودهما، ثم أن الله تعالى نبّهنا أن نصلي عليه فنقول: « اللهم صلي على محمد» وندأب على ذلك ليحصل لنا هذا الكشف، ويفتح لنا هذا السر فنرى نفوسنا هو ﷺ كما قال: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6] أي: ليس للمؤمنين أنفس، بل أنفسهم هو ﷺ ، ثم قال ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:6] والأزواج بلسان الإشارة جميع أسماء الله التي يظهر ﷺ بمعانيها من الحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر، والإرادة والكلام، في قراءة (وهو أبوهم) أي: الذات المطلقة، ومن الذات والأسماء تولّد العالم الصوري، فافهم.

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5] وهو أبونا عمومًا على الإطلاق، لا على الخصوص، ولهذا سلب الله عنه الأبوة المقيدة فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:40].

إذا فهمت ذلك فهمت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:33]، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:7]. فصلاتنا عليه أن نترك وجودنا إليه ونسلم الأمر إليه تسليمًا فلا نرى في جميع الوجود إلا محمدًا ﷺ، وهذا مشهد صديقي، لذلك قال لابنته أم المؤمنين «عائشة» في شأن براءتها: «قومي فاشكري رسول الله»؛ لأنه أدرك معنى الصلاة والسلام عليه، ولم يكن هذا التحقق في ذلك الحال لبنته، فقالت: «لا أشكر إلا الله»، فإذا علمنا أننا هو عادت صلاة الله وملائكته، بل وصلاتنا عليه وتسليمنا عليه علينا، فعند ذلك ندرك ما أخبرنا الله به من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظلمات الشرك الخفي ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:43] وهو محمد ﷺ، فقد علمت أن معنى الصلاة والسلام على محمد ﷺ الوصلة التامة به والتحقق الذاتي من الله، ومن الملائكة ومنًا حتى نراه فرد الوجود وعين الشاهد والمشهود. إذا تقرر ذلك، وعلمت سر الواحدية التي أشرنا إليها أدركت سر قول الله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6]، ولم يقل في حقه كما قال في حق موسى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:164] إذ ليس بين الله ومحمد مكلم وكليم.

ألا ترى قوله تعالى في حق القرآن العظيم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:40] فاثبت أن القرآن قوله، كما أن المنزل حقيقة ذاته وعينه، وذلك ثمرة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، ولهذا الخلق العظيم أمر أن يجير المشرك من باب صلة الرحم؛ لأن المشرك مظهر حقيقته فهو فرعه، وما أشرك إلا بالتوجه لصورة خاصة مقيدة، وتلك الصورة هي مظهر حقيقته، لكن المشرك بسبب جهله وحجابه عن تلك الحقيقة الواسعة لجميع المظاهر سُمي مشركًا؛ لأنه تقرّب بالمقيد المحصور إلى المطلق الذي لا يُحصر، وفي الحقيقة لا غير فأمر بإجارته والرفق به ليسمع منه كلام الله، ولم يقل تعالى: فأسمعه لعله يتذكر أو يخشى، بل قال: ﴿فَأَجِرْهُ﴾ إشارة إلى أنه المطلق المتصرف كيف يشاء.

ألا ترى ما وقع لابنة عمه أم هانئ أخت سيدنا عليّ بن أبي طالب - سلام الله عليه - لما دخل بيتها المشرك يوم فتح مكة، واستجار بها فجاء أخوها أبو تراب - سلام الله عليه - وهمَّ بقتله، فشكت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» فكما أنه ﷺ هو المالك فهو المملك أيضًا.

ألا ترى قوله «أهل بيتي أمان لأمتي» فهو كعبة الكعبة؛ لأن الكعبة من دخلها فهو آمن، وليس له أن يؤامن غيره.

فافهم ما أشرنا إليه - رحمك الله - وحيث في الدنيا كذلك، ففي الآخرة أعظم؛ لأنها أبلغ في ظهور سيادته المطلقة بلا استتار.

فإن قلت: قد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:88] فإن عيسى عليه السلام وكّل الأمر إلى الله، فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ إلا به [المائدة:118] والخليل قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:36] وموسى قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ [المائدة:25]، ونوح قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فقال: [هود:45] فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46]

فكيف أجاب محمد ﷺ وعليهم جميعاً وقرر إجارة أم هانئ، قلت: إن سيدنا محمد ﷺ هو السيد على الإطلاق والسيد لا يكون إلا متصرفًا على الإطلاق دون التقييد، ألا ترى ما حكاه الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الزخرف:88]، ثم قال: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ [الزخرف: 89]، فاللائق أن يكون الخطاب من الله إليه لأنه لا يقول لربه: ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ فمن قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ أفادنا أنه جعله هو صاحب الحق حتى طلب منه الصفح فإن قلت: ما الدليل الشافي من القرآن أنه عين صاحب الحق.

قلت: هو قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53]، ولم يقل: يا عباد الله، فهو ﷺ ذاتي لا صفاتي، وحينئذ هو المجير على الإطلاق، بل إنه يملك هذا المقام لمن أحب.

ألا ترى قوله لأخيه أبي تراب - كرم الله وجهه : «أنت قسيم الجنة والنار»، وأعجب من هذه العجائب كلها قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:14] أي: من أمتك بالتحقق بمقامك .

فمن هذا المعنى ما جرى للغوث الجيلي ﷺ حيث قال: رأيت امرأة كانت أرضعتني وقد أسود وجهها من العذاب فألبست لها النار صورة الجنة، ومن نوّر الله بصيرته وشرح الله صدره في فهم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]، وفي قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:199] علم أنه صاحب العطاء المطلق لكل سائل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى:10]، فافهم إن كنت من أهل الفهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

نكتة لطيفة وحكمة شريفة: أمر الله محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6] فقوله: ﴿فَأَجِرۡهُ﴾ أي: من الشرك؛ لأن ﴿ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:13]، فيحتمل أنه ظلم للشريك، حيث جعله غير الحق، ولا غير، فالمشرك ظلم مرتبة الوجود المطلق؛ لأن مرتبة التوحيد وزعم الغيرية محال، ويحتمل أن الشرك ظلم عظيم من المشرك لنفسه حيث أنزلها منزلة الجهل، فزعم أنه يعبد غير الله ليقربه إلى الله زلفى، والحال أنه ما عبد إلا الله؛ لأن الله هو الظاهر في كل شيء، فكفره أي: ستره وهو الوجود المطلق بالحكم العدمي الذي هو الشرك، وذلك محال، فلذلك السر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:48] والمغفرة: هي الستر، والشرك عدم محض لا وجود له حتى يستره الله بل هو تخيل وهمي لا وجود له إلا في نفس المشرك لا في الخارج؛ لأن الله قضى ألا يُعبد إلا إياه، ففي الحقيقة لا شرك في الوجود حتى يغفر؛ أي: حتى يستر؛ لأن الستر لا يكون إلا لأمر وجودي، والذي هو من أصله عدم كيف يستر؟! فالأمر الإلهي بقوله تعالى: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6] يقتضي أن المصطفى ﷺ أمر بالتوجه إلى المشركين المحجوبين حتى يجيرهم من شركهم، فيسمعون كلام الله من جميع مظاهر الله، وإذا كان أبو العباس

من صفات النفس تنجذب النفس بجميع صفاتها من سطوة جذبة الحق، فإن بطش ربك لشديد، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ [التوبة:6] يعني: النفس وصفاتها، ﴿قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:6] الله والطاعة فلا يقبلون إليه ويعلمون الدنيا وشهواتها فيرغبون إليها.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة:7] يشير إلى مشركي النفوس كيف يكون، إمَّا ثبات على العهد الذي عاهدت الله تعالى يوم الميثاق على أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا من الدنيا والآخرة، وذلك أن النفس ما دامت حية باقية على صفاتها الذميمة غير المبدلة بالحميدة، ولا يمكنها العبودية الخالصة من قرب الطمع في المقاصد الدنيوية والأخروية؛ لأنها خلقت من السفليات وجبلت ميالة إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها بالطبع وإن صقل الطبع الطمع بالتزكية عنها وآل إلى الصلاح أمرها وتخلقت بالأخلاق الروحانية، فحينئذٍ تميل من الشهوات الدنيوية الفانية إلى شهوات نعيم الجنة

المرسي ﷺ يأتيه الأعرابي يبول على ساقية فيوصله بالتوجه والهمة الجاذبة إلى الله، فلا عجب أن السيد المطلق يُوصل من استجار به إلى الله، ويسمعه كلام الله، ولهذه النكتة قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:6] ولا مأمن له إلا حضرة السلام، وهو معرفة نفسه بأنه سالم من وجود السوى.

فلذا قال: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف:89]، أي: أوصلهم إلى الحضرة السلامية، فكان يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام» ومن أراد أن يحقق ما قلناه فليتبصر بقوله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» فليت شعري هل يُجاب دعاؤه أو لا؟ نعم والله يُجاب دعاؤه ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:227]، والمراد بالظلم هنا: الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]، فإذا أقرَّ الله عين المصطفى ﷺ بإجابة دعائه لهم بالهداية، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة يعلمون أي منقلب ينقلبون، وما ينقلبون إلا إلى الوجود الإلهي المطلق السالم من السوى وهو المآل من الذي أمر ﷺ بالإبلاغ إليه، فهو ﷺ مظهر هداية الله على الإطلاق ومدلول اسم الله الهادي.

ألا ترى أنه لما قيل له: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:13] قبل من أهل الكتاب الجزية والخراج وأدخلهم كعبة أمانه المطلق، وحول شقاء من قال: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:24] إلى السعادة بقوله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» وذلك تقرير لسعادتهم حين ولوج الجمل في سم الخياط ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:39] ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:78].

الباقية كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:71].

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة:7] وهو مقام الوصول الذي حرام على أهل الدنيا والآخرة وهو مقام أهل الله خاصة، فإن النفس إذا تنورت بالأنوار المنعكسة من تجلي صفات الجلال والجمال لمرآة القلب تفنى عن أوصافها المخلوقية وتبقى بالأنوار الخالقية، فيثبتها الله على العهد بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة محفوظة عن خصائصها، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ [التوبة:7] عن الصراط المستقيم فتصهر بالدين القويم، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:7] على مهادنة النفوس من ترك جهادها بشدائد فتلك الطريقة وسَرح في رياض متسع الشريعة، ﴿إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:7] أي: النفوس المتقية بالله عمّا سواه.

ثم أخبر عن خصوصية النفوس، وإنها لا تصلح للثبات على الاستقامة، وأنها غير مأمونة عنها فقال: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة:8] إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة:12] يشير إلى أن النفس في جميع الأحوال مترقبة للظفر بالقلب والروح، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:8] أي: لا يحفظوا فيكم حقوق الجنسية، فإن الخليقة بعضها من بعض الأرواح والقلوب والنفوس والأصدقاء بالعهد، فإنها مجبولة على الجفاء ونقض العهود، ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة:8] بالأعمال الظاهرة، ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:8] طبيعتهم وجبلتهم اختيارًا ما يرضونكم به اضطرارًا، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة:8] فيما يعملون للرياء والنفاق خارجون عن الصدق والإخلاص.

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التوبة: 9 - 13].

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [التوبة:9] أي: بدلالات توصلهم إلى الله تعالى، ﴿ثَمَنًا

﴿قَلِيلًا﴾ [التوبة:9] من متاع الدنيا ومصالحها ومنافعها.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [التوبة:9] أي: قطعوا طرقه على الأرواح والقلوب، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:9] حين انقطعوا عن الحق وقطعوا طريقه على طالبه، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:10] يعني: لا يرعون حقًا من حقوق القلب والروح عند الاستيلاء، فلا ترقبوا فيهم أيضًا حقًا من حقوقهم إذا ظفرتم أيتها القلوب والأرواح بالنفوس، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:10] المجاوزون عن الحق وطلبه، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [التوبة:11] أي: فإن رجعوا عن الاعتداء إلى إقامة العبودية وطلب الحق، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [التوبة:11] أي: وتزكّت عن طبعها وأوصاف جبلتها، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:11] رفقاؤكم في طلب الحق، فارقبوا حقوق إخوانهم كما ترقبون حقوقكم كما لنفسك عليك حق، ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [التوبة:11] ونبين دلالات طريق الحق والوصول إليه، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:11] أن السير إلى الله من أهم المهمات وأعظم الكمالات.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ [التوبة:12] أي: إن نقضوا النفوس عهودهم، ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة:12] من بعد ما عاهدوه على العبودية والمطاوعة، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [التوبة:12] أي: أنكروا على مذهب السلوك والقلب، ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: 12] أي: فجاهدوا حق جهادها؛ أي: كما أن القلوب والأرواح أئمة الدين والإيمان، فالنفوس أئمة الكفر ومعدنه، ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة:12] أي: لأنه جاء لهم بالعهد على طلب الحق تعالى وبذل ما سواه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة:12] لكي ينتهوا عن طبيعتهم وعمّا جبلوا عليه من الأمارية بالسوء.

ثم أخبر عن قتال الناكثين بقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ [التوبة: 13] إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:15] إلى اتباعه في جهاد النفس التي نقضت عهدها وشدة رياضتها لئلا تتعود نكث العهد وتعود إلى شؤم طبعها وعادتها الأمارية بالسوء بعد اطمئنانها إلى ذكر الله، وطلبه انفتاح روزنة القلب إلى عالم الغيب، ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة:13] يعني: الواردات الغيبية بانسداد وزنة القلب بنتائج

الصفات الإنسانية، ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة:13] المنازعة والمخالفة والمقاتلة مع القلب والروح في بدء الأمر كان من سمة النفوس وطبعها.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ [التوبة:13] يعني: أتخشون فوت حظوظ النفس في اجتهادها؟ ﴿فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:13] أي: خشية فوات حقوق الله والوصول إليه أولى، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:13] بالوصول إليه فأقيموهم يعني: النفوس.

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [التوبة: 15 – 19].

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:14] أي: القلوب والأرواح باستيلائكم عليها كما عذبتكم عند استيلائها عليكم، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ [التوبة:14] ويذلهم بالقهر والقمع، ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:14] بالظفر بها، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:14] أي: الأرواح والقلوب المؤمنة بانتقامهم من النفوس الكافرة الناكثة العهود، ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:15] يعني: وحشتها وكدورتها، ﴿وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة:15] من النفوس إلى الرجوع إلى الحق قبل التمادي من غير احتياج برياضة شديدة، ﴿واللهُ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:15] بالنفوس التي ترجع بالشريعة إلى الحق والتي تتمادي في الباطل، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:15] فيما حكم ودبر في كليتها.

ثم أخبر عن لزوم الجهاد مع أهل العناد بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ [التوبة:16] الإشارة فيها أم حسبتم أيتها النفوس الأمارة بالسوء أن تتركوا بلا رياضة

ومجاهدة، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة:16] بترك الهوى وشهوات الدنيا، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:16] يعني: الأرواح والقلوب، ﴿وَلِيجَةً﴾[1] [التوبة:16] أولياء من الشيطان والدنيا والهوى، ﴿واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:16] من التوجه إلى الحق بالصدق مخلصًا ومستويًا بالأعراض والعلل.

ثم أخبر عن أحوال الأعمال مردودها ومقبولها بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾ [التوبة:17] إلى قوله: ﴿واللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:19] الإشارة فيها ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إشارة إلى النفوس الأمارة بالسوء المشركة التي تعبد الهوى والدنيا وشهواتها يعني: ما كان من شيمة أمارتها عمارة مسجد الله وهي القلوب، وهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة:17] يعني: وهم مقرون على ما جبلت عليه النفوس من التمرد وتعبد الهوى، ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [التوبة:17] أي: صدرت عنهم رياءً وسمعة، ﴿وَفِي النَّارِ﴾ [التوبة:17] أي: نار البعد والقطيعة، ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة:17] ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ [التوبة:17] أي: يعمر مساجد القلوب ويزينها من النفوس ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة:18] أي: صدق بأن المقصود والمعبود هو الله لا الدنيا وشهواتها الفانية وعمل نيل السعادة الأخروية الباقية، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [التوبة:18] أي: أدام المناجاة مع الله بصدق القلب، وأدى حق التزكية عن الأخلاق الذميمة والأوصاف الرديئة، فإن بها عمارة القلوب، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ [التوبة:18] أي: لم يخف من فوات الحظوظ الدنياوية في طلب الله، وإنما يخاف فوات الحقوق الإلهية، ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ﴾ [التوبة:18] يعني: النفوس عقب هذه الأحوال، ﴿أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:18] من الله إلى الله، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [التوبة: 19] يشير إلى المستخدمين من هذه الطائفة الذين ينصبون نفوسهم لخدمة أرباب الطلب

(1) بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي أصحاب سرٍ يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم. البحر المديد (2/ 388).

ولهم أغراض فاسدة، يقول: أتجعلون هذه الخدمة المنسوبة بالأغراض.

﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة:19] أي: الأعمال الموجبة بعمارة القلوب إذا كانت خالصة عن الرياء والأغراض من الزهد والتصوف والتقيد بالمشوبات بالرياء والهوى، ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:19] أي: مساويًا إيمانه واعتقاده طلب الله تعالى وهو مجاهد في السير إلى الله، ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:19] الذين يضعون الأعمال الصالحة في غير موضعها رياءً وسمعه إلى حضرة جلاله.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: 20 - 24].

ثم أخبر عن أهل الوفاق بعد ذكر أهل النفاق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ [التوبة:20] الإشارة فيها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: القلوب المؤمنة، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أي: الأرواح المهاجرة إلى القوالب والأجساد، ﴿وَجَاهَدُوا﴾ [التوبة:20] أي: القلوب والأرواح التي جاهدت النفوس، ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:20] أي: في طلب الله والسير إليه، ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة:20] أي: ببذل الوجود والموجود جميعًا في الله.

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [التوبة:20] أي: قربة، ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ [التوبة:20] أي: في مقام العندية من النفوس المتمردة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة:20] الناجون من حجب الوجود المجازي، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [التوبة:21] بعد الخلاص عن حبس الوجود، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة:21] أي: بتجلي صفات لطفه، ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ﴾ [التوبة:

21] من فراديس القلوب، ﴿فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة:21] من الشواهد والكشوف، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة:22] أي: في الازدياد أبد الآباد يعني: من وصل إلى مقام العندية، فالله العظيم أجره أي: يجده في مقام العندية.

ثم أخبر عن ترك موالاة الكفار وإن كانوا آباءً وأقرباء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة:23] الآيتين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يشير إلى القلوب شواهد الحق، ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ﴾ أي: الأرواح، ﴿وَإِخْوَانَكُمْ﴾ أي: النفوس، فإن بازدواج الأرواح والأشباح تولدت القلوب والنفوس منها، فالأرواح للقلوب بمثابة الآباء والنفوس بمثابة الإخوان.

ثم اعلم أن لكل واحد من الروح والقلب والنفس كفرًا وإيمانًا مناسبًا لحاله، والكفر: هو الستر والحجاب، والإيمان: هو الشهود والكشف، فكفر بالروح من حجاب الأنانية الروحانية والبقاء مع الله تعالى، وإيمانه بالفناء عن أنانيته في الله وبقائه بالله، وكفر القلب: موته ومرضه وصممه وبكمه وعماه وهو الكفر الحقيقي، وإيمانه: سلامته عن هذه والعلل والآفات وإحيائه بالنور الساطع الرباني من كتابة الله فيه بقلم الكرم، به يشاهد الحق تعالى ويكاشف بصفاته وهو الإيمان الحقيقي ومعدنه القلب.

وكفر النفس: انهماكها في شهوات الدنيا واستغراقها باستيفاء لذاتها وبقاء صفاتها الحيوانية والشيطانية، وإيمانها: بخروجها عن صفاتها الطبيعة الظلمانية إلى الأخلاق الروحانية الشرعية النورانية واطمئنانها بالذكر وأنسها مع الله، فربما تكون بعض هذه الخلقة مؤمنًا وبعضها كافرًا، فمعنى الآية يشير إلى أن القلوب المؤمنة لا ينبغي أن يتخذوا آباءهم الأرواح وإخوانهم النفوس أولياء، ولا يتركوا عداوتهم بترك الجهاد معهم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: اختاروا الوقوف مع أوصافهم فيه كفرهم ولا يخرجون من ظلمات طباعهم إلى أنوار مواهب الحق تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة:23] يعني: كل قلب مؤمن يواسي الروح والنفس في استحبابها الكفر، ولا يجاهدها ليخرجها من كفر طبعهما إلى نور إيمانهما ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة:23] الواضعون المداراة والمواساة في غير موضعها، فإن

المداراة في الطريق كفر.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة:24] أي: الآخرة، إشارة إلى أن أصل الدين هو محبة الله تعالى، وأن صرفه استعداد محبة الله في هذه الأشياء المذكورة فيها فسق وهو الخروج من محبة الخالق، من أثر محبة المخلوق فقد أبطل الاستعداد الفطري لقبول الفيض الإلهي، واستوجب الحرمان وإدراكه القهر والخذلان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة:24] أي: بقهره، ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:24] الخارجين عن حسن الاستعداد؛ يعني: لا يهديهم إلى حضرة جلاله وقبول فيض جماله بعد إبطال حسن الاستعداد.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: 25 29].

ثم أخبر عن كرم الخالقية وكرم المخلوقية بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة:25] إلى قوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:27]، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: نصركم الله في جهاد النفوس الذي هو الجهاد الأكبر بالظفر عليها في مقامات كثيرة، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة:25] فيه إشارة إلى تحنين القلوب شوقًا إلى ربها وحنين قلوبكم إلى اللقاء حسبتم أنكم تبلغون بكثرة الطاعات، وتنالونه بمجرد الأعمال وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة:25] يشير إلى كثرة الطاعات،

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ [التوبة:25] كثرتها، ﴿شَيْئًا﴾ [التوبة:25] فما حسنت قلوبهم إليه، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ [التوبة:25] أرض الوجود.

﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة:25] أي: بما وسعت، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ [التوبة:25] أي: أعرضتم عن الطلب لما احتجبتم بحجب العجب، وانقطع عنكم إمداد الفيض الرباني غلب عليكم هوى النفوس حتى وليتم عمَّا توليتم من صدق القلب وجهاد النفوس، ﴿مُّدْبِرِينَ﴾[1] [التوبة:25] إلى أسفل الطبيعة الحيوانية، وذلك ليتحقق لكم أن من أقبل إلى الحق فبالحق أقبل ومن عدم توفيق الإقبال أدبر بلوم نفسه، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:26] وهي واردات ترد على القلوب والأرواح المؤمنة، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:26] من الفيض الرباني.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة:26] أي: النفوس المتمردة عذبها بنهيها عن هواها، واستعمالها في أحكام الشريعة وآداب الطريقة، وتزكيتها عن أوصافها، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:26] أي: وذلك علاج النفوس المتمردة، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [التوبة:27] أي: من بعد ذلك العلاج، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة:27] يعني: يرد ما يشاء من النفوس بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر:27] إلى حضرة جلاله، وهذا إشارة إلى السير إلى الله بالله، ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ [التوبة:27] بصفة مغفرته للسائرين إليه، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:27] بهم فيما يغفر لهم.

ثم أخبر عن حال المشركين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:28] الإشارة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ يشير الخطاب إلى الأرواح المؤمنة، وإعلانها عن أحوال النفوس المشركة أنها نجس ونجاستها شركها، أنها تعبد الدنيا والشيطان والهوى من دون الله، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾

(1) قال القشيري: يعني نَصَرَكم يومَ حُنَيْن حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقاب القَهر فاضطربت القلوبُ، وخانت القوى أصحابَها، ولم تُغْنِ عنكم كَثْرتُكم، فاستخلص اللهُ أسرارَكم - عند صدق الرجوع إليه - بِحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم ، فَقَلَبَ اللهُ الأمرَ على الأعداء، وخَفَقَتْ راياتُ النصرة، ووقعت الدائرةُ على الكفار ، وارتدَّتْ الهزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين.

[التوبة:28] وهو القلب، ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:28] أي: بعد البلوغ، وذلك أن الله تعالى قد رفع قلم التكليف عن الإنسان إلى أن يبلغ لاستكمال القالب، ففي تلك الحالة كانت النفس وصفاتها تطفن حول كعبة القلب مستمدات من قوته العقلية والروحانية، وبهذا يظفرون بمشتهياتهن من الدنيا ونعيمها حتى صار دأبهن تعبد الدنيا والإشراك بالله طبعهن، وبذلك الكامل القالب واستوت أوصاف البشرية الحيوانية عند ظهور الشهوة بالبلوغ، ثم أجرى الله عليهم قلم التكليف، ونهى القلوب عن اتباع النفوس، وأمرها بقتالها ونهاها عن طوافها لئلا تنجس كعبة القلب بنجاسة شرك النفس وأوصافها الذميمة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[1] [التوبة:28] يعني: فاقة عن الحظوظ، وذلك أن للقلب من الجهة التي تلي النفس حظوظًا يستلذ بها عند اتباع النفس واتصافه بصفاتها، فلما منعت النفس عن طوافها حول القلب خاف القلب من فوات حظوظه من الشهوات بتبعية النفس فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة:28] أي: بعد انقطاع تصرفات النفس عن القلب يغنيه الله من تلك الحظوظ بما يفتح عليه من فضل مواهبه من أنواره وآياته الربانية والشواهد والكشوف الرحمانية، ﴿إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة:28] فيه إشارة إلى أن ما عند الله لا ينال إلا بمشيئته، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:28] بمستحق فضله، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:28] فيما حكم وقدر، ثم أمر بقتال النفوس المشركة فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:29] أي: من النفوس، ﴿بِاللهِ﴾ [التوبة: 29] بتعبده.

(1) أي: فقراً بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام ، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه وتفضله بوجه آخر. وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكّة، ثم فتح عليهم البلاد ، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن، وقيده بالمشيئة؛ لتنقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام. البحر المديد (2/ 394).

﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة:29] أي: يعملن لتعبد الدنيا وتمتعًا بها كالبهائم، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ [التوبة:29] من حب الدنيا وشهواتها، فإنه رأس كل خطيئة، ﴿وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:29] أي: وما حرَّم رسوله على نفسه منها، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة:29] أي: لا يطلبون الله، فإن دين الحق هو طلبه.

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة:29] أي: من النفوس التي ألهمت بالإلهامات الربانية والخواطر الرحمانية، ثم غلب عليها الهوى ومالت إلى الدنيا وشهواتها وما عملت بما ألهمت، فأمر بقتالها وجهادها وما خالفتها، ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة:29] وجزيتها معاملاتها على خلاف طبعها، ﴿عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:29] يعني: عن حكم صاحب قوة وهو الشرع وعن عجز وعن ذل وهوان.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: 30 -34].

ثم أخبر عن حال النفوس الملهمة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:30] إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:33]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:30] يشير إلى تهود النفس، وعزير القلب، وذلك لأن النفس خلقت من ملكوت العناصر الأربعة، وهي ظلمانية سفلية محجوبة عن الله تعالى، وهي ظلومة جهولة، والقلب خلق من الملكوت الأعلى، ولهذا الستر هو بين أصبعين من أصابع الرحمن أي: بين صفتي اللطف والقهر والجمال والجلال، وهو نوراني علوي ومهبط أنوار الحق ومورد

الواردات والمواهب الربانية ومعدن العلوم اللدنية ومظهر صفات اللطف والقهر ومنح علم.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] انعكس من مرآة القلب آثار أنوار الواردات والمعارف الصادرة عن الحضرة على النفس المظلمة نورت وألهمت عن القلب بتلك المعارف والعلوم التي هي بمعزل عنها تقول القلب ابن الله كما قالت اليهود لما سمعت، والعلوم التي هي بمعزل عنها عزير ابن الله.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:30] يشير بالنصارى إلى القلب الغلف الذي هو مكمن مرض حب الدنيا ونعيمها، وبالمسيح إلى الروح المشرف باختصاص إضافة من روح المفرز بنفحة الحق، وذلك الروح ربما يتجلى للقلب في صفة الربوبية والخلافة مقترنًا بتجلي صفة إبداع الحق، ومبدعية الروح مع كمال قربه واختصاصه بالحق عند بقاء تصرف الخيال فيتخيل القلب نسبة الأبوة والبنوة بين الله والعبد؛ إذ البنوة أخص التعلقات بالوالد، وإذا كوشف العبد بهذا الابتلاء ينسب الروح بأنها إنزال الله، ولهذا السر أزال الحق سبحانه وتعالى هذه الشبهة مع سورة الإخلاص بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص:3].

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة:30] أي: ليسوا على تحقيق في هذا القول، ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:30] يوافقون قول النفوس الكافرة الكاذبة قبل إيمان القلوب والأرواح، ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:30] يكذبون، ﴿اتَّخَذُوا﴾ [التوبة:31] أي: النفوس.

﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ [التوبة:31] أي: قلوبهم، ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ [التوبة:31] أي: أرواحهم، ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:31] يشير إلى الخفي الذي فوق الأرواح، وهو استولد منه بنفحة الحق كما تولد عيسى عليه السلام عن مريم - رضي الله عنها - بنفحة الحق، وإنما اتخذت النفوس القلوب والأرواح والخفاء أربابًا؛ لأن الخفي هو أول مظهر الفيض الإلهي الذي منه التربية، ثم الروح، ثم القلب، ثم النفس، ثم القالب، فالنفس من قصر نظرها ترى منشأ تربيتها القلب، فتتخذه ربًا ثم يرتقي نظرها إلى أن ترى

التربية من الخفي فتتخذه ربًا من دون الله، فإن نظرها لا يرتقي إلى أن ترى الحق تعالى، فإن رؤية الحق من شأن القلب لا من شأن النفس كقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:11].

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة:31] أي: ليروا مصدر الأمور ومنشأ الأفاعيل والمعبود الحقيقي إلهًا واحدًا صمدًا لا شريك له، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة:31] أي: لا معبود سواه، ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:31] يجعلون له أندادًا من الدنيا وما فيها، ومن الآخرة وما فيها؛ يعني: هو منزه عن كل شريك أثبتته النفوس، فإن من شيم النفوس اتخاذ الهوى والدنيا والشيطان إلهًا، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة:32] أي: هوى النفوس إطفاء النور الإلهي بأفواه استيفاء الشهوات واللذات الجسمانية عن مصابيح الروحانية.

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة:32] يعني من سنة الله لا يسلط النفوس على القلوب المنورة بنور الله؛ ليطفئوا أنوار الله، بل من سنته أن يتم نوره الذي رش على الأرواح في بدء الخلقة؛ لقوله ﷺ: «إن الله خلق الخلق ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد هدي ومن أخطأه فقد ضل»[1] فإتمام ذلك النور المرشش بالاهتداء.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:32] أي: ولو كرهت النفوس الكافرة، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ [التوبة:33] وهو النور المرشش، ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ [التوبة:33] أي: بالهداية.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة:33] أي: بطلب الحق يعني: من طلب الحق واهتدى إليه إنما كان بهداية النور المرشش ولو لم يكن ذلك النور ما اهتدى إلى الله أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة:33] أي: ليظهر النور المرشش في طلب الحق على طلب غيره كله، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:33] ولو كرهت النفوس المشركة ترك ما سوى الله لطبعها؛ لأن من طبعها طلب غير الله وهو إشراكها بالله.

---

(1) تقدم تخريجه.

ثم أخبر عن أحبار غير أخيار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ﴾ [التوبة:34] الآيتين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأسرارهم ولم يتمكن الإيمان من سرائرهم، ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ﴾ أي: القلوب، ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ [التوبة:34] أي: الأرواح، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:34] أي: يتمتعون من حظوظ النفس بطالة وخسارة؛ لأن حظوظ القلب والأرواح من المطالعات الروحانية والمشاهدات الربانية والأحوال السنية العلوية.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة:34] وهم الذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ حرصًا وطمعًا في الاستمتاع من حظوظ النفوس، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:34] ليقطعوا مسافة البعد عن الله تعالى بقدمي ترك الدنيا وقمع الهوى، ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:34] وهو عذاب البعد والقطيعة.

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة: 35 - 39].

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ [التوبة:35] أي: على ما لم ينفقوه في طلب الحق، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:35] أي: يحمي نار جهنم الحرص، ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التوبة:35] أي: جباه القلوب والأرواح؛ لأنها لا تتوجه للحق وطلبه، ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ [التوبة:35] أي: لئلا تتجافى عن المضاجع المكونات، يدعون ربهم خوفًا من القطيعة، وطمعًا في الوصول

إلى عالم الحقيقة، ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة:35] أي: لئلا تركع وتتواضع لله تعالى.

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:35] أي: يقال هذا الذي أصابكم من الحرمان، وكثرة الهجران ما خصكم وأخرتم بخسران أنفسكم، ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:35] أي: الآن في الآخرة، فذوقوا من ألم الحرمان والخسران الحاصل في الدنيا من كي نار الحرص ولم تكونوا تذوقوا؛ لأنكم كنتم في منام الغفلة عن الآخرة، والنائم لا يذوق ألم الكي في النوم، وإنما يذوقوه عند الانتباه «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»(1).

ثم أخبر عن عدة الشهور التي وجبت فيها الزكاة على الجمهور بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ﴾ [التوبة:36] أي: إن تقدير عدة الشهور عند الله في الأزل اثنا عشر، ﴿شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [التوبة:36] في علم الله، ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾(2) [التوبة:36] يعني: اقتضت الحكمة الإلهية الأزلية أن يكون من الشهور.

﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي: يعظم انتهاك المحارم فيها بأشد ما يعظم في غيرها؛ بل هي أشهر الطاعات والعبادات محرمة فيها الشواغل الدنيوية والحظوظ النفسانية على الطلاب، وفيه إشارة إلى أن أيام الطالب وأوقات عمره ينبغي أن تصرف جملتها في الطلب فإن لم يتيسر له ذلك فثلثاها وإلا فنصفها، وإن لم يكن فمحرم صرف ثلثها في غير الطلب ولا يفلح من نقص من صرف الثلث شيئًا في الطلب إذ لا بد له من صرف بعض عمره في تهيئ معاشه ومعاش أهله وعياله، ومن استغنى عن هذا المانع فمحرم عليه صرف لحظة من عمره في غير الطلب وتوابعه كما قال ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة:36] أي: المستقيم يعني: من صرف شيئًا من عمره في شيء غير طلب الحق ما استقام دينه؛ بل فيه اعوجاج بقدر ذلك فافهم جدًا.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) لمَّا عَلِم أنهم لا يُداوِمُون على مُلازَمَةِ القُرَبِ أفْرَدَ بعض الشهور بالتفضيل، ليخُصُّوها باستكثار الطاعة فيها. فأمَّا الخواصُ مِنْ عبادِه فجميعُ الشهورِ لهم شعبانُ ورمضانُ، وكذلك جميع الأيام لهم جمعة، وجميع البقاع لهم مسجد، تفسير القشيري (3/ 95).

ثم قال: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:36] أي: في ثلث العمر لأن الأربعة هي ثلث الاثني عشر، يعني: إن صرفتم شيئًا من ثلث أعماركم المحرم في شيء من المصالح الدنيوية فقد ظلمتم أنفسكم باستيلائها على القلوب والأرواح عند غلبات صفاتها؛ لأنه مهما يكن صرف أكثر العمر في الدنيا ومصالحها واستيفاء الحظوظ النفسانية تكون النفس غالبة على القلب والروح فتخالفهما وتنازعهما بجميع صفاتها الذميمة، وتميل إلى الدنيا وشهواتها وتعبد هواها فتكون مشركة بالله فلهذا قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْـمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة:36] أي: قلوبكم وصفاتها وأرواحكم وصفاتها.

﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:36] أي: النفوس وصفاتها جميعا ومقاتلة النفوس بمخالفتها وردعها عن هواها وكسر صفاتها ومنعها عن شهواتها وشغلها بالطاعات والعبادات واستعمالها في المعاملات الروحانية والقلبية وجملتها التزكية عن الأوصاف الذميمة والتحلية بالأخلاق الحميدة ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْـمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:36] وهم القلوب والأرواح المتقية عن الشرك يعنى عن الالتفات لغير الله ولو لم يكن الله معهم بالنصر والتوفيق لما اتقوا بالله عما سواه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة:37] يشير إلى أن الكفر من شيم النفوس الأمارة بالسوء، وإنما جاء الشرع ليجعلها مأمورة مسلمة لأوامره ونواهيه، فتأخير الأشهر الحرم وتبديلها زيادة في الكفر الطبعي النفساني، ﴿يُضَلُّ بِهِ﴾ [التوبة:37] عن سبيل الله.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة:37] أي: النفوس الكافرة ليزداد كفرها على الكفر وبعدها على البعد؛ لأنها مع كفرها تحل ما حرم الله، وتحرم ما أحل الله وهو كفر، وذلك قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ [التوبة:37] إلى قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [التوبة:37] لأنهم يحبسون أي: مواطأة، ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ [التوبة: 37] مع تأخيره وتبديله بالطبع، وتغيير المأمور به محمودًا، ولا يعلمون أنه كفر زادوه في كفرهم، ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ واللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:37] أي: إنما لم يهتدوا إلى الإيمان؛ لأن الله ما هداهم.

ثم أخبر عن حث الرجال على القتال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة:38] الآيتين، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يا أيتها الأرواح والقلوب المؤمنة، ﴿مَا لَكُمْ﴾ [التوبة:38] أي: ما مصيبتكم وبلواكم، ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ يعني: بالإلهام الرباني، ﴿انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: اخرجوا من الدنيا وما فيها في طلب الله والسير إليه إذ آمنتم به.

﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تثاقلتم إلى أرض الدنيا وملتم إلى شهواتها كالنفوس الكافرة، ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة:38] كيف رضيتم من أنفسكم بركونها إلى الدنيا وشهواتها، وترك الآخرة ونعيمها، واستحسنتم بأن تبيعوا الدين بالدنيا وتريدون الفاني على الباقي؟

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:38] فإن الكثير الفاني قليل بالنسبة إلى القليل الباقي، فكيف أن الدنيا مع فنائها قليل بالنسبة إلى الآخرة مع بقائها، والآخرة ببقائها كثيرة بالنسبة إلى الدنيا مع فنائها!

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ [التوبة:39] أي: لا تخرجوا من الدنيا وسجنها وقيود شهواتها أيتها الأرواح والقلوب الروحانية، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة:39] بإبطال أنوار الروحانية، واستيلاء ظلمات الصفات النفسانية، وغلبات الأوصاف السبعية والشيطانية، وألم عذاب البعد عن الحضرة الربانية.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة:39] من الأرواح والقلوب العاشقة الصادقة، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة:39] على ترك الخروج؛ ولكن تضرون أنفسكم بالحرمان عن تلك السعادات، ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة:39] أي: وهو قادر على استبدال قوم ممن يشاء ومتى يشاء.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿40﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: 40-45].

ثم أخبر عن ترك النصر كما لم يضره كذلك لا يضره ترك الخروج بقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:40] إلا تنصروه يا أرباب الصورة بأن تكونوا معه فقد نصره الله في عالم الحقيقة بأن كان معه، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة:40] من مكة ولم يخرجوا معه بالنصر إلا أبو بكر رضي الله عنه، ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾[1] [التوبة:40] الوحدة الأزلية والخلوة الحبيبية، إذ لا يسعه ملك مقرب ولا نبي مرسل حين لا حين، وكان الله ولم يكن معه شيء فخلق ببديع فطرته أول ما خلق الله نور وجود حبيبه، فكان

(1) إشارة إلى خاصية الصدّيق لصحبته الحبيب، إذ كان مشرباً من مشارب بحار نبوته، وسواقي أنهار رسالته التي جرت من قلزم القدم. ولولا تلك الأهلية لما كان فردًا في الصحبة، وكان الصدّيق في منزل ما كان محمد، وكان الله ولم يكن معه شيء من شقائق قدسه، وبرق من بروق أنوار أنسه، خرجا من تلك الأنوار ودخلا بها في الغار، وعرّف الحبيب الصدّيق خصائص المعيّة معه حين ورد عليه طوارق الامتحان، وأخرجته من رؤية الحدثان، بقوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: لا يحزن بتغير الاصطفائية، وانكسار حصون العصمة، فهو معناه بمعنى القدرة والعلم الأزلي، وعناية الأبدية، وظهور مشاهدته من حيث القلب والروح والعقل، بوصف المناجاة والمداناة. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾: في محل القرب في كهف الأنوار في الأزل. وقال في قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾: ليس من حكم من كان الله معه أن يحزن.

وقال الشبلي ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾: تشخصه مع صاحبه، ووحّد الواحد بقلبه مع سيّده.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ معناه: إن الله معنا في الأزل حيث وصل بيننا، ووصل الصحبة، ولم ينفصل. قيل في قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾: كان حزن أبي بكر رضي الله عنه؛ إشفاقًا على النبي ﷺ. وقيل: شفقة على الإسلام أن يقع فيه وهن. وقال فارس: إنما نهى عن الحزن؛ لأن الحزن عنه، وإنما هو تعريف أن الحزن لا يحل بمثله؛ لأنه في محل القُربة.

ثاني اثنين في غار الغيرة ومقام المعية، وله ﷺ مع الله وقت لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل إلى أن شرف الله تعالى أبا بكر ﷺ باختصاص هذين القائلين بتبعيته ﷺ؛ أعني: مقام ثاني اثنين ومقام العندية كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:40]، وأنه تعالى متكلم به من الأزل إلى الأبد فدل على أن أبا بكر ﷺ كان مكرمًا في الأزل بهذه الكرامة وهو ثاني رسول الله ﷺ في جميع الأحوال، فكما أخرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرًا كان أبا بكر ثانيه فقط، فكذلك لمَّا خرج من العدم كان أبو بكر ثانيه في عالم الأرواح، بل كان ثانيه في غار العدم، ولم يكن لأحد من الخلق هذا الاختصاص من معه غير أبي بكر ﷺ والذي يدل قوله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1].

وكان أبو بكر ﷺ ثانيه في سباق الطلب والسير إلى الله تعالى في الجاهلية، والذي يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «كنت أنا وأبو بكر كفرسي رهان فسبقته فتبعني، ولو سبقني لتبعته»[2]، وكان ثانيه في الإسلام دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:33] وكان ثانيه في إمامة المسلمين يدل عليه قوله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»[3] فلما كان أبو بكر ﷺ ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق في بدء الخلقة وفي خلال حياته في مقامات وأحوال كثيرة، فقد تعين أن يكون ثانيه بعد وفاته في الخلافة كما قاله ﷺ: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[4] والذي يؤكد قولنا في أن أبا بكر كان ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق، وأنه كان متعينًا للخلافة بعدما أورده الشيخ الفضل بن سهل في تصديق خلافة أبي بكر ﷺ فقال: إنه خير الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، وإن خلافته

(1) حديث أنس عن أبي بكر: رواه أحمد (1/ 4 رقم 11)، والبخاري (3/ 1337، رقم 3453)، ومسلم (4/ 1854 رقم 2381)، والترمذي (5/ 278، رقم 3096)، وابن أبي شيبة (6/ 348، رقم 31929)، وعبد بن حميد (ص 30، رقم 2)، وأبو يعلى (1/ 68، رقم 66).

(2) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (41/ 359).

(3) حديث عائشة رواه مالك (1/ 170، رقم 412)، والبخاري (1/ 236، رقم 633)، ومسلم (1/ 313، رقم 418)، والترمذي (5/ 613، رقم 3672)، وابن ماجه (1/ 389، رقم 1232)، وأحمد (6/ 96، رقم 24691).

(4) رواه الحاكم (3/ 542، رقم 6016). والطبراني كما في مجمع الزوائد (5/ 181).

حق واجب من الله تعالى.

قال الله ﷻ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ حصل له في كل أمور رسول الله ﷺ أنه ثانيه فأطلق القول أنه ثاني اثنين، ولم يعلقه بأنه ثاني اثنين في الغار فيكون ثانيه بحضوره معه في الغار فيكون مخصوصًا بثانيه في الغار فقط، فلما قال: ﴿إِذْ هُمَا﴾ دل على عمومِ الحال حتى يقول دليل بأنه مخصوص بثانيه في الغار فقال: ومن النبي ﷺ واجب في عظم الدين وهو بأصحابه في مقام رسول الله ﷺ مستخلف.

وذكر فيه بإسناده إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ليؤم الناس أبو بكر» فقالت عائشة لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل رقيق، وإنه إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، فقالت حفصة: يا رسول الله إن أبا بكر رقيق، وإنه إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فقال: «يؤم الناس أبو بكر» وقالت: فأعدت ذلك، فقال: «مه إنكن لأنتن صواحب يوسف ليؤم الناس أبو بكر»(1) وقال: لما عورض رسول الله ﷺ وهو سهل الخلقة لين الجانب أجل وأغلظ لحضور الحق الذي لا يجوز غيره وهذا بيِّن لا خفاء فيه.

وقال دليل آخر أن خلافته حق لا يجوز غيره ما أخبرنا محمد بن بكر، وذكر إسنادها إلى عبد الله بن زمعة قال: لما اسْتُعِزَّ بالنبيِّ ﷺ وسلم وأنا عنده في نَفَر من الناس دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسولُ الله ﷺ: «مُرُوا أبا بكر يُصلِّي بالناس، قال: فخرجنا، فإذا عُمَرُ في الناس، وكان أبو بكر غائبًا، فقلتُ: يا عمر، قم فصلِّ للناس، فتقدَّم فكبَّر، فلما سمع النبيُّ ﷺ صوتَه - وكان عمر رجلاً مُجْهَرًا- قال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس»(2).

قال: لولا أنه حق لا يجوز غيره ما أعيدت تلك الصلاة ولولا أنه حق واجب ينظر بأبي بكر لكان في الناس غير عمر حضور وغيب، وبعث إلى أبي بكر وهو غائب ونادى الصلاة؛ لأنه حضر وأمره رسول الله ﷺ وكانت الصلاة في ذلك الوقت خلافة رسول الله

(1) رواه أبو يعلى في مسنده (4/ 263).

(2) رواه الطبراني في الكبير (18/ 485)، وأحمد (41/ 126).

ﷺ ولو كان غير ذلك لم تجب الإعادة، فقد صلى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر والصحابة بأجمعهم خلف عبد الرحمن بن عوف وهم في مسيرهم إلى تبوك فجاز ولم يوجب إعادة، ولو لم يعد تلك الصلاة كانت الخلافة شرعًا لمن كان، فلما أعيدت تأكدت الخلافة.

ثم ذكر دليلاً وكيدًا آخر بإسناده عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدي أبا بكر وعمر»[1]، فلما قال «من بعدي» دل على أن الخلافة لهما حق، فأمره بالاقتداء بهما حق واجب.

وقال: دليل وكيد آخر ثم ذكر بإسناده عن أنس بن مالك ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فخرجت معه فدخل حائطًا من حيطان الأنصار فدخلت معه فقال: يا أنس أغلق الباب فأغلقته، فإذا برجل يقرع الباب فقال: يا أنس افتح له وبشره بالجنة، وأخبره أنه يلي أمتي من بعدي فذهبت أفتح له لا أدري من هو فإذا هو أبو بكر فأخبرته بما قال النبي ﷺ»[2].

وقال: دليل وكيد آخر ثم ذكر بإسناده عن سفينة قال: «بنى النبي ﷺ المسجد ووضع حجرًا، ثم قال لأبي بكر: ضع حجرك إلى جنب حجري، ثم قال لعمر: ضع حجرك إلى جنب حجر أبي بكر، ثم قال لعثمان: ضع حجرك إلى جنب حجر عمر، ثم قال: هؤلاء الخلفاء من بعدي»[3].

ثم روى عن زيد بن وهب بإسناده قال علي ﷺ: استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر في صلاتنا، واختاره لنا فرضينا لدنيانا من استخلفه رسول الله ﷺ لصلاتنا، ثم ذكر دلائل خلافته كثيرة يطول ذكرها، فتحقق أن أبا بكر ﷺ كان ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق في بدء الخلقة إلى أن كان ثانيه في القبر بعد وفاته، وثانيه فيما صب الله في صدره من أسرار النبوة كما قال ﷺ: «ما صب الله في صدري شيئًا إلا وصببته في صدر أبي بكر»[4] وبذلك

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (4/ 140)، وأبو نعيم في الحلية (9/ 109).

(2) أخرجه ابن عساكر (39/ 146).

(3) ذكره ابن أبي عاصم في السنة (3/ 158).

(4) ذكره طاهر الفتني في تذكرة الموضوعات (1/ 41)، وحقي في تفسيره (5/ 185).

استحق أن يكون ثانيه في الخلافة من بعده.

والذي يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة:40] يعني: على أبي بكر في الغار، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:40] وهي حقائق الإيمان، ودقائق العرفان، ودقائق الإيقان من سوابق الإحسان ولواحق العيان ولا يبعد أن إنزال السكينة كان على قلب النبي ﷺ والتأييد بالجنود له.

ثم صب النبي ﷺ ما صب الله تعالى في صدره من حقائق السكينة والتأييد في صدر أبي بكر ﷺ بتصرف قوله: «لا تحزن إن الله معنا»[1] فنزلت السكينة على أبي بكر وحصل له التأييد بقوله ﷺ: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ليستحق بذلك كله أن يكون ثانيه في الخلافة.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ [التوبة:40] يشير به إلى الذين ارتدوا من العرب بعد النبي ﷺ من دفع الزكاة، فقهرهم الله تعالى وأظهر أبا بكر عليهم، ﴿وَكَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة:40] وهي قول الحق الذي قاله الصديق: «والله لو منعوا عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»، ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ [التوبة:40] يعز بعزته أولياءه بالنصر، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:40] فيما يذل بحكمته أعداءه بالقهر.

ثم أخبر عن حق الأولياء على قهر الأعداء بقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا﴾ [التوبة: 41] إلى قوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:47] انفروا أيها الطلاب في طلب الحق خفافًا مجردين من علائق الأولاد والأهالي منقطعين من علائق الأموال والأملاك، ﴿وَثِقَالًا﴾ [التوبة:41] مشمولين ومتأهلين، وأيضًا خفافًا من قطع علائق تعلقات الكونين وثقالاً معتصمين بحبل الثقلين، وأيضًا خفافًا مجذوبين بالعناية وثقالاً سالكين بالهداية، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ [التوبة:41] بإنفاقها، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:41] ببذلها، ﴿فِي سَبِيلِ الله﴾ [التوبة:41] في السير إلى الله على قدمي بذل الأموال والنفس، وإنما قدم أثقال المال في طلب الحق على بذل النفس؛ لأن بذل النفس مع بقاء الصفات الذميمة غير

---

(1) رواه البخاري (12/ 364)، ومسلم (19/ 111).

معتبر، وإنما الاعتبار بأن ينقي النفس عن دنس صفاتها، ثم تفنى ببذلها في الله بالله لله، فإن من صفاتها الذميمة الحرص على الدنيا والبخل بها، فأشار بإنفاق المال إلى ترك الدنيا؛ لينقطع عن النفس وصفاتها ما هو مادة تربيتها وتقوية صفاتها.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة:41] يعني: ترك الدنيا وبذل النفس خير لكم في طلب الحق من المال والنفس، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:41] قدر طلب الحق وعزة السير إليه، فإن الحاصل من المال والنفس الوزر والوبال، والحاصل من طلب الحق الوصول والوصال، ثم قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ [التوبة:42] لو كان مطلوبك يا محمد الدنيا وزينتها، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ [التوبة:42] وهي تتبع شهوات النفس وهواها، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة:42] أرباب النفوس وطلاب الدنيا، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة:42] ولأنها الخروج عن الدنيا وزينتها وترك شهواتها وقهر النفس وقمع صفاتها فلم يكونوا متابعيك.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة:42] يعني: أرباب النفوس، ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:42] يا أرباب القلوب من الدنيا وما فيها كما خرجتم عنها، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة:42] في مهالك شهوات الدنيا؛ إذ لم يخرجوا عنها وما يحلفون عن عدم الاستطاعة للخروج، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:42] فيما يحلفون؛ لأن استطاعة الخروج شاملة لكافة الخلق مركوزة في جبلتهم.

ثم قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[1] [التوبة:43] قدم العفو على العتاب

---

(1) قال روزبهان: إن من سنّة الله سبحانه إذا أراد أن يفتح كنزًا من كنوز غرائب علمه، ونوال قربه، ولطائف وصلته على أحد من أحبائه وأصفيائه وأنبيائه، أوقعهم في محل الامتحان، وأجرى عليه زلة من زلل الحدثان؛ حتى يضيق صدره بالغيبة، ويذوق قلبه مرارة الفُرقة، وتذوق روحه من الندامة، ويطيح عقله من حشمة العتاب، ويزول شبحه من دار الاحتجاب، فيطلع الله شمس عزة جلاله من مطلع قلبه، ويتنسم صبح الوصال من مشرق روحه، وتبدو أنوار الصفات من روازن أسراره، وتشرق سبحات الذات في أرض فؤاده، وتتنور مجامع عقله بظهور سنا أفعاله، فيرى العبد في البسط بعد القبض مشاهدة بديهية، ووصلة أبدية، وخطابًا سرمديًّا يطير بأنوارها في الآزال والآباد، وتصير ذلته زلفى، وذنبه كشف وصلة، ويقابل الله من ذنبه لجميع حسنات العالمين؛ لأنه مصطفى في الأزل بمحبته، ومجتبى بنوال قربه في القِدم، وتكون سيئاته حسنات، وزلّاته زلفات؛ لأنه مختار الله في أرضه،

-

تصديقًا وتحقيقًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ ما كان على وجه الكتاب حقيقة؛ بل كان على وجه إظهار لطفه معه وكمال رأفته في حقه؛ لقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [التوبة:43] جعل فائدة عدم الإذن راجعة إليه ﷺ لا إلى غيره؛ يعني: ليحصل ذلك العلم والمعرفة بمن صدقك أنه مؤمن، ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة:43] المنافقين من المؤمنين الصادقين.

ثم بيّن تعالى الصادقين والكاذبين فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة:44] أي: إن يطلب الإذن المقصود عن الجهاد والمعنوي والصوري من لم يكن إيمانه بالنور الإلهي الموجب لليقين؛ بل يكون إيمانه تقلدًا ونفاقًا، ﴿أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ واللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:44] ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:45] عند عدم الإيقان.

﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ [التوبة:45] أي: في ظلمة ريبهم، ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:45] بين أوصافهم الذميمة النفسانية والطبائع الحيوانية لا داعية لهم في الخروج عنها إلى الأنوار الروحانية والأخلاق الربانية.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: 46 - 50].

وعروسه بين عباده، جميع حركاته تقع حسنة، وأفعاله تكون عند الله مستحسنة، وهكذا شأن الأحباب، المحب يعتذر لزلة حبيبه، ويعشق على غيرة معشوقه؛ لأن من كان حسنًا، فما يبدو منه أيضًا يكون حسنًا.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْـخُرُوجَ﴾ [التوبة:46] أي: لو وجدوا في قلوبهم دواعي الخروج عن المراتب الحيوانية، ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة:46] وهي متابعة الأنبياء؛ لأنهم بعثوا لخروجهم من الظلمات الحيوانية إلى النور الربانية، ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ﴾ [التوبة:46] في الأزل، ﴿انْبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة:46] أي: كره أن يوفقهم لداعية الطلب إظهارًا للقهر.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:46] أي: حبسهم في سجن البشرية وأحلى لهم القعود فيه، ﴿وَقِيلَ﴾ [التوبة:46] بأمر التكوين، ﴿اقْعُدُوا﴾ [التوبة:46] راضين بالحبس فرحين بما لديكم من التمتعات الحيوانية، ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:46] في أسفل الطبيعة المستلذين بالشهوات النفسانية، ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:47] يشير إلى أن قعود أهل الطبيعة في خير البشرية صلاح لأرباب القلوب وأصحاب السلوك؛ وذلك لأنهم لو خرجوا عن البشرية بالهوى والطبيعة لا عن نية صادقة وعزيمة صالحة فهي في صحبة الصادقين السالكين ما زادوهم إلا تشويشًا وتفرقة بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وأفسدوا عليكم أمر الطلب، وأقعدوا عن السير والسلوك.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة:47] يعني: التغيير والدعوة إلى الشهوات واللذات والميلان إلى الدنيا وزينتها وتعذر الوصول إلى المرام بالاستطعام، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:47] أي: من يسمع المنكرين من أحوالكم ما يزيد في إنكارهم عليكم، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:47] الذين هم أرباب النفوس وإن الصلاح أن يكونوا في حبس البشرية قاعدين.

ثم أخبر عن باغي الفتنة بقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة:48] إلى قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:52]، ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ يشير إلى صفات النفس اتبعت فتنة شهوة المأكول والمشروب ومستلذات النفوس ومستحسنات الهوى من قبل، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ﴾ [التوبة:48] يا روح، ﴿الْأُمُورَ﴾ [التوبة:48] وهي الأمور الروحانية، وحسن الاستعداد في طلب السعادات الأخروية، واستكمال الإنسانية إلى أوان البلوغ، ﴿حَتَّى جَاءَ الْـحَقُّ﴾ [التوبة:48] وهو العقل القابل لأوامر الشرع، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ﴾ [التوبة:48] وهو أمر الدعوة إلى الحق، ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:48] يعني: على

كره من النفس وصفاتها.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ [التوبة:49] وهو الهوى يستأذن الروح بأن يكون له مدخل في جميع مشارعه الدنيوية؛ لتكون مشوبة بالهوى بقوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة:49] يشير إلى أن الروح كلما يدعو الهوى إلى استعمال في المنازل الروحانية والمواهب فإن الهوى مركب المحبة يقول: لا تعتني بتلك المعارف ولا تقيدوني بتلك العوارف، وذلك منه اعتلال لدفع الصعود على العلويات؛ لأن طبعه الهبوط.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:49] يعني: اعتلاله لدفع الصعود هو عين فتنة الهبوط، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:49] يعني: جهنم البعد والقطيعة من لوازم كفار النفس وصفاتها، ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ [التوبة:50] يا روح من عواطف الحق وإحسانه، ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ [التوبة:50] تحزن النفس وصفاتها؛ لأن بها تظفر الروح عليها، ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة:50] من المواقع والقواطع عن السير.

﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:50] أي: أخذنا نصيبًا من المواقع الحيوانية لما خلفنا في السير إلى المعالم الروحانية والمعارف الربانية، ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ [التوبة:50] الروح وأوصافه، ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة:50] بما لديهم من المراتع البهيمية.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: 51 - 54].

﴿قُلْ﴾ [التوبة:51] يا روح، ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾ [التوبة:51] من الموانع، ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:51] لتربية ما يصيبنا من الفترات والوقفات لا علينا من الرد والطرد، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة:51] ولينا ومربينا ومؤدبنا يفعل بنا ما هو صلاح ديننا ولإصلاح حالنا.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:51] فليثقوا بحسن عاطفته، وليكل أمر تربيتها إلى القلوب والأرواح المؤمنة، ﴿قُلْ﴾ [التوبة:52] يا روح، ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ [التوبة:52] أيتها النفس وصفاتها بنا، ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:52] الإحسان والعواطف الروحانية والوقفة والغيرة الموجبة حسن التربية والتأديب والتجربة، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ [التوبة:52] لأنه ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [التوبة:52] من الابتلاء والمصيبات.

﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة:52] استيلاء وغلبة لنستعملكم في الطاعات والعبادات، ونمنعكم من المخالفات ومتابعة الهوى وطلب الدنيا وإصغاء لشهواتها، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة:52] لنا، ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:52] للظفر بكم.

ثم أخبر عن إنفاق أهل النفاق بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [التوبة: 53] إلى قوله: ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:57] يشير إلى أن الطاعة في العبودية بثلاثة أنواع: بالمال، والبدن، والقلب، أمَّا بالمال: فهو الإنفاق في سبيل الله، وأمَّا بالبدن فهو القيام بالأوامر والنواهي والسنن والآداب المستحسنة المستحبة، وأمَّا بالقلب فهو الإيمان والصدق والإخلاص في النية، وأن الطاعة بالمال والبدن مقبولة لقوله ﷺ: «نية المؤمن أبلغ من عمله»[1].

وفي الآية الأولى إشارة أخرى: قل يا روح النفس وصفاتها اتقوا أي: اتركوا ما هو مشتهياتكم ومستلذاتكم من المال والجاه والنعم من المأكولات والمشروبات والمنكوح والملبوس، ﴿طَوْعًا﴾ أي: رضاءً ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ أي: نفاقًا، ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ [التوبة:53] هذه الرياضة والمجاهدة، ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة:53] خارجين عن الإخلاص والإيمان، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:54].

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ

(1) أخرجه: أبو نعيم في الحلية (2/ 326). حديث أنس: ذكره الحكيم (4/ 83)، وأخرجه القضاعي (1/ 119، رقم 147)..

وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [التوبة: 55 - 59].

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [التوبة:55] يعني: أصحاب النفوس المتمردة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة:55] بتلك الأموال والأولاد، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة:55] أي: في مدة العمر يعذبهم بها أن يشغلهم بها ويلهيهم عن ذكر الله وطاعته ومحبته وطلبه بذكرها ومحبتها وطلبها، كما قال تعالى: ﴿لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ الله﴾ [المنافقون:9]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله﴾ يدل على أن الله تعالى يريد الكفر للكافرين، وألَّا يرضى الكفر كما قال تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:55] والكافر كافران: كافر يجحد المنعم، وكافر يجحد النعمة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِالله﴾ [التوبة:56] يعني: النفس وصفاتها مع الروح والقلب والسر عند استيلائهم عليها والظفر بها، ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة:56] في أصل الخلقة والجبلة يعني: على سجيتكم وسيرتكم، ﴿وَمَا هُمْ مِنكُمْ﴾ [التوبة:56] لأن منشأكم عالم الأمر والأرواح ومنشأهم عالم الخلق والأشباح.

﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:56] من سطوات قهركم عند غلبات الأنوار الروحانية، فإن النفس وصفاتها لما انعكست عليها أنوار الفيض الرباني عن مرآة القلب انكسرت ظلمة طبيعتها وانخمدت نار شهواتها، فتفزع من فنائها وهلاكها بالكلية، فتلتجئ إلى الروح والقلب والسر وتخدعهم بالحلف كما خدع إبليس آدم وحواء بالحلف كقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21] ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:22]، فتريد النفس أن تدلي الروح والقلب بغرور، ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يعني: في الطاعة، ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ [التوبة:57] يعني: النفس وصفاتها، ﴿مَلْجَأً﴾ [التوبة:57] أي: مهربًا ومفرًّا، ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ [التوبة:57] يتخلصون بها عن استيلاء الروح

وصفاتها، ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:57] عن الانقياد والعبودية.

ثم أخبر عن الرضا بالعطاء والرضا بما قضى المولى بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:58] الآيتان تشير الأولى إلى النفاق وأهله بأن رضا المنافق وسخطه في إعطاء الدنيا ومتاعها وفي المنع عنها؛ لأن النفاق تزيين الظاهر بأركان الإسلام، وتعطيل الباطن عن أنوار الإيمان، والقلب العطل عن نور الإيمان يكون مزينًا له بظلمة الكفر وحب الدنيا، فلا يرضى إلا بوجدان الدنيا ويسخط بفقدها.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:59] يشير إلى أن الرضا بالقضاء من أمارات الإيمان وتزيين القلب بنوره، فلما حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم شاهدوا بنور الإيمان شواهد الحق، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ﴾ [التوبة:59] فإن الله كافٍ لعبده، ومن وجد الله فقد ما دونه؛ لأن فقدان الله في وجدان ما سواه، ووجدانه في فقدان ما سواه، ومن وجده يرضى به ويقول: ﴿سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:59] من الوحي والبيان والدلائل والبرهان، ﴿إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:59] لا إلى الدنيا والعقبى وما فيها غير المولى.

﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة: 60-63].

ثم أخبر عن مستحقي الصدقات ومصارفها وما فيها غير المولى ومستعدي المواهب وعوارفها بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة:60] إنما الصدقات هي صدقات الله تعالى كما قال ﷺ: «ما من يوم وليلة ولا ساعة إلا لله فيها صدقة يتصدق بها على من يشاء من عباده الفقراء، وهم الأغنياء بالله الفانون عنهم الباقون به»[1]، وهذا حقيقة قوله

(1) ذكره حقي في تفسيره (5/ 87).

ﷺ: «والفُقَرَاءُ الصُّبَّرُ هُمْ جُلَسَاءُ الله يوم القيامة»[1] وهو سر ما قال الواسطي: الفقير لا يحتاج إلى الله؛ وذلك لأنه غني به، والشيء بالشيء لا يحتاج إليه.

﴿وَالْـمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:60] وهم الذين لهم بقية أوصاف الوجود، فهم في سفينة بحر الطلب وقد خرقها خضر المحبة ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:79]

﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة:60] وهم أرباب الأعمال كما كان الفقراء والمساكين أصحاب الأحوال.

﴿وَالْـمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:60] وهم الذين يتألفون قلوبهم بذكر الله إلى الله المتقربون إليه بالتباعد عما سواه.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة:60] وهم المكاتبون قلوبهم عن رق الموجودات تحريًا لعبودية موجدها والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم، ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ [التوبة:60] وهم الذين استقرضوا من مراتب المكونات أوصافها وطبائعها وخواصها وهم محبوسون في سجن الوجود بقروضهم وإنهم في استخلاص ذممهم عن القروض بردها، فهم معاونون بتلك الصدقات للخلاص من حبس الوجود، ﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:60] وهم الغزاة المجاهدون في الجهاد الأكبر وهو الجهاد مع كفار النفوس والهوى والشيطان والدنيا.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة:60] وهم المسافرون عن أوطان الطبيعة والبشرية السائرون إلى الله على أقدام الشريعة والطريقة بسفارة الأنبياء والأولياء، ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:60] أي: هذا السير والجهاد ورد القرض والحرية عن رق الموجودات وتألف القلوب إلى الله واستعمال أعمال الشريعة، والتمسكن والافتقار إلى الله طلبًا للاستغناء به أمر واجب على العباد من الله، وهذه الصدقات من المواهب الربانية والألطاف الإلهية للطالبين الصداقين أمر أوجبه الله تعالى في ذمة كرمه لهم كما قال تعالى: «ألا من طلبني وجدني»[2].

---

(1) ذكره السيوطي في اللآلي المصنوعة (2/ 273).

(2) تقدم تخريجه.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:60] بطالبيه، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:60] فيما يعادونهم على الطلب للوجدان كما قال تعالى: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا»(1).

ثم أخبر عن المنافقين المؤذين بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [التوبة:61] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:63] يشير إلى أن من أمارات النفاق إيذاء النبي ﷺ، ورؤية محامده بنظر المذمة والعيب كما قالوا: هو أذن يسمع ما يقال، عابوه به، وقد مدحه الله به فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ [التوبة:61] يعني: سامعية خير لكم؛ لأن له مقام السامعية، فيسمع لما أوحى الله إليه إمّا بواسطة الملك، وإمّا بغير الواسطة كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10] فيبلغكم رسالات ربه ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة.

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [التوبة:61] أي: يكون إيمانه بشهود نور الله إيمانًا غيبًا بما نزل إليه من ربه بلا واسطة كما كان ليلة المعراج بقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة:285] يعني: بلا واسطة إيمانًا عينيًا لا إيمانًا غيبيًا كما كان يؤمن بما أنزل به الروح الأمين على قلبه، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:61] أي: فوائد إيمانه تعود إلى المؤمنين كما تعود إلى نفسه.

﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة:61] يعني: النبي ﷺ وهو صورة رحمة الحق لمن آمن منكم واهتدى بهداه، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [التوبة:61] بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:61] هو عذاب البعد والقطيعة؛ يعني: إيذاؤهم لرسول الله من نتائج عذاب البعد ولو كانوا أهل القرب لم ينتج منهم الإيذاء.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ [التوبة:62] يعني: لكم بالنفاق لا بالله بالإخلاص، ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة:62] بالنفاق، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:62] يرضوه بالإخلاص، ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:62] لأن من أمارات الإيمان طلب رضا الله ورسوله، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:63] جهلاً وكفرًا، ﴿فَأَنَّ لَهُ

(1) تقدم تخريجه.

نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:63] لأنه خلق لها وهي خلقت له، ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ [التوبة:63] وهي نار القطيعة، ﴿ذَلِكَ الْـخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:63] يعني: الخلود في نار القطيعة من الله العظيم هو الخزي العظيم.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة: 64 – 68].

ثم أخبر عن أن الحذر لا يفيد مع القدر بقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْـمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:64] إلى قوله: ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:67] يشير إلى أن المنافقين وإن اعتقدوا نزول الوحي على النبي ﷺ واعتقدوا ثبوته حتى خافوا نزول السورة بالإنباء بما في قلوبهم من الكفر والنفاق وإفشاء أسرارهم لم ينفعهم مجرد الاعتقاد والإقرار باللسان في ثبوت الإيمان مع أدنى شك دخلهم فيه، وأنه لم ينفعهم الحذر مع القدر، وهذا تحقيق قوله: «ولا ينفع ذا الجد»[1].

﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ [التوبة:64] وهذا أمر التكوين، وقد مضى لهم القدر بالاستهزاء، ﴿إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ﴾ [التوبة:64] بقضائه وقدره، ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:64] لتعلموا أن الحكم والمشيئة له لا لغيره، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ [التوبة:65] عن أفعالهم وأحوالهم.

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:65] يعني: يحيلون الأمور الموجبة للكفر إلى أنفسهم؛ لقصور نظرهم وهم عن رؤية وجوب إجلال الله بمعزل، وأنهم عن أحكامه الأزلية وقضائه غافلون، ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة:65] على زعمكم أنكم كنتم مصدر الأمور ومرجعها بمشيئتكم، ﴿لَا

(1) رواه البخاري (3/ 424)، ومسلم (3/ 303).

﴿تَعْتَذِرُوا﴾ [التوبة:66] يعني: بمثل هذه الأعذار لأنكم ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ [التوبة:66] فيما اعتذرتم به.

﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:66] بعد إقراركم بالكفر بقولكم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ [التوبة:66] إظهارًا للفضل والرحمة، ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة:66] إظهارًا للقهر والعزة، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:66] يشير به إلى أن إظهار اللطف والرحمة بلا سبب محتمل، ولكن إظهار القدر لا يكون إلا بسبب جرم من المجرمين.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة:67] يعني: طينة نفوسهم وجبلة قلوبهم من جنس واحد وأرواحهم متقاربة في صف واحد من صفوف الأرواح؛ إذ هي جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، فمعاملاتهم من نتائج خصوصية أرواحهم السفلية بالنسبة إلى الأرواح العلوية فمن نتائج خصوصيتها، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ [التوبة:67] وهو ما يقطعهم عن الله ويبعدهم عنه.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:67] وهو ما يقربهم إلى الله ويوصلهم به، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:67] عن فعل الخير وصدق النيات، ﴿نَسُوا اللهَ﴾ [التوبة:67] فيما فعلوا من المعاصي وترك الأوامر، فلو ذكروه قبل الإتيان لم يفعلوا ما فعلوا، ولو ذكروه بعد الإتيان لاستغفروه لما فعلوه كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:135] ونسوه بترك الطلب وصدق التوجه؛ إذ هم توجهوا للدنيا وشهواتها، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:67] بالخذلان ووكلهم أنفسهم في الطغيان والعصيان، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:67] الخارجون عن قبول فيض النور الإلهي حين خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره.

ثم أخبر عن وعيد المنافقين بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة:68] إلى قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة:70]، ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ في الأزل في قسمة ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾.

﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة:68] وهي نار جهنم الحرص والحرمان؛ إذ لم

يصيبهم رشاش نور الجمال بقوا في نار قهر العظمة والجلال، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ [التوبة:68] إذ هي نصيبهم في تلك القسمة، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللهُ﴾ [التوبة:68] وطردهم بسوط نفاقهم وكفرهم.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: 69 – 70].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة:68] من البعد ونار القطيعة، ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ [التوبة:69] بالاستعداد الفطري، ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [التوبة:69] بالاعتداد وطلب الكمال، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ [التوبة:69] أي: فصرفوا الاستعداد والاعتداد في الانتفاع بالشهوات العاجلة دون الارتفاع في الدرجات الآجلة.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ [التوبة:69] أي: رضيتم بنصيبكم من التمتعات الدنيوية والنفسانية، وضيعتم استعدادكم في قبول الفيض الإلهي الروحاني، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ [التوبة:69] كما رضيت الأمم الخالية بنصيبهم من الحظوظ النفسانية، وإضاعة حقوقهم الروحانية الربانية، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ [التوبة:69] في تحصيل الباطل وترك الحق ورضيتم بالخسران والحرمان، ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة:69] فيما لا يعنيهم وضيعوا ما يعنيهم.

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة:69]؛ إذ كان حاصل تحصيلهم منها الوبال والحسرة والبعد والحجاب؛ إذ ما أورثتهم إلا عذاب القطيعة والحرمان عن جوار الرحمن واحتباس في النيران، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة:69] في رأس مال العمر والاستعداد وما أعدهم الله من الاعتداد؛ لأنهم صرفوا في عبودية الهوى ومخالفة رضا المولى.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ [التوبة:70] ليعتبروا بها، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [التوبة:70] ليهتدوا بها فتداركهم الشقاء واستقبلوهم بالإباء، فأدركهم البلاء وأهلكوا ولم ينفعهم الإباء، ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [التوبة:70] عن الاستعداد والاعتداد، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة:70] بصرف الاستعداد والاعتداد فيما أمرهم الهوى على خلاف أمر المولى فخسروا الآخرة والأولى.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [التوبة: 71 - 74].

ثم أخبر عن أحوال المؤمنين والمؤمنات وأوصافهم بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:71] الآيتين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛ لأن ائتلافهم من نتائج تعارف الأرواح قبل تعلقها بالأشباح للمناسبة الفطرية؛ إذ الأرواح لما كانت مجندة فما كان منها في صف واحد كانت بينهم مناسبة الجنسية صاروا نفسًا واحدة بمد بعضهم بعضًا، وكانوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا فلهذا يأمرون بالمعروف أي: ينصح بعضهم بعضًا في طلب الله وهو المعروف الحقيقي، كما قال: «فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»[1]؛ والمعنى: ﴿يَأْمُرُونَ﴾ [التوبة:71] بطلب، ﴿بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة:71] وهو ما يقطع العبد عن الله تعالى من الدنيا وغيرها.

---

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة:71] يشير إلى مراقبة القلب وحضوره مع الله تعالى، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [التوبة:71] يشير إلى إنفاق ما فضل عن كفافهم الضروري، ﴿وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:71] يشير إلى الإخلاص في معاملاتهم، فإن المنافقين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة؛ ولكن لا يطيعون الله ورسوله في ذلك، إنما يطيعون النفس والهوى لمصالح دنياهم، ﴿أُولَئِكَ﴾ [التوبة:71] هم يعني: المخلصين، ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾ [التوبة:71] بنظره إليهم بنظر الرحمة، ويخرجهم من ظلمات النفسانية إلى أنوار الصفات الروحانية الربانية.

﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ [التوبة:71] أي: منيع لا يصل إليه لعزته إلا المخلصون في عبوديته، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:71] يختار بحكمته من يشاء من عباده لمعرفته وقربته.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ [التوبة:72] يعني: أهل المقامات والكرامات الذين هم من ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [التوبة:72] والموصوفين بما ذكره، ﴿جَنَّاتٍ﴾ [التوبة: 72] مقامات رفيعة.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:72] أي: الأسرار والحكم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة:72] أي: مقيمين في تلك الأحوال متمكنين لا متلونين، ﴿وَمَسَاكِنَ﴾ [التوبة: 72] أي: مقامات، ﴿طَيِّبَةً﴾ [التوبة:72] على قدر مراتب النفوس المطمئنة الطاهرة، فإن الطيبات للطيبين، ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة:72] أي: مقامات علية قريبة.

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:72] يعني: أكبر من جميع هذه المقامات؛ لأن الرضا باب الله الأعظم، والرضا من الله يوجب رضا العبد كما قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:100] والعبد لا يرضى من الله تعالى إلا بنيل كمال مقصوده منه، ولهذا منَّ على النبي ﷺ بهذه الكرامة السنية.

وقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:5] الحبيب لا يرضى من الحبيب بشيء دونه، وأيضًا ورضوان من الله أكبر؛ لأنه من صفاته وما دونه من أفعاله والأفعال محدثة والصفات قديمة، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:72]؛ لأنه هو الفوز بصفات الله العظيم.

ثم أخبر عن الجهاد مع أهل العناد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة:73] يشير إلى القلب الذي له بناء من مقام الأنبياء، ويأمره بالجهاد مع كفار النفس وصفاتها، وهذا مقام المشايخ أن يجاهدوا مع نفوسهم أو نفوس مريديهم كما قال ﷺ: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[1] فأمر بالجهاد مع كافر النفس وصفاتها بسيف الصدق، فجهاد النفوس بمنعها عن شهواتها واستعمالها في حمل الشريعة على خلاف الطبيعة، فالنفوس بعضهما كفار لم تسلم أي: لم يستسلموا للمشايخ في تربيتها في هداها بالدعوى إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعضها المنافقون وهم الذين أدعوا الإرادة والاستسلام إلى المشايخ في الظاهر، ولم يوفوا بما عاهدوا عليه فجهادها بإلزامها مقاساة شدائد الرياضات في التزكية على متمثل أمر الشيخ ونواهيه ولو يرى عليها الإباء والامتناع فلا يفنيها إلا التشديد والغلظة.

كما قال تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2] [التوبة:73] فالواجب عليه أن يبالغ في مخالفتها ومؤاخذتها في أحكام الطريقة، فإن فاءت إلى أمر الله فهو المراد وإلا استوجبت لما خلقت له، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [التوبة:73] أي: مرجعهم جهنم البعد ونار القطيعة، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة:73] مرجعهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة:74] إشارة إلى أحوال بعض المريدين عند استيلاء النفوس وغلبة هواها، وظفر الشيطان أن ينكروا على مشايخهم ويقولوا في حقهم كلمة الكفر كلمة الإنكار والاعتراض، ويعرضوا عنهم بقلوبهم بعد الإرادة والاستسلام، فإذا وقف المشايخ عن أحوال ضمائرهم وعلل الإرادة في سرائرهم يحلفون بالله لهم ما قالوا وما أنكروا.

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (2/ 562).

(2) قال التستري (1/ 205): جاهد نفسك بسيف المخالفة وحملها حمولات الندم، وسيرها في مفاوز الخوف، لعلك تردها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا من متحير في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة:74] يعني: وهمَّ بعضهم أن يثبت له مرتبة الشيخوخة قبل أوانها، ويظهر الدعوى إلى نفسه وإن لم ينلها، ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة:74] وما أنكروا على الشيخ وخرجوا عن أمره إلا أن الشيخ نبأهم بلبان فضل الله عن حكمة الولاية؛ ليروا آثار الرشد على أنفسهم، فلم يحتملوا الضيق حوصلة الهمة، فزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فأصمهم بذلك وأعمى أبصارهم.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ [التوبة:74] يرجعوا إلى ولاية الشيخ بطريق الالتجاء ﴿يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [التوبة:74] بأن يتخلصوا من غيرة الولاية وردها فإنها مهلكة ويتمسكوا بحبل الولاية فإنها منجية ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ [التوبة:74] أي: يعرضوا عن ولاية الشيخ ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة:74] بعذاب رد الولاية، فإن مرتد الطريقة أعظم ذنبًا من مرتد الشريعة.

قال الجنيد رحمه الله: لو أقبل صديق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله، فأما عذابه في الدنيا فبسلب الصدق والرد على باب الطلب وإرخاء الحجاب وذله وتقوية الهوى وتبديل الإخلاص بالرياء، والحرص على الدنيا وطلب الرفعة والجاه، وأما عذابه في الآخرة فباشتعال نيران الحسرة والندامة على قلبه المعذب بنار القطيعة وهي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:74] يشير إلى أن من ابتلي برد ولاية شيخ كامل ولو امتلأت الأرض بالمشايخ وأرباب الولاية وهو يتمسك بذيل إرادتهم غير أن شيخه رده لا يمكن لأحدهم إعانته وإخراجه من ورطة الرد إلا ما شاء الله تعالى.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: 75 -79].

ثم أخبر عن آفة حب الدنيا والركون إليها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة:75] إلى قوله: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:78] ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ تشير إلى أن نفوس المنافقين مستدعية في أصل الخلقة لنقض العهد مع الله تعالى وأخلاق الوعد والخيانة في الأمانة والكذب كما نطق بها الحديث إنها تعد المنافق بالصلاحية والسخاوة، وحمل أعباء الشريعة على خلاف طبعها وجبلها حرصًا على الدنيا واستيفاء شهواتها، وأنها لا توفي بما وعدته.

وإن المنافقين صنفان: صنف معلن الإسلام مستتر الكفر في بدء الأمر وذلك لغلبات صفات النفاق وقوتها في النفس، فيظهر بالفعل ما كان بالقوة وذلك لضعفها في النفس، فيعقبهم النفاق إلى الأبد بالسلوك الواقع في قلوبهم، وهم عن هذا النوع من النفاق غافلون وهم يصومون ويصلون ويزعمون أنهم مسلمون كما نطق به الحديث: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»(1).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ [التوبة:76] يشير إلى أن نفس المنافق كذبت فيما حدثت وأخلفت فيما وعدت بالسخاء فبخلت، ﴿وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:76] من الصلاحية وعن حمل أعباء الشريعة، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ [التوبة: 77] هذه الصفات والمعاملات.

﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة:77] أي: يلقون جزاء النفاق، ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:77] إن كان سبب النفاق ومنيته في القلوب خلف الوعد وكذب الحديث، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ [التوبة:78] أي: النفاق المستكمن في النفوس صفاته وهم لا يشعرون، ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ [التوبة:78] أي: يناجيهم به النفوس من النفاق وتسول لهم ولهم الشعور به، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:78] أي: هو عالم بما توسوس به نفوسهم وهو غيب عن الخلق، وعالم بما يكن في

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/ 357، رقم 8670)، والبخاري (1/ 21، رقم 33)، ومسلم (1/ 78، رقم 59)، والترمذي (5/ 19، رقم 2631)، والنسائي (8/ 116، رقم 5021).

قلوبهم وهو غيب عن نفوسهم، ولهذا قال: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وبها يشير إلى الصنفين من المنافقين.

ثم أخبر عن نعوت أهل النفاق مع أهل الوفاق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْـمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:79] يشير إلى الاستعداد الفطري للمؤمنين والمنافقين، وذلك أن قلب المؤمن منور بالإيمان وروحه متوجهة إلى الحق، فالحق يؤيد روحه بتأييده بنظر العناية وتوفيق العبودية فيطلع من الروح نور روحاني مؤيد بنور رباني فتنبعث منه الخواطر الربانية الداعية إلى الله تعالى بأعمال موجبة القربة من الفرائض والنوافل، فتارة تكون تلك الأعمال بدنية كالصوم والصلاة، وتارة تكون مالية كالزكاة والصدقات فيطوع بالصدقة فضلاً عن الزكاة عن استطاعته كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة:79] وأن قلب المنافق مظلم بظلمات صفات النفس؛ لعدم نور الإيمان وروحه متوجه إلى الدنيا وزخارفها بتبعية النفس الأمارة بالسوء مطرودًا بالخذلان قرين الشيطان، فيتأثر الخذلان وظلمة الشيطان تصعد من النفس ظلمة نفسانية تنفي القلب عن قبول الدعوة، وإجابة الرسول، واتباع الأوامر واجتناب النواهي بالصدق وتنبعث منه الخواطر النفسانية الظلمانية، فبذلك تمتع عن أداء الفرائض فضلاً عن النوافل والتطوعات، ويعيب المطوعين من المؤمنين في الرياضات والذين لا يجدون إلا جهدهم وينظر إليهم وإلى أعمالهم وصدقاتهم بنظر الحقارة.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:79] ذكر سخرية المنافقين من المؤمنين بصيغة الاستقبال والحال، وذكر سخرية الله من المنافقين بصيغة الماضي يشير إلى أن سخريتهم من نتائج سخريته منهم وهي الخذلان؛ فالمعنى: أن خذلان الله إياهم وقعوا في سخرية المؤمنين، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:79] من الخذلان وهو القطيعة من الله تعالى.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ

رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: 80 - 82].

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة:80] من هذه صفتهم وأحوالهم وأنهم لا يتغيرون عنها، ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ﴾ [التوبة:80] لأنه تعالى غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا يشير إلى أن استغفار النبي ﷺ حين يستغفر لنفسه.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء:64] وإنما قال: لا يقبل استغفار النبي ﷺ لهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالله ولا برسوله، فبشؤم كفرهم منعوا قبول الاستغفار لهم لا بأن ليس لاستغفاره أثر قبول عند الله كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَرَسُولِهِ والله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:80] أي: الخارجين عن إصابة النور المرشش عليهم في بدء الخلقة كما قال ﷺ: «**فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطاه فقد ضل**»[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40] من نعوت المنافقين ذكر قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ الله﴾ [التوبة:81] أي: قعودهم عن الجهالة، ومخالفة سيرة رسول الله واتباعه وليس من أمارات الإيمان فرحهم بذلك، ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله﴾ [التوبة:81] أي: كرهوا بذلها في طلب الحق ولو كان فيهم الإيمان ما فرحوا بالقعود وما كرهوا الجهاد، ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾[2] [التوبة:81] يشير إلى أنهم لو يؤمنوا بنار جهنم حتى احترزوا عن حر الشمس ولم يحترزوا عن نار جهنم، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:81] فقه القلوب بنور الإيمان، ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ [التوبة:82] يشير إلى سرور النفوس بالتمتعات الحيوانية من المراتع البهيمية في الدنيا أيامًا قلائل.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم. قال ابن جزي: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. البحر المديد (2 / 431).

﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة:82] يشير إلى مقاسات الشدائد الأخروية الباقية، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:82] من رين القلوب وكدورة الأرواح بظلمة التمتعات الحيوانية وتعدية صفات النفس إليها.

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة: 83 - 86].

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ الله إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:83] أي: من المخلفين، وإنما قال إلى طائفة لأن طائفة من المخلفين ثبتوا على نفاقهم، وطائفة منهم تابوا ورجعوا عن كفرهم ونفاقهم؛ فالمعنى: إن رجعك الله إلى طائفة منهم من الذين ثبتوا على النفاق ولم يتوبوا.

﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: 83] يشير إلى أن استئذانهم للخروج أو قتالهم العدو من النفاق فلا تقبل منهم، فإن الله لا يقبل منهم، فإن قيل: كانت أعمال المنافقين من الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد مقبولة عند النبي ﷺ، وإن لم تكن مقبولة عند الله تعالى فكان النبي ﷺ يقول: «نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر»[1] فما كانت الحكمة في أن الله تعالى أمر النبي ﷺ بأن لا يقبل من المخلفين أعمالهم من الخروج معه والقتال مع العدو، وغير ذلك قلنا: الحكمة في ذلك الله إعلم: أن المنافقين لمَّا كانوا يظهرون الإسلام والائتمار بأوامر النبي ﷺ مع ما يضمرون من الكفر والنفاق فكانت أعمالهم مقبولة عند النبي ﷺ، وسرائرهم مركونة إلى الله تعالى؛ طمعًا في إنابتهم ورجوعهم من النفاق إلى الوفاق، فلمَّا أظهروا ما كانوا يضمرون من النفاق، وخالفوا أمر النبي ﷺ وتخلفوا عنه وقعدوا عن الجهاد ورضوا به وأصروا على كفرهم ونفاقهم، وما ندموا على ما فعلوا فأشير إليهم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ

(1) ذكره حقي في تفسيره (5/ 119).

أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة:83] وأمر النبي ﷺ بأن لا يقبل منهم أعمالهم المشوبة بالنفاق، وقيل له: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: 84] ماتوا يؤمنون بك ولا بصلواتك إنها حق ودعائك أنه صدق.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة:84] لأنهم خارجون عن الاستعداد الفطري؛ لقبول الإيمان، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ [التوبة:85]؛ يعني: إن الأموال والأولاد وإن كانت نعمة مني في حق المؤمنين فإنها نعمة مني في حق الكافرين والمنافقين، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ [التوبة:85] بأن يجعلها مباعدًا لقلوبهم عن الله وطلبه، ويجعلها بينهم وبينه أشد عذاب من الحجاب كما قال بعضهم: اللهم مهما عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب؛ وذلك لأنه من عذب بالحجاب فقد حرم عن الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 85] مستور والقلب بحجاب حب المال والأولاد.

ثم أخبر عن أمارات أهل النفاق وعلامات أهل الوفاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:86] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:89] يشير إلى أن من أمارات النفاق الفتور والقصور لأرباب القلب القعود عن الجهاد والركون إلى الدنيا وشهواتها وميلان الطبع إلى السفليات والرضاء بالمنازلة إلى المراتب الدنية الخسيسة كما أخبر عنهم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:86] عن الطلب والجهاد.

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا

يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: 87 -93].

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة:87] من أرباب الشهوات والعلاقات، ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:87] بطابع حب الدنيا وزينتها واتباع شهواتها، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:87] فإن بالطبع يزول فقه القلب حتى لا يكون له شعور على الطبع، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يشعرون أنهم محجوبون عن الله بحجاب الدنيا.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة:88] يشير إلى أن من أمارات أهل الصدق وأرباب الطلب الجد والاجتهاد في طلب الحق ببذل الأموال والأنفس، فإنهم شاهدوا بنور الصدق وشواهد الحق، فاستقلوا الفانيات واستكثروا الباقيات وتحقق لهم أن ما عندهم من الأموال والأنفس ينفد وما عند الله باق؛ فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ [التوبة:88] وهي على نوعين: خيرات تتعلق بالعبد وأعماله وهي الحسنات أخرى مع أنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وخيرات تتعلق بمواهب الحق؛ يعني: لمساعي العبودية نالوا خيرات الربوبية.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة:88] الذين ظفروا بنفوسهم؛ إذ بذلوها في سبيل الله وتخلصوا عن حجب صفاتها، ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:89] أي: هم الذين أعد الله لهم في الأزل بساتين المعاني وتجري من تحتها أنهار الحكم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة:89] ينتفعون بها إلى الأبد من غير انقطاع أو فترة، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:89] أي: ذلك الفلاح والخلاص عن حجب النفس وصفاتها هو الفوز العظيم؛ لأن عظم الفوز على قدر عظم الحجب، ولا حجاب أعظم من حجاب النفس والفوز عنها يكون فوزًا عظيمًا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة:90] إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:93] يشير إلى أن الخلق ثلاث طبقات:

الأولى: المعذرون، وهم المقصرون المعترفون بتقصيرهم وذنوبهم المعذرون عن

تقصيرهم التائبون عن ذنوبهم المتداركون بالرحمة والمغفرة.

والثانية: القاعدون، وهم الكاذبون الكذابون الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله من الكافرين والمنافقين المتداركون بالخذلان والعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:90].

والثالثة: المؤمنون الصادقون الناصحون المخلصون ولكن فيهم الضعفاء والمرضى والعجزة والفقراء وهم أهل العذر، فلا حرج عليهم في القعود عن طلب الكمالات بالظواهر عند العجز مع استعمال البواطن في القلب بقدر الاستعداد كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(1) [التوبة:91] يعني: إذا أحسنوا في طلب الله اتباع رسوله بقدر قدرتهم وتمكينهم، ولذلك قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة:91] إلى الخذلان.

﴿واللهُ غَفُورٌ﴾ [التوبة:91] أي: يجبر تقصيرهم عند العذر بالمغفرة، ﴿رَحِيمٌ﴾ [التوبة:91] بأن يرحمهم ويعطيهم من فضله ما أعطى أهل الجد والاجتهاد عند القدرة، ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ [التوبة:92] أي: بطريق المتابعة بقدر الاستعداد، ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة:92] على جناح الهمة النبوية وتوصلهم إلى مقامات ودرجات لم يكونوا بالغيها بجناحي البشرية والروحانية، ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: 92] عزة وترفعًا واستغناء ودلالاً كما قال تعالى لموسى عليه السلام عند سؤاله بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف:143] ليزيد بهذا المنع والتعذر شوق موسى عليه السلام

(1) قال البقلي: عتابٌ من جهة العبودية والمجاهدة؛ لأنهم مقتولون بسيف المحبّة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحبّ، ولفقرهم من حُسن الرضا، ثُمّ زاد في وصفهم بالشفقة على دين الله، وعلى سُنَّة رسوله، بقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إذا عرفوا عباد الله طريق الله، والأسوة بسُنَّة رسول الله ﷺ، ثُمّ وصفهم بترائي قلوبهم هلال جلاله بنعت بذل أرواحهم ونفوسهم لله في الخلوات، وبيّن أنهم فائزون من نكايات المكر والامتحان، وجميع البَليّات والعقوبات، بقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ما على المشاهدين جلاله وجماله سبيل الحجاب، وقارعة العتاب؛ لأنّه كان في الأزل اختارهم برحمته السابقة، وغفر في القِدم تقصيرهم في المعرفة، بأنّه علم أن الخلق يعجزون عن حمل بوادي عظمته، وأوائل كشف سلطان كبريائه، قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فكان منع النبي ﷺ عنهم الحمل من هذا القبيل، فزاد لهم الشوق والحرص على العزة، ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾[1] [التوبة:92] على فوات ساعات الغزو صورة ومعنى.

﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة:92] أي: ما يستعملون من الأسباب الموصلة لهم إلى مقامات العلية والمواهب السنية إلا بعد الابتلاء بالمنع والتعذر لتقوى داعية القلب، وتزيد في الصدق فلما غلب الشوق وزاد الطلب أعطي مأمولهم وأجيب سؤلهم في الصورة والمعنى، كما أعطاهم النبي الحمالات في الصورة كما ذكره في رواية أبي موسى الأشعري، وفي المعنى كما أمر الله نبيه ﷺ أن يحمل أرباب الطلب على جناح النبوة بقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:215].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ [التوبة:93] أي: الخذلان لمن يحتال في القعود عن طلب الكمال بطريق الاستعداد والاستئذان من غير حقيقة الأعذار، ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ أي: لهم الاستعدادات الكاملة فلم يستعملوها في طلب الكمال؛ لكسل النفس وجنايتها طلبًا لاستراحة وتحصيل اللذات والشهوات الحيوانية، ﴿رَضُوا﴾ [التوبة:93] بالخذلان وعدم التوفيق وخسة النفس، ﴿بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة:93] وهم معدومو الاستعدادات الكاملة المبلغة إلى مقامات الكمال.

﴿وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:93] بطابع رضاهم بالمقام الأدون، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:93] أنهم مطبعون على قلوبهم؛ لأن من خصائص الطبع الجهل بما لهم وهذا هو الاستدراج الموعود بقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:44].

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ

---

(1) أي: تملأ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب من الامتلاء مبالغة، ومن الدمع متعلق بتفيض ومن لابتداء الغاية، والمعنى تفيض من كثرة الدمع والرؤية بصرية وتفيض حال من المفعول. تفسير حقي (3/ 317).

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝﴾ [التوبة: 94 - 96].

ثم أخبر عن اعتزاز المنافقين واعتذارهم بقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ [التوبة: 94] إلى قوله: ﴿الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:96]، ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:94] يشير إلى حال أهل الخذلان القاعدين عن طلب الكمال لو رجعتم إليهم وقلتم: لم تقعدون عن الطلب وتبطلون استعداد الكمال في طلب الشهوات واللذات الدنيوية والفانية؟ يعتذرون إليكم بالأكاذيب والأباطيل، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ [التوبة:94] بالأكاذيب، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ [التوبة:94] لن نصدقكم في ذلك، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة:94] بالفراسة الصادقة، كما قال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(1).

﴿وَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:94] فإن الأعمال من نتائج الأحوال، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة:94] إلى من لا يخفى عليه خافية من الأعمال الظاهرة والأحوال الباطنة، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:94] بجزاء أعمالكم إن كانت حسنة فبالحسنات، وإن كانت سيئة فبالسيئات.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:95] يشير إلى منافقي أهل الطلب الذين يظهرون زي هذه الطائفة، ويعدون أنفسهم من جملتهم، ولا يسلكون مسلكهم ولا يتصفون بصفاتهم، فإذا انقلبتم إليهم أيها النصحاء بالنصيحة لئلا يقنعوا بالتشبه بهذه الطائفة؛ ليحلفون بالله كذبًا ونفاقًا في إظهار الأعذار، ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة:95] أي: لتتركوا نصيحتهم ولومهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة:95] أي: دعوهم ونفاقهم إذا تحققتم أنهم غير قابلي النصيحة والصلاح، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: 95] جبلوا على طينة خبيثة غير طيبة، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [التوبة:95] أي: مرجعهم إلى

---

(1) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (7/ 354)، والترمذي (5/ 298، رقم 3127)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم في الحلية (10/ 281). وأخرجه أيضًا: الطبري (14/ 46).

نيران البعد والحسرة.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:95] يعني: طينتهم وإن كانت خبيثة في أصل الخلقة ما كانت مستحقة لكمال البعد فيما كسبوا بجناية تلك الطينة الذميمة صاروا مستحقين لكمال العبد لهذه النيران، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ [التوبة:96] أي: يطلبون رضاكم بسخط الله بحلفهم بالله كذبًا، ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ [التوبة:96] بأن لم تعلموا كذبهم ونفاقهم، ﴿فَإِنَّ الله لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:96] الخارجين عن الطاعة إلا بعد الرجوع إلى الطاعة.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)﴾ [التوبة: 97 -100].

ثم أخبر عن نفاق الأعراب ووفاق بعضهم بقوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة:97] إلى قوله: ﴿إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:99] الإشارة فيه إلى أن في عالم الإنسان بدوًا وهو نفسه، وحضرًا هو قلبه، كما أن في العالم بدوًا وحضرًا.

وقوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ يشير إلى النفس وهواها، فإن الكفر بها ذاتية كما أن الإيمان للقلب ذاتي من فطرة الله التي فطر الناس عليها، فيحتمل أن يصير القلب كافرًا بسراية صفاته إليه فيتلون بلون النفس، كما يحتمل أن تصير النفس مؤمنة بسراية صفة القلب إليها فتتلون بلون القلب، ولكن النفس تكون أشد كفرًا ونفاقًا من القلب وإن كان كافرًا، كما أن القلب يكون أشد إيمانًا من النفس وإن كانت مؤمنة، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ [التوبة:97] يعني: النفس صفاتها أولى من القلب.

﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة:97] من الواردات النازلة على الروح، ﴿والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:97] في أن يجعل بعض النفس الكافرة مؤمنة،

وبعض القلب المؤمن كافرًا، ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة:98] أي: من النفوس من يعتقد أن ما ينفق من الجد والاجتهاد في طلب الكمال.

﴿مَغْرَمًا﴾ أي: لا حاصل أو سعيه صلاح وهذه خصائص النفس الأمارة بالسوء، فإن أنفق أن تكون مقهورة تحت سطوات الشريعة والطريقة فيصدر منها اختيارًا واضطرارًا بذل جهد وسعي في طلب الكمال على خلاف طبعها؛ لتتحسر على ذلك وتحتال في إبطائها والخلاص منها طلبًا للاستراحة وتتبع شهواتها ولذاتها، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ [التوبة:98] أي: ينتظر آفة تفتح للقلب، ويترصد فترة مانعة للقلب على الاشتغال بطلب الكمال، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة:98] أي: على النفوس يدور البلاء من استيلاء القلب عليها وقهرها بما يخالف هواها وطبعها، ﴿واللهُ سَمِيعٌ﴾ [التوبة: 98] سمع في الأزل، وأجاب هذا الدعاء في حقها وألزمها مطاوعة الشرع ومخالفة الهوى، ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:98] بمن يسمع في حقه الدعاء.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ﴾ [التوبة:99] أي: ومن النفوس، ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ [التوبة:99] أي: من يؤمن بنور الله بعد أن تجلى الله سبحانه على قلبه فتنور وأشرقت أرض النفس بنور ربها، فتؤمن بالله بنوره وترى الدرجات الأخروية بهذا النور فتؤمن بها، ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ [التوبة:99] من الجد والاجتهاد في طلب الكمال، ﴿قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ﴾ [التوبة:99] على قضية: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[1].

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾[2] [التوبة:99] أي: موجب بعمليات الروح، فإن السالك مهما يسلك في مهامه النفس وأودية القلوب كل خطوة يخطوها كما تقربه إلى الله يتقرب الله إليه بأصناف ألطافه بقربة تقربه إلى الروح، ويتقرب الروح إليه بتجليات صفاته وتصرفات أوصافهم، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [التوبة:99] بجذبات ألطافه يأخذهم منهم ويهديهم برحمته إليه، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [التوبة:99] أي: ستار بصفته

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) وقال ابن عجيبة: تقربهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم. البحر المديد (2/ 439).

ومغفرته للصادق السالك الطالب العاشق، ﴿رَحِيمٌ﴾ [التوبة:99] بطالبيه؛ إذ لا يصلون إليه إلا بجذبات رحمته.

ثم أخبر عن السابقين الصادقين العاشقين بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾(1) [التوبة:100] أي: الذين سبقت لهم العناية الأزلية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء:101] الأولون في سبق العناية لهم أيضًا، والسابقون في الخروج من العدم، الأولون عند الخروج، وهم أهل الصف الأول في عالم الأرواح؛ إذ كانت الأرواح صفوفًا كالجنود المجندة، وأيضًا السابقون في الخروج عن صلب آدم عليه السلام عند أخذ ربهم وعند سماع خطاب ربهم حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] والسابقون الأولون في جواب: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172].

وأيضًا السابقون الأولون في تجلي ربهم بصفة ربوبيته لهم حتى عرفوه بهذه الصفة فأجابوه بقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ فلهم السبق في استماع الخطاب والرؤية والمعرفة والإقرار والإجابة، وأيضًا السابقون في استحقاق المحبة نداء اختصاصهم بتشريف ﴿يحبهم﴾ في الأزل، الأولون بأداء حق المحبة في سر ﴿يحبونه﴾، وأيضًا السابقون الأولون في تجديد عهد المحبة عند تجلي صفة الربوبية يوم الميثاق، وأيضًا السابقون الأولون عند تخمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا ومماساة الحضرة الربوبية على أقرانهم الأولون بالوصول إلى سرادقات الجلال، وأيضًا السابقون في مقامات الوصول عن أقرانهم الأولون من الذين وصلوا تلك المقامات.

واعلم أن هذه السبق مخصوص بالنبي ﷺ وأمته كما أخبر النبي ﷺ: «نحن الآخرون

---

(1) قال البقلي: أي :السابقون بالأرواح قبل الكون إلى مشاهدة الأزل، بنعت المحبّة والمعرفة والشوق حين أوجدها الحقّ من مكمن الغيب، وأحضرها لديه على جزائر النور، ومجالس السرور، فلا تزال طائرات بأجنحة الرضا في فضاء البقاء بنعت الفرح بالمُنى. فإذا تلبَّست بأشباحها، طلبت أماكنها ومعادنها، فأبصرت بنورها مراد تجلِّي القِدم، فسبقت إليها، وسكنت بسبيل الاستقامة في طريق المعرفة بطلب زيادة الزُلْفات، وحقائق الوصلات.

قال ابن عطاء: «السابق»: من سبق له في الأزل حُسن عنايته، فيظهر عليه في وقت إيجاده أنوار تلك السابقة، فإنه ما وصل إليه أحد، إلا بعد أن سبق له في الأول منه لطفٌ وعناية.

السابقون»[1] أي: الآخرون خروجًا في الصورة، السابقون دخولاً في المقامات المذكورة كلها، قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ [التوبة:100] أي: الذي هاجروا عن أوطان البشرية إلى أوطان الروحانية، وعن الروحانية إلى كمال الإنسانية، وعن الإنسانية إلى الصفات الربانية، وعن الناسوتية إلى اللاهوتية، ﴿وَالأَنْصَارِ﴾ [التوبة:100] أي: الذين كانوا أنصار الله في طلب الله مع الإخوان في الله.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة:100] أي: الذين اتبعوا أهل السبق وبذلوا جهدهم في الوصول إليهم والإلحاق بهم بقدر الإمكان، كما كان حال أبي بكر ﷺ مع النبي ﷺ في الطلب بالمسابقة معه قبل بعثته حيث قال: «كنت أنا وأبو بكر كفرسي رهان»[2] كما قال تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:21]، وكقول يوسف ﷺ: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:101] يعني: أنا متابع لهم فألحقني بهم.

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة:100] عن السابقين في الأزل؛ إذ هم السابقون بنيل الرضوان فرضي عنهم بأن يكونوا من أهل محبته وقربته والوصول إليه فأعطاهم ما به رضي عنهم وارتضى لهم بنيل ما أعطاهم وارتضى لهم من الكمالات، ورضي أيضًا عنهم بإعطاء حق الطلب بما ارتضاه لهم ببذل المجهود في الصبر على الصراط المستقيم ورضي عن المتابعين لهم ببذل التوفيق والاتباع السابقين إذ اتبعوهم بالإحسان والإمكان وحسب الاستعداد.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:100] إذ بلغهم أعلى درجات السابقين بقدر وهو علو الهمة في الطلب وبذل الجد والاجتهاد على قوم المتابعة، والوصول إلى أعلى درجات مقامات السابقين بقدر استعدادهم ونالوا منه مأمولهم وأعطى لهم سؤلهم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [التوبة:100] في قلوبهم بساتين أشجارها الإيمان واليقين والصدق والإخلاص

(1) أخرجه أحمد (2/ 243، رقم 7308)، والبخاري (1/ 299، رقم 836)، ومسلم (2/ 586، رقم 855)، والنسائي (3/ 85، رقم 1367). وأخرجه أيضًا: الشافعي (1/ 60)، وابن خزيمة (3/ 109، رقم 1720)، والبيهقي (3/ 170، رقم 5354).

(2) تقدم تخريجه.

والتوكل والتسليم والرضا، ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:100] من ماء العناية والمواهب الربانية.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة:100] أي: لا تنقطع عنهم العناية، ويزيد في أثمار تلك الأشجار من المشاهدات والمكاشفات الربانية إلى أبد الآباد، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:100] وهو الفناء عن الأوصاف الإنسانية، والبقاء بالصفات الربانية.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [التوبة: 101 - 104].

ثم أخبر عن أرباب النفاق من الأعراب بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ [التوبة:101] إلى قوله: ﴿هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:104]، ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ يشير إلى صفات النفس، فإنها بمثابة الأعراب بالنسبة إلى مدينة القلب وصفاته، وإنها تدور حول القلب؛ يعني: من أعراب صفات النفس بعضها منافق لاحتمال أن يكون بعضها منافقًا، وبعضها كافرًا، وبعضها مسلمًا، فالمنافق منها كالصفة الحيوانية من الشهوات، فإنها تبدل بالعفة عند استيلاء القلب على النفس لسياسة الشريعة وتربية الطريقة ظاهرًا الحقيقة؛ لأنها تتبدل بالكلية بحيث تنزع عنها الشهوة بحيث تكون مغلوبة فيها بالسياسة، وهذا حال المنافق أن يكون ظاهره بخلاف باطنه بالرئاسة.

والكافر منها كالصفة البهيمية في طلب الغذاء من المأكول والمشروب، فإنها لا تتبدل بضدها وكالاستغناء عن الأكل والشرب؛ لحاجة الجسد إلى الغذاء لبدل ما يتحلل من الجسد، والمسلم: كالصفة السبعية والشيطانية من الغضب والكبر والعداوة والكذب والخيانة، فإنها تحتمل أن تتبدل بضدها من الحلم والتواضع والمحبة والصدق والأمانة عند استنارة النفس بنور الإسلام وترشح نور الإيمان عن القلب وانشراح الصدر بنور ربها، وهذه الصفات وغيرها من صفات النفس ما لم تتبدل بالكلية أو لم تكن مغلوبة بأنوار

صفات القلب، ففيها بعض النفاق كما جعل النبي ﷺ الكذب والخيانة وخلف الوعد والغدر من النفاق، فقال: «من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها»(1).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ [التوبة:101] يعني: مدينة القلب وأهلها صفاته، ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ [التوبة:101] وذلك باستيلاء صفات النفس على صفات القلب عند تصرف أنوار القلب عند تصرف ظلمات النفس وأوصافها فيها، فيظهر فيها النفاق مذبذبة بين إيمان الصفات الحميدة وكفر الصفات الذميمة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة:101] يعني: لا يعرف هذه الأحوال أرباب علوم الظاهر، ويعرفها أصحاب الكشوف الباطنة، ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:101] مرة بأحكام الشريعة، ومرة بآداب الحقيقة؛ أي: نعذبهم بتكاليف أوامر الشرع ونواهيها ونعذبهم عن الأخلاق الذميمة بدقائق تربية الطريقة عند الانفطام عن مألوفات الطبيعة.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ [التوبة:101] بجذبات اللطف والقهر، ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:101] عند فناء أوصافهم بتجلي العزة عن صفات اللطف والجمال، وإلى عذاب عظيم عند بقاء أوصافهم بالستر وإسبال حجبها للجلال طردا وبعدا عن حضرة الجمال.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة:102] أي: القلب وصفاته اعترفوا بذنوب شوب صفات النفس والتلوث بها، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ [التوبة:102] وهو صدق التوجه في طلب الحق والإعراض عن الباطل، ﴿وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:102] وهو مطاوعة النفس وهواها في بعض الأوقات، ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:102] أي: يوفقهم للرجوع إلى الحق بالكلية والإعراض عما سواه، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [التوبة:102] يستر بكرمه صفات القلوب، ﴿رَحِيمٌ﴾ [التوبة:102] يمحو بماء رحمته لوث شهوات النفوس.

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (11/ 241)، وأحمد في مسنده (33/ 246).

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:103] يشير إلى أن حب المال نجاسة تنجس القلوب وتغطيها، فيتطرق إليها الشيطان ويلقي فيها الطغيان، ومن هذا ينفتح عليها أبواب العصيان وتندرج إلى الأسفل بالاستدراج والخذلان، فلا تنحسم مادة هذا الفساد إلا بتطهر القلب بأنوار الهمة العلية النبوية وتنويره بنور صلاة الرسول ﷺ كما أمر بقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة:103] أي: موقية لسكون القلوب إلى العبودية وطمأنينتها بأنس الربوبية؛ إذ بنور الصلاة تزول عن القلوب ظلمات ركونها إلى الدنيا ويظهر سكونها إلى المولى.

﴿واللهُ سَمِيعٌ﴾ [التوبة:103] يسمع اعتراف القلوب بالذنوب وتوبتها، ويجيب دعاء الرسول في تزكيتها وتطهيرها، ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:103] بتجلية القلوب بأنوار الغيوب بعد تزكيتها عن دنس الفضول، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ [التوبة:104] أرباب الذنوب من أصحاب القلوب، ﴿أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة:104] أي: علموا؛ لأنهم شاهدوا في قلوبهم آثار قبول التوبة بصدق الأوبة.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾(1) [التوبة:104] يشير به إلى خلوص النية في الإعطاء وعلو الهمة وفسحة الرجاء أي: المعطي ينبغي ألَّا يظن أنه يعطي الصدقة إلى الفقير وبها يمن عليه، فتبطل صدقته بالمن، ويعلم أنه يعطي إلى الله تعالى؛ لأنه الآخذ، فلا يرى الفقير بل يرى الله سبحانه وتعالى، فيرجوا الثواب والجزاء منه لا من غيره، وفي هذه الآية رجاء عظيم أنه تعالى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات، ولولا هذا الكرم واللطف ما نجا أحد من قهره، ﴿وَأَنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:104] هو الموفق للتوبة بلطفه وكرمه، ولولا توفيقه ما تاب مذنب قط كما لا يتوب إبليس؛ لعدم التوفيق ﴿الرحيم﴾ بعباده بأن يمحو آثار ظلمة الذنوب عن القلوب بنور رحمته.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ

---

(1) أي: خُذ ما يتعلق بحظوظ أنفسهم، حتى لم يبق بينهم وبين الله حظّ النفس.

وأيضًا أي: باشر أموالهم بأخذ الصدقات للفقراء؛ حتى تصل بركة يدك إلى أموالهم، وتطهر بلطف يدك نفوسهم من المعاصي وجميع العذاب، وتطهر قلوبهم من حبّ ما سوى الله.

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: 105 - 110].

ثم أخبر عن ظهور الأحوال بصدور الأعمال بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْـمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:105] يشير إلى أن عمل المحسن يخلص إلى السماوات بقدر قوة صدقه وإخلاصه، فالله تعالى يراه بنور ألوهيته، وروح الرسول ﷺ يراه بنور نبوته، وأرواح المؤمنين بنور إيمانهم، فاستعلاء ذلك النور وصفاؤه وضوؤه يكون على قدر علو همة المحسن وخلوص نيته وصفاء طويته، وإن لعمل المسيء ظلمة تصعد إلى السماوات بقدر قوة عقليته وخباثة نفسه، فإنه تعالى يراها وروح رسوله وأرواح المؤمنين، ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ [التوبة:105] بأقدام أعمالكم.

﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة:105] أي: إلى الله الذي هو عالم بما غاب عنكم وغبتم عنه، فأمَّا ما غاب عنكم فهو نتائج أعمالكم من الخير والشر وجزاؤها فإنها إن لم تغب عنكم زدتم في الخير وما عملتم شرًا، وأمَّا ما غبتم عنه فهو تقدير الأزل والحكمة فيما جرى به القلم من أعمال الخير والشر وعالم بما تشاهدون بالعيون والقلوب في الملك والملكوت، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:105] فيجزيكم بمكافآت أعمالكم نتائج الخير والشر الذي قد غاب عنكم حين مباشرة أعمالكم الخير بالخير والشر بالشر فتعلمون ما كنتم تعملون.

ثم أخبر عن الموقوفين لقضائه وقدره لقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ﴾ [التوبة:106] يشير إلى الحكمة الأزلية التي اقتضت إقدام بعض النفوس على الذنوب وتأخير توبتهم وهم مترددون بين الخوف والرجاء، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

[التوبة:106] ولهم فيها بين ذلك تربية؛ ليطيروا بجناحي الخوف والرجاء إلى أن يصلوا إلى مقام الفيض والبسط إلى أن يبلغوا سرادقات الأنس والهيبة، ثم ليطيروا بجناحي الأنس والهيبة إلى قاب قوسين الستر والتجلي والوحدة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:106] بتربية عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:106] بمن يصلح للقرب والقبول ومن يصلح للبعد.

ثم أخبر عن إرادة أهل النفاق بأعمال أهل الوفاق بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ [التوبة:107] إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:110] يشير به إلى أهل الطبيعة اتخذوا مزبلة النفس مسجدًا ضرارًا لأرباب الحقيقة وكفروا بأحوالهم، كما أنهم اتخذوا بستان القلب مسجدًا يذكرون الله فيه ويطلبونه، وهذا وصف مدعي الطلب الكذابين في دعواهم المتشبهين بزي أرباب الصدق والطلب، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:107] الطالبين الصادقين بإظهار الدعوى من غير المعنى أن يفرقوا بين الأحوال في الله، وفي طلبه بأنواع الحيل تارة بطلب صحته معهم ومرافقتهم في الأسفل، وتارة بذكر البلدان وكثرة النعم فيها وطيب هوائها وكرم أهلها وإرادتهم بهذه الطائفة؛ ليزجوهم عن خدمة المشايخ ومحبة الإخوان.

﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:107] ليوفقهم في بلاء صحبة الإباحية من مدَّعي الفقر والمعرفة وهم يحاربون الله بترك دينه وشريعته وإحياء سنته، ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ [التوبة:107] فيما دعوناكم إليه، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:107] فيما يدعون ويحلفون، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:108] يخاطب رسول الهداية والعناية لا تقم في مزبلة النفس، وإن اتخذت مسجدًا مشابهًا لمساجد القلوب. ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ [التوبة:108] أي: مسجد القلب أسس على العبودية والطاعة والإقرار بالوحدانية، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة:108] الميثاق عند خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] وجواب: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172]، ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:108] يا رسول الهداية والعناية؛ لأن ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة:108] وهم الأوصاف الحميدة والأخلاق الكريمة من القلب دأبهم التطهير عن الصفات الذميمة والأخلاق اللئيمة؛ بل عن دنس الوجود ولوث الحدوث، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ

﴿الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:108] الفانين عن وجودهم الباقين بالله، ولولا محبته إياهم ما وفقهم بالتطهير[1].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ [التوبة:109] أي: جبل وقت الفطرة بتقدير الأزل، ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:109] أي التوحيد والمعرفة، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة:109] أي: خلق لطلب رضا الله ونيل الرضا من الله كقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:100]، ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ [التوبة:109] أي: جبل حال الفطرة والتقدير، ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة:109] أي: على شفا مهلكة فاسقة، ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ [التوبة:109] وخسف بهم، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:109] البعد عن الله.

﴿واللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:109] ما داموا على ظلمهم وهو وضع عبادة الدنيا ومحبتها والحرص في طلبها، وموضع عبادة الله ومحبته والصدق في طلبه، فإذا غيروا ما بأنفسهم من طلب الدنيا وشهواتها يغير الله ما بهم من الكفر والطغيان والخذلان، ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً﴾ [التوبة:110] عند الفطرة على الشقاوة بنيت شكًّا ونفاقًا وخذلانًا، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:110] ويخرب الله فيها بنيان الشقاوة بنور الهداية من يشاء من عباده، ﴿واللهُ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:110] بمن يشاء به السعادة، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:110] بمن أراد به الشقاوة وحكم بها في الأزل.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ

(1) «الطهارة»: طهارة الأسرار من الخطرات، وطهارة الأرواح من الغفلات، وطهارة القلوب من الشهوات، وطهارة العقول من الجهلات، وطهارة النفوس من الكفريات، وطهارة الأبدان من الزلات، ومَن أحبَّه الله في الأزل، يُطهِّره في الدنيا مما يشغله عن الله طرفة عين، فإن المحبَّ لا يترك حبيبه في شيءٍ يُضرُّ به.

قال سهل: الطهارة على ثلاثة أوجهٍ: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذِكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية.

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: 111 -112].

ثم أخبر عن أمارات أهل السعادة وعلامات أهل السعادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة:111] الآيتين: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى﴾ في التقدير الأزلي، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أهل الإيمان والصدق، فإنهم جبلوا على استعداد هذه المبايعة لا من أهل الكفر والنفاق والكذب، فإنهم غير مستعدين لهذه المبايعة لأنفسهم وأموالهم، ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] أي: يبذلون النفس والمال في الجهاد الأصغر مع الكفار.

﴿يُقَاتِلُونَ﴾ [التوبة:111] يجاهدون، ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:111] أي: في طلب سبيل الله، وهو الجنة؛ أي: يبذلون النفس لأهل الجهاد الأصغر، ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ [التوبة: 111] يعني: يطلبون الجنة بصرف المال في مصالح الجهاد وبذل النفس، فأمَّا قتلهم الأعداء فهم الغزاة فلهم الجنة، وأمَّا قتلهم الأعداء فهم الشهداء فلهم الجنة، والجهاد الأكبر مع النفوس المتمردة، ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [المائدة:54] أي: في طلب الله وهو لأهل الجهاد الأكبر.

﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:111] يعني: يقتلون النفس الأمارة بالسوء بسيف الصدق ومخالفة هواها وتبديل أخلاقها وبذل المال في مصالح قتلها والجهاد وبقتلها يصل العبد إلى ربه، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ يعني: بقتل النفس بجذبات الألوهية وتجلي صفات الربوبية، وفيه إشارة أخرى أن الله تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، واشترى من أوليائه الصديقين قلوبهم وأرواحهم بأن لهم الله تبارك وتعالى، فهؤلاء يبذلون القلوب والأرواح في طلب الله، كما أن المؤمنين يبذلون الأنس والأموال في طلب الجنة.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة:111] يعني: الوعد لكلا الفريقين حق على الله تعالى إنجازه، ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة:111] أي: هذا الوعد حقيقته إنجازه ثابت في الكتب كلها، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:111] أي: لا يكون أحد وافيًا

بالعهد وفاء الله بعده؛ لأنه تعالى قادر على الوفاء وغيره عاجز عنه إلا بتوفيقه إياه.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ [التوبة:111] يعني: الفريقين، ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ [التوبة:111] في طلب الجنة وطلب الله تعالى، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:111] أي: الفوز عن النفس والقلب والروح بالبذل في طلب الله فوز عظيم؛ لأنه يصل إلى الله العظيم.

ثم ذكر أصناف الواصلين وأوصافهم في مراتب الوصول فقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾ [التوبة:112] وهو الراجعون إلى الله بكليتهم فزهدوا في الدنيا والآخرة وما فيهما من اللذات والشهوات والدرجات النفسانية والروحانية فهم يرجعون به منهم إليه على قدم العبودية، كما قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾.

﴿الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة:112] يعني: التائبون عن عبادة ما سوى الله وطلبه الراجعون إليه بعبادته وطاعته؛ لقوله تعالى: «ما تقرب إليّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم»[1].

﴿الْحَامِدُونَ﴾ [التوبة:112] يعني: حامدون الله على ما وفقهم لنعمة القالب، ﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة:112] أي: السائرون إلى الله بترك شغلهم عنهم.

﴿الرَّاكِعُونَ﴾ [التوبة:112] الخاضعون المنكسرون الراجعون عن مقام القيام بوجودهم إلى القيام بموجدهم.

﴿السَّاجِدُونَ﴾ [التوبة:112] أي: الساقطون عنهم على عتبة الوحدة بلا هم، ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:112] أي: المأمورون بالرجوع إلى الخلق، القائمون بالله في الأمر بالمعروف، ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة:112] أي: لئلا يتجاوزوا عن الله وطلبه في طلب غيره، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:112] أي: الطالبين بنيل ما طلبوا في الله بالسير في هذه المراتب العلية والمقامات السنية.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ

(1) ذكره القشيري في الرسالة (1/ 41).

وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [التوبة: 113- 116].

ثم أخبر عن نهي النبي ﷺ والمؤمنين عن استغفارهم للمشركين بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 113]، إلى قوله: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 116] يشير إلى أن الله تعالى ما أودع ولاية الهداية الإلهية واستجلاء العناية الربانية في الاستعدادات الإنسانية لا للأنبياء ولا للأولياء، ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: 113] والرفعة فيه أن يكون أكثر اهتمامًا في حق الأقرباء وهم أحب إليه من غيرهم فيجتهد فيهم غاية الاجتهاد في طلب المراد؛ وذلك لأن الهداية من مواهب الربوبية لا من مراتب العبودية، كما صرَّح به في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] أي: من لا أريد هدايته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113] أي: المردودون من أهل البعد؛ يعني: ليس للأنبياء والأولياء تبديل خلق الله ولا تبديل لكلمات الله، فمن حكمت المشيئة الأزلية والحكمة الإلهية بشقاوته لا ينفعه استغفار المستغفرين ولا شفاعة الشافعين، كما لم ينفعه إنذار المنذرين ودعوة النبيين، ومن اقتضت الحكمة الإلهية والإرادة الأزلية سعادته فإنه تنفعه الشفاعة والإنذار والهداية، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] أي: للمقبولين من أهل القربة والكرامة.

ثم اعتذر عن استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: 114] يعني: استدل إبراهيم بمواعدة أبيه أن يكون أبوه من المقبولين فينفعه استغفاره فاستغفره ربه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ﴾ [التوبة: 114] أي: من المردودين، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114] وتولى إلى الله تعالى.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114] الأوَّاه المتبرئ من المخلوقات؛ لكثرة نيل المواجيد والكرامات، فيكون لضيق البشرية تولاه مولاه، فمهما ورد له وارد الحق ضاق

عليه نطاق الخلق فيتأوه عند تنفس القلب المضطر من الخلق إلى الحق ويفر من الخلق ويفر إلى الحق ملحًا من جلدة الإنسانية منفردًا للفردانية متوحدًا للوحدانية، حليم عمًّا أصابه من الخلق للحق، فلا رجوع من الحق إلى الخلق بحال من الأحوال، كما قال لجبريل عليه السلام: ابتلاه الله به في الهواء، لما ألقى بالمنجنيق إلى النار عند قوله: «ألك حاجة» كيف أرجع من الحق في تلك الحالة لمقال: أما إليك فلا.

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ [التوبة:115] يعني: إذ هداهم بالتوحيد والتفريد إلى الوحدانية والفردانية لا يردهم بالمكر إلا إلى الإثنينية والبعد، ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:115] من آفات البشرية وعاهات خصائص الدنيوية التي رأس كل خطيئة وبلية، فإذا لم يحترزوا عنها ووقعوا فيها بعيدًا بالاستدراج إلى ما خرجوا منها بالوجد من لوث الوجود من حيث لا يعلمون، وهذا يدل على الحور بعد الكور نعوذ بالله منه.

وفيه إشارة أخرى وهي أن الله تعالى بعد إذ هداهم بالإفناء عن الوجود إلى البقاء من الحق لا يردهم إلى بقاء البقاء وهو الإثبات بعد المحو، والصحو بعد السكر، وقد سمّاه المشايخ الإثبات الثاني، حتى يتبين لهم ما يتقون من الأعمال والأفعال والأقوال رعاية لتلك الأحوال.

﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [التوبة:115] من الآفات المفسدة للأحوال وبكل شيء من المرامات لمصلحة الحال، ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:115] يلهم بها القلوب الحاضرة ويسمع بها الآذان الواعية، ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [التوبة:116] تلك القدرة والإيجاد عليهما وما فيهما، ﴿يُحْيِي﴾ [التوبة:116] بنور ربوبيته من يشاء، ﴿وَيُمِيتُ﴾ [التوبة:116] عن صفات بشريته من يشاء، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [التوبة:116] يعطيكم الولاية، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:116] ينصركم عن الظفر بنفوسكم للهداية، فلا يشغلكم طلب الملك عن المالك، فإن طالب الملك لا يجدي المالك ولا يبقي الملك معه، طالب الملك لا يجد الملك ولا المالك وطالب المالك يجد الملك والمالك جميعًا.

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ

مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: 117 - 121].

ثم أخبر عن تأثير عنايته وآثار هدايته بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [التوبة:117] إلى قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:119]، ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: تاب عليه في الأزل قبل أن يذنب، وإذا وقعت التوبة من الله قبل الذنب فيكون الذنب قبل أن يقع مغفورًا، يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2] فالمغفرة مقدمة على الذنب، وكذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:43] قدم العفو على الاعتراض، ولعل هذا من خصائص النبي ﷺ لتكون فائدة الذنب عائدة عليه من غير توب عن دنس الذنب، فإنه لم يكن لصورة الذنب فائدة راجعة إلى معنى الذنب لما أجرى الله صغيرة النبي من أنبيائه، وفي شرح هذا طول لا نشرع فيه.

وفيه معنى آخر وهو أن التوبة فضل من الله تعالى ورحمة مخصوصة به لينعم بذلك على عباده فكل نعمة وفضل يوصله الله إلى عباده تكون عبارة على ولاية النبوة، فمنها يفيض على المهاجرين والأنصار وجميع الأمة، فلهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾ [التوبة:117] يدل عليه قوله ﷺ «ما صب الله في صدري شيئًا إلا وصبه في صدر أبي بكر ﷺ»[1].

(1) تقدم تخريجه.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:117] عسرة ترك الدنيا وشهواتها ولذاتها، وعسرة نهي النفس عن هواها وعسرة الصبر على جهاد النفس ومخالفة هواها، وعسرة انقياد النفس لتكاليف الشرع واستعمالها، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:117] تميل إلى الدنيا وشهواتها طبعًا، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:117] بإفاضته نور العناية والرحمة؛ ليرجعوا من طلب الدنيا وشهواتها إلى طلب الآخرة ودرجاتها.

﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:117] في الأزل والرحمة خلقهم، وفيه إشارة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: نبي الروح، فإنه بمنزلة النبي يأخذ بإلهام الحق حقائق الدين ويبلغها إلى أمته من القلب والنفس والجوارح والأعضاء، فالمعنى: أفاض الله على نبي الروح ومهاجري صفاته الذين هاجروا معه من مكة الروحانية إلى مدينة الجسدانية، والأنصار من القلب والنفس وصافتها الذين هم ساكنوا مدينة الجسد فيضان الرحمة.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي: اتبعوا الروح ساعة رجوعه إلى عالم العلو بالعسرة؛ إذ هم نشأوا من عالم السفل يعسر عليهم السير إلى عالم العلو ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:117] من النفس وصفاتها وهواها، فإن ميلها طبعًا إلى عالم السفل، ثم تاب عليهم بإضافة الفيض الرباني؛ لتغلبهم عن طبعهم ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:117]؛ ليجعلهم بالسير بالشريعة قابلاً للرجوع إلى عالم الحقيقة.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾(1) [التوبة:118] من النفس والهوى والطبع وما اتبعوا الروح عند رجوعه إلى عالم العلو ابتداء حتى تمكنوا في عالم السفل وحصلوا فيه ما

---

(1) قال البقلي: انبسطت عرصات قلوبهم لتراكم غيوم القبض، وتتابعت على أسرارهم أنوار العظمة، فأبرزت الأرض من عظائم برحاء مواجيدهم، وتراكم حقائق همومهم، فلا يبقى ذرة من الأرض إلا واستغرقت في بحار أنفاسهم الملكوتية، واحترقت بنيران أفئدتهم الجبروتية، وما رأوا على وجه الأرض ما يستأنسون به غير الله.

ثُمَّ وصف نفوسهم بفنائها في آثار قلوبهم، بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ضاقت نفوسهم من حمل وارد الغيب عليهم، وعن أثقال أرواحهم، التي هي مطايا أسرار الألوهية، ولطائف كنوز الربوبيّة، وفنوا تحت سلطان كبريائه، ودخلوا تحت أكناف لطفه من عزائم قهره.

يحتاجون إليه من أسباب العبودية عند رجوعهم إلى عالم الربوبية بجذبة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:27]، ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ﴾ [التوبة:118] أرض السفل عند إصابة الفيض الإلهي شوقًا إلى تلك الحضرة، ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: 118] بعدما وسعت أرض السفل لهم بالطبع، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: 118] تحنّنًا إلى تلك السعادات.

﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة:118] إلا الفرار إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:118] جذبهم عن العالم السفلي بجذبة العناية، ﴿لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:118] أي: يرجعوا إلى الله ولو لم تتداركهم جذبة العناية ما تابوا وما رجعوا عن طبعهم وما رغبوا في طلب الله، ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:118] أي: هو الذي يجذبهم بجذب الرحمة عنهم وعن طبعهم وعماهم فيه من الميل إلى السفليات، ولو وكلهم إلى طبيعتهم ما سلكوا طريق الحق أبدًا.

ثم عمم الدعوة وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التوبة:119] قولاً وتصديقًا، ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ [التوبة:119] بالأعمال الصالحات واتقوا بالله عن غير الله، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:119] لتبلغوا بتربيتهم وقوة ولايتهم إلى مراتب الصديقين وإلى مقام الاتقاء بالله عمّا سواه، وأيضًا كونوا مع الصادقين الذين صدقوا يوم الميثاق، لما أجابوا الله عند خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172] وصدقوا الله على ما عاهدوا عليه ألّا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئًا من مقاصد الدنيا والآخرة.

ثم أخبر عن وجود ترك التكلف في التخلف بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ﴾ [التوبة:120] الآيتين: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ مدينة القالب وأهلها النفس والهوى والقلب، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ﴾ أعراب الصفات النفسانية والقلبية، ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ﴾ رسول الروح؛ إذ هو راجع إلى الله وسائر إليه، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة:120] عن بذل وجودهم عند بذل وجوده بالفناء في الله، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ [التوبة: 120] من ماء الشهوات، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ [التوبة:120] من أنواع المجاهدات، ﴿وَلَا

﴿مَخۡمَصَةٞ﴾ [التوبة:120] بترك اللذات وطعام الدنيا، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:120] في طلب الله، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ [التوبة:120] مقامًا من مقامات الفناء، ﴿يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [التوبة:120] النفس والهوى، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ﴾ [التوبة:120] الشيطان والدنيا والنفس.

﴿نَّيۡلًا﴾ [التوبة:120] أي: نيلاً ومحنة وفقرًا وفاقة وجهرًا وحزنًا، وغير ذلك من أسباب الفناء، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة:120] من البقاء بالله بعد الفناء في الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التوبة:120] الفانين في الله فيبقيهم بالله ليعبدوه به على المشاهدة؛ لأن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ﴾ [التوبة:121] من بذل الوجود، ﴿صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ [التوبة:121] الصغيرة بذل وجود الصفات، والكبيرة بذل وجود الذات في صفات الله تعالى وذاته تعالى القدس، ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ [التوبة:121] من أودية الدنيا والآخرة والنفس والهوى والقلب والروح، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:121] كل واد من هذه الأودية وقربة ومنزلة ودرجة، كما قال تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[1].

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:121] البقاء به والفناء عن نفسه، ﴿أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة:121] أي: بأحسن مقام كانوا يعملون العبودية في طلبه؛ لأن طلبهم على قدر معرفتهم وسطح نظرهم وجزاء ما يطيق عنه نطاق عقولهم مفهومهم، كما قال تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»[2].

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي

(1) تقدم تخريجه.

(2) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/ 313، رقم 8128)، والبخاري (3/ 1185، رقم 3072)، ومسلم (4/ 2174، رقم 2824)، والترمذي (5/ 346، رقم 3197) وقال: حسن صحيح.

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: 122 - 127].

ثم أخبر عن نفي النفر بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122] والإشارة فيه أن الله تعالى يندب خواص عباده بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة:122] إلى رحلة الصورة والمعنى، ففي طلب أهل الكمال الكاملين المكملين الواصلين الموصلين، كما ندب موسى إلى الرحلة في طلب الخضر - عليهما السلام - ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:122] ليتفقهوا في السير إلى الله تعالى، والسير بالله، والسير في الله، وأمّا رحلة المعنى فلمّا كان حال إبراهيم ﷺ قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، فهو السير من القالب وصفاته إلى القلب وصفاته، ومن القلب وصفاته إلى الروح إلى التخلق بأخلاق الله بقدم فناء أوصافه، وهو السير إلى الله، ومن أخلاق الله إلى ذات الله بقدم فناء ذاته بتجلي صفات الله وهو السير بالله، ومن أنانيته إلى هويته ومن هويته في ألوهيته إلى أبد الآباد وهو السير في الله بالله من الله، وتقدس فقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: فهلا نفر من كل قوم وقبيلة وبلدة وقرية، ﴿مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ من خواصهم ومستعديهم للطلب، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليتعلموا السير إلى الله من السائرين الواصلين إليه.

﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة:122] أي: ليعلموا القوم المستعدين لطلب الله المحبين المحبوبين الذين خصهم الله بالمحبة من بين خليقته، بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] إنكم القوم الموعودون من الله بالإتيان من المحبين والمحبوبين، ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:122] أي: بعد الوصول مأمورين بالرجوع إلى الخلق بالدعوة والتربية، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:122] من غير الله ويرغبون إليه، وأيضًا يحذرون الحرمان عن الوصول إلى الله تعالى.

ثم أخبر عن القتال في طلب الكمال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ

يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:123] إلى قوله: ﴿لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:127]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدقوا محمدًا ﷺ فيما دلكم إلى الله بإذنه، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي: جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها وتبديل صفاتها وحملها على طاعة الله والمجاهدة في سبيله، فإنها تحجبك عن الله، ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: 123] هي عزيمة صادقة في فنائها بترك شهواتها ولذاتها ومستحسناتها ومنازعاتها في هواها وحملها على المتابعة في طلب الحق، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:123] بجذبة الوصول لتبقوا به عمّا سواه.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة:124] يشير إلى أن من علامات النفاق ما لا يظهر في القلب الاستهزاء، فإنهم يقولون على طريق الاستهزاء بالقرآن وبمن آمن به، ثم أجابهم الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التوبة:124] أي: بما أنزل من القرآن، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:124] يشير إلى أن في كل سورة وآية وكلمة وحرف من القرآن نور، فالمؤمن إذا صدق النبي فيما جاء به من القرآن ينتقل النور من القرآن المنزل بطريق تصديقه إلى قلب المؤمن، فيضم إلى نور الإيمان فيزداد الإيمان المتمكن في القلب، وهذا يدل على أن الإيمان بكل حرف وآية من القرآن يزيد في إيمان المؤمن بقدر ازدياد الإيمان يزداد نوره في القلب.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [التوبة:125] مرض القلب ظلمة شكه ونفاقه وكفره وهو ضد سلامته وسلامة القلب خلوة من الظلمة لحصول النور فيه، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:125] أي ظلمة إلى ظلمتهم؛ لأنه إن كان في الإيمان بكل حرف وآية من القرآن نور، فكذلك في الإنكار والكفر بكل حرف وآية من القرآن ظلمة، فيضم إلى ظلمة الكفر والإنكار المتمكن به في القلب المريض فيزيد في مزيد رجس كفرهم ونفاقهم، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:125] يشير إلى أن موت القلب مودع في الكفر والنفاق.

ثم أخبر عن موت القلب بقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ [التوبة:126] كل، ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ [التوبة:126] بالبلاء والمصائب، ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:126]

وهذه الفتنة موجبة لانتباه القلب الحي نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة:21].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:37] أي: قلب حي، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ [التوبة:126] إلى الله، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة:126] ويتعظون من قلوبهم ميتة والقلب الميت لا يرجع إلى الله ولا يؤثر فيه نصح الناصحين كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل:80]، وقال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياً﴾ [يس:70] أي: من كان قلبه حيًا.

ثم أخبر عن أمارات القلوب الميتة فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [التوبة:127] بالإنكار عليها والإنكار من أمارات موت القلب، كما أن التصديق والإقرار من أمارات حياة القلب، ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [التوبة:127] أي يقول رآكم أحد في مقام الإنكار والنفاق يريدون به النبي ﷺ؛ يعني: نحن ننكر القرآن ومحمد بالرسالة فهل يرى محمد إنكارنا على رسالته وعلى القرآن؟ فإنه إن كان رسولاً يرانا بنور رسالته ويخبره الله عن حالنا، ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ [التوبة:127] على هذه الحسبان والغرور؛ لأنه ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة:127] بإنكارهم وحسبانهم عن الإيمان ورؤية الحق بأنهم؛ أي: ذلك الصرف، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:127] أي: ليس له فقه القلب من أمارات حياته وهو رؤية الحق وحياة القلب بالنور كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: 122]، فافهم جدًا.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: 128 - 129].

ثم أخبر عن نعمة بعثة النبي وإعراضهم عن القبول بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ [التوبة:128] أي: من الله، ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:128] في البشرية، وهذا تسكين العوام لئلا ينفروا عنه ويمتنعون عن متابعته ويقولوا: لا طاقة لنا بمتابعته؛ لأنه

ليس من جنسنا في البشرية، نظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:110] وفيه إشارة الخواص؛ إذ يقولون: إن أحدًا من جنس البشرية أوصل إلى هذه المراتب العلية والمقامات السنية بالاستقلال، فيحتمل أن يصل في متابعته إليها كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:31] ومقام المحبوبية من أشرف المقامات وأعلاها، فلما تحصل بالمتابعة فأدناها أولى بالحصول، وأما بقراءة من قرأ أنفسكم -بفتح الفاء- فيشير به إلى نفاسة جوهرة في أصل الخلقة؛ لأنه أول جوهرًا يدعه الله تعالى كما قال: «أول ما خلق الله روحي»[1].

وأيضًا يشير به إلى نفاسة جوهره في الخلاص عن تعلق الكونين وبلوغه إلى قاب قوسين وعروجه إلى مقام أو أدنى وعلو همته؛ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:16-17] واختصاصه برؤية القدر؛ أي: من آيات ربه الكبرى وتحليته بحليته، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10]، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:128] أي: يشق عليه انقطاعكم عن الله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة:128] في إيصالكم إلى الله تعالى وإنزالكم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128] لتربيتهم في الدين المتين بالرفق، كما قال ﷺ: «هذا الدين متين فأوغلوا فيه بالرفق وبالرحمة يعفو عنهم سيئاتهم»[2]، كما أمره الله تعالى ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة:13].

وفي قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128] في حق نبيه ﷺ، وفي قوله تعالى لنفسه ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:65]، وفيه لطيفة شريفة وهي: أن النبي ﷺ لمَّا كان مخلوقًا كانت رأفته ورحمته مخلوقة فصارت مخصوصة بالمؤمنين لضعف الخلقة، وأن الله تعالى لمَّا كان خالقًا كانت رأفته ورحمته قديمة، فكانت عامة للناس لقوة الخالقية من الناس كان قابلاً للرأفة والرحمة النبوية؛ لأنها كانت من نتائج الرأفة والرحمة الخالقية، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:159].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [التوبة:129] أي: اعرضوا عن قبول نصحك ورأفتك ورحمتك ولم يسعوك في طلب الحق، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ [التوبة:129].

يشير إلى أن تبليغ الرسالة للنبي ﷺ كان موجبًا لقربته إلى الله تعالى وقبوله، فلمَّا بلغ رسالته فقد تم مقصوده من الله تعالى وقربته إن قبلوا منه أو اعرضوا عنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة:129] أي: لا مقصود ولا مطلوب في جميع الأحوال، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:129] أي: هو العظيم الذي يحتاج العرش مع عظمته إلى ربوبيته مع اختصاص العرش باستواء صفة رحمانيته عليه - والله أعلم - إن قبلوا منه أو أعرضوا عنه، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة:129] أي: المقصود ولا مطلوب ولا محبوب ولا معبود لي فيما عملت إلا الله، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة:129] أي: هو كان مقصودي ومطلوبي في جميع الأحوال، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:129] أي: هو العظيم الذي يحتاج العرش مع عظمته إلى ربوبيته مع اختصاص العرش باستواء صفة رحمانيته عليه.

سورة يونس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: 1 - 5].

﴿الـر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [يونس:1] إلى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:2] اعلم أن في قوله: ﴿الر﴾[1] إشارتين: إشارة من الحق للحق وإلى عبده

(1) الألف عين الوحدانية، واللام عين الأزلية، والراء عين الربوبية من عين الوحدانية، تجلّى بالألف لقلوب الموحدين والمنفردين من الحدثان، ليفنوا في سبحات الألوهية، وتجلّى من عين الأزلية باللام لأرواح العارفين لتطيره بأجنحة أنوار القدم في القدم، وتجلّى من عين الربوبية بالراء؛ لأسرار المحبين ليستأنسوا بحسن الصفات، ويشتاقوا إلى مشاهدات الذات، سقى الموحدين رحيق الأنانية بأقداح الألف من بحار الوحدانية، فخرجوا بنعت الاتحاد، وسقى العارفين عقار العشق بأقداح اللام من أنهار الإجلال، فخرجوا بنعت الاتصاف والهيمان، وسقى المحبين عروق الوداد بأقداح الراء من عيون أنوار الربوبية، فخرجوا بنعت الحيرة هائمين. وأيضًا: الألف آلاؤه للصادقين، واللام ألطافه للمقربين، والراء رحمته على التائبين. قال الحسين: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وقد وقع لي إنها يكون في سورة يونس من الغرائب والعجائب والقصص والأمثال جمعها في ثلاثة أحرف في الألف واللام والراء، ونبّه بها قلب نبيه ﷺ، بإشارة الأحرف الثلاثة فكفى له ذلك؛ لأن بينه وبين الله رموزًا وإشارات، لا يطّلع عليها جميع الخلائق، فلذلك يحتاجون إلى نزول سورة كاملة. وأيضًا: خاطبه بأحسن الأسماء مواساة وتربية، أشار بالألف: يا آدم الثاني؛ لأن الألف أول الحروف من آدم، وأشار باللام: يا لطيف، وأشار بالراء: يا رحيم، كما قال: يا ﴿طه﴾ يا ﴿يس﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أي: هذه الأنباء آيات صفاتية الأزلية التي كنت حكيمًا وعالمًا بها في القدم والأزل،

=

المصطفى وحبيبه المجتبى، وإشارة من الحق لنبيه وإليه ﷺ، فالأولى قسم منه تعالى يقول: بآلائي عليك في الأزل وأنت في العدم، وبلطفي معك في الوجود ورحمتي ورأفتي لك من الأزل إلى الأبد، والثانية قسم منه يقول: بأنسك معي حين خلقت روحك أول شيء خلقته، فلم يكن معنا ثالث، وبلبيك الذي أجبتني به في العدم حين دعوتك للخروج منه فخاطبتك، وقلتُ يا سين أي يا سيد قلتَ لبيك وسعديك إشارتين: إشارة من الحق للحق إلى عبده المصطفى وحبيبه المجتبى، وإشارة مني: والخير كله في يديك وبرجوعك منك إلي حين قلت لنفسك: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 28].

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1] إن هذه الآيات المنزلة عليك تلك آيات الكتاب الحكيم الذي وعدتك في الأزل وأورثته لك ولأمتك، وقلت ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عندنا فاختص هذا الكتاب بأن يكون حكيمًا من سائر الكتب؛ أي: حاكمًا يحكم على الكتب كلها بتبديل الشرائع والنسخ ولا يحكم عليه كتاب أبدًا، واختص هذه الأمة بالاصطفاء من بين سائر الأمم وأورثهم هذا الكتاب، ومعنى الوراثة: أن يكون في الباقي هذه الأمة يرثه بعضهم من بعض إلى قيام الساعة، ولا ينسخه كتاب كما نسخ هو جميع الكتب فسماه حكيمًا أيضًا؛ لأنه أودع الله الحكم فيها كلها كقوله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59] أي: ولا رطب من الحِكَم القديمة، ولا يابس من الأحكام المحدثة إلا في القرآن وهو بيان لمن أراد الله برأياتها.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ [يونس: 2] يشير إلى أنهم يتعجبون من إيحائنا إلى محمد ﷺ لأنه كان رجلاً منهم، وفيه رأينا رجوليته قبل الوحي وتبليغ الرسالة من بينهم، ولهذا السر ما أوحي إلى امرأة بالنبوة قط، وفيه إشارة ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي: للناس أيام الله قبل أيام الدنيا عجبًا، ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾

- أيضًا أي: تلك علامات ما ألهمنا روحك في الأزل، فنعرفك بها مكان خطاب الأول، إن القرآن محكم بحكم الأزلية، وحججه البالغة بأمر الربوبية، والدعاء إلى العبودية من فهمه صار حكيمًا بحكمته. وقيل: أي فيه علامات قبول الحكماء لهذا الخطاب.

[يونس:2] أي: الناسي الذي نسي عهدي الذي عهدته إليه، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس:2] أي: كانوا مقربين ذاكرين بذلك العهد ولم ينقضوا عهدي وما نسوا، ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[1] [يونس:2] بأن خاطب محمدًا ﷺ وهو سيد في عالم الأرواح بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [الأحزاب:45] أي: من كتم العدم إلى الوجود شاهد؛ أي: كنت أول من خرج من العدم إلى الوجود شاهد كلي يخرج من العدم إلى الوجود، فتعرف المقبولين من المردودين ومبشرًا للمقبولين بأنَّ لهم قدم صدق من العناية الأزلية عند ربهم في الأزل ونذيرًا للمردودين، وإن كان ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:10] وداعيًا إلى الله بإذنه.

وهذه الدعوى إلى الله تعالى مخصوص بها إليه ﷺ وأمته، وهذه من حملة القدم الصادقة لهذه الأمة عند ربهم ﴿وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ [الأحزاب:46] أي: ليهتدوا بك إلى الله؛ المعنى: إن محمدًا ﷺ كان مخاطبًا بالنبوة في عالم الأرواح؛ ولهذا قال: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»[2]، والتبشير والإنذار والدعوة والأرواح كانت مستمعة بخطاب الحق، كما سمعوا خطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، والآن في عالم الصورة من كامن المؤمنين المقبولين لا يتعجب من تجديد ذلك الخطاب مع النبي ﷺ؛ لأن روحه من الذاكرين المقربين لا من الناسين المنكرين؛ ولكن من كان من الكافرين المردودين، فقد نسي روحه ذلك العهد فلا بدَّ له من التعجب والإنكار.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس:2] المسحورون فقد سحرهم سحرة صفات فرعون النفس، فجعلوهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171].

ثم أمر عن الانتفاع بربوبيته مودعًا في عبوديته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي

---

(1) أي أعمالاً حقة ثابتة قدموها لأنفسهم صدقوا فيها وأخلصوا فيما يسّروا له لأنهم خلقوا له، وكان مما يسعى إليه بالأقدام، وزاد في البشارة بقوله: (عِنْدَ رَبِّهِمْ) ففي إضافة القدم تنبيه على أنه يجب أن يخلص له الطاعة كإخلاص الصدق من شوائب الكذب، وفي التعبير بصفة الإحسان إشارة إلى المضاعفة. انظر: نظم الدرر (4/ 42).

(2) ذكره حقي في تفسيره (15/ 126).

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [يونس:3] الآيتين: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي﴾ أي: مربيكم ومدبر أموركم الذي ﴿خلق السماوات والأرض﴾ في عالم الصورة وهو العالم الأكبر، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من الأنواع الست وهي: الأفلاك والكواكب والعناصر والحيوان والنبات والجماد.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس:3] والعرش جسماني روحاني ذو جهتين: جهة منه تلي العالم الروحاني، وجهة منه تلي العالم الجسماني ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس:3] لفيضان فيض الرحمانية على العرش، فإنه أول قابض لفيض الرحمانية، وهذا أحد تفاسير ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5]، ثم من العرش ينقسم الفيض، فإنه مقسم الفيض فيجري في مجاري جعلها الله من العرش إلى ما دونه من المكونات، وأنواع المخلوقات فبذلك الفيض تدور الأفلاك كما تدور الرحى بالماء، به تؤثر الكواكب، وبه تولد العناصر وتظهر خواصه، وبه يتولد الحيوان ذا حس وحركة، وبه ينبت النبات ذا حركة بلا حس، وبه تغير المعادن بلا حس ولا حركة، وفيه إشارة أخرى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي﴾ يربيكم هو الذي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ سماوات أرواحكم ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أرض نفوسكم في عالم المعنى، وهو العالم الأصغر ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: من ستة أنواع وهي الروح والقلب والعقل والنفس التي هي الروح الحيوانية والنفس النباتية التي هي النامية وخواص المعادن، وهي في الإنسان قوة قابلة لتغير الأحوال والأوصاف والألوان.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ على عرش القلب ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أمر السعادة والشقاوة ويهيئ أسبابها من الأخلاق والأحوال والأعمال والأفعال والأقوال والحركات والسكنات، وإلى هذا يشير قوله: «قلوب العباد بيدي الله يقلبها كيف يشاء»[1].

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس:3] يُشير إلى أن الله تعالى خلق العالمين الأكبر والأصغر على قوانين حكمته البالغة، وهو الذي يعلم صلاح العالمين وفسادهما يدبر فيهما كما قدر في الأزل، فلا مساغ لأحد أن يرى فيهما مصلحة دون ما رآه الله، فيشفع

---

(1) تقدم تخريجه.

الله تعالى في تبديل شيء مما قدر ودبر، فإنه ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم:30] وبالأخذ شمول نظر أن يرى ما يرى الله تعالى في مصلحة تدبير العالمين ولا مصلحة نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:51] إلا من بعد أن يأذن الله تعالى، يأذن له في الشفاعة فيما اقتضت الحكمة الأزلية تبديله بواسطة شفاعته، ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ [يونس:3] أي: هو ربكم الذي قال لكم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يوم الميثاق، قلتم: ﴿بَلَى﴾ وعهد إليكم ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:60]، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس:3] أي: فاعبدوه ووحدوه ولا تعبدوا غيره كما عهد إليكم، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:3] أي: أفلا تذكرون ذلك العهد والميثاق الذي جرى بيننا، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:4] أي: جرى الميثاق على أن يكون رجوع القبول والمردود إلى حضرته:

فأمَّا المقبول: فرجوعه إليه بجذبات العناية التي صورتها خطاب: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28].

وحقيقتها: انجذاب القلب إلى الله نقاء.

ونتيجتها: غروب النفس عن الدنيا، واستواء الذهب والدر عندها، وانزعاج القلب عمَّا سوى الله تعالى، واستغراق الروح في بحر الشوق والمحبة، والتبرؤ عمَّا سوى الله، وهيمان السر وحيرته في شهود الحق ورجوعه عن الخلق.

وأمَّا المردود: فرجوعه بغير اختياره مغلولاً بالسلاسل والأغلال يسحبون في النار على وجوههم وهي صورة صفة قهر الله، ومن نتائج قهر الله تعلقاته بالدنيا وما فيها، واستيلاء صفات النفس عليه من الحرص والبخل والأمل والكبر والغضب والشهوة والحسد والحقد والعداوة والشره، فإن كل واحدة منها حلقة تلك السلاسل وغل من الأغلال يسحبون إلى النار.

﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ [يونس:4] أي: وعده بالرجوع إليه لجميع الخلائق حق وصدق، ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس:4] يشير إلى أن الله تعالى إنما خلق الخلق ابتداء، وأجرى عليه الأعمال والأحوال في الدنيا من الخير؛ ليعيدهم في الآخرة بعد إفنائهم، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وليحصدوا فيها ما زرعوه في الدنيا، فمن زرع الخير يحصد السلامة،

ومن زرع الشر يحصد الندامة.

كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة:7] وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:4] أي: بالميزان والعدل والحساب فجر الإيمان بقسط الإيمان؛ أي: بوزنه وحسب كماله ونقصانه، وجزاء العمل ببسط صدق العبد وإخلاصه وقلة العمل وكثرته، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [يونس:4] أي: أعرضوا عن الحق وطلبه والإيمان ومتابعة سنة رسول الله ﷺ ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:4] أي: بجزاء ما كانوا يكفرون، وأيضًا بقدر ما كانوا يكفرون بنعم الله، ويصرفون في مخالفته وموافقة النفس والهوى.

ثم أخبر عن قدرته الكاملة ونعمه الشاملة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ [يونس:5] إلى قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:10].

إشارة فيها أن الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ أي: جعل الروح ضياء يستنير به قمر القلب، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:5] فاعلم أن الله تعالى خلق الروح نورانيًا له ضياء كالشمس، وخلق القلب صافيًا كالقمر قابلاً للنور والظلمة، وخلق النفس ظلمانية كالأرض، فمها وقع قمر القلب في مواجهة شمس الروح يتنور بضيائها، ومهما وقع في مقابلة أرض النفس ينعكس فيها ظلمتها، وسمي القلب قلبًا لمعنيين: أحدهما: إنه خلق بين الروح والنفس فهو قلبهما. والثاني: كقلب أحواله تارة يكون نورانيًا؛ لقبول فيض الروح، وتارة يكون ظلمانيًا؛ لقبول ظلمة النفس، وفيه إشارة أخرى وهي: أن الشمس على صفات الربوبية ضياء يتنور به قمر القلب فيكون على نور من ربه.

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس:5] أي: لذلك النور في القلب مراتب إن كان من ضياء شمس الروح فله مراتب الأخلاق الرحمانية، وإن كان من ضياء شمس تجلي صفات الربوبية فله منازل العبودية من الزهد والتوكل واليقين والصدق والإخلاص، ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[1] [يونس:5] أي: عدد سنين المقامات وحسنات الكشوف

(1) أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي والساعات لصلاح معاشكم ودينكم من فرض الحج والصوم والفطر والصلاة وغيرها من الفروض، تفسير حقي (5/ 229).

والمشاهدات، فإن مراتب أنواع المقامات بحسب الكشوف والمشاهدات للإسلام نور ينشرح به صدر المسلم، وللإيمان نور يتنور به قلب المؤمن، وللإحسان نور يتنور به سر المحسن للكشوف وهو الولي، وللنبوة نور يتجلى به روح النبي ﷺ، وللرسالة نور يتجوهر به ذات الرسول، وهذه الأنوار كلها من صفات الله تعالى فكل يشاهد بحسب نوره من هذه الأنواع، ويكاشف له الحقائق والأسرار.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40]، ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35]، ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:5] أي: ما خلق هذه المراتب والدرجات والمقامات في الظاهر والباطن إلا لتبين الحق وإظهار الحقيقة، كما قال الله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53].

﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ [يونس:5] أي: يبينها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:5] يفهمون إشاراتنا.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: 6 -10].

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(1) [يونس:6] ليل صفات البشرية ونهار صفات الروحانية، ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:6] سماوات الروحانية وأرض البشرية من الأوصاف الأخلاق، وتبدل بعضها ببعض واستيلاء بعضها على بعض،

(1) قال البقلي: جعل الليل مأوى أنس العارفين، وجعل النهار مواضع نزهة الصديقين، أظهر في لباس الليل أنوار العظمة، وأبرز من مرآة النهار أنوار مشاهدة الجمال والجلال، وجميع ما خلق من العرش إلى الثرى مرائي لطغيانه، تبرز منها لأهل الهيبة والوجل أنوار صفاته، ليله قبض قلوب العارفين، ونهاره بسط فؤاد المحبين، وما بينهما بين سماء الأرواح وأرض القلوب أشكال الأحوال من المكاشفات، ولا يراها إلا المتقي عما دونه من الحدثان. قال الأستاذ: النهار وقت حضور أهل الغفلة في أوطان كسبهم، والليل وقت أرباب الوصلة بانفرادهم شهود ربهم.

﴿لَآيَاتٍ﴾ [يونس:6] دالة على المعرفة بالتوحيد، ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:6] يحذرون عن الأخلاق الذميمة وتبدلها بالأخلاق الحميدة على قانون معالجة الشريعة والطريقة بالأمر لا بالطبع، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس:7] أي: لا يعتقدون السير إلينا والوصول بنا لدناءة همتهم وخسة نفسهم وقعود نظرهم ما طلبونا ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس:7] التمتعات الدنيوية والنفسانية الحيوانية.

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس:7] ركنوا إلى مالها وجاهها وشهواتها، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:7] وإن لم يركنوا إلى الدنيا وتمتعاتها وكانوا أصحاب الرياضات والمجاهدات من أهل الأديان والملل والبراهمة والفلاسفة والإباحية، ولكن كانوا معرضين عن متابعة النبي ﷺ وكانوا من أهل الأهواء والبدع.

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [يونس:8] نار البعد والطرد والحسرة، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:8] بأعمالهم الردية وأخلاقهم الدنية، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس:9] أي: اعتقدوا طلبنا والوصول إلينا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [يونس:9] أي: العمل الذي يصلح أن يسلكوا به سبيلنا، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:9] أي: بصدق اعتقادهم في الطلب، ووفور إخلاصهم في السير يهديهم ربهم إلى حضرة ربوبيته على طريق جنات القلب، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [يونس:9] أنهار الحكمة ومياه المعرفة.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس:9] نعيم ملاطفات الحق ومشاهداته، ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾(1) [يونس:10] أي: دعاؤهم تنزيه تلك الحضرة عن دنس إدراكات العقول إياها ولوث وصول أهل الطبيعة إليها لما عاينوها وشاهدوها.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا

(1) قال روزبهان: لو ألهموا حمد الحق في أوائل الأنفاس لسقطت عنهم الدعاوى، لكنهم لم يزالوا يركضون في ميادين الجهل إلى أن فتح لهم طريق الحمد، فلما فتح لهم طريق الحمد سقطت عنهم الدعاوى، فرجعوا إلى رؤية المنة، فكانت آخر دعواهم أن قالوا: الحمد لله رب العالمين فرضوا الكل به، ورجعوا بالكلية، فأنطقهم لما أنطقهم به من المنطق المحمود.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: 11 - 14].

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس:11] أي: تحيتهم في الله سلامة بقائهم ببقائه، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:11] يُشير إلى نيل مقاصدهم وكمال مراتبهم وإتمام النعمة عليهم، فالحمد والشكر والثناء على النعم يكون وُرْدَ وقتهم، ولسان حالهم.

ثم أخبر عن كرمه بالبر مع أهل الشريعة بقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس:11] إلى قوله: ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:14].

اعلم أن في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ إشارة إلى أن الشر من نتائج أخلاق الناس وأوصافهم الذميمة النفسانية ليس له مدد من الله ليظهر أثره فيهم عاجلاً، بل يكلهم الله إلى أنفسهم والصفات المجبولة عليها، والخير كله من نتائج نظر العناية الربانية يستمده من بحر الفضل والكرم، فيظهر أثره فيهم آجلاً وهو سر قوله تعالى: «سبقت رحمتي على غضبي»[1]، ولو كان السبق للغضب والقهر؛ لقضى إليهم أجلهم بهلاك الصورة، والمعنى يدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس:11] أي: الذين لا يشتاقون إلى لقائنا فيسلكون طريق وصولنا على أقدام الخيرات، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس:11] المعنى: فنذرهم بالخذلان إلى طغيان نفوسهم الأمارة بالسوء، متحيزين في دينه ضلالة النفوس؛ ليزدادوا شرًا مع شرهم، فيظهر أثره فيهم بالتدريج آجلاً.

---

(1) تقدم تخريجه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾[1] [يونس: 12] أشار إلى خاصية نفس الإنسان أنها لا ترجع إلى الله طبعًا إلا في مقام الحاجة الضرورية بالاضطرار في أية حالة يكون من حالاتها، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ [يونس: 12] أي: إذا استجبنا دعاءها وقضينا حاجتها، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: 12] عاد المشئوم إلى طبعه، فرجعت قهقري إلى خاصية أنانيتها وهي نسيان حضرتنا وكفران نعمتنا، إن الإنسان لظلومٌ كفار، ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: 12] أي: للمقصرين في محبتنا وطلبنا والمجاوزين عن حد محبة غيرنا وطلب ما سوانا، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12] من الإسراف في تركنا وطلب غيرنا.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: 13] أي: أوضعوا محبتنا وطلب لقائنا في غير موضعها من الدنيا والآخرة وما فيهما، ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [يونس: 13] بالحجج القاطعة قالاً وحالاً؛ ليدلوهم بها إلى محبتنا وطلبنا، ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [يونس: 13] بتلك الحجج؛ ليهتدوا إلينا بنور الإيمان إذ وكلناهم إلى أنفسهم بالخذلان، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: 13] فكلهم إلى أنفسهم بشؤم جرائمهم فهلكهم كما هلكنا القرون الماضية في متابعة أهوائهم واستغراقهم في طلب شهواتهم، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ [يونس: 14] يا أمة محمد ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾[2]

(1) قال البقلي: إن الله تعالى وصف المتحيرين بين القضاء والقدر والإرادة والمشيئة، فإذا أظلم عليهم سجف ليالي البليات، وأذهب عنهم مباشرة القهر أثر الراحات، حرك يد اللطف الأزلي سلاسل عقود قلوبهم إلى إقبال الحضرة، وأضاء تنفس صباح لوائح الغيب في أسرارهم، فصرفهم بنعت الاضطرار إلى باب الربوبية، فرأوا هنالك أعلام قهر الجبروت، وخرجت عقولهم من مكمن جنس الامتحان، وحثهم إلى التضرع في ميادين السلطنة، فخلصوا من ورطة الامتحان بدعائهم على باب الرحمن، فما سكنوا عن تواتر البلاء، فاشتهت عقولهم بقاءهم في الاستقامة، فتصول عليهم عساكر القصريات، وأغرقتهم في بحار الشهوات، وأعمتهم أنظار المشاهدات، ويفعلون قبائح الأعمال، وينسون عهود الأفضال، وأيام النوال.

(2) خلفاء الأرض نواب الأنبياء وورثة الرسل، وهم أهل الاستقامة والتمكين والجمعية، الذين يخاطبهم الله في كل نفس بلسان الولاية، ويورثهم خطابه الآداب السنية، والأعمال الزكية والأخلاق الكريمة،

[يونس:14] أي: من إهلاككم به يشير إلى أن هذه الأمة اختصاصًا باستحقاق الخلافة الحقيقية التي أودعها في آدم ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] ولهذا السر ما كان في أمة من الأمم من الخلفاء ما كان في هذه الأمة بالصورة والمعنى، ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:14] في خلافتنا، ثم اعلم أن المخالفة صورة ومعنى كما أن صورة الخلافة مبنية على الحكم بين الرغبة بالعدل والسوية وقانون الشرع والاجتناب من متابعة الهوى والطبع، كذلك معنى الخلافة مبينة على الحكم بين الرغبة المعنوية وهي: الجوارح والأعضاء والقلب والروح والسر والنفس وصفاتها وأخلاقها والحواس الخمسة والقوى النفسانية والخلق كما كان سيرة الأنبياء - عليهم السلام - وخواص الأولياء في طلب الحق ومجانبة الباطل، وترك ما سوى الله للوصول إلى الله، وسيأتي شرحها في موضعه إن شاء الله.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿15﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿16﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿17﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿18﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ

والأسوة الحسنة، ثم يورثهم هذه الأحكام بالأنس بالذكر، والخوض في الفكر، والسير بالقلوب في أنوار الغيوب، والطيران بالأرواح في عالم الأفراح، وإيواء الأسرار إلى سرادق المجد، فيرون بعد ذلك في حضرة القدس مجالس الأنس، ويشربون من بحار محبته، ويشتاقون إلى لقائه، ويعشقون بوجهه، ويرونه لظهور الصفات وكشوف الذات كفاحًا، ويسمعون منه تعالى كلامًا صرفًا، فيرجعون بعد ذلك إلى دعوة الخلق إلى الله بألسنة الموعظة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله عليهم.

قال بعضهم: لم يزل الأنبياء لهم خلفاء، والأولياء لهم خلفاء، أبدلهم الله مكانهم؛ ليروا السابقين سنتهم، ويمسكوا على طريقتهم. [العرائس].

﴿رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٩﴾ [يونس: 15 -19].

ثم أخبر عن حال من خالف الخلافة وحال وافقها بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [يونس:15] إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:18]، ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: على ذوي النفس المتمردة، ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: القرآن المبين بحقائق الأشياء.

﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس:15] أي: أرباب النفوس الذين ما فيهم الشوق إلى لقاء الحق؛ لأن تشوق النفس وشوقها وهواها إلى الدنيا وزخارفها، وإن شوق الحق والصدق في طلبه من نشأة القلب وقلوب أرباب النفوس ميتة ونفوسهم حية، فلمّا كان في القرآن ما يوافق القلوب ويخالف النفوس ما قبلوه أرباب النفوس، وقالوا: يا محمد ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ [يونس:15] أي: بقرآن يوافق طباعنا وفيه ما يهوى به أنفسنا، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:15] أنت كما بدلوا من اليهود والنصارى والتوراة والإنجيل أحبارهم ورهبانهم بما كانوا موافقًا لهواهم فضلوا وأضلوا كثيرًا، ﴿قُلْ﴾ [يونس:15] يا محمد.

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس:15] أي: ليس اتباع أرباب النفوس، ولا اتباع هوى نفسي إلا اتباع الوحي فيما أمر به أو نهى عنه، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ [يونس:15] أي: إن خالفته لهوى غيره، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:15] أي: عذاب يوم تجزي فيه عظام الأمور، وهي فريق في الجنة، وفريق في السعير، فلفريق سعادة القرب والمواصلة وهي أجر عظيم، ولفريق شقاوة اليد والمفارقة وهي عذاب عظيم. ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ [يونس:16] أي: القرآن لأني أمي وليست التلاوة والقراءة من شأني كما كان حالي مع جبريل ﷺ أول ما نزل فقال لي: «اقرأ، قلت: لست بقارئ، فغطني جبريل ﷺ ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:1] فقرأته لما جعلني قارئًا ولو شاء الله ألا أقرأه ما كنت قادرًا على قراءته عليكم»[1]، ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ [يونس:16]، وما كنت أعلمك بالقرآن ولا أعلمك.

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (5/ 239).

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ [يونس:16] أي: من قبل نزول القرآن وما كنت تاليًا للقرآن، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:16] لكي تتفكروا وتدركوا بنظر العقل المميز الحق من الباطل والهدى من الضلال، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [يونس:17] في دعوى النبوة والرسالة ونزول القرآن، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [يونس:17] يعني: أو من كذب بالقرآن وبمن أنزل عليه، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:17] أي: لا يتخلص الكذابون والمكذبون من فيه الكفر وحجب الهوى وعذاب البعد وحجبهم النفس، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [يونس:18] أي: ويعبد المكذبون مع كفرهم وتكذيبهم بالأنبياء.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ [يونس:18] أي: لا يعبدوا، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس:18] إذ يعبدوه، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:18] لا ينحتون في الخشب والحجارة ويجعلون شريكًا لله في العبادة، ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس:18] شريكًا لنفسه لا شفيعًا بغير إذنه، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [يونس:18] ممن في السماوات من الملائكة والنجوم، ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:18] أي: ولا ممن في الأرض من الأنبياء والمرسلين والأولياء والمؤمنين.

كما قال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:255]، ثم نزّه نفسه عما أضافوه إليه، فقاله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:18] أي: عما أثبتوا له شريكًا في العبادة وشفيعًا في الشفاعة فأخر عن أخلاقه الناس بعد الائتلاف بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [يونس:19] الآيتين: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: في بدء الخلقة وأصل الفطرة التي فطر الناس عليها في عالم الأرواح، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] أي: أرواح الإنسان قبل تعلقها بالقالب، فلما تعلقت به قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5].

﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس:19] أي: استماع خطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] إذ الأرواح كانت جنودًا مجندةً في صفوف مختلفة فاستمع كل طائفة على حسب حالها في القرب والبعد من تلك الصفوف، ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ عند جواب: ﴿بَلَى﴾ لأن جواب كل

طائفة بحسب استماعه الخطاب، ثم بعد الولادة اختلفوا بحسب تربية الوالدين كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجسانه»(1)، ثم اختلفوا بعد البلوغ بحسب المعاملات الطبيعية والشرعية.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ [يونس:19] أي: حكم قدره الله تعالى بأن لا يجازي عباده عن كل اختلاف حتى يبلغهم بتغير الأحوال واختلافهم إلى السعادة المقدرة لهم وإلى الشقاوة المقدرة لهم، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:19] بالهلاك والعذاب مجازاة لهم، ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:19] من كفران النعم فإنكار النبوة ورد الشريعة واتباع الهوى بالطبيعة.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: 20 - 23].

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس:20] أي: هلا أنزل على محمد ﷺ معجزة ظاهرة نشاهدها، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس:20] يشير إلى معنيين:

أحدهما: إن الغيب هو عالم الملكوت الذي يتنزل منه الآيات، ويتظهر منه للمعجزات بإنزال الله تعالى وإظهاره فهو لله وبحكمه ينزل الآيات منه متى شاء كما شاء، ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ [يونس:20] فإنه ينزلها، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس:20] أي: لينزلها.

والثاني: إن الغيب هو عالم الغيب فهو الله وهو الذي قدر الأشياء بحكمته ومشيئته، فإن اقتضت الحكمة والمشيئة الأزلية بإنزال آية من آياته وأوصاف ملتمسكم فإنه سينزل ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لإنزالها.

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ [يونس:21] أي: أذقناهم دون توبة وإنابة، أو صدق طلب الوصول إلى بعض المقامات، أو ذوق كشف وشهود من بعد ضر، ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ [يونس:21] وهو الفسق والفجور والأخلاق وحجب الأوصاف البشرية وصفات الروحانية، ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ [يونس:21] بإظهارها مع غير أهلها بشرف النفس وطلب الجاه والقبول عند الخلق واستتباعهم والرئاسة عليهم وجذب المنافع منهم، ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس:21] في إيصال مجازاة مكرهم إليهم باستدراجهم عن تلك المقامات والكرامات إلى دركات البعد وتراكم الحجب من حيث لا يعلمون، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:21] أي: غير خافٍ علينا قدر مراتب مكرهم فيجازيهم على حسب ما تمكرون.

ثم أخبر عن حال الخلق ومالهم بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس:22] الآيتين: هو الذين يسيركم في بر البشرية وبحر الروحانية، وأيضًا في بر العبودية وبحر الربوبية، ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ [يونس:22] جذبات العناية، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:22] بهبوب نسيمات رياح شهود الجمال، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس:22] فرح الوصول.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس:22] أي: ثم هبت نكبًا تجلي صفات الجلال، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ [يونس:22] البلايا والمحن عند التلاطم والتراكم، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:22] من أماكن النعم ومكان النقم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس:22]؛ أي: تحقق لهم أنهم وقفوا في ورطة الهلاك بالنعم والنقم، ﴿دَعَوُا اللهَ﴾ أي: رجعوا إليه وما التفتوا إلى النعم استغراقًا بالنقم، وما وهنوا لما أصابهم من النقم في طلب المنتقم وكان دعاؤهم بالله لله.

﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس:22] بالتبرؤ عما سواه، والتولي إلى مولاهم فقالوا: مخلصين عن الوجود معتصمين بالجود، ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ [يونس:22] من هذه البلايا والمحن والركون إليها، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:22] لنعمة وجدان وجود النعم بالنقم، ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ [يونس:23] من البلايا والمحن بالمعبود عن نعمها

والصبر على نقمها، ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:23] لما وصلوا بجذبات الحق إلى شهود الجمال، واستغراق لحجج بحر الجلال تداركتهم عواطف العزة والكبرياء ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:182] ومن استدراجهم أنهم يبغون ويطلبون في الأرض ما سوى الحق غير الحق؛ يعني: أرأيت طالب الحق طالباً لغير الحق؟ فاعلم أنه من المستدرجين والممكورين.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [يونس:23] أي: الناسي من تلك المقامات والكرامات، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ [يونس:23] طلبكم غير الحق يضر بأنفسكم بحرمانكم عن الله باشتغالكم بغير الله، ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما طلبتم بدلاً عن الله هو متاع الحياة الدنيا الفانية، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس:23] إن كنتم أهل العناية بالاختيار، وإن كنتم أهل الغواية بالاضطرار، ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ [يونس:23] بالمجازاة والمكافأة لطفًا أو عنفًا، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:23] أي: ينفع ما كنتم تعملون عند الرجوع بالصدق إلينا، أو بضر ما كنتم تعملون بالركون والسلوك إلى غيرنا بأقوال أهل الإشارة في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قال: المخلص في دعائه هو من لا يصحبه في نفسه سوى رؤية من يدعوه.

قال الجنيد: الإخلاص ما يؤيده الله بأي عمل كان.

قال رويم: الإخلاص ارتفاع رؤيتك من الفعل، قال ابن معاذ: الإخلاص ألّا تلون النفس فيحفظ، قال الشيخ: هذه أموالهم ﷺ وهذا كله عندي إخلاص العوام والخواص، فأمّا إخلاص أخص الخواص فمعاملات يجزيها الله بهوية الربوبية بعد فناء أنانيته العبودية، والخلاص بجوده غير جنس وجوده.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: 24 – 27].

ثم أخبر عن حال الدنيا وحال أهلها بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [يونس:24] قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مثل ضربه الله تعالى للحياة الدنيوية الفانية بماء هو الفيض الروحاني أنزل من سماء القلب إلى الأرض البشرية، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ [يونس:24] بذلك الفيض، ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ [يونس:24] أي: الصفات المتولدة من أرض البشرية، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ [يونس:24] أي: مما ينفع الناس من الأخلاق الحميدة الإنسانية، ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ [يونس:24] أي: الصفات الذميمة البهيمية والسبعية التي يصير البشر بها كالأنعام بل هم أضل، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ﴾ [يونس:24] أرض النفس.

﴿زُخْرُفَهَا﴾ [يونس:24] أي: زينتها من تلك الأخلاق والوقائع والكشوف الروحانية والشواهد القلبية، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس:24] أي: تزينت النفس بها، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ [يونس:24] أي: أصحاب النفس، ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ [يونس:24] أي: مالكون لها؛ يعني: يحسبون ويغيرون إن تلك الأحوال والوقائع صارت لهم مقامًا، ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ [يونس:24] حكمنا الأزلية، ﴿لَيْلًا﴾ [يونس:24] أي: عند استيلاء ظلمات النفس وغلباتها.

﴿أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:24] يعني: أو عند بقاء ضوء الفيض الروحاني، ولكنه بامتزاج القوة الخيالية والوهمية به وقع في ورطة اعتقاد سبق كالفلاسفة والطبائعية والحلولية والإباحية.

﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ [يونس:24] أي: جعلنا تلك الكشوف والأحوال الدالة على القبول مقلوعة مستأصلة، ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس:24] أي: كأن لم تكن النفس بها زينة فيما مضى، ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [يونس:24] أي: كما شرحنا في هذا المثال الأحوال الدنيا، وظهور زخارفها، وغرور أهلها بها، وفساد حالها في عاقبة أمرها، كذلك نبين دلالة الطريق إلى الله، ونشرح إشارات الفترات والآفات في طريق السائرين إلى الله، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:24] في عزة هذا الشأن وعظم ثناؤه وصعوبة قطع مفاوزه

وشدة اقتحام عقباته بلا دليل مرشد وهادٍ مطيب، ثم يتمسكون بأذيال المشايخ الكبار، أو يتشبتون بهممهم العليا؛ لينجوا بهم عن هذه المهالك ويسلكوا هذه المسالك.

ثم أخبر عن المفكر السالك والمتكبر الهالك بقوله تعالى: ﴿واللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس:25] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:27] ﴿واللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ يدعو أزلاً وأبدًا عباده إلى دار السلام وهي العدم صورة وظاهرًا، وعلم الله وصفته؛ يعني: وحقيقته.

وإنما سمي العدم والعلم دار السلام؛ لأن العدم كان دارًا قد سلم المعدوم فيها من آفة الحجب الروحانية والجسمانية والعلم دار قد سلم المعلوم فيها من آفة الإثنينية والشركة في الوجود وهي دار الوحدانية؛ وأيضًا لأن السلام هو الله تعالى، والعلم صفته القائمة بذاته فالله تعالى بفضله وكرمه يدعو عباده أزلاً من العدم إلى الوجود ومن العلم وهو الصفة إلى الفعل وهو الخلق ويدعوهم أبدًا من الوجود إلى العدم، ومن الفعل إلى العلم فدعاهم من العلم إلى الوجود بالنفخة، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29].

ودعاهم من الوجود إلى العدم، والعلم بالجذبة وهي قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، ولما دعا النبي ﷺ بالجذبة إلى علم الله الأزلي الأبدي، قال: قد علمت ما كان وسيكون؛ وذلك لأنه صار عالمًا بعلم الله لا بعلم نفسه وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:113] وإنما علمه ذلك العلم حين قال له: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد:19] أي: فاعلم بعلم الله الذي دعيت بالجذبة إليه لا إله في الوجود إلا الله، فإن العلم الإلهي محيط بالوجود كله كما قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:12] فأنت بعلمه محيط بالوجود كله، فتعلم حقيقة أن ليس في الوجود إله غير الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:25] فلمَّا جعل الله دعوة الخلق من العلم إلى العمل، ومن الوجود إلى العدم، والعلم عامة جعل الهداية بالمشيئة إلى الأزل، والعلم وهو الصراط المستقيم خاصة يعني: هو يهديهم بالجذبة الكاملة إلى علم القديم بمشيئة الأزلية خاصة، وهذا مقام السير في الله بالله.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] أي: للذين عاملوا الله على مشاهدة، فإن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ﴿الْحُسْنَى﴾ وهي شواهد الحق والنظر إليه وزيادة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي ما زاد على النظر بالوصول إلى العلم الأزلي مجذوبًا من أنانيته إلى هويته وإفناء الناسوتية في اللاهوتية، ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ [يونس:26] لا يصيبهم غبار الحجاب.

﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس:26] أي: ولا ذلة وجود يقتضي الاثنينية، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [يونس:26] جنة السير في الله، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:26] دائمون في السير بجذبات العناية، ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [يونس:27] أي: اكتسبوا بأعمالهم السوء في طلب الدنيا وشهواتها ولذاتها، وارتكاب ما حرم الله عليهم ونهاهم عنه، وترك ما أمرهم الله به من الفرائض والانقطاع في طريق الله، والقعود عن الصراط المستقيم الذي هو إلى علم الله.

﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس:27] أي: جزاؤهم الخذلان والإهمال في تلك الورطة؛ ليهلكوا عن بينة اكتسابهم بالتوحيد إلى الدنيا، وإعراضهم عن المولى، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس:27] البعد والحجاب والطرد عن الباب، ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس:27] أي: جاذب يمنعهم عن الخوف في الدركات، ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس:27] إذ توجهوا إلى السفليات، وفي ظلمانيات صفات الحيوانية والسبعية والشيطانية ظلمات بعضها فوق بعض، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:27] معذبون بدوام البعد وذل الحجاب.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾ [يونس: 28 - 33].

ثم أخبر عن حشر جميعهم ونشر صنيعهم بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:28] إلى قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:30]، ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اجتماع أرواح الإنسان وحقائق الأشياء التي تعبدونها من دون الله مثل الدنيا والهوى والأصنام، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ [يونس:28] أي: تخاطب أرواح المشركين بأن قفوا مكانكم أي: المكان الذي اخترتم بالجهل بعد إذ كنتم علويي المكان.

﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ [يونس:28] أي: انزلوا أنتم وشركاؤكم إلى المكان السفلي وهو مكان شركائكم إذ تعلقتم بهم، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:28] أي: فرقنا بين المشركين وشركائهم بأن نعذب المشركين بعذاب البعد والطرد عن الحضرة وألم المفارقة وحسرة إبطال استعداد المواصلة ولا نعذب الشركاء بهذه العقوبات لعدم استعدادهم في قبول كمال القرب ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس:28] بل كنتم تعبدون هواكم لأنه ما عبد في الأرض إله ابغض إلا بالهوى فلهذا قال ﷺ: **«ما عبد في الأرض إله أبغض على الله من الهوى»**[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23]، ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [يونس:29]، فيما شاهد ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:29] أي: كنا في غفلة عن ذوق عبادتكم إيانا وحفظها ومشربها؛ بل كان الحظ والمشرب والذوق لهواكم في استيفاء اللذات والشهوات والتمتعات الدنيوية والأخروية عند عبادتنا بلا شعور منا بخلاف عبادة الله، فإن في عبادة الله رضاه وشعوره بها ومنه المدد والتوفيق وعليه الجزاء والثواب، ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:30] أي: في ذلك الحال تبتلي كل نفس ما قدمت من التعلقات بالأشياء والتمسكات بها، ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [يونس:30] في الحكم والقرب والبعد واللذة والألم ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس:30] أي: متوليهم في ذلك هو الله أي: في إذاقة اللذات من القرب والألم من البعد لا غيره من الشركاء، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:30] أن للشركاء أثرًا في القربة والشفاعة.

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (2/ 451).

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 31 -32].

ثم أخبر عن مولاهم ليكون به تولاهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:31] إلى قوله: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:32]، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي: من ينزل من سماء النفس مطر الهواجس، ويخرج من أرض القلب نبات الأفعال والأعمال، وأيضًا من سماء القلب مطر آثار فيض الروح، ويخرج من أرض القلب عيان صفات البشرية الحيوانية، ومن سماء الروح مطر فيض الروح، ويخرج من أرض القلب نبات الأوصاف الحميدة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 59 -61].

قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ يشير إلى رزق القلوب والأرواح فضلاً عن رزق النفوس والأشباح من الواردات الروحانية والشواهد الربانية التي ترد على القلوب الصافية المتوجهة إلى الحضرة وتشاهد الأرواح الزكية من مشاهد العزة ومواهب الحكمة.

﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا﴾ [يونس:59] أي: على أنفسكم لخيانة أنفسكم وركاكة عقولكم ودناءة همتكم، ﴿وَحَلاَلاً﴾ [يونس:59] على أرباب القلوب النقية وأصحاب الهمم العلية أي: حديث أنفسكم بأن تحصيل هذه السعادة ونيل هذه الكرامات ليس من شأنها، وإنما هو من شأن الأخيار والكبراء وخواص الأولياء والأنبياء.

﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس:59] أن تعرضوا عن هذه المقامات العلية والأحوال السنية وتحيلوها إلى غيركم وتركنوا إلى الدنيا وزخارفها، ﴿أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 59] بأنه تعالى اختص قومًا بالدعوة إلى هذه الدرجات الرفيعة دوننا، بل عمت دعوته لقوله: ﴿واللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس:25]، وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ [إبراهيم:10].

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [يونس:60] أي: وما ظن أهل الافتراء عند كشف الغطاء عن درجات أرباب الولاء ودركات عبدة الأهوال لا يتبدلون بعذاب الحرمان وسوء عاقبة أهل الخذلان، ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [يونس:60] بمساواة الاستعداد في قبول الفيض، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: 60] بأن يصرفوا استعدادهم في تعرض نفحات الألطاف التي هي دائمة الهبوب من منهات العناية وعلمه تعالى.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ [يونس:61] أي: يا محمد، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ﴾ التي هي مختصة بك، ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ﴾ أي: من شأن النبوة، ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ [يونس: 61] تقرأه عليهم، ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:61] يا أمة محمد، ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس:61] أي: من أعمال الأمة ومن قبول القرآن ورده.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس:61] أي: شاهدًا على أعمالكم، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:61] أي: تسرعون فيه بنياتكم في القبول والرد والعمل به، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ [يونس:61] ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه وقرأ الكسائي بكسر الزاي هنا، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:61] عمّا ظهر من حركة أرض البشرية بعمل من أعمال الخير والشر، ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس:61] أي: سماء القلوب بالنيات الفاسدة، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [يونس:61] أي: من الحركة وهو القصد دون الفعل، ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ [يونس:61] أكبر في النية وهو العمل، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس:61] أي: في أم الكتاب الذي هو عنه في الأزل إلى الأبد.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا

يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: 62 - 66].

ثم اخبر عن حال أوليائه بعد كشف حال أعدائه بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس:62] إلى قوله: ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:64]، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله﴾ [يونس:62] أي: أحباء الله وأعداء نفوسهم، فإن الولاية هي معرفة الله ومعرفة نفوسهم، فمعرفة الله رؤيته بنظر المحبة، ومعرفة النفس رؤيتها بنظر العداوة عند كشف غطاء أحوالها وأوصافها، فإذا عرفتها حق المعرفة علمت أنها عدوة الله ولك معالجتها بالمعاندة والمكابدة وما آمنت مكرها وكيدها وما نظرت إليها بنظر الشفقة والرحمة.

فهذا حال أولياء الله أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس:62] من تمني الضرر بنفوسهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62] على ما فاتهم من شهوات النفوس للعداوة القائمة فيها بينهم، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يونس:63] بالله عما سواه ويفرون إليه مما عداه فيخرجهم الله من ظلمات التعلق بالكونين إلى نور الوصال والوصول.

ثم أخبر عن مجازاتهم فقال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس:64] أي: المبشرات التي هي تلي النبوة من الوقائع التي ترى بين النوم واليقظة والإلهامات والكشوف وما يرد عليهم من المواهب والمشاهدات، كما قال ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات»[1]، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس:64] وبشراهم بكشف القناع عن جمال العزة عن سطوات تجلي نور القدم وزهوق ظلمة الحدث وليبقوا بإبقاء الحق رحمة منه كما قال الله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة:21].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾ [يونس:64] أي: لا تتغير أحكامه الأزلية حيث قال للولي: كن وليًا، وللعدو: كن عدوًا، وكانوا كانوا كما أراد بالحكمة البالغة فلا تغيير لكلمة

---

(1) أخرجه البخاري (6/ 2564، رقم 6589).

الولي وكلمة العدو، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:64] أي: ذلك الثبات لكلمة الولي وعدم تغييرها وتبدلها في حق الولي ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ للولي، فإنه فاز بالوصول إلى الله العظيم.

ثم أخبر عن العزة تسلية لأهل العزة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: 65] إلى قوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:70]، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الخطاب مع رسول القلب أي: يا رسول القلب لا يحزنك قول مشركي النفوس وهواجسهم فيما يحدثونك من استمتاعك لشهوات الدنيا ولذاتها ويزينون زخارفها في نظرك؛ ليقطعوا عليك طريق الحق تعالى، ويدلوك على متابعة الهوى.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس:65] في الدنيا والآخرة يعز من يشاء في الدنيا دون الآخرة، ويعز من يشاء في الآخرة دون الدنيا، ويعز في الدنيا والآخرة جميعًا، فلا تضره هواجس النفس ووساوس الشيطان في احتظاظه بشهوات الدنيا ونعيمها والتزين بزينتها، ولا يمنعه نعيم الدنيا عن نعيم الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:32] فيكون من خواص عباده الذين أتاهم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة؛ بل يكون لبعضهم نعيم الدنيا معينًا على تحصيل نعيم الآخرة كما جاء في الحديث الرباني: «**وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى فإن أفقرته يفسده ذلك**»[1].

﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ [يونس:65] لحديث النفوس، ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يونس:65] بأمزجة عباده يدفع ما يضر بهم ويحيطهم ما لا ينفعهم منه، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [يونس: 66] من القلوب السماوية، ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:66] من النفوس الأرضية أي: القلوب والنفوس ملك له وعبيد يفعل بهم وفيهم ما يشاء وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ﴾ [يونس:66] أي: النفوس، ﴿يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾

---

(1) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (1/ 608).

[يونس:66] من الدنيا والهوى والمعنى، وما يتبع النفوس الهوى والدنيا ويتخذونها شركاء الله ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: بغير الله.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [يونس:66] أي: يظنون أنهم يتبعون الهوى باختيار نفوسهم لا باختيار الله، ولا يعلمون أنه ما كان لهم الخيرة، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:66] أي: بأن لهم الخيرة دون الله.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس: 67 - 71].

ثم أخبر عن الحكمة في إهمال النفوس في بعض الأوقات لاتباع الهوى فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ [يونس:67] أي: ليل البشرية التي بها التمتع للنفوس في شهوات الدنيا ولذاتها، ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس:67] فتستريحوا من نصب المجاهدات، أو تعب الطاعات في بعض الأوقات، ويزول عنكم ملالة النفوس وكلالة القلوب، ويستجد شوقكم وشوق طلبكم فيه، ويجعل بعد ذلك لكم نهار الروحانية مبصرًا.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:67] أي: نهار الروحانية مبصر أي: راضيًا وبصيرة بها مصالح السلوك والترقي في المقامات ويتدارك بها ما فاته بالوقفات في ليل البشرية، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [يونس:67] الإهمال، ﴿لَآيَاتٍ﴾ [يونس:67] دلالات، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:67] حقائق القرآن بسمع القلوب الواعية.

ثم أخبر عن الآفات والشبهات التي تقع في أثناء السلوك عند ظهور نهار الروحانية؛ ليحترز المسالك عنها فقال: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ [يونس:68] أي: مشركو النفوس، ﴿قَالُوا﴾ عند تجلي الروح بالخلافة في صفة الربوبية مقترنًا بتجلي صفة إبداع الحق

وقع الروح مع كمال قربه واختصاصه بالحق عند بقاء تصرف الخيال حتى نسبت الأبوة والبنوة لنص المقامات بالوالد إذ تحققت الأبوة والبنوة، وهذا الكشف والإملاء هو مبدأ ضلالة اليهود والنصارى في قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:30]، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

كما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس:68] عن اتخاذ الولد واحتياجه إلينا، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [يونس:68] سماوات الروحانية من الأحوال والكشوف والمشاهدات، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:68] أرض النفوس من الوهم والخيلاء وما ينشئن من الشبهات والآفات.

﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يونس:68] أي: ما عند النفوس حجة تصلح لصنع هذه الشبهات، ﴿بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:68] وحقيقته، ﴿قُلْ﴾ [يونس:69] يا قلب النفوس، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ [يونس:69] من النفوس الأمارة بالسوء، ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس:69] لا يظفرون بكشف الحقائق ما داموا على هذه الصفة.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ [يونس:70] أي: حاصل أمرهم وقصارى أمنيتهم أن يتمتعوا في الدنيا من ملاذها وشهواتها أيامًا قليلاً، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس:70] جبرًا وقهرًا، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ [يونس:70] من ألم البعد عن الحضرة، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:70] أي: بكفرهم إذا أثبتوا الأبوة والنبوة ووقعوا في عذاب البعد ولكن في الدنيا ما ذاقوا ألم العذاب؛ لأنهم كانوا نيامًا، والنائم لا يجد ألم شيء من الجراحات حتى ينتبه «والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»(1)، ثم بعد الموت يذوقون ألم ما بهم من العذاب.

ثم أخبر عن عاقبة المنذرين المكذبين بقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس:71] إلى قوله: ﴿الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:74]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ يشير إلى نوح الروح،

(1) تقدم تخريجه.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [يونس:71] وهم: القلب والبشر والنفس وصفاتهم، ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ [يونس:71] أي: عظم عليكم مقامي في الأخلاق الحميدة الروحانية، ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ﴾ [يونس:71] أي: أن أدعوكم بدلالات الله وبراهينه إليه وإلى التخلق بأخلاقي وأخلاق الله.

﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس:71] فيما أدعوكم إليه بأن توقفكم؛ لتحصيل ما أدلكم عليه من المقامات الكريمة والدرجات الرفيعة، فإن أبيتم إلا تلك الدركات النفسانية الحيوانية وعاديتموني على الدعوة للنجاة منها، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس:71] لا عليكم وكيدكم وادعوا شركاءكم من الهوى والشيطان والدنيا؛ ليجمعوا مكرهم مع مكركم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس:71] أي: بحيث لا يكون من المكر والحيل شيء مخفي ولا على شركائكم، ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ [يونس:71] أي: امضوا ما جمعتم من المكر ومعاونة الشركاء إلي، ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس:71] أي: ولا تؤخرون في سوء تريدون بي، فإنكم إن سعيتم غاية السعي وبذلتم الجهود لتمكروا لي وتردوا قولي فلا تقدروا على ضري ونفعي إلا بإذن الله.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس: 72 – 75].

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ [يونس:72] أي: أعرضتم عن نصحي، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ﴾ [يونس: 72] على النصح في دعواتكم إلى الله، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ [يونس:72] من حظ من حظوظ مشاربكم الدنيوية، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ [يونس:72] أي: ما حظي إلا من مواهب الله وشهود جماله.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:72] أي: ممن أسلم وجهه لله في طلب

الله، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ﴾ [يونس:73] أي: خلصناه نوح الروح من الغرق في بحر الدنيا، ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾(1) [يونس:73] أي: الذين ركبوا معه في سفينة الشريعة من القلب والبشر والنفس والهوى، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ [يونس:73] أي: خلفاء الله في أرضه وهم مقر صفاته ومظهر آياته، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس:73] بدلائلنا وبراهيننا من الشيطان وبعض النفوس المتمردة في بحر الدنيا وشهواتها.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس:73] أي: الذين أنذرهم نوح الروح بإلهامات الله، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [يونس:74] أي: بعد نوح الروح، ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ [يونس:75] من الأنبياء، ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [يونس:74] بالمعجزات الظاهرة.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس:74] أي: لم يصدقوا الأنبياء بمعجزاتهم بشؤم ما كذبوا نوح الروح، وما قبلوا دعوته في السير إلى الله، فيه إشارة إلى أن من لم يؤمن قبله بدعوة الروح وإلهام الحق إراءة آياته لا يؤمن بدعوة الأنبياء ومعجزاتهم، ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:74] الذين جاوزوا الحق إذ لم يستمعوا دعوة الروح إلى الباطل وهو تكذيب نوح الروح لئلا يقبلوا دعوة الأنبياء عليهم السلام.

ثم أخبر عن بعث الأنبياء وتكذيب الأشقياء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [يونس:75] إلى قوله: ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس:86]، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أي: أوحينا وألهمنا من بعد نوح الروح وصفاته إلى موسى القلب، وهارون السر، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [يونس:75] أي: فرعون النفس وصفاته، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ [يونس:75] يعني: عصا ذكر لا إله إلا الله كانت معجزة القلب وله يد بيضاء في استعمالها.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ [يونس:75] عن قبول لا إله إلا الله وذلك أن فرعون النفس يدعي

---

(1) يعني في القبضة والأسر وهبت رياح الكرم على المريدين الذين هم في الطريق وفرحوا بما يلحقهم من العناية والرعاية جاءتها ريح عاصف أتت عليهم من موارد القدرة ما أفناهم عن صفاتهم، وحيرهم في طريقهم، وجاءتهم أمواج القهر، وقهرهم عملهم. [العرائس].

الربوبية ولا يثبت إلهًا غيره، كما قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: 43]، ﴿وَكَانُوا﴾ [يونس:75] يعني: النفس وصفاتها، ﴿قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [يونس:75] آمرين بالسوء.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (80) ﴾ [يونس: 76 - 80].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ [يونس:76] الذكر الذي هو من صفاتنا، فيعمل عمل الثعبان، ويظهر المعجزات مع فرعون النفس وصفاتها.

﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس:76] يعني: فرعون النفس ترى معجزة ثعبان الذكر سحرًا، ﴿قَالَ مُوسَى﴾ [يونس:77] أي: موسى القلب، ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ [يونس:77] أي: معجزات الذكر، ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ [يونس:77] أي: تشكون وتشبهونها بالسحر.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس:77] أي: لا فلاح في السحر، والفلاح هو الخلاص عن قيد الوجود المجازي والظفر بالوجود الحقيقي، وإنما الفلاح في الذكر بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45]، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس:78] وهذا من كلام النفس وصفاتها مع القلب ذكر التصرف عن عبادة الدنيا والهوى، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ [يونس:78] السر والقلب، ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ [يونس: 78] السلطنة والتصرف.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:78] أي: أرض القالب، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:78] بمتبعين ولا مصدقين، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ [يونس:79] النفس، ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس:79] من الشياطين والنفوس المتمردة الساحرة في البيان، وبالوساوس والهواجس والتمويهات، ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ [يونس:80] القلب، ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس:80] من تمويهاتكم.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس: 81 - 86].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ [يونس:81] والتمويه، ﴿إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس:81] بثعبان الذكر، فإنه حق التمويه باطل، وإذا جاء الحق وزهق الباطل، ﴿إِنَّ الله لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْـمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:81] من أهل التمويهات.

﴿وَيُحِقُّ الله الْـحَقَّ﴾ [يونس:82] أي: الذكر، ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس:82] وهي لا إله إلا الله، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْـمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:82] من أهل الهوى من النفوس المتمردة الأمارة بالسوء، ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ [يونس:83] القلب، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [يونس:83] وهي صفاته ويجوز أن يكون إلها في قومه راجعة إلى فرعون النفس أي: ما آمن لموسى القلب إلا بعض صفات فرعون النفس، فإنه يمكن تبديل أخلاقها الذميمة بالأخلاق الحميدة القلبية.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس:83] يعني: من خوف فرعون النفس والهوى والدنيا وشهواتها بأن تبدلوها بأخلاقها الطبيعية التي جبلت النفس عليها، وبهذا يشير إلى أن النفس وإن تبدلت صفاتها الأمارية إلى المطمئنة لا يؤمن مكرها وتبدلها من المطمئنة إلى الأمارية كما كان حال بلعام وبرصيصا، ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:83] بالدنيا وشهواتها للمجاوزين حد الطريقة والشريعة في تحصيل ملاذها وشهواتها وترجع النفس قهقري إلى إشارتها، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ [يونس:83] النفس.

﴿لَعَالٍ﴾ [يونس:83] أي: لها علو وقوة، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:83] البشرية بالتصرف فيها، ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْـمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:83] المجاوزين حد الشريعة والطريقة في تحصيل ملاذها وشهواتها، ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ [يونس:84] القلب، ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِالله﴾ [يونس:84] أي: قال موسى القلب مع صفاته أي: مع صفات النفس التي آمنت

بما جاء القلب من الذكر والإلهام ومواهب الحق إن كان إيمانكم حقيقيًا من الله وهدايته.

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ [يونس:84] إلا على الدنيا وملاذها، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس:84] إن استسلمتم الله وفوضتم أموركم إليه، ﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: 85] لا على غيره، ثم رجعوا إلى الله تأكيدًا لتوكلهم عليه، وطلبوا منه ألا يفتنهم بالقوم الظالمين وهم فرعون النفس والهوى والدنيا فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:85]، ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ [يونس:86] أي: خلصنا، ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس:86] أي: من شر قوم يسترون الحق بالباطل ويستعملوننا في التخلق بأخلاقهم الذميمة.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) ﴾ [يونس: 87 - 92].

ثم أخبر عن حال موسى وأخيه وحال فرعون وتابعيه بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ [يونس:87] إلى قوله: ﴿لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:92]، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ [يونس:87] أي: إلى موسى القلب وهارون السر، ﴿أَنْ تَبَوَّآ﴾ أي: تهيئا، ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ [يونس:87] لصفاتكما، ﴿بِمِصْرَ﴾ [يونس:87] عالم الروحانية، ﴿بُيُوتًا﴾ [يونس:87] مقامات؛ وذلك لأن القلب والسر بصفاتهما وساطة بين الروح والنفس، فيشير إلى ألا تتخذوا المنازل في عالم النفس السفلية واتخذوا المقامات في عالم الروح العلوي.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس:87] أي: اجعلوا مقاماتكم في عالم الروحانية المتوجهة في قبلة طلب الحق أي: لا تقيموا في الروحانية، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس:87] أديموا العروج من المقامات الروحانية إلى القربات والموصلات الربانية، ﴿وَبَشِّرِ

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:87] المصدقين السائرين إلى الله بالوصول والوصال، ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ [يونس:88] القلب موافقًا للسر.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ [يونس:88] النفس، ﴿وَمَلَأَهُ﴾ [يونس:88] أي: صفاته، ﴿زِينَةً﴾ [يونس:88] أي: جعلت ما على الأرض من مستلذات النفس وشهواتها زينة في نظرها؛ لأنها ملائمة طبعها، ﴿وَأَمْوَالًا﴾ [يونس:88] أي: جعلت الأموال سبب تحصيل مرادات النفس ومرامها، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ [يونس: 88] أي: ليكون عاقبة أمرهم أن ينقطعوا عن السير في طلبك، ويضلوا عبادك بها عن طلبك شغلاً بتمتعاتها وغرورًا بغنائها وتفاخرًا بجمعها.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس:88] بمحقها أو بتحقيرها في نظرهم، ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس:88] أي: واشدد طريق النظر إلى الدنيا وما فيها على قلوبهم، واجعل همتهم علية في طلبك للنظر إليك، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:88] فإن النفس وصفاتها لا تؤمن بالآخرة وطلب الحق حتى يذيقهم ألم فطامهم عن الدنيا وشهواتها، فإن الفطام عن المألوفات شديد.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:89] أي: دعوة القلب والسير بما سألوا الله في حق النفس وصفاتها وفطامها عن ملاذ الدنيا، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس:89] يا قلب السير في طلب الحق والسير إليه، ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:89] الطريق إلى الله ولا يعرفون قدره وهمتهم الدنيا وشهواتها عن أثر إجابة الدعوة فقال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [يونس:92] بنو إسرائيل وهم: القلب والسر وصفاتهما ﴿الْبَحْرَ﴾ بحر الملكوت أي سلكناهم في بحر الروحانية الملكوتية، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ [يونس:92] النفس، ﴿وَجُنُودُهُ﴾ [يونس:92] وصفاته في بحر الملكوت يعني: الفطام عن شهوات عالم الملك، ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس:92] أي: حسدا وعداوة؛ لأن النفس لا تجاوز بحر الملكوت إلا بعلمه واضطرارًا، فإن السير في الملكوت ليس من طبعها، فلا مسلك إلا قهرًا وقسرًا ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس:92] يعني: فلما هبت رياح اللطف وتموجت بحار الفضل استغرق موسى القلب وبنو إسرائيل صفاته في لجي بحر الوصال، وبلغت

أفواج أمواجه إلى ساحل البشرية فأدرك فرعون النفس الغرق فاستمسك بعروة تلك الفرق.

﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 92] ومن أمارات أغطية فرعون النفس من عالم الملكوت الروحاني أنه عند الغرق ما تمسك بحبل التوفيق بيد الصدق والاستقلال، وما قال: آمنت بالله الذي لا إله إلا هو، وإنما تمسك بيد الاضطرار والتقليد، فقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ فقيل له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس:92] أي: قبل الاضطرار.

﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:92] أي: كنت ممن يملك نفسه ويهلك غيره، ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:92] أي: بنفسك وقالبك من بحر الضلالة، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس:92] أي: دليلاً على كمال قدرتنا، ومزيد عنايتنا بأن من اتبع خواص عبادنا نجعلهم من أهل النجاة والدرجات بعد أن كان من أهل الهلاك والدركات، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [يونس:92] أي: من أهل النسيان، ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ [يونس:92] الدالة إلينا، ﴿لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:92] لشغلهم بغيرنا.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98)﴾ [يونس: 93 - 98].

ثم أخبر عن أهل الصدق والعرفان وأهل الاختلاف والخذلان بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس:93] قوله تعالى: ﴿بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يشير بإسرائيل إلى الروح العلوي، وببنيه إلى القلب والسر فإنهما من لذات دون النفس؛ لأنها إن كانت من مولداته ولكنها من البنات لا من البنين ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزلاً عليًا في جوار الروح أتى طبعًا.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [يونس:93] أي: من الفيض الرباني الفائض الروح العلوي بأنهما خلقا متصفين بصفات الروح، وما يلي إلى عالم العلوي من الحضرة من صفة الرحمانية فيفيض من الروح على القلب؛ لأن القلب من الروح بمنزلة العرش من الرب وهو محل استواء صفة الرحمانية من الرب يعني: محل ظهوره هذه الصفة الاختصاصية بقبول فيض هذه الصفة أولاً، كذلك مستوى عرش القلب وهو قابل الفيض الروحانية أولاً، فكل ما فاض من صفة الرحمانية على الروح يفيض الروح على القلب والسر، فافهم جدًّا.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس:93] أي: ما اختلف القلب والسر من وصف خلقهما على الصفات الروحانية حتى جاءهم دعوة النبي ﷺ، وأحكام القرآن، وأركان الشريعة، والسير إلى الله تعالى على أقدام الطريقة، والوصول إلى عالم الحقيقة، وذلك عند البلوغ وجذب تكاليف الشرع، المقبل من قبلها صار مقبولاً، والمدبر من دبرها فصار مردودًا، وأيضًا بقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس:93] أي: بين الأصبعين من أصابع الرحمن، فإنه مأوى القلوب متوجهين إلى حضرت الجلال، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس:93]؛ أي: ما تغيروا عن أحوالهم حتى أدركهم علم الله الأزلي بما قدر وقضي فيهم بالسعادة والشقاوة، فأقام قلوب أهل السعادة على الطاعة والعبودية، وقبول الدعوة، وطلب الحق، وأزاغ قلوب أهل الشقاوة عنها إلى المعصية والتمرد ورد الدعوة وترك الحق.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:93] بالقبول والرد، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [يونس:93] على قدر اختلافهم وتغير أحوالهم، ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:93] بأقوالهم وأعمالهم وأحوالهم، قال: الأعمال نتائج الأحوال، والأقوال من نتائج الأعمال.

ثم أخبر عن أهل الشك والتكذيب وأهل الحجج والتقريب بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس:94] إلى قوله: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:98].

قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس:94] أي: مما خصصناك به من سائر الأنبياء والمرسلين من خصوصية ختم النبوة، وخيرية الأمة، وإعطائك الحق الموددود

والمقام المحمود، وغير ذلك من المواهب السنية والمراتب العلية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس:94] فإنا قد بينا في الكتب المنزلة طرفًا عن علو قدرك، وعظم شأنك، ورفعة مكانك، ورتبة سلطانك؛ ليتحقق لك ويتبين عندك أن ما جاءه من الحق فهو حقك لا تغير فيه ولا تبديل، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان ضعيفًا فصبر النظر وفي الهمة، فإذا أنعم عليه بفتح باب الكرامات وهبوب رياح السعادات يكتال عليه بأدنى الكيل ما يضيق به ذرعه وينكسر به فرعه، فلا يحمل ما يحتمل عليه، ولا يتحقق ما ينفعل به لديه، فيقلن: أنه مما يخادع به الأطفال وشك فيما يصادفه من الآمال، بل هو من كرامة الأحياء، أو من وخامة الابتلاء.

فكان النبي ﷺ من خصوصية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف:110] يرتع في هذه الرياض باختصاص ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف:110] يسقى بكاسات المناولات من تلك الحياض، فشك عند سكره من شراب الوصال إذا أدبر عليه بإقدام الجمال والجلال أنها في شهود التلوين، أو من كشوف التمكين حتى أدركته العناية الأزلية والسابقة الأولية فأكرم بخطاب: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [يونس:94] فتحقق الاجتباء، وزال عنه الأسر لما بدل سكره بالصحو، وزالت صفات بشريته إلى المحو، بل كان هذا فما كان النهي نهي التكوين به كلام الأزلي فخاطبه في الأزل وهو بعد في العدم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:94] ممتريًا كما قال: ﴿تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:35] فما كان جاهلاً، فلهذا قال ﷺ: «لا أشك ولا أسأل»(1).

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [يونس:96] وهي قوله :هؤلاء في النار ولا أبالي؛ أي: وجبت عليهم النار سبق هذه الكلمة فيهم، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:96] ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس:97] لأنهم خلقوا مستعدين للعمى والضلالة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً﴾ [الأعراف:179]، وقال: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ

---

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه (6/ 125).

كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يونس:43] فهؤلاء خلقوا ليكونوا مظهر صفات الذين لا يؤمنون، ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس:97] وهو عذاب البعد وألم الفراق.

ثم أخبر أن إيمان الناس ما قبل عن قوم إلا قوم يونس عليه السلام فقال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:98] وذلك لأن أقوامًا آخرين آمنوا حين عاشوا العذاب وغشيهم بقية مثل: فرعون وقومه، وقوم لوط، وقوم نوح وغيرهم من الأمم فآمنوا حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا، وما آمنوا بالغيب، وإنما الإيمان للقبول هو الإيمان بالغيب كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:3] وقوم يونس عليه السلام لمّا أصبحوا رأوا غيمًا العذاب كما وعدهم يونس عليه السلام آمنوا وصدقوا يونس فيما وعدهم قبل العيان، وكان إيمانهم بالغيب، وتابوا إلى الله بالصدق، ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس:22] بالتضرع والابتهال، فاستجاب الله دعوتهم وقبل توبتهم.

ومن أمارة سعادتهم أنه ما جاءهم العذاب بغتة كما جاء لأقوام آخرين كقوله تعالى: ﴿تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:107] وأنهم مكنوا حتى التجاؤا إلى الله تعالى ودعوه مضطرين، فإنه من سنة كرمه تعالى أن يجيب المضطر إذا دعا وما يكن غيرهم للالتجاء وخلوص الدعاء، فكان إيمان قوم يونس عليه السلام إيمانًا حقيقيًا مقبولاً كما قال تعالى: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ [يونس:98] بالإيمان والأعمال الصالحة، ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:98] آجالهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يونس: 99 - 103].

ثم أخبر عن الإيمان أنه بالتوفيق لا بالخذلان بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:99] إلى قوله: ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:103]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾

أي: في الأزل، ﴿لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: قدر لهم الإيمان في الأزل كما قدر لبعضهم وهيأ لهم أسباب الهداية، كما هيأ لبعضهم وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه كما كتب بعضهم، وذلك «أن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة....» الحديث[1]، كما قال ﷺ: وكان إصابة النور لمشيئة الله تعالى وهي تهيؤ أسباب الهداية وعبارة من كناية عن الحق، ﴿أَفَأَنتَ﴾ [يونس:99] يا محمد، ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ [يونس:99] الذين لم يصبهم النور المرشش.

﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:99] بالنور لما علمنا أن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ [يونس:100]، مظلمة ﴿أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [يونس: 100]، وإذنه بإصابة النور المرشش.

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ [يونس:100] أي: عذاب الحجاب، ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:100] سنة الله في الهداية والخذلان بأن سنته أن تهدي العقول المؤيدة بنور الإيمان إلى توحيد الله ومعرفته ولا تهدى العقول المجردة عن نور الإيمان إلى ذلك، وهذا رد على الفلاسفة أنهم يحسبون أن للعقول المجردة عن الإيمان سبيلاً إلى التوحيد والمعرفة، ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾ [يونس:101] بالعقول الخالية عن الإيمان.

﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:101] من الآيات الظاهرة وفي سموات القلوب وأرض النفوس من الآيات الباطنة هل تنفعكم هذه العقول، وتحصيل الإيمان هو من كتابه الحق ونوره، فإذا علمتم أنه محال فاعلموا أنه ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:101] إلا بالكتابة السابقة والنور المرشش أي: لا تغنيهم العقول المجردة عن نور الإيمان عند رؤية الآيات إلا أن تكون مؤيدة بالنور، ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ﴾ [يونس:102] ويا أرباب العقول المجردة عن نور الإيمان.

﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:102] يعني: كانوا ينتظرون ما قدرنا لهم من أمر السعادة والشقاوة حتى نبشرهم لما خلقوا له ويهيئ أسبابه، ﴿قُلْ

(1) تقدم تخريجه.

﴿فَانْتَظِرُوا﴾ [يونس:102] حصول أسبابه وظهور ما قدرنا لكم، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس:102] ليدخل أو إن ما قدرنا لكم، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس:103] لما قدرنا لهم من أمر السعادة عند تهيؤ أسباب السعادة وظهورها من الشقاوة، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:103] من الشقاوة في كل زمان بانعدام أسبابها وتهيؤ أسباب السعادة[1].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: 104 - 107].

ثم أخبر عن اختلاف الفريقين في الطريق بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ [يونس:104] إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس:107] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يشير إلى أن الخطاب مع محمد الروح، والناس عبارة عن النفس الناسية وصفاتها؛ فالمعنى: قل يا روح للنفس وصفاتها، إن كنتم في شأن من ديني الذي هو عبادة الله وطاعته ومحبته وطلبه؛ لأن دينكم عبادة الهوى والدنيا وطاعتها ومحبتها وتظنون أن غيركم على دينكم.

﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [يونس:104] من الهوى والشيطان والدنيا وشهواتها، ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [يونس:104] يميتكم ويفنيكم يعني: وفاة

(1) قال المحقق روزبهان: إن الرسل وأتباعهم من المؤمنين محفوظون بنور عنايته عن اقتحام قهره عليهم، نجّا الأنبياء والمرسلين من حجاب الخطرات، ونجّا العارفين من حجاب الشهوات، ونجّا المؤمنين من غارات إبليس وسلب الشياطين إيمانهم برعايته القديمة المقرونة بمحبته الأزلية إياهم؛ لأن من أحبَّ أحدًا حفظه عن مهالك البعد منه. ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ منا، وننجي المؤمنين من قهرناه الأنبياء في عين الجمع، وهم في عين التفرقة، هم في الذات، وهم في الصفات، وكان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة العارفين؛ لأنا اصطفيناهم في الأزل بالكرامات والولايات، ومن اصطفيناه حقًّا علينا الوفاء بما أخبرنا عن نفسنا في حقه.

النفس وصفاتها وفنائها متضمنة في عبودية الله ومحبته وطلبه، وترك طاعة النفس، وعبادة الهوى طلب الدنيا، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:104] بلقاء الله والوصول إليه.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [يونس:105] أي: استقم في توجهك لله وطلبه، ﴿حَنِيفًا﴾ [يونس:105] أي: طاهرًا من لون الالتفات إلى ما سواه مائلاً إليه ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس:105] يعني: النفس وصفاتها أنها تعبد غير الله، وإن حملنا الآية على ظاهرها في حق النبي ﷺ ويشير إلى أنه كان مخاطبًا عند الفطرة ﴿أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ حنيفًا إلى الله مخلصًا.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس:105] من طالبي الدنيا وعابدي الهوى في طلب الله تعالى، فكان كما أمر بقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 104] يعني: ولا أكون من المشركين.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:106] في الدنيا والآخرة منهما، فإن النفع والضر إلى النافع والضار لا إلى الدنيا والآخرة ونعمتهما ونقمتهما، ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:106] الذين يضعون النفع والضر في غير موضعهما.

ثم قال تأكيدًا لهذا المعنى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: 107] لأنه لا يدفع الضر إلا الضار، ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:107] إلا المتفضل به فله النفع والضر والخير والشر، ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: 107] بقدر استحقاقهم على حسب استعدادهم، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ [يونس:107] يستر بنور وجهه ظلمة وجود الصديقين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ [يونس:107] بتقرب برحمته إلى الطالبين الفارقين.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109) ﴾ [يونس: 108 - 109].

ثم أخبر عن هذا الخلق أنه في الاقتداء بالحق بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس:108] السورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي: ناسي خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] وأعلين مرتبتكم إذ كنتم تسمعون خطابي عني بلا واسطة، ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن وهو الحبل المتين المرسل، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بواسطة محمد ﷺ إذا نزل به الروح الأمين على قلبه، ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ [يونس:108] إلى الاعتصام به كما قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ﴾ [آل عمران:103]. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [يونس:108] بأن يخلصها من أسفل السافلين، ويعود بها إلى أعلى عليين مقامها؛ ليسمع خطاب ربها بلا واسطة بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:27-28]، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ [يونس:108] عن الاعتصام به، ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس:108] لأنها تبقى في أسفل الدنيا بعيدة عن الله تعالى معذبة بعذاب البعد وألم الفراق. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس:108] لأعتصم به بوكالتكم، فأوردتكم إلى تلك المقامات والدرجات، وأخلصكم من هذه السفليات والدركات بغير اختياركم، وإنما أنا مأمور بتبليغ الوحي والرسالة والتذكير والموعظة، كقول ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ [يونس:109] يعني: بالاعتصام به لنفسك وبالتبليغ إلى أمتك، ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ [يونس:109] بالقبول لأهل السعادة، والرد لأهل الشقاوة لكل ميسر لما خلق له، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:109] فيما حكم بقبول الدعوة والقرآن والأحكام والعمل بها لمن سبقت العناية الأزلية، ويرد الدعوة والقرآن والأحكام والعمل بها لمن أدركته الشقاوة الأزلية.

والحمد لله على ما حكم وقضى ودبر وأمضى فله الحكم في الآخرة والأولى

والصلاة على نبيه المصطفى

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود: 1 - 5].

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:1] إلى قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:5].

فقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ يشير إلى: الذات، ﴿الرَّحْمَنِ﴾ يشير إلى: صفة الجلال، ﴿الرَّحِيمِ﴾ يشير إلى صفة الجمال، والمعنى: أن هاتين الصفتين قائمتان بذاته جل جلاله، وباقي الأسماء مشتملة على هاتين الصفتين وهما من صفات القهر واللطف، قوله: ﴿الر﴾ يشير بالألف: إلى الله، وباللام: إلى جبريل، وبالراء: إلى الرسول؛ يعني: ما أنزل الله مع جبريل إلى الرسول، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ يعني: القرآن كتاب أحكمت بالحكم آياته، كقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:151] فالكتاب: هو القرآن، والحكمة: هي الحقائق والمعاني والأسرار التي أدرجت في آياته، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: بينت لقلب العارفين تلك الحقائق والحكم.

﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ [هود:1] أودع فيها بالحكمة البالغة التي لا يقدر غيره أبدًا عليها فيها، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن، ﴿خَبِيرٍ﴾ [هود:1] على تعليمها من لدنه لمن يشاء من عباده كقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:65] يشير إلى أن القرآن ظهرًا يطلع عليه أهل اللغة، وبطنًا لا يطلع عليه إلا أرباب القلوب الذين أكرمهم الله بالعلم اللدني ورأس الحكمة، وسرها أن يقول: يا محمد لأمتك أمرتم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود:2] أي: لا تعبدوا الشيطان ولا الدنيا

ولا الهوى ولا ما سوى الله، ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ﴾ [هود:2] أنذركم بالقطيعة من الله تعالى أن تعبدوا أو تطيعوا وتحبوا غيره، وعذاب العبد في الجحيم، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ [هود:2] أبشركم أن تعبدوه وتطيعوه وتحبوه بالوصول ونعيم الوصال في دار الجلال.

وكان النبي ﷺ مخصوصًا بالدعوة إلى الله من بين الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب:45-46].

فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ يشير إلى ألَّا تطلبوا غير الله، ثم قال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود:3] فيما فرطتم من أيام عمرك في طلب غير الله، وترك طلبه، وتحصيل الحجب، وإبطال الاستعداد الفطري ليكون الاستغفار وتزكية لنفوسكم وتصفية لقلوبكم، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:3] أي: ارجعوا بقدم السلوك إلى الله؛ لتكون التوبة تحلية لكم بعد التزكية بالاستغفار وهي قوله: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود:3] وهو الترقي في المقامات من السفليات إلى العلويات، ومن العلويات إلى حضرة العلي الكبير، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [هود:3] وهو انقضاء مقامات السلوك، وابتداء درجات الوصول، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ [هود:3] ذي صدق واجتهاد في الطلب، ﴿فَضْلَهُ﴾ [هود:3] في درجات الوصول، فإن المشاهدات بقدر المجاهدات.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [هود:3] أي: أعرضوا عن الطلب والسير إلى الله، ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:3] أي: عذاب يوم الانقطاع عن الله الكبير، فإنه أكبر الكبائر وعذابه أعظم المصائب إلى ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود:4] طوعًا أو كرهًا، فإن كان بالطوع يتقرب إليكم بجذبات العناية، كما قال: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[1]، وإن كان بالكره يسحبون في النار على وجوههم، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [هود:4] من اللطف والقهر، ﴿قَدِيرٌ﴾ [هود:4].

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ [هود:5] أي: يقلبون؛ لأن ثني صدورهم في الدنيا

(1) تقدم تخريجه.

من نتائج حرمانهم النور المرشش في عالم الأرواح حين رش عليهم من نوره، نزل تنبيها للنبي ﷺ والمؤمنين لحال من كان إذا مرّ برسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن يثني صدره وطاعة قلدر واشتد على نفسه بثيابه لئلا يعرفهم النبوة ولئلا يسمعوا قراءته كراهة لها وهم كفار، ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ [هود:5] ثياب الجسمانية على وجه الروح.

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ [هود:5] من حرمان النور بنقصان الحرمان تحت ثياب القلب، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود:5] من ثني الصدور والاستخفاء ما لا يخفى عليه قبل جنس ما شريف، فإنه يظهر المحبة لرسول الله ﷺ، وله حلو الكلام وحسن المنظر، وله الجنة ﷺ مجالسة ومحادثة وهو يضمر خلاف ما يظهر والله مطلع على ما في نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:5] بما في الصدور في القلوب الظلمانية الفارغة عن النورانية التي بها الاهتداء منها الاقتداء بالأنبياء - عليهم السلام - والله أعلم.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: 6 - 11].

ثم أخبر عن إحاطة علمه بجميع الأشياء من الأموات والأحياء لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6] ونشأها لتكفل أيام تفضلاً ورحمة، وإنا إلى لطف الوصول تحقيقًا لوصول وحملاً عن التوكيل فيه إلى قوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود:6].

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6] يشير إلى أن كل حيوان خلقه الله تعالى صفة مخصوصة وبجنسه، ولكل جنس منه غذاء مخصوص ذلك

الجنس، فعلى ذمة كرم الله أنه كما خلق أجسادهم يخلق غذائهم ملائمًا لأجسادهم ويرزقهم دهم ويرزقهم منه ما يصلح لكل جنس من الحيوان أو يعلم، ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ [هود:6] في العدم، ويعلم أنه كيف قدرها مستعدة لقبول تلك الصورة المختصة بها.

ويعلم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:6] الذي تؤل إليه عند استكمال صورتها ومعناها المستودع فيها، وللإنسان خاصة يعلم مستقر روحه في عالم الأرواح أكان في الصف الأول، أو في الثاني، أو في الثالث، أو في الرابع، فإنه جاء في معنى حديث النبي ﷺ أنه قال: **«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»**[1] إن الأرواح كانت في أربعة صفوف:

كان في الصف **الأول**: أرواح الأنبياء وأرواح خواص الأولياء.

وفي الصف **الثاني**: أرواح الأولياء وأرواح خواص المؤمنين.

وفي الصف **الثالث**: أرواح المؤمنين والمسلمين.

وفي الصف **الرابع**: أرواح الكفار والمنافقين، ويعلم مستودع روحه عنه استكمال مرتبة كل نفس منهم من دركات النيران، ودرجات الجنات إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود:6] أي: عنده في أم الكتاب التي لا تعبر منه من المحو والإثبات.

ثم أخبر عن الإنسان من بين سائر المخلوقات، فإن خلق أصناف المكونات كانت تبعًا لوجوده وسببًا لاستكماله في السعادة والشقاوة، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ [هود:7] سماوات الأرواح والملكوت ﴿وَالْأَرْضَ﴾ [هود:7] أرض الأجسام والأجساد؛ معناه: خلق السماوات والأرض لحكمة بالغة وهي أن يجعلهما مساكن لعباده، وينعمهم بأنواع النعم، ويكلفهم بالأمر والنهي عن المنكر، وأطاع التائب بالجنة ومن دون ذلك بالنار، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [هود:7] في ستة أصناف: جماد ومعدن ونبات وحيوان وإنسان وأرواح، ولكل صنف منها أنواع يطول شرحها.

---

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:7] أي: خلق السموات والأرض لأنه لم يكن تحت العرش سوى الماء، وكان ذلك الماء من الريح، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7] يعني: هذه الأصناف من المخلوقات مقتضيات لوجود الإنسان وتربيته ومعرفة نفسه ومعرفة خالقه وسعادته وشقاوته، فإن العالم بما فيه محل الابتلاء ومحل السعد أو الأشقياء، وإن الابتلاء على قسمين:

قسم للسعداء: وهو بلاء حسن وذلك أن السعيد لا يجعل المكونات مطلبه ومقصده الأصلي بل يجعل ذلك حضرة المولى والرفيق الأعلى، ويجعل ما سوى المولى بإذن مولاه وأمره ونهيه وسيلة إلى القربات وتحصيل الكمالات، فهو أحسن عملاً، وقسم للأشقياء: وهو بلاء سيء وذلك أن الشقي يجعل المكونات مطلبه ومقصده الأصلي ويتقيد بشهواتها ولذاتها، ولم يتخلص من نار الحرص عليها والحسرة على فواتها، ويجعل ما أنعم الله عليه من الطاعات والعلوم التي هي ذريعة إلى الدرجات والقربات وسيلة إلى نيل مقاصده الفانية واستيفاء شهواته النفسانية فهو أسوء عمل.

﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ [هود:7] يعني: لئن قلت للأشقياء موتوا عن الطبيعة باستعمال الشريعة ومزاولة الطريقة؛ لتحيوا بالحقيقة، فإن الحياة الحقيقية يكون بعد الموت عن الحياة الطبيعية، ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [هود:7] أي: ستروا استعدادهم الفطري بتعلق المكونات ومحبتها وهم الأشقياء، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود:7] كلام مموه لا أصل له، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ [هود:8] أي: ذوق العذاب وهو ألم البعد؛ لأن العذاب واقع لهم، ولكن لا يذوقون ألمه ولهذا يقال يوم القيامة: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف:34].

﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود:8] أي: إلى حين ظهور ذوق العذاب للأمة المعدودة من الأشقياء ليكونوا في جملتهم، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ [هود:8] الأشقياء من غاية غفلتهم ونهاية شقوتهم، ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ [هود:8] أي: ما يحبس العذاب عنا، ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود:8] أي: عذاب البعد حين يأتي كل واحد من الأشقياء باستجلاب ترك

المأمورات، واستجلاب إتيان المنهيات لا يفارقهم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ [هود:8] أي: لزمهم ووجب عليهم.

﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود:8] جزاء ما كانوا يظنون بالله ظن السوء ويتكلمون به استهزاء، فإن جزاء أعمال العباد من الخير والشر تصل إلى القال في الحال بتصفية القلب عن صد الحجب، والأخلاق الذميمة النفسانية، وتحليته بأنوار شواهد الحق، والأخلاق الحميدة الروحانية والربانية، ولكن لا يرى في الدنيا بعين اليقين وحق اليقين، وإنما يرى في الآخرة إذ قيل لهم: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ [الزلزال:8].

ثم أخبر عن غفلة الإنسان في الدنيا عن الخير والشر والنفع والضر، ولقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود:9] إلى قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:11]، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: أذقناهم بعض المقامات من قربنا، وبعض المشاهدات من شواهدنا، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ [هود:9] بشؤم بعض خطاياه وزلاته ابتلاءً وامتحانًا غيرة وعزة لئلا يجترئ في سوء الأدب، ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ [هود:9] أي: من خصوصية الإنسان أن ييأس من روح الله ويقنط من رحمته جهلاً منه عند ابتلاءه بإصابة ذنب وخطأ، ﴿كَفُورٌ﴾ [هود:9] لنعمتنا؛ وذلك لأن من رحمة الله ونعمة على عبده أنه إذا أسرف على نفسه، ثم تاب ورجع إلى ربه وجده غفورًا رحيمًا، فمن ابتلي بذل الحجاب والرد عن الباب كان من شرط عبوديته أن لا ييأس من روح الله ولا يكفر بنعمته كإبليس، بل يرجو رحمة ربه، وتاب من خطاياه، واستغفر من ذنوبه، ويرجع إلى ربه معترفًا بظلمة على نفسه كآدم عليه السلام ليجتبيه ربه فيتوب عليه ويهديه.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ [هود:10] أي: أنعمنا عليه بالقبول بعد الرد وأذقناه برد عفونا وحلاوة طاعتنا، ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ [هود:10] صرت معصومًا مطهرًا مرفوع مدفوع الحجب النقاب فيعجبه نفسه، فينظر إليها بنظر الإعجاب، وينظر إلى غيره بنظر الاحتقار، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ [هود:10] بما لديه من إعجاب نفسه ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:76]، ﴿فَخُورٌ﴾ [هود:10] على الأقران ممكور الرحمن.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء:36]، ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:99] ففي كلتي حالتيه مذموم في حال اليأس وكفران النعمة، وفي حال الإعجاب بنفسه وأمنه من مكر الله، ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [هود:11] في حالتي الشدة والرخاء والنعماء والضراء، فلا يقنطه في الضراء ولا يعجب في النعماء، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود:11] للنعماء صابرين للضراء، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [هود: 11] في الشكر، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:11] في الصبر.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود: 12 - 16].

ثم أخبر عن استدعاء الكفار وضيق صدر النبي ﷺ المختار بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ [هود:12] إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:16] قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ أي: لثقله، ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود:12] بحمله مثل قوله: ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة:20]، ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود:12] لئلا يطمع في أموالنا، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود:12] ليعينه على الجهاد كما جاء جبريل عليه السلام لوطًا ليعينه في إهلاك قومه، ثم قال تسلية لقلب النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود:12] يعني: فما عليك إلا التبليغ والإنذار، ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود:12] من إنزال الكتب وإرسال الملك والهداية؛ لقبول الدعوة والضلالة لرد الدعوة، فيجري عليهم ما يشاء كما يشاء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [هود:12] محمد ﷺ من نفسه فيما يأمرنا من الجهاد بأموالنا وأنفسنا، وفيما يصعب علينا من الأوامر والنواهي، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: 12] مثل القرآن المشتمل على الحكم والمعاني والأسرار والأنوار والدقائق والحقائق

والفصاحة والبلاغة والهداية والإعجاز والإرشاد إلى سبيل الرشاد، ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 12] إن كان مفترى، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [هود:12] ليفتري معكم، ﴿والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود:12] بأنه مفتري، فإن لما افترى إنسان بقدر إنسان آخر أن يفتري مثله، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [هود:14] أهل العالم جنسه وأنسه في افتراء مثله.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ [هود:14] لا بعلم الخلق، فإن فيه الأخبار عما سيأتي وهو يعد في الغيب إلا الله، ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود:14] الذي أنزل القرآن وليس إلا آخر إن ينزل مثل ما أنزل الله، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود:14] بهذه الدلائل والبراهين التي تلقى الإسلام في الصدور، وتقذف الإيمان في القلوب المستعدة لقبول الإيمان.

ثم أخبر عمن يختار الحياة الدنيا وزينة الدنيا من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والحرث، ولا يختار الآخرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:15] في طلب الدنيا وشهواتها؛ أي: في الدنيا، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:15] لا ينقصون في الدنيا بما سعوا في طلبه، ولكن لا يقضون في الآخرة من أجورهم وإن كانت الأعمال الأخروية؛ لأنهم طلبوا بذلك الدنيا وأرادوا بها الفاني وآثروها على الباقي.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود:16] وإن أشد النيران نار القطيعة، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ [هود:16] أعمال الخير، ﴿فِيهَا﴾ [هود:16] في الدنيا الدنية، ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:16] من الأعمال فإن كانت حقًا؛ لأنهم عملوها لغير وجه الله وهو باطل، وبه يشير إلى كل من عمل عملاً يطلب به غير الله بأن عمله ومطلوبه باطل كما قال ﷺ: «إن أصدق كلمة قالتها العرب: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1].

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

(1) تقدم تخريجه.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: 17 - 19].

ثم أخبر عن المؤمن وحاله والكافر ومآله بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [هود:17] أي: على كشف وبيان من تجلي صفة من صفات ربه، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:17] أي: ويتبع الكشف شاهد من شواهد الحق، فإن الكشف يكون مع الشهود ويكون بلا شهود والمعنى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ [هود:17] على بينة من كشوف الحق وشواهده.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ من العقل والنقل مع احتمال السهو والغلط فيها، وحمل الآية في الظاهر على النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ أولى وأحرى، فإن النبي ﷺ كان على بينة من ربه، وكان أبو بكر شاهدًا يتلوه بالإيمان والتصديق يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الزمر:33] يعني: النبي ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:33] يعني: أبا بكر – رضي الله وأرضاه– وهو الذي كان تاليه وثانيه في الغار، وتاليه في الإمامة في مرضه ﷺ حين قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»[1]، وكان تاليه بالخلافة بإجماع الصاحبة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ حيث قال ﷺ لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما –: «أنتما مني بمنزلة السمع والبصر»[2].

﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ [هود:17] أي: قبل أبي بكر ﷺ وشهادته بالنبوة كان، ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ [هود:17] وهو التوراة، ﴿إِمَامًا﴾ [هود:17] يأتم به قومه بعده، وفي أيام محمد ﷺ كما ائتم به عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما من أحبار اليهود، ولأنه كان فيه ذكر النبي ﷺ بالنبوة والرسالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ [هود:17] أي: الكتاب كان رحمة لأهل الرحمة، وهم الذين يؤمنون بالكتاب وبما فيه كما قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [هود:17] يعني: أهل الرحمة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ [هود:17] أي: بالكتاب وبما فيه ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره النيسابوري في تفسيره (4/ 168).

[هود:17] أي: حزب أهل الكتاب وحزب الكفار وحزب المنافقين، وإن زعموا أنهم مسلمون؛ لأن الإسلام لا يكون بدعوى اللسان فحسب، وإنما يحتاج مع دعوى اللسان إلى صدق الجنان وعمل الأركان.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [هود:17] أي: من أن يكون الكافر بك وبما جئت به من أهل النار؛ لأن الإيمان بك إيمان بي، وإن طاعتك طاعتي، فلا يخطرن ببالك أني من سعة رحمتي لعلي أرحم من كفر بك كائنًا من كان، فإني لا أرحمهم لأنهم مظاهر قهري ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [هود:17] أي: يكون له مظاهر صفات القهر كما يكون له مظاهر صفات اللطف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود:17] بصفات لطفه لرجائهم المذموم ولغرورهم المشئوم بكرم الله، فإنه غرهم بالله وكرمه، الشيطان الغَرور.

ثم أخبر عن جزاء أهل الافتراء بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [هود:18] إلى قوله: ﴿هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود:22]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [هود:18] أي: ادعى مع الله رتبة في المكاشفات والمشاهدات والمنازلات والمحادثات والمكالمات، وغيرها من المقامات التي لم يشاهدها وما مست قدمه ساحتها، وإنما يدعي حصولها دعوته النفس وطلبًا للرئاسة واستجلاب حظوظ النفس بطريق التزهد والشيخوخة، ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ [هود:18] وهم أولياء الله الذين هم شهداؤه في أرضه يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج:78].

﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود:18] يشهدون عليهم بالكذب في الدنيا والآخرة ويلعنوهم، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:18] ينزلون بأنفسهم منزل السادة الكبرى، ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [هود:19] أي يصدون الطالبين عن طلب الحق بادعائهم الشيخوخة ويقطعون سبيل الله على طالبيه بالدعوة إلى أنفسهم، ويمنعونهم أن تمسكوا بذيل إرادة صاحب ولاية يهديهم إلى الحق ويسلكهم في الله تعالى.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود:19] عن الحق، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود:19] على الحقيقة؛ لأن من يؤمن بالآخرة، ولقاء الله والحساب والجزاء على الأعمال لا

يجري مع الله بمثل هذه المعاملات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[هود:20-24]

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود:20] أي: لم يعجزوني بأن أهلكهم في الدنيا؛ لئلا يبقوا في الأرض متمتعين بها.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ ينتفعون بهم في الدنيا والآخرة انتفاع النجاة، بل ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [هود:20] عذاب الضلال والإضلال، فإنهم ضلوا عن سبيل الله بطلب الدنيا، وأضلوا أهل الإرادة عن طريق الحق باستتباعهم.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [هود:20] ليسمعوا نصح الله ورسوله، ونصح الناصحين، ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:20] أي: ما كانوا لهم بصر يبصرون بها الحق، ولا سمع يسمعون به الحق عن أهل الحق، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود:21] بأنهم باعوا الدين بالدنيا، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ورضا الله، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود:21] أي: ما كان لافترائهم حاصل إلا الندامة والغرامة، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود:22] لأنهم مؤاخذون بخسرانهم وخسران اتباعهم بحسبانهم أنهم يحسنون صنعًا كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ [الكهف:103].

ثم أخبر عن مثل أهل الهداية وأهل الغواية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود:23]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنوا بطلب الله، وطلبوه على أقدام معاملات صالحات للطلب المفيدات للوصول إلى المطلوب، ﴿وَأَخْبَتُوا﴾ أي: أنابوا، ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ بالكلية، ولم يطلبوا منه إلا هو واطمأنوا به.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [هود:23] أي: أرباب الجنة كما يقال لرب الدار: صاحب الدار وهم مطلوبو الجنة لا طلابها، وإنما هم طلاب الله، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود:23] طلابًا عن الضالين المضلين، والطالبين المجتبين، ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ﴾ [هود:24]. ثم أخبر والأعمى الذي لا يبصر الحق حقًا والباطل باطلاً، بل يبصر الباطل حقًا والحق باطلاً، والأصم لا يسمع الحق حقًا والباطل باطلاً، بل يسمع الباطل حقًا والحق باطلاً، ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾[1] [هود:24] البصير الذي يرى الحق حقًا ويتبعه، ويرى الباطل باطلاً ويجتنبه، والسميع الذي يسمع الحق حقًا ويعمل به والباطل باطلاً ولا يعمل به، وأيضًا البصير من كان الله بصره فبه يبصره، والسميع من كان الله سمعه فيسمع به، ومن أبصر بالله لا يبصر غير الله، ومن سمع بالله لا يسمع إلا من الله، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:24] أي: أفلا تتذكرون يوم الميثاق إن كنتم تسمعون خطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] بالله من الله تصبرونه به وتعرفونه به وتحبونه به.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود: 25 - 28].

ثم أخبر عن قوم عموا وصموا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [هود:25] أي:

---

(1) فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثالين، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. أو تشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالضد ، فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة. البحر المديد (3 / 40).

نوح الروح، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [هود:25] وهم القلب والنفس والبدن، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [هود:25] أي: منذر بالحقيقة، ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود:26] أي: لا تعبدوا الدنيا وشهواتها والآخرة ودرجاتها، فإن عبادة الله مهما كانت معلولة بشيء من الدنيا والآخرة فإنه عبد ذلك الشيء لا الله على الحقيقة، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:26] وهو يوم القطيعة عن الله، وعذاب الفرقة شديد، وألم البعد عظيم، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [هود:27] وهم القلب والنفس والهوى والطبيعة البشرية.

﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود:27] أي: مخلوقًا محتاجًا مثلنا، وفيه إشارة أخرى وهي النفس سفلية وطبعها سفلي ونظرها سفلي، والروح علوي وله طبع علوي، فالروح العلوي من خصائصه دعوة غيره إلى عالمه؛ لأنه بنظره العلوي يرى شرف العلويات وعزتها، ويرى السفليات وخستها وذلتها، فمن طبعه العلوي يدعو السفلي إلى العلويات، والنفس السفلي بنظرها السفلي لا ترى العلويات ولا تميل بطباعها السفلية إلى العلويات؛ بل تميل إلى السفليات وترى بنظرها السفلي كل شيء سفليًا فتدعو غيرها إلى عالمها، فمن هاهنا ترى الروح العلوي بنظر المثلية، فكذلك صاحب هذه النفس يرى صاحب الروح العلوي بنظر المثلية فيقول: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾ [هود:27] فلهذا ينظرون إلى الأنبياء ولا ترضيهم النبوة؛ بل يرونهم بنظر الكذب والسحر والجنون، ويرون أتباع الأنبياء بنظر الحقارة كما قالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود:27].

فأمَّا الأراذل من أتباع الروح والبدن وجوارحه الظاهرة، فإن الغالب على الخلق أن البدن يقبل دعوة الروح، ويستعمل الجوارح بالأعمال الشرعية؛ ولكن النفس الأمارة تكون على كفرها ولا تخلي البدن أن يستعمل بالأعمال الشريعة الدينية إلا لغرض فاسد ومصلحة دنيوية كما هو المعتاد لأكثر الخلق.

قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود:28] برهان من شواهد الحق، ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود:28] موهبة مواهب الحق ونورًا يهتدي به، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود:28] وهي أن النفس بمعزل من رؤية الحق وآياته ومواهبه

وشواهده، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود:28] أي: أنلزمكم رؤيتها، ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:28] وهي أن النفس كارهة بطبعها لطلب المقامات العلية والأحوال السنية.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: 29 - 32].

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [هود:29] أي: على دعوتكم من السفليات إلى العلويات وجوار رب العالمين، ﴿مَالًا﴾ [هود:29] مما يميلون إليه من الشهوات السفلية؛ لأنها ليست من مشاربه، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ [هود:29] لما دون مشربي هو الواردات الإلهية والشواهد الربانية، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [هود:29] يشير إلى أن النفس من طبعها أنها تنادي من استعمال البدن وجوارحه في تكاليف الشرع فيستدعي من الروح ويقول: أتريد أن أؤمن بك وأتخلق بأخلاقك، فامنع البدن وجوارحه من استعمال الشرعية فيجتنبها الروح ويقول: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ﴾ مانع الذين آمنوا من البدن وجوارحه من استعمال الشرعية؛ لأنهم اعتقدوا ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ بالعين التي هي ناظر بهم وهي مستفادة من رؤية الحق من الأنوار المودعة في أعمال الشريعة.

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ﴾ [هود:29] يا نفس الهوى والطبيعة، ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: 29] لا تقبلون بجهلكم دعوة قبلها البدن وجوارحه في العبودية للرجوع إلى حضرة الربوبية والاستعداد بالرؤية.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ [هود:30] أي: من يمنعني من عذاب الله وقهره إن منعت البدن من الطاعة والعبودية، واقتصر على مجرد يقين النفس وتخلقها بأخلاق الروح كما هو معتقد أهل الفلاسفة وأهل الإباحة بأن يقولوا: إن أصل العبودية معرفة الربوبية وجمعية الباطن والتحلية بالأخلاق الحميدة، فلا عبرة للأعمال البدنية كذبوا الله ورسوله فضلوا وأضلوا كثيرًا، وإن القول ما قال المشايخ: الظاهر عنوان الباطن، وقال

النبي ﷺ: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى تستقيم أعماله»(1) يعني: أركان الشريعة على جوارحه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:30] أن جمعية الباطن واستقامة الإيمان من نتائج استعمال الشريعة في الظاهر، والجمعية الحقيقية في الباطن هي المتولدة من الأنوار المودعة في أركان الشرع تسري إلى الباطن عند استعمال الشريعة في الظاهر وإن الله تعالى أودع النور في الشرع والظلمة في الطبع، وإنما بعث الأنبياء ليخرجوا الخلق من ظلمات الطبع إلى نور الشرع، فافهم جدًّا.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ [هود:31] يعني: المواهب المخزونة المكنونة عند الله في الغيب، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [هود:31] أي: وما أنا بقادر على ما في الغيب المعنى ليس في هذه الأشياء لأدعوكم إلى نفسي وأدعوكم إلى اتباعي بها، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود:31] لا أحتاج في الاستكمال إلى البدن وجوارحه، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود:31] أي: البدن وجوارحه الذين تنظرون إليهم بنظر الحقارة، ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا﴾ [هود:31] أي: استعدادًا لتحصيل الدرجات العلوية إذ هم مخلوقون من السفليات، ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [هود:31] أي: في نفس كل جارحة من استعداد تحصيل الكمال.

﴿إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:31] أي: منعتهم عن العبودية، ﴿قَالُوا يَا نُوحُ﴾ أي: يا روح، ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ في طلب الحق ووعدتنا العذاب على رد الدعوة، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود:32].

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: 33 - 37].

(1) ذكره حقي في تفسيره (5/ 402).

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ﴾ [هود:33] فيه إشارة بهم إلى أن وقوع العذاب بمشيئة الله لا بالأعمال الموجبة للوقوع، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود:33] أي: بمعجزي الله أن يأتيكم العذاب في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ﴾ [هود:34] في الأزل، ﴿أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:34] إشارة إلى أن نصح الأنبياء ودعوتهم لا يفيد الهداية مع إرادة الله الغواية.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود:34] أي: استعداد، ﴿مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:8] أي: صفة من السعادة التي أراد بكم ربكم، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:34] على طريق السعادة والشقاوة كما شاء في الأزل، ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ [هود:35] النفس والهوى والطبيعة، ﴿افْتَرَاهُ﴾ [هود:35] الروح، هذه المعاني من عنده.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ [هود:35] أي: إجرام افترائي، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود:35] من التكذيب، وفيه إشارة إلى أن ذنوب النفس لا تنافي صفاء الروح ولا يكدرها ما كان الروح متبرئًا من ذنوب النفس متأسفًا على معاملات النفس وتتبع هواها.

ثم أخبر عن أهل الإيمان وأهل الخذلان بقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ﴾ [هود:36] أي: نوح الروح، ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ﴾ [هود:36] وهم القلب وصفاته، والسر والنفس وصفاتها، والبدن وجوارحه، ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:36] من خواص العباد وهم: القلب وصفاته، والسر وصفات النفس والبدن وجوارحه، فأمَّا النفس فإنها لا تؤمن أبدًا اللهم إلا نفوس الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وخواص الأولياء، فإنها تسلم أحيانًا دون الإيمان وحال النفوس كأحوال الأعراب كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14] فإن معدن الإيمان القلوب ومظهر الإسلام النفوس؛ لأن الإسلام الحقيقي الذي قال تعالى فيه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر:22] وهو ضوء قد انعكس من مرآة القلب المنور بنور الإيمان، وأمَّا إسلام الأعراب إذ قال تعالى لهم: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ لم يكن ضوء منعكسًا من مرآة القلب المنور، ولكن هو ضوء

منعكس من النور المودع في كلمة التوحيد والشهادتين والأعمال الصالحة المشروعة عند إتيانها بالصدق.

فاعلم أن إيمان الخواص ينزل من الحق تعالى بنظر عناية القلوب القابلة للفيض الإلهي بلا واسطة، وإيمان العوام يدخل في قلوبهم من طريق الإقرار باللسان والعمل بالأركان، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود:36] نفوس السعداء من أعمال الشر، فإنها لهم كالجسد للإكسير ينقلب ذهبًا مقبولاً عند طرح الروح عليها، كذلك تنقلب أعمال الشر خيرًا عند طرح التوبة عليها.

كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:70] ولا تبتئس على نفوس الأشقياء بما كانوا يفعلون؛ لأنها حجة الله على شقاوتهم وبتلك السلاسل يسحبون في النار على وجوههم.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(1) [هود:37] أي: اتخذ يا نوح الروح سفينة الشريعة بنظرنا لا بنظرك، فإن نظرك تبع الحواس يبصر ظاهرها، ويغفل عن حقائقها وأسرارها وحكمها ومعانيها، فتجرد عن آفات الحواس والوهم والخيال والنفس وصفاتها والعقل المنسوب بها؛ لتستحق تزكية النفس تحليها الإلهامات الربانية بفجور النفس

(1) قال البقلي: في هذه الكلمة إشارة عين، وذلك استعارة عين الربوبية من عيون الأزلية، ليبصر بها حقائق الصنوع في علم الله، فيصنع الفلك بمنقوشه على نقش خاتم علم ملك الأزل أي: اصنع الفلك بعيني كما كنت أردت وجود السفينة في الأزل، وذكر الأعين، وهذا إشارة إلى عيون الصفات التي معادن أنوارها حقائق الذات أي: لتصف عينك في صناعة الفلك بأعين الصفاتية لترى بها ما أردنا من هيئتها وتركيبها، وذلك موجودٌ في كلامه على لسان نبيه ﷺ؛ حيث حكى عن الله سبحانه بقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به». وأيضًا: فيه تقاضا جريان العبودية في مشاهدة الربوبية كقوله ﷺ: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه». وأيضًا أي: كن في عيون رعايتنا وحفظنا، ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد؛ فإن من نظر إلى غيري احتجب بغيري عني.

قال بعضهم: أسقط عن نفسك تدبيرك، واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك، ومشاهدة أحد من الخلق.

وقال بعضهم: اصنع الفلك، ولا تعتمد عليه؛ فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة، فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت عن أعيننا.

وتقواها؛ لتكون سفينة الشريعة معمولة لنجاة راكبها من طوفان النفس والدنيا.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود:37] أي: النفوس فإن الظلم شيمتها، ﴿إنه كان ظلومًا جهولاً﴾؛ لأنها تضع الأشياء في غير موضعها تضع عبادة الحق في هواها والدنيا وشهواتها، وهذا الخطاب يحسم مادة الطمع من إيمان النفوس، وفيها حكمة يطول شرحها، ومنها ترقي أهل الكمالات إلى الأبد، فافهم جدًّا.

وإن النفس ممكر مكر الحق حتى لا يأمن منها وصفاتها، ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: 37] في طوفان الفتن إلا من سلمه الله منه، والسلامة في ركوب سفينة الشريعة فإن نوح الروح إن لم يركبها كان من المغرقين.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود:38] أي: عند تركيب أركان سفينة الشريعة واستعمالها، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [هود:38] وهم النفس وهواها وصفاتها، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:38] أي: استعمال أركان الشريعة الظاهرة، فإنها بمعزل عن أسرارها وأنوارها، ﴿قَالَ﴾ [هود:38] يعني: نوح الروح، ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ [هود:38] بجهلكم عن فائدة هذه السفينة، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ [هود:38] إذ نجونا وهلكتم لعلمنا بها وجهلكم بها، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:38] منا بجهلكم بها.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)﴾ [هود: 39 - 44].

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود:39] أي: عذاب القطيعة أن يبعده عن الحق، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود:39] أي: عذاب الفرقة الأبدية.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود:39] وهو حد البلاغة التي يكون العبد مأمورًا

بالركوب على سفينة الشريعة، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود:40] أي: يفور ماء الشهوة من تنور القالب ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ﴾ [هود:40] في سفينة الشريعة، ﴿مِن كُلٍّ﴾ صفة من صفات النفس، ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود:40] أي: كل صفة وزوجها كالشهوة وزوجها العفة، والحرص وزوجه القناعة، والبخل وزوجه السخاوة، والغضب وزوجه الحلم، والحقد وزوجه السلامة، والعداوة وزوجها المحبة، والتكبر وزوجه التواضع، والتأني وزوجه العجلة.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود:40] أي: واحمل معك أهلك صفات الروح ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود:40] من النفس، ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ [هود:40] أي: آمن معك من القلب والسر ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ﴾ [هود:40] غالبًا، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:40] من صفات القلب فيه إشارة إلى أن كل ما كان من هذه الصفات وأزواجها في معزل عن سفينة الشريعة فهو غريق في طوفان الفتن، وهذا رد على الفلاسفة والإباحية فإنهم يعتقدون أن من أصلح أخلاقها الذميمة وعالجها بضدها من الأخلاق الحميدة فلا يحتاج إلى الركوب في سفينة الشرع ولا يعلمون أن الإصلاح والعلاج إذا صدرا من طبيعة لا يفيد أن النجاة؛ لأن الطبيعة لا تعلم كيفية الإصلاح والعلاج ولا مقدار تزكية النفس وتحليتها، وإن كانت الطبيعة واقفة على صلاح النفس وفسادها لعالجها في ابتداء أمرها وما كانت النفس محتاجة إلى طبيب عالم بالأمراض ومعالجتها وهم الأنبياء - عليهم السلام - حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة:2] ليعلموا المرض من الصحة والداء من الدواء.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:2] فبالتزكية عن الصفات الطبيعية يستحقون تحلية أخلاق الشريعة الربانية.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ [هود:41] وهذا الأمر بالركوب يشير إلى كشف سر من أسرار الشريعة وهو أن من ركب سفينة الشرع لا بالطبع وتقليد الآباء والمعلمين لم تنفعه النجاة بالحقيقة، كما ركب المنافقون بالطبع لا بالأمر فلم ينفعهم، وكما ركب إبليس بالطبع في سفينة نوح فلم ينفعه، وإنما النجاة لمن ركب فيها بالأمر وتحفظ أدب المقام بقوله: ﴿بِسْمِ

الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود:41] أي: يكون مجراها من الله ومرساها إلى الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:42]، ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ [هود:41] بالنجاة لمن ركبها بالأمر لا بالطبع، ﴿رَحِيمٌ﴾ [هود:41].

﴿وَهِيَ تَجْرِي﴾ [هود:42] يعني: سفينة الشريعة، ﴿بِهِمْ﴾ [هود:42] بمن ركبها بالأمر، ﴿فِي مَوْجٍ﴾ [هود:42] أي: موج الفتن، ﴿كَالْجِبَالِ﴾ [هود:42] من عظمتها، ﴿وَنَادَى نُوحٌ﴾ [هود:42] الروح، ﴿ابْنَهُ﴾ [هود:42] كنعان النفس المتولدة بينه وبين القلب، ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ [هود:42] من معرفة الله وطلبه، ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ [هود: 42] سفينة الشريعة ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:42] من الشياطين المتمردة والأبالسة الملعونة المطرودة، ﴿قَالَ﴾ [هود:43] يعني: كنعان النفس، ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ﴾ [هود:43] أي: جبل العقل، ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:43] من ماء الفتن.

قوله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [هود:43] يعني: إذا نبع ماء الشهوات من أرض البشرية ونزول ماء ملاذ الدنيا وفتنها من سماء القضاء لا يتخلص منه بسفينة الشريعة فلا عاصم منه غيرها، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:43] أي: يرحمه الله بالتوفيق للاعتصام بسفينة الشريعة، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ [هود:43] أي: بين كنعان النفس المعتصم بجبل العقل وبين العقل موج الشهوات النفسانية الحيوانية وفتن زخارف الدنيا، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[1] [هود:43] يعني: كل نفس لا تعتصم بسفينة الشريعة

---

(1) قال المحقق البقلي: إن الله سبحانه أدّب نبيه نوحًا عليه السلام هاهنا؛ عرفه سابق العلم في غرقهم وهلاكهم؛ ليعرف طريق الدعاء ومكانه، وعرف أنه سبق بالدعاء عليهم.

وقيل: ذلك ولم يقبل هاهنا؛ لأن دعاء الأول موافق القدر، والعارف المجاب إذا دعا على أحدٍ بعد ذلك.

ألا ترى إلى قول ذي النون عليه السلام حيث دعا على أهل سعايته كيف كانوا يغرقون، فقال بعد ذلك: إلهي تبت، ألا أدعو على أحد من عبادك بعد ذلك، وفيه وصف رقة قلب نبيه عليه السلام عليهم بعد احتمال جنونهم وأذيتهم، وهكذا يكون شأن الصادقين.

قال ذو النون: إن كنت قد أيدت في الأزل بشيء من العناية فقد نجوت، وإلا فإن النداء والدعاء لا ينقذ الغرقى.

وتريد أن تعتصم بجبل العقل لتتخلص به من طوفان الفتن المهلكة كما هو حال الفلاسفة لا يتهيأ له متمناه وهو من الهالكين.

ثم أخبر عن حالة من ركب سفينة الشريعة بقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود:44] ماء شهواتها، ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾ [هود:44] الفضاء، ﴿أَقْلِعِي﴾ [هود:44] عن إنزال مطر الآفات، ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [هود:44] أي: ماء الفتن أي: نقض ظلمتها بنور الشرع وسكنت سورتها، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [هود:44] أي: انقضى ما كان مقدار من طوفان الفتن للابتلاء والتربية، ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ [هود:44] أي: سفينة الشريعة، ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود:44] وهو مقام التمكين يعني: أيام الطوفان كانت مقام التكوين في معرض الآفات والهلاك، فلما مضت تلك الأيام الأمر إلى مقام التمكن وفيه النجاة والثبات ونيل الدرجات، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ [هود:44] أي: فرقة وهلاكًا، ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:44] الذين ظلموا أنفسهم بالتقاعد عن ركوب الشريعة.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: 45 - 49].

ثم أخبر عن آفة الطبيعة مع أهل الشريعة بقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ﴾ [هود:45] أي: نوح الروح، ﴿رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي﴾ [هود:45] أي: النفس المتولدة من ازدواج الروح والقالب، ﴿مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود:45] وذلك أن الله تعالى لما أراد بحكمته أن ينزل الأرواح المقدسة العلوية من أعلى عليين جواره، وقربه إلى أسفل سافلين القلب قالت أرواح الأنبياء والأولياء وخواص المؤمنين: يا ربنا وإلهنا تنزلنا من أعلى مقامات قربك إلى أسفل دركات بعدك، ومن عالم البقاء إلى عالم الفناء، ومن دار السرور واللقاء إلى دار الحزن والبلاء، ومن منزل التجرد والتواصل إلى منزل التوالد والتناسل،

ومن رتبة الاصطفاء والاجتباء إلى مرتبة الاجتهاد والابتلاء، فوهبهم الله من عواطف إحسانه بأن ينجيهم وأهليهم من ورطات الهلاك، فكان من قضية حكمته أن يكون لنوح ﷺ أربعة بنين: ثلاثة منهم مؤمنون وواحد كافر، فكذلك حكم أن يكون للروح أربعة بنين: ثلاثة منهم مؤمنون وهم: القلب والسر والعقل، وواحد كافر وهو النفس، فكما كان ثلاثة من بني نوح معه في السفينة، وكان واحد في معزل منه، فكذلك ثلاثة من بني الروح معه كانوا معه في سفينة الشريعة وكان واحد وهو كافر النفس في معزل منه من الدين والشريعة، فلما أشرف ولده الكافر على الغرق في بحر الدنيا وطوفان الآخرة.

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:45] يعني: فإن أنجيته أو أغرقته أنت أعدل العادلين فيما تفعل؛ لأنك حكيم وأحكم الحكماء لا تخلو أفعالك من حكمة وعدل أنت أعلم بها.

﴿قَالَ﴾ [هود:46] أي: الرب تعالى للروح، ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46] أي: من أهل دينك وملتك والأهلية على نوعين: أهلية القرابة والدين وما نفى أهلية القرابة لتولدها من الروح ثم أظهر علة نفي الأهلية الدينية فقال: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:46] أي: خُلق الأمارية بالسوء وهذه سيرتها أبدًا، ثم أدب الروح آداب أهل القُربة فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود:46] أي: علم حقيقي بأن يجوز أهل القربة على بساط القرب هذا الانبساط ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ [هود:46] يا روح القدس ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ [هود:46] أي: على البساط بهذا الانبساط.

﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: من النفوس الجاهلة الظالمة، وفيه إشارة إلى أن الروح العالم العلوي يصير بمتابعة النفس وهواها جاهلًا سفلي الطبع دنيء الهمة، ﴿قَالَ﴾ [هود:47] أي: الروح ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود:47] من التماس نجاة النفس الممتحنة بآفات الدنيا وشهواتها من طوفان الفتن، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ [هود:47] تؤدبني بأنوار المغفرة ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ [هود:47] على عجزي عن الاهتداء بغير هداك ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:47] يشير إلى الرحمة وهي المانعة للروح من الخسران.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ﴾ [هود:48] أي: نوح الروح، ﴿اهْبِطْ﴾ [هود:48] إنزل من سفينة

الشريعة وتحمل تكاليفها عند مفارقة الجسد وخلاص طوفان النفس، ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود:48] السلام: هو النجاة، والبركات: هي الدرجات، ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود:48] في سفينة الشريعة من القلب والسر والنفس والعقل، ﴿وَأُمَمٌ﴾ [هود:48] أي: النفوس التي لم تكن مع الروح في سفينة الشريعة، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ [هود: 48] من الحظوظ النفسانية الدنيوية، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا﴾ [هود:48] من بعدنا، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:48] تمنعها من الحظوظ، وتمرنها على الانقياد.

ثم أخبر أن هذه الإشارات في تربية الروح والنفس في بيان حالها وفساد أمرها أمور غيبية فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود:49] يا محمد، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود:49] أي: من قبل أن أشرنا بها إليك وعلمناكها، ﴿فَاصْبِرْ﴾ [هود:49] على تربية الروح والنفس على ما أشرنا به إليك، ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ [هود:49] أي: الخاتمة الحسنة، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:49] لمن اتقى عن طوفان فتن الدنيا والنفس والهوى بسفينة الشريعة عن تشييد هذه القاعدة.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53)﴾ [هود: 50 - 53].

وتأكيد هذه الفائدة بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود:50] القصة، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود:50] يشير بهود إلى القلب، وبعاد إلى النفس وصفاتها، فإن القلب أخو عاد النفس؛ لأنها قد تولد من ازدواج الروح والقالب، والمعنى: إنا أرسلنا هود القلب إلى عاد النفس كما أرسلنا نوح الروح إلى قومه، وبهذا المعنى يشير إلى أن القلب قابل لفيض الحق تعالى، كما أن الروح قابل لفيضه.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ [هود:50] يشير إلى أن النفس وصفاتها أن يتوجهوا لعبودية الحق وطلبه، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:50] أي: ليس لشيء دونه استحقاق

معبوديتكم ومحبوبيتكم ومطلوبيتكم، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود:50] فيما تتخذون الهوى والدنيا معبودًا ومطلوبًا، ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود:51] أي: على تبليغ ما أنزلنا إليكم؛ لا أطلب منكم أجرًا من ثناء الخلق والجاه عندهم، وأمثال هذا مما يتعلق بمشارب النفس؛ لأنه ليس من مشرب القلب، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: 51] مما يتعلق بلوامع النورانية وطوالع الروحانية وشواهد الربانية، فإنها من مشارب القلوب، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود:51] أن مشربي غير مشربكم.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾[1] [هود:52] أي: اطلبوا منه المغفرة، فإنها صفة من صفاته، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:52] أي: بمعاونة صفة المغفرة ارجعوا إلى حضرة الربوبية، فإن السير إليه لا يمكن إلا به كما كان حال النبي ﷺ، قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:1].

---

(1) قال المحقق البقلي: استغفروا من جنايات الأسرار، وتوبوا إليه لطلب الأنوار بترك النظر إلى الأغيار. قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار تقديسٌ، والتوبة تخليصٌ، الاستغفار من الزلل، والتوبة من الغفل. سُئل سهل بن عبد الله عن الاستغفار فقال: هو الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والاستغفار بالظاهر، والإنابة بالقلب، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها. وقال بعضهم: استغفروا ربكم عن الدعاوي، وتوبوا إليه من الخطرات المذمومة.

وقال يوسف: استغفار العام من الذنوب، واستغفار الخاص من رؤية الأفعال دون رؤية المنة والفضل، واستغفار الأكابر من رؤية كل شيء سوى الحق لما بلغت في ذكر التفسير، إلى هاهنا سألني بعض أهل الصحبة عن حقائق استغفار العارفين؟ فقلت: استغفارهم عن كون وجودهم مع كون الحق، وعن تقصيرهم في المعرفة عن إدراك حقائق صفات معروفهم، وعن دعوى الأنانية في السكر في مقام صحوهم، وعن غاشية عين العبودية في مشاهدة الربوبية. ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إنه ليغانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»، ومن جملة استغفاره ﷺ في هذا المقام استغفار من رؤية وجوده الحق، وعن رؤية مشاهدة الالتباس في رؤية مشاهدة صرف الوحدانية، وعن خواطر الأنانية. ثم بينَّ أنه تعالى يجازيهم بعد رجوعهم مما سوى الحق إلى الحق بالتمتع بلقائه ووصاله والفرح بجماله أبد الآبدين بقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ المتاع الحسن أنوار المواجيد على الدوام، وصفاء الأحوال على السرمدية، وسنا الأذكار وحلاوة الأفكار، ونزول حقائق الكواشف، وظهور لطائف المعارف، والفرح برضوان الله، ولين العيش في مشاهدة الله، ما أحسن هذا المتاع منا في من الدنيا لقاؤك مرة! فإن نلتها استوفيت كل منائيا.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود:52] أي: إذا رجعتم به إليه يرسل عليكم مطر أصناف الألطاف الإلهية وأنوار الفيض الربانية مدرارًا من سحاب العناية، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ [هود:52] التأييد الرباني، ﴿إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:52] من أنوار الإيمان، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ [هود:53] عن الحق وطلبه، ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هود:52] في طلب غيره يشير إلى صدق التوجه وثبات قدم الطلب، ﴿قَالُوا﴾ [هود:53] أي: النفس وصفاتها.

﴿يَا هُودُ﴾ [هود:53] أي: يا قلب، ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:53] برهان نستدل به على ما يقول إنه الحق وهو طريق الحق، وبه يتوصل إلى الحق والبرهان، واردات ترد على القلوب من علام الغيوب فتعجز النفس عن تكذيبها لصدمات سطواتها، وكل نفس لم يأت القلب إليها بهذا البرهان لا تتابع القلب، وتقول: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ [هود:53] من الشهوات والمستلذات الحيوانية.

﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود:53] أي: بمجرد قولك من غير التأييد الرباني ودلائل البرهان، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:53] بمصدقين بالبرهان.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (56) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)﴾ [هود: 54 - 60].

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:54] أي: ما نقول في سبب دعوتنا إلى غير مشاربنا لك إلا بعض مشتهياتنا تبعك في الطلب وعز عليك تحصيله، فأردت أن تترك مشاربنا ونطلب مشاربك، ﴿قَالَ﴾ [هود:54] أي: القلب في الجواب، ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾ [هود:54] أنتم أيضًا، ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود:54] ﴿مِن دُونِهِ﴾ [هود:55] أي: بريء من المشارب كلها غير مشرب يسقيني فيه الله ﷻ من شراب طهور

يطهرني من لوث الحدث.

ثم قال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود:55] يا نفس الهوى والشيطان والدنيا، فيها إشارة إلى أن النفس وأخواتها في كيد القلب على الدوام والقلب المؤيد بالتأييد الرباني لا يبالي بكيدهم، وأنه متوكل على الله في جميع الحالات متظهر به حتى يقول: ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:55] فيما تقدرون في كيدي وعداوتي، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود:

56] أي: هو الذي يربيني على طلب الحق، ويربيكم على طلب الباطل، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[1]

(1) قال المحقق البقلي: دعا الجمهور بلسان التوحيد إلى منازل التفريد؛ ليدخلوا إلى مرابع الرضا، ويجلسوا على مساند الصفا، وينظروا في مرآة الأقدار مباصر الأنوار، لتطمئن أسرارهم في جريان التقدير، بما رأوا من سوابق القسمة، وأوائل الحكمة لكل دابة رزق عليه بقدر حوصلتها، فرزق الظاهر للأشباح، ورزق المشاهدة للأرواح، ورزق الوصلة للأسرار، ورزق الرهبة للنفوس، ورزق الرغبة للعقول، ورزق القربة للقلوب، ورزق الملائكة الخوف والذكر، ورزق الجن الزجر والوعيد، ورزق الحيوان روح العنصر، ورزق الحشرات خطرات التسبيح، ورزق السباع اقتحام ظلام عظمة الأفعال، ورزق الطيور الفرح والتهليل، ورزق الإنسان الذي تعيش به هو فيض الفعل وروح الفعل، ونور الصفة وشهود سنا الذات على الأسرار، وهو تعالى بلطفه يعلم مصارف الجميع من أفعاله وصفاته وذاته لمّا قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: مستقر الأرواح أنوار ذاته، ومستقر القلوب أنوار صفاته، ومستقر العقول أنوار أفعاله، مستودع العقول العبادات، ومستودع القلوب المشاهدات، ومستودع الأرواح المكاشفات، ومستقر الأشباح أكناف الآيات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قبور المجاهدات، ومستقر العقول الأذكار ومستودعها الأفكار ومستقر القلوب المحبة، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المعرفة، ومستقر الأرواح التوحيد، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الفناء في الموحد مستقر الجميع أصلاب العدم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أنوار القدم. قيل: قرأ يوسف بن الحسين هذه الآية، ثم قال: ندب الله عباده جميعًا إلى التوكل والاعتماد، فأبوا بأجمعهم إلا اعتماد على عواري ما ملكوا إلا فقراء المهاجرين، ثم جرت تلك البركة في الفقراء الصادقين إلى من ترسم بهم من الصوفية، فالخلق أبوا إلا الاعتماد على الأسباب، وأبت هذه الطائفة أن تعتمد على غير المسبب، وهو من أشد المناهج. قيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ظاهر إسلامه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ باطن إيمانه. وقيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ من الخلق، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ من الحق. وقيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الطاعات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأحوال. يقال: مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد. ويقال: النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قِبَل الله. قيل: القلوب مستودع المعرفة، والمعرفة وديعةٌ فيها، والأرواح مستودع المحبة، فالمحاب ودائعٌ فيها، والأسرار

[هود:56] تدب في طلب الخير والشر، ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:56] يجرها بها إلى الخير والشر وهي في قبضة قدرته مذللة.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:56] في إصلاح أهل الخير وإفساد أهل الشر، وفيه إشارة أخرى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يدل طالبيه به عليه بقوله: من طلبه فليطلبه على صراط مستقيم الشريعة على أقدام الطريقة، فإنه يصل إليه بالحقيقة، وأيضًا يعني: الصراط المستقيم هو الذي ينتهي إليه لا إلى غيره كقوله:﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم:42]، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [هود:57] طالبو غير الله عن طلب الله قل يا قلب.

﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [هود:57] بالإلهام ، ﴿مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [هود:57] من دعوتكم إلى الحق أي: فإن لم تستجيبوا لي فيما دعوتكم إليه وهو طلب الكمال لاستحقاق الخلافة التي خلق الخلق لأجلها كما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30] يجعل الله تعالى خلافته في مستحقيها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا﴾ [هود:57] مستحقين لها، ﴿غَيْرَكُمْ﴾ [هود:57] وهو الروح والسر والقلب.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود:57] أي: لمن يجعله الله خليفة، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود:57] ليحفظه في خصوصيته السيئة لا يقدر أحد على تغييرها، فلا يقدروا أهل الشقاوة على تغيير سعادة أهل السعادة، ولا أهل السعادة قادرون على تغير شقاوة أهل الشقاوة؛ لأن كلها محفوظة بحفظ الحق.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود:58] بالشقاوة لأهل الشقاوة، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود:58] القلب، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود:58] من الروح وصفاته والبدن وجوارحه، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود:58] بعناية سابقة، ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ﴾ [هود:58] من الشقاوة، ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:58] فيه إشارة إلى أن العذاب نوعان: خفيف وغليظ، فالخفيف: هو عذاب الشقاوة المقدرة قبل خلق الخلق، والغليظ: هو عذاب الشقي بشقاوة معاملات الأشقياء التي تجري عليه مع شقاوته المقدرة له قبل الوجود.

ثم أخبر عن عاد النفس المخلوقة على الجحود لا تغيرها الآيات وشهودها، فقال:

-

مستودع المشاهدات، فالمشاهدات ودائع الله.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود:59] أي الروح والقلب والسر، فإنهم رسل الحق إلى النفس والبدن، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ [هود:59] على الحق، ﴿عَنِيدٍ﴾ [هود:59] عاند الحق؛ لأنها مجبولة عليها لسر عظيم وشأن جسيم، ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [هود:60] بالطرد عن الحضرة إلى طلب شهوات الدنيا ونصيب وجدانها وتعب فقدانها، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود:60] بالبعد والخسران والحرمان وعذاب النيران، ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا﴾ [هود:60] أي: النفس وصفاتها، ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود:60] بأن آمنوا بغيره وطلبوه وأعرضوا عن الله وطلبه، ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ [هود:60] وطردًا وفرقة وقطيعة وحسرة، ﴿لِعَادٍ﴾ [هود:60] النفس، ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:60] أي: هم قوم لم يقبلوا نصيحة هود القلب، وما تركوا مشاربهم الدنيوية الفانية وتركوا مشارب القلب الدينية الباقية.

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود: 64 - 68].

ثم أخبر عن تأكيد هذه المعاني وتشييد هذه المباني بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود:64] والإشارة فيه ما سبق ذكره في قصة هود وعاد إلى قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [هود:64] يشير بالناقة إلى ما أخرج الله له بضرب عصا صالح القلب وهي عصا الذكر على صخرة السر من ناقة عشراء، وهو حكمة الله تعالى تضع في الحال فصيل تفصيل الدين وأحكامه، وهي آية يستدل بها على حكيم هذه الحكمة.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ [هود:64] أرض البشرية عشب صفاتها ونبات خواطرها ودواعيها وتشرب من مشارب ثمود النفس شهواتها يوم وردها عند غلبات واردات ويحلبون لبنها لبن الأسرار والمعاني مثل الذين كنتم تشربون من ماء الشهوات يوم عيشها؛ يعني: عند عدم غلبات الواردات، وهو عبارة عن حال الصحو والسكر والستر والتجلي.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [هود:64] أي: لا تنحروا ناقة الحكمة بحرية معاملات الجهالة، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:64] وهو عذاب الجهل الذي يحصل في الحال عند انعدام الحكمة، فإنه إيذاء أردأ من الجهل، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [هود:65] يشير إلى ثمود النفس الأمارة بالسوء فمسوها بسوء، ﴿فَقَالَ﴾ [هود:65] صالح القلب، ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ [هود:65] أي: الدنيا، فإنها مسكن النفس ومقرها.

﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:65] اليوم الأول: هو يوم الجهل وفيه تصفر الوجوه، واليوم الثاني: هو يوم الغفلة وفيه تحمر الوجوه، واليوم الثالث: هو يوم الدين والختم على القلوب وفيه تسود الوجوه، ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:65] لأن وقوعه بالبعد في الحال، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود:66] بالعذاب.

﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ [هود:66] أي: صالح القلب، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود:66] من الروح والسر وغيرهما من البدن وجوارحه، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود:66] وهي توفيق أعمال النجاة، ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود:66] أي: نجيناهم من الهلاك هلاك الدين ومن خزي يوم القيامة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ [هود:66] الذي يربيك يا قلب، ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ [هود: 66] على تربيتك وحفظك من آفة الهلاك والفساد، ﴿الْعَزِيزُ﴾ [هود:66] في تقوية أهل العزة وتربيتهم.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود:67] وضعوا عبادة الله ومحبته في غير موضعها من الدنيا والهوى وهو ثمود النفس وصفاتها، ﴿الصَّيْحَةُ﴾ [هود:67] وهي صاعقة القهر وفيها صوت كل شيء في الأرض أي: صوت تعلق كل شيء من الدنيا وشهواتها جمعت فعادت صاعقة القهر، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود:67] وهي أسفل السافلين الطبيعة.

﴿جَاثِمِينَ﴾ [هود:67] هالكين، ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود:68] كأن لم يفهموا فيها سالمين، ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ﴾ [هود:68] ثمود النفس، ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود:68] ستروا الحق بالباطل.

﴿أَلَا بُعْدًا﴾ [هود:68] طردًا ولعنًا، ﴿لِثَمُودَ﴾ [هود:68] النفس عن الحضرة في قول النبي ﷺ إشارة أي: خلال النفس وصفاتها بعذاب البعد عن صاعقة القهر إلا ما كان

في حرم الله تعالى وهو الشريعة يعني: النفس وصفاتها وإن لم تكن آمنت ولكن التجأت إلى حرم الشريعة، آمنت من عذاب البعد فيكون بقدر التجائها في القرب وجوار الحق وهو الجنة، ولهذا قال للنفس المطمئنة: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29ـ30].

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود: 69 - 76].

ثم أخبر عن مظهر اللطف بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ [هود:69] الجليل إلى الخليل وبشرى سلام الجليل، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ [هود:69] أي: نبلغك سلامًا قولاً من رب رحيم، ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود:69] أي: علينا سلام الجليل وهذا كما كان حال الحبيب ليلة أسري به قال: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» قال الحبيب ﷺ: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[1] والفرق بين الحبيب والخليل أن سلام الحبيب بلا واسطة وسلام الخليل بواسطة الرسل، وفي سلام الحبيب زيادة رحمة الله وبركاته، ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:69] تكرمة لسلام الخليل وإعزازًا لرسله.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود:70] ما كان خوف إبراهيم خوف البشرية على نفسه، فإنه حين رمي بالمنجنيق إلى النار ما خاف على نفسه وقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131] وإنما كان خوفه خوف الرحمة والشفقة على قومه يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:

(1) أخرجه أحمد (1/ 427، رقم 4064)، والبخاري (5/ 2301، رقم 5876)، ومسلم (1/ 301، رقم 402)، وابن حبان (5/ 284 ، رقم 1955)، وأبو يعلى (9/ 68، رقم 5135).

70] أي: ما أرسلنا إلى قومك فكن طيب النفس.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ [هود:71] أي: بالخدمة عليهم، ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود:71]، فهذه البشارة لها ما كانت بشارة تتعلق ببشريتها وحيوانيتها، وما كان ضحكها لسرور بحصول الابن الذي هو من زينة الدنيا، وإنما كان ضحكها لسرور نجاة القوم من العذاب، وكان بشارتها نبوة ابنها إسحاق بعد إبراهيم، ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:71] أي: بعد إسحاق يكون يعقوب نبيًّا، وتكون النبوة في عقبهم إلى عهد خاتم النبيين محمد ﷺ، فإنه يكون من عقب إسماعيل ﷺ ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:72] أي: على خلاف العادة وعلى خلاف سنة الله التي قد خلت من قبل.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [هود:73] أي: من قدرة الله، فإن لله تعالى سنة وقدرة، فيجري أمر العوام بمشيئته وأمر الخواص إظهارًا للآية والإعجاز بقدرته فأجرى أمركم بقدرته وهي ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود:73] بيت النبوة كرامة لكم.

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ [هود:73] على ما يجرى في السنة والقدرة، ﴿مَجِيدٌ﴾ [هود:73] فيما ينعم به على العوام والخواص، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ [هود:74] أي: الخوف من هلاك قومه، ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ [هود:74] بنجاتهم، ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 74] لدفع الهلاك عنهم جدال الضعيف مع القوي لا جدال القوي مع الضعيف جدال المحتاج الفقير مع الكريم الغني وجدال الرحمة والمعاطفة.

وطلب النجاة للضعفاء والمساكين الهالكين يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود:75] أي: كان جلاله لحلمه تأوهه عليهم وأنه مع ذلك منيب راجع إلى الله في جميع أحواله أي: ما تكون بعض أحواله مشوبًا بعلة راجعة إلى حفظ نفسه، بل كلها الله وبالله وإلى الله، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [هود:76] أي: عن هذا الجلال بالحلم والرحمة على غير أهل الرحمة، ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود:76] أي:

حكم ربك وقضائه الأزلي فإنه لا راد لحكمة وقضائه، ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[1] [هود:76] بدعًا أحد ولا شفاعة أحد وإنك مأجور مشوب فيما جادلتنا لنجاتهم، وهذا كمال النبي ﷺ يقول: «اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء»[2].

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: 77 - 80].

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود:77] أي: أحزنه مجيئهم وضاق قلبه؛ لأنهم جاءوا لإهلاك قومه كان مجيئهم إبراهيم بشارة لنجاة قومه من الهلاك، وللوط همًا وحزنًا لهلاك قومه بالعذاب، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:77] لأنه كان فيه قطع الرجاء عن إيمان القوم واليأس عن إصلاح حالهم، ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود:78] غافلين عن حالهم جاهلين بما لهم.

﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:78] الموجبة للهلاك والعذاب فجاءوا مسرعين مستقبلي العذاب، وطلبوا من بيت النبوة من أهل الطهارة معاملة سوءتهم نجباته نفوسهم؛ ليستحقوا بذلك كمال الصفات وسرعة العذاب.

﴿قَالَ﴾ [هود:78] لوط عليه السلام حجة عليهم وتأكيدًا لاستحقاقهم العذاب، ﴿يَا قَوْمِ

---

(1) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ دلالة على أن القضاء المبرم لا يُردُّ؛ وهو القضاء الغير المعلّق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:217]؛ فإن مفهومه أنهم لا يستطيعون أن يُردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، مَتْن كل صعب وذلول، لما إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيّر بحال من الأحوال، وأمّا القضاء المعلّق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إمّا أصلية أو عارضة، فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمآل إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد، فالمؤمن الأصلي لا يضرُّه الكفر العارضي، فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله، فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ: إنه كافر لا يضرُّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

(2) رواه البخاري (20/ 147)، ومسلم (17/ 105).

﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:78] كان يفدي أولاده لدفع الهلاك عن قومه، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [هود:78] بترك هذه المعاملة السوء، ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود:78] بإظهار معاملتكم، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:78] يقبل نصحي ويتوب إلى الله بالصدق فينجيكم الله من العذاب ببركته.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود:79] يستحق به تزويجهن، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:79] من هذه المعاملة السوء وهو في الحقيقة طلب ما أعد الله لنا في الأزل من قهره؛ يعني: الهلاك بالعذاب.

﴿قَالَ﴾ [هود:80] يعني: لوط، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود:80] واستطاعة لأردكم عن طلب الهلاك وأمنعكم من العذاب، ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:80] وهو الالتجاء إلى الله تعالى؛ ليؤيدني بالنصرة في منعكم من الهلاك لفعلت، ولكن حكم الله وقضائه سابق وأمره نافذ.

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: 81- 83].

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:81] يعني: هذه القوم لا يصلون إليك وإلى مقام تريد أن توصلهم إليه، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود:81] إلى ما هم فيه من الدنيا وزينتها ومتاعها أراد به تجرد الباطن عن الدنيا وما فيها، فإن التجارة من الهلاك والعذاب منوط به، ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود:81] لأنها تلتفت إلى ما يلتفتون إليه قومك فيصيبها من العذاب والهلاك ما أصابهم. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود:81] صبح يوم وفاتكم، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:81] وهو الموت. ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود:82] أي: حكمنا الأزلي، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾ [هود:82] أي: عالي الدنيا، ﴿سَافِلَهَا﴾(1) [هود:82] يوم القيامة،

(1) إذا طاب عيش العارفين بجمال معروفهم، وسكنوا بمواساة لطائف قربه، واستأنسوا بنرجس مودته، وورد وصلته وياسمين نور صحبته، واطمأنوا في مكانات كشوف غرائب الملك والملكوت، وأمنوا من
-

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [هود:82] أي: على قرى الذوات الخبيثة السفلية، ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي: من سجين جهنم، ﴿مَنْضُودٍ﴾ [هود:82] معداً[1].

﴿مُسَوَّمَةً﴾ [هود:83] باسم صاحبها، ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود:83] وهي إشارة إلى قساوة القلب التي تقسو القلوب، فهي كالحجارة وأشد قسوة، وهي مقدرة تمطر هي كل قلب مقدار ما قدر له يدل عليه قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:83] أي: وما تلك القساوة في قلب الظالمين ببعيد، فإن الظلم من نتائج تلك القساوة.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: 84 - 88].

ثم أخبر عن فعال ناقصي المكيال بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: 84] القصة قوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ يشير إلى أن جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كانت كلمتهم في التوحيد واحدة لأن الإله واحد وهي الدعوة

بليات الامتحان، هاجت غيرة القدم عليهم، وأقلعهم طوارقات القهر، وألقتهم إلى منازل الامتحان، وجعلت أعالي قلوبهم وأحوالهم أسافل نفوسهم وشهواتها، حتى يعرفوا أن ساحة الكبرياء منزهةٌ عن الأنس والوحشة والوجود والعدم، والمريدون إذا استكبروا على المشايخ يقلب الله مواجيدهم بطر النفوس ومجاهدتهم اتباع شهواتهم، الويل لمن كان هكذا المسلم عليهم أحجار البعد، نعوذ بالله منها، وسيماتها تواتر العصيان، والخروج على أطيار بساتين الرحمان، وهذا جزاء من خرج على سادته ومشايخه، [العرائس].

(1) قال ابن عجيبة: مضموم بعضه فوق بعض، معداً لعذابهم، أو متتابع يتبع بعضه بعضاً في الإرسال، كقطر الأمطار. [البحر المديد (3/ 64)].

إلى الواحد بالمعبودية والمعرفة والطلب، ولأنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:84] تعبدونه وتحبونه وتطلبونه غيره ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود:84] أي: مكيال المحبة وميزان الطلب، فإن للمحبة مكيال أو هو عداوة ما سوى الله تعالى كما قال الخليل عليه السلام عند إظهار الخلقة: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، فإنك إن تحب أحدًا أو شيئًا مع الله فقد نقصت في مكيال محبة الله، وإن للطالب ميزانًا وهو السير على قدمي الشريعة والطريقة كما قبل خطوتان وقد وصلت، فإن خطوت خطوة دونهما فقد نقصت من الميزان.

﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود:84] وهو حسن الاستعداد في طلب الحق، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود:84] وهو عذاب فساد الاستعداد وبطلان طلب غير الحق، ودوام إحاطته يوم يكمل فينادي: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود:85] أي: بالقسط على الله في تعظيم أمره وعلى الخلق في الشفقة عليهم، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ حقوقهم من النصيحة وحسن المعاشرة في الله والله، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [هود:85] أرض وجودكم، ﴿مُفْسِدِينَ﴾ [هود:85] استعدادكم بمخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة، ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ [هود:86] أي: بقاؤكم بإبقاء الله، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [هود:86] مما فاتكم بإيفاء المكيال والميزان، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود:86] مصدقين بهذه المقامات والكرامات.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود:86] أي: بحافظ عليكم حسن استعدادكم، فإنما على أن أنصح لكم بحفظ الاستعداد وصرفه في طلب الحق، فإني أدلكم على كيفية الطلب والوجدان، ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ﴾ [هود:87] في طلب الحق بزعمك، ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود:87] من الدنيا وشهواتها وتمتعاتها، ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود:87] من الترك والإنفاق على الفقراء والإخراج من أيدينا ونحن بها من غيرنا، ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:87] فيما تأمرنا أي: ما أنت بحليم ولا رشيد فيما ترشدنا إليه، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود:88] دلالة وهداية من ربي، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ [هود:88] أي: من نور هدايته، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود:88] نورًا

تامًا أرى صلاح الأمور وفسادها، فآمركم بطلب الحق، وأنهاكم عن طلب غير الحق.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ [هود:88] فيها آمركم به، ﴿إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ [هود:88] إصلاح ما أفسدتم من حسن الاستعداد في طلب غير الحق، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود:88] أي: بقدر علمي وبذل جهدي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ [هود:88] في الإصلاح، ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود:88] بعونه وهدايته والتوفيق اختصاص العبد بعناية أزلية ورعاية أبدية، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:88] فيها اختصني به في الأزل، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:88] فيها قدر لي لا إلى غيره، والتوكل على ثلاثة أوجه:

توكل المبتدئ: وهو ترك الأسباب في طلب المعاش.

وتوكل المتوسط: وهو ترك طلب المعاش في طلب العيش مع الله.

وتوكل المنتهي: وهو استهلاك الوجود في وجود الله وإفناء الاختيار في اختيار الله؛ ليبقى في هويته بلا هو متصرفًا في الأسباب به، ولا يرى التصرف والأسباب إلا لمسبب الأسباب.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: 89 - 93].

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ [هود:89] من العذاب، وذلك إن في طبيعة الإنسان مركوزة من صفات الشيطنة الإباء والاستكبار، ومن طبعه أنه حريص على ما تبع كان آدم عليه السلام لما منع من أكل الشجرة حرص على أكلها، فلهاتين الصفتين إذا أمر بشيء أبى واستكبر، وإذا نهى عن شيء حرص على إتيانه لاسيا إذا صدر الأمر والنهي من إنسان مثله، فإن طاعة الله هينة القبول بالنسبة إلى طاعة المخلوق؛ ولأن في الطاعة ذلة وهوانًا وكسرًا للنفس، وأن ما

يحتمل المخلوق من خالقه أكثر مما يحتمله من مخلوق مثله، ولهذا السر بعث الله الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأمر الخلق بطاعتهم، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:59] فمن كان موفقًا من الله تعالى بالعناية الأزلية يأمر بها أمر به، وينتهي عما نهي عنه، ويطيع الرسل فيما جاءوا به أخرجته الطاعة من ظلمات صفات المخلوقة إلى نور صفاته الخالقية، ومن أدركته الشقاوة في الأزل تداركه الخذلان، ووكل إلى نفسه وطبعه، فلا يطيع الله ورسوله، ويتمرد عن قبول الدعوة، ويستكبر على الرسول ويعاديه، ويزد بمعاداته ما أمره الله به فيصيبه قهر الله وعذابه.

﴿مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:89] أي: وما معاملة قوم لوط من معاملتكم وذنوبهم من ذنوبكم ببعيد؛ لأن الكفر كله من جنس واحد وصفات الكفر قريب بعضها من بعض، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود: 90] من صفات الكفر ومعاملته وبدلوها بصفات الإسلام ومعاملته، فإنها تزكية النفوس عن الصفات الذميمة، ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ [هود:90] أي: ارجعوا، ﴿إِلَيْهِ﴾ [هود:90] على قدمي الشريعة والطريقة سائرين منكم به؛ ليحليكم بتحلية الحقيقة وهي الفناء عنكم والبقاء به، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ [هود:90] السائرين منهم إليه بالتوفيق والتيسير، ﴿وَدُودٌ﴾ [هود:90] محب لمحبة هاد لطالبيه، ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:91] في ذلك؛ لأنهم كانوا من القلب وفقهه بمعزل لهم ﴿قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179].

﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود:91] أي: ضعيف الرأي ناقص العقل؛ وذلك لأنه كما يرى العاقل السفيه ضعيف الرأي يرى السفيه العاقل ضعيف الرأي، ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود:91] يشير إلى أن الجاهل بصير برؤية الخلق أعمى برؤية الحق، فهؤلاء قد رأوا رهط شعيب، وأنهم حفظته ومنعتهم عنهم وما قالوا: إن الله تعالى حافظه وناصره، ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ وأصحابه ﷺ: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ﴾ [الحشر:13]، ولهذا المعنى، قالوا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:91] يشير إلى من كان على الله تعالى عزيزًا، فإنه ليس على الجاهل بعزيز، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود:92] أي: جعلتم الخلق من أعينكم فتفزعون منهم، وجعلتم الله وراء ظهوركم فلا تفزعون منه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:92] في ظاهركم وبما تسترون في باطنكم، ﴿مُحِيطٌ﴾ [هود:92] علمه فيجازيكم به.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني: إذ لا تقبلوا نصيحتي وتعلمون بالطبيعة اعملوا على تمكنكم بالخذلان، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ [هود:93] بالتوفيق في الله، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود:93] وهو عذب البعد والقطيعة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ [هود:93] في دعواه من بيننا، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ [هود:93] سخط الله فيما ادعيتم، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:93] رقيب مرتقب رضاه الله فيما ادعيت.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾ [هود: 94 - 99].

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود:94] الذي قدرناه في الأزل من العذاب والهلاك لقوم شعيب.

﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود:94] كما كان قضاؤنا في الأزل من العذاب والهلاك والكفر والضلال، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [هود:94] أزلية صدرت، ﴿مِنَّا﴾ [هود:94] فيهم، ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود:94] أي: ظلموا على أنفسهم بالإباء والاستكبار عن قبول دعوة الأنبياء، ﴿الصَّيْحَةُ﴾ [هود:94] وهي اجتماع أصوات صفاتهم الذميمة المهلكة، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود:94] في دركاتهم السفلية التي اطمأنوا بها، ﴿جَاثِمِينَ﴾ [هود:94] كأنهم الجيف بلا أرواح، ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود:95] أي: كأن لم يكونوا قط في عالم الأرواح؛ لأنهم أفسدوا الاستعداد الروحاني الفطري في طلب الدنيا، واستيفاء شهواتها والاستكبار عن قبول الحق، ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ﴾ [هود:95] لتمردهم عن الحق وتماديهم في الباطن، ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:95] عن الحق.

ثم أخبر عن حال أهل القرب وحال أهل البعد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [هود:96] إلى قوله: ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود:109]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ [هود:97] أي: الروح، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ [هود:97] أي: بصفاتنا، فإن من صفات الله أنه حي، وأنه سميع بصير متكلم قادر عالم مريد باق بالروح بهذه الصفات كلها موصوف، والصفات لله تعالى ذاتية قديمة وقائمة بذاته ﷻ والروح محدثة مخلوقة قائمة بقيومية الله تعالى، ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [هود:97] وهو استيلاء الروحانية على البشرية، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [هود:97] أو إلى فرعون النفس وصفاتها البهيمية والسبعية والشيطانية.

﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فاتبعوا الصفات ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ النفس؛ لأن أمرها ملائم لصفاتها، ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ لأن فرعون النفس الأمارة بالسوء، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: يتقدم النفس صفاتها، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:98] أي: موضع ورودهم هو البعد من الله تعالى، والمورود وهو النفس وصفاتها؛ يعني: الورد مناسب لحال المورود، ولو كان لهذا المورود خير من هذا المكان ظالمًا؛ لأنه وضع الشيء في غير وضعه، ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ [هود:99] أي: اتبع النفس وصفاتها مع استحقاقها لهذا الورد اليوم في الدنيا بمعاملاتها السيئات طردًا وبعدًا وحجبًا على حجبها، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود:99] من نتائج هذه المعاملات وجزائها أيضًا اتبعوا لعنة عذابًا فوق العذاب وهو ذوق ألم العذاب وحسرة الحرمان وحسرات فوت التدارك ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ﴾ [هود:99] وهو ما أعطوا من اللعنة ونتائجها، ﴿الْمَرْفُودُ﴾ [هود:99] المعطى.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ

﴿١٠٧﴾ [هود: 100 - 107].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ [هود:100] أخبارًا عن أحوال الأخيار والأرواح والنفوس الساكنة فيها، ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ [هود:100] نخبرك؛ لتكون عالمًا بأحوال، ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ [هود:100] من الأجساد بعضها قائم قابل لتداول ما فات عنها وإصلاح ما أفسدت النفس منها، ﴿وَحَصِيدٌ﴾ [هود:100] أي: ومن الأجساد ما هو محصود بمحصد الموت ما يؤمن عند التدارك، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ [هود:101] فيما أعطيناهم من استعداد الروحاني والجسماني والحيواني، فإنه آله تحصيل كمالات لا يدركها الملائكة المقربون، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:101] باستعمالها على وفق الطبيعة على بدل حكم الشريعة فافسدوا استعدادهم في عبادة طاغوت الهوى ووثن الدنيا وأصنام شهواتها.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ [هود:101] من الهوى والدنيا وشهواتها، ﴿الَّتِي يَدْعُونَ﴾ [هود:101] يعبدون، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [هود:101] من سخط الله ولعنته.

﴿لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود:101] أي: الأمر الذي قدر لهم في الأزل من الطرد والإبعاد، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ [هود:101] أي: الآلهة وعبادتها، ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:101] غير تخسير وهو خسارة عبادتها وحسرة ترك عبادة الله وفوات تلك السعادة، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ [هود:102] أي: كما أخذ الروح والنفس بما أفسدوا استعدادهم كذلك، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾ [هود:102] وهي الأجساد والأبدان، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود:102] بأعمالها على وفق طبع النفس الأمارة بالسوء من السيئات البدنية على خلاف الأحكام الشرعية، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ﴾ [هود:102] للأبدان، ﴿شَدِيدٌ﴾ [هود:102] على النفوس والأرواح بالبعد والخذلان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [هود:103] أي: فيما ذكر من إفساد الاستعداد والأخذ به، ﴿لَآيَةً﴾ [هود:103] دلالة يستدل بها على الحق والتوحيد، ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: 103] أي: المؤمن؛ لأن غير المؤمن لا يخاف عذاب الآخرة؛ لأنه لا يؤمن بها وهي أن الله تعالى لا يجير الظالم؛ ولكن يمهله ويكله إلى نفسه يظلم على نفسه وعلى نفس غيره فيؤاخذه

الله تعالى بظلمه عدلاً منه؛ ولكنه إذا نظر بفضله ورحمته إلى عبد بنظر العناية يزيل بنور العناية ظلمات أمارية نفسه فتصير نفسه مأمورة لأمر الشريعة فلا يعمل إلا للنجاة من عذاب الآخرة ونيل الدرجات والقربات في الآخرة.

﴿ذَلِكَ﴾ [هود:103] يعني: الآخرة، ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود:103] أي: يجمع فيه بين الأرواح والنفوس والأجساد، ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:103] فيه أعمال العباد تغيرها وتصيرها كل واحد يشاهد أعماله وقارئ كتابه(1) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ [هود: 104] إلى اليوم المشهود، ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:104] وقت معلوم.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:105] يعني: يوم لا تتكلم فيه النفوس؛ لظهور سطوة آثار القهر إلا بإذن الله، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ [هود:105] محكوم عليه بالشقاوة في الأزل، ﴿وَسَعِيدٌ﴾ [هود:105] محكوم عليه بالسعادة في الأزل، وعلامة الشقاوة: الإعراض عن الحق وطلبه، والإصرار على المعاصي من غير ندم عليها، والحرص على الدنيا حلالها وحرامها، وأخذ الدين بالهوى والتقليد والبدع، وعلامة السعادة: الإقبال على الله وطلبه، والاستغفار عن المعاصي، والتوبة إلى الله، والقناعة باليسير من الدنيا، وطلب الحلال منها، واتباع السنة، واجتناب البدعة، ومخالفة الهوى.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ [هود:106] في الأزل، ﴿فَفِي النَّارِ﴾ [هود:106] نار الحسرة والقطيعة، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [هود:106] من الحسرة ﴿وَشَهِيقٌ﴾ [هود:106] من القطيعة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [هود:107] في نار القطيعة، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ﴾ [هود: 107] سماوات الأرواح والقلوب، ﴿وَالْأَرْضُ﴾ [هود:107] أرض النفوس والبشرية، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:107] من السعداء من الأشقياء؛ ذلك لأن أهل الشقاء على ضربين: شقي وأشقى، فيكون من أهل التوحيد شقي بالمعاصي سعيد بالتوحيد، فالمعاصي

(1) قال يحيي بن معاذ: الأيام منها يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موجود، ويوم ممدود، فاليوم المفقود: أمسك؛ فإنك على ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك فتزوَّد منه ما استطعت، واليوم المورود: لا تدري هو لك أم أنت له لعلَّه ليس من أيامك، وهو غدك فلا تشغل به ولا تهتم له، واليوم الموعود: فاجعله من بالك، واذكره على كل أحوالك، واعمل له فإنه آخر أيامك، ويوم ممدود: يوم يقوم الناس لرب العالمين، فانظر لنفسك لوقوف ذلك.

تدخله النار، والتوحيد يخرجه منها، ويكون من أهل الكفر والبدعة أشقى يصليه كفره وتكذيبه إلى النار فيبقى فيها خالدًا مخلدًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:107] من الأزل وهو أخرج أهل التوحيد عن النار وأخلد أهل الكفر فيها.

﴿ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (113)﴾ [هود: 108-113].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ﴾ [هود:108] في جوار الحق وقربه، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ﴾ [هود:108] سماوات الأرواح والقلوب، ﴿وَالْأَرْضُ﴾ [هود: 108] أرض النفوس والبشرية به يشير إلى أن الأرواح والقلوب والنفوس باقيات إلى الأبد.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:108] من السعداء؛ وذلك لأن أهل السعادة على ضربين: سعيد وأسعد، فالسعيد من يبقى في الجنة ودرجاتها وغرفاتها العليين بحب العبادة والعبودية، والأسعد من يدخل الجنة، ويعبر عن درجاتها إلى مقامات القربة بحسب المعرفة والتقوى والمحبة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:54-55].

وقال النبي ﷺ: «إن أهل الجنة ليرون أهل العليين كما يرى أحدكم الكوكب الدري في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمرو منهم في أنعم مكان» فمن كان من أهل الجنة وأهل العليين فلهم خلود في الجنة، ومن كان في مقام مقعد الصدق فهو في أنعم مقام من الجنة

فلهم الخروج من الجنة بجذبات العناية إلى عالم الوحدة»[1] والسر في هذا أن السالك يسلك بقدم المعاملات إلى أعلى مقام الروحانية من حضيض البشرية وهو بعد في مقام الاثنينية وهو سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، فلا عبور عن هذا المقام للملك المقرب ولا للنبي المرسل إلا برفرف جذبة العناية فإنها توازى عمل الثقلين وبها يصل العبد إلى عالم الوحدة فافهم جدًا.

فما أبقى هناك الدخول والخروج والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ راجع إلى هذا المقام ولهذا قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2] [هود:108]؛ لأنه لا انقطاع له ولا تغيير فيه.

﴿فَلَا تَكُ﴾ [هود:109] يا محمد، ﴿فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾[3] [هود:109] يعني: أهل الدنيا فإنهم يعبدون الهوى، وبالهوى يعبدون مَا يَعْبُدُونَ من دون الله؛ لأنهم أهل التقليد لا أهل التحقيق.

﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ [هود:109] الهوى، ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ [هود:109]، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بالطبع، ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [هود:109] الذي قدرنا لهم في قسمة الأزل من السعادة والشقاوة والقرب والبعد واللطف والعنف، ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود:109] عما قسمناه لهم مثقال ذرة، ولو اجتمعت الجن والإنس على أن ينقصوا منها شيئًا لم يقدروا.

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (6/ 14).

(2) الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب، وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، واليقين والاطمئنان في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. البحر المديد (3/ 75).

(3) حين بقيت الواردات وزالت المعارضات. قال أبو عثمان: من كان على البينة لا يخفى عليه سرٌّ.

وقال رويم: البينة هي الإشراف على القلوب، والحكم على الغيوب. قال الجنيد: البينة حقيقةٌ يؤيدها ظاهر العلم. قال أبو بكر بن طاهر: من كان من ربه على بينة كانت جوارحه وقف على الطاعات والموافقات، ولسانه مزمورًا بالذكر ونشر الآلاء والنعماء، وقلبه منورًا بأنوار التوفيق وضياء التحقيق، وسره وروحه مشاهد للحق في جميع الأوقات، عالمًا بما يبدو من مكنون الغيوب ومستورها، ورؤيته للأشياء رؤية يقين لا شكَّ فيه، وحكمه على الخلق كحكم الحق، لا ينطق إلا بحقٍّ، ولا يرى إلا بحق؛ لأنه مستغرقٌ في الحق، فأنى له مرجعٌ إلا إلى الحق، ولا إخبارٌ له إلا عنه.

ثم أخبر عن اختلاف طبائع الإنسان من أهل العناية والخذلان بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [هود:110] إلى قوله: ﴿لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود:113]
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يشير به إلى أن كتاب الله هو محل النفوس وهو الصراط المستقيم إلى الله تعالى، والنفوس مختلفة فمنها قابلة للاستقامة على الصراط، ومنها غير قابلة لها، فالمؤمن بالكتاب، والفاعل به هو قابل للاستقامة، والكافر به هو غير قابل للاستقامة، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ [هود:110] في الأزل، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ [هود:110] لسعادة المؤمن وشقاوة الكافر، وتأخيرهما لاستكمال السعادة والشقاوة لنفسها ولغيرها في الأزل، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود:110] بالعذاب والهلاك يعني: بين أهل السعادة والشقاوة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ﴾ [هود:110] أي: إنما أخرنا القضاء؛ لأنهم في شك، ﴿مِّنْهُ﴾ [هود:110] من الكتاب هل ينزل من الله أم لا؟ فبالشك تكمل شقاوتهم في مدة حياتهم، ﴿مُرِيبٍ﴾ [هود:110] لغيرهم في هذه المدة؛ المعنى: إنما أخرناهم ليكملوا في الشقاوة أنفسهم ويكملوا فيها غيرهم، ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ [هود:111] أي: الكامل في الشقاوة والمكمل، ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود:111] التي يكمل بها الشقاوة، ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:111] من الأعمال المكملة للشقاوة، ﴿خَبِيرٌ﴾ [هود:111] لأنه قدرها في الأزل لهم.

ثم خصص أمة النبي ﷺ بأنها قابلة للاستقامة فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ [هود:112] أي: استقامة، ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112] في الأزل بأمر التكوين، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:112] أي: كما آمن من آمن، ورجع إلى الله ﴿مَعَكَ﴾ فيه إشارة إلى أن النفوس جبلت على الاعوجاج عن طريق الاستقامة إلا ما اختص منها بالأمر عند التكوين بالاستقامة فإنها قابلة للاستقامة، وهي التي تهدي إلى الصراط المستقيم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ كما أمرهم بالاستقامة نهاهم عن الطغيان فما طغوا، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما تعملون في الدنيا، ﴿بَصِيرٌ﴾ [هود:112] به في الأزل؛ لأنه جعل في جبلتكم مركوزًا، وهيأنا لكم أسباب إخراجه منكم، ذلك تقدير العزيز العليم، ﴿وَلَا

تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود:113] وهذا خطاب أيضًا مع النبي ﷺ ومن تاب معه عند الأمر بالتكوين لا جرم ما ركنوا إلى الذين ظلموا.

وفي قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود:113] إشارة إلى أن الركون إلى الظالمين موجب لعذاب النار لكائن من كان.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [هود:113] يشير إلى أن الله تعالى هو ناصر أوليائه، ووليهم في الأزل إلى الأبد لا غيره؛ يعني: إن استنصرتم من غير الله الذي هو ناصركم لا ينصركم الله، ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:113] من غير الله؛ لأن إن النصر إلا من عند الله.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: 114 - 119].

ثم أخبر عن سيئات الأولياء؛ لأنها تذهبها حسناتهم بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ [هود:114] إلى قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾(1) [هود:119] بقوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ

(1) إن الله سبحانه حفظ الأوقات على أهل المشاهدات والمحاضرات، ووسمها بوظائف الطاعات لهم ليصلوا بالمجالسات والمحاضرات والمراقبات والطاعات إلى معالي الدرجات والقربات؛ لأنَّ من حضر بقلبه وروحه وعقله مجالس الذكر والمراقبة يصل سره إلى رؤية المشاهدة أحد طرفي النهار؛ لأن كثرة الفترة والزلة والغفلة يكون بالنهار حتى يكونا ذاهبين بما جرى بينهما من الغفلات بما فيها من صغاء الأذكار وجولان الأفكار، وأخذ طرفًا من الليل، وهو أولها لبقاء صفاء الوقت، وحلاوة الذكر والطاعة، وحرقة الوجد، ونحب القلب، ولذة الأنس إلى النهار، ولا يترك صاحبها عاقلاً، وإنْ كان نائمًا، فإذا وصل أوقات الليل بأوقات النهار ووصل أوقات النهار بأوقات الليل بنعت عد الأنفاس، ونفي خواطر الوساوس، تذهب أنوارها غبار الخطرات، وظلمة المعارضات، وهيجان الطبيعيات البشريات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ﴾: إنَّ حسنات أنوار المشاهدات تذهب سيئات المعارضات، وتذهب حسنات كشف الجمال سيئات الخيال، وتذهب حسنات التوحيد والمعرفة

الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ يشير إلى أن مرور ساعات عمر الإنسان وأوقاته عليه، مقبول له وهو في الخسران منه إلا أن يكون مردودها عليه في الأعمال الصالحة يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر:1 :3] وذلك لأن تعلق الروح النوراني العلوي بالجسد الظلماني السفلي موجب لخسران الروح إلا أن تتداركه أنوار الأعمال الصالحة الشرعية فتربي الروح وترقيه من حضيض البشرية إلى ذروة الروحانية؛ بل إلى الوحدانية الربانية وتدفع عنه ظلمة الجسد السفلي كما أن إلقاء الحبة في الأرض موجب لخسران الحبة إلا أن يتداركها الماء فيربيها إلى أن تصير الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة واللهُ يضاعف لمن يشاء، فكذلك خص الله تعالى من أوقات عمر العبد طرفي النهار.

﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود:114] من الليل من أيام عمره بأن يصرف في إقامة الصلاة، وبه يشير إلى إدامة الذكر والطاعة والعبادة في أكثر النهار، ويصرف منه مقدار ما كان له ضرورة من الحاجات الإنسانية فيها، ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود:114] أي: ويصرف بعض ساعات الليل على قدر الصدق في الطلب في الذكر والطاعة، ويستريح في بعضها؛ لاسترواح القوى البشرية، ودفع كلالة الحواس ليقوم في أثناء الليل منشاطًا للذكر والطاعة.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:114] أي: أنوار الحسنات وهي الأعمال الصالحة والذكر في المراقبة في طرفي النهار وزلفًا من الليل يذهبن ظلمات سيئات الأوقات

-

والفهم سيئات الظن والوهم، ولا يعرف ما وصفنا إلا أهل الذكر من المريدين، وأهل المراقبة من المحبّين، وأهل الرعاية من العارفين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ قال أبو عثمان: الأوقات والساعات جُعلت علامات الأذكار أوقاتًا للتيقظ والاعتبار، فمن مرت عليه أحواله وأوقاته وساعاته في غفلة، فليتيقن بموت القلب؛ لأنه مطالبٌ في كل وقت من أوقاته، إما بفريضة أو سنة أو أدب. قال الواسطي: أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي. قال بعضهم: رؤية الفضل تسقط عن العبد رؤية العمل. قال أبو عثمان: حسن الظن بالخلق يذهب بالآمنة والغيبة، ويورث الشفقة والنصيحة والرحمة،وذلك موعظةٌ لمن يوفق له ويؤهل.

التي تصرف في قضاء الحوائج النفسانية الإنسانية وما يتولد من الاشتغال بها، ﴿ذَٰلِكَ﴾ [هود:114] أي: الذي أشرنا إليه، ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:114] عظة لأهل الذكر ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:191] أي: رقود أجسادهم ذاكرًا أرواحهم، ﴿وَاصْبِرْ﴾ [هود:115] يعني: أيها الطالب الصادق والفاسق والوامق على صرف الأوقات في طلب المحبوب بدوام الذكر، ومراقبة القلب، وترك الشهوات، ومخالفة الهوى والطبيعة.

﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:115] أي: سعي الطالبين كما قال الله تعالى: «ألا من طلبني وجدني»(1)؛ لأن من سنة كلامه قوله تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»(2)، ﴿فَلَوْلَا﴾ [هود:116] فهلا، ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ [هود:116] من أرباب النظر وأصحاب القلوب، ﴿يَنْهَوْنَ﴾ [هود:116] أهل الكفر والطغيان والفسوق، ﴿عَنِ الْفَسَادِ﴾ [هود:116] أي: عن إفساد استعدادهم، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [هود:116] أي: في الصرف لشهوات أرض البشرية.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [هود:116] من الأنبياء وأتباعهم الذين كانوا ينهونهم فلا يتناهون عما نهوا عنه، ﴿مِمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود:116] أي: من جملتهم، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود:116] إذ لم يتناهوا عما نهوا عنه، ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ [هود:116] من شهوات الدنيا ولذاتها، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:116]؛ إذ لم يتناهوا عما نهوا عنه، فأهلكوا جميعًا به يشير إلى أن كل قوم لم يكن فيهم آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر من أرباب الصدق وهم مجتمعون على الفساد؛ إذ لا يأتمرون بالأمر بالمعروف ولا يتناهون بالنهي عن المنكر فإنهم هالكون.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [هود:117] أي: بغير استحقاق الهلاك، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:117] والصلاح من يصرف استعداده الفطري في طلب الحق، ولا يفسده مع طلب غيره، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود:118] في طلب الحق، ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ [هود:118] الخلق ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:118] في الطلب،

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

فمنهم: من طلب الدنيا، ومنهم: من طلب الآخرة، ومنهم: من طلب الحق تعالى، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:119] فأخرجهم بنور رحمته عن ظلمة طبيعتهم الجسمانية والروحانية إلى نور طلب الربوبية، فلا يكونون طلابًا للدنيا والعقبى؛ بل يكونون طلاب جمال الله وجلاله.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:119] أي: ولطلب الله تعالى خلقهم، وأكرمهم بحسن استعدادهم للطلب، وفضلهم على العالمين بفضيلة الوجدان، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود: 119] في الأزل؛ إذ قال: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»(1)، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ أي: من الأرواح المستهلكة المتمردة وهم: إبليس وأتباعه، ﴿وَالنَّاسِ﴾ [هود:119] وهم: النفوس الأمارات بالسوء، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [هود:119] كلهم الفريقين المعرضين عن الله تعالى وطلبه.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: 120 - 123].

ثم أخبر عن الاعتبار في الأخبار بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(2) [هود:120] إلى آخر السورة، قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ليشير إلى أن تثبيت القلوب على الدين، والطاعة إلى الله تعالى لا إلى غيره؛ لأنه قال: ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وإنه يكون منه بالواسطة وبغير الواسطة: فأمَّا الواسطة: فهاهنا كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: بالأنباء عن أقاصيص

(1) أخرجه أحمد (6/ 441، رقم 27528)، قال الهيثمي (7/ 185): رجاله رجال الصحيح. وابن عساكر (7/ 397)، والديلمي (3/ 422، رقم 5290).

(2) سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين، وعرَّفه أنه لم يُرَقِّ أحداً إلى المحلِّ الذي رقَّاه إليه، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه، ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع، ولم يذكر قصّته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً. ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه، وفَرْقٌ بين من يعقل بما يسمع وبين مَنْ يَستقل بِمَنْ منه يسمع. تفسير القشيري (3/ 388).

الرسل، وكقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[إبراهيم:27].

وأمّا بغير الواسطة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء:74] وهذا التثبيت من إنزال السكينة في قلبه بغير واسطة كقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [الفتح:26]، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:4].

فاعلم أنه كما يزداد الإيمان بالسكينة فكذلك يزداد اليقين على اليقين باستماع الأنبياء - صلوات الله على نبينا وعليهم - والأمم السالفة لمن يثبت الله به قلبه، ومن لم يثبت الله قلبه يزداد شكه على الشك وكفره على الكفر؛ لأن الله تعالى أودع في كل شيء لطفه وقهره، فمن فتح عليه لطفه أغلق عليه باب قهره، ومن فتح عليه باب قهره أغلق عليه باب لطفه، ومن فتح الله عليه باب قهره ولطفه جاءه الحق من هذا الباب، كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ [هود:120] وفيه إشارة إلى أنك لست بقادر أن تجيء في هذا الحق؛ لأن أبواب اللطف والقهر مغلوقة والمفتاح بيد الفتاح ولا يقدر غير الفتاح أن يفتحه، فإذا هو الذي يفتح باب لطفه في كل شيء على العبد ويجيء بكرمه فيه بلا كيف وأين.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ [هود:120] أي: وفي هذا المعنى موعظة، ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:120] ليطلبوا الحق من باب لطفه في كل شيء، ولا يطلبوه من باب قهره، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [هود:121] بطلب الحق من باب لطفه ووجدانه.

﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود:121] في طلب القاصد من باب قهر الحق، ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ [هود:121] في طلب الحق من باب لطفه، ﴿وَانتَظِرُوا﴾ [هود:122] قهر الحق من باب قهره، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود:122] وجدان الحق من باب لطفه.

﴿وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [هود:123] أي: من غاب عنكم مما أودع من لطفه في سموات القلوب، ومن قهره في أرض النفوس، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:123] بأن يفتح على أهل السعادة أبواب قلوبهم؛ ليصلوا إلى لطفه وبلطفه يصلوا إليه، ويفتح على أهل الشقاوة أبواب نفوسهم؛ ليصلوا إلى قهره وبقهره يحتجبوا عن الوصول والوصال، ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ [هود:123] أيها الطالب المحق ولا تعبد غيره في الدنيا

والآخرة لتجده.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:123] في الطلب لا على طلبك، فإنك إن كنت بك طالبًا له لا تجده، وإن كنت به طالبًا له فهو الواجد والمطلوب والطالب الموجود، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:123] إلى الأبد؛ لأنه قدركم وما تعملون قبل أن خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ، ويعلم ما تعملون، وأنتم لا تعلمون ما تعملون.

سورة يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)﴾ [يوسف: 1 - 5].

﴿الر﴾ [يوسف:1] يشير بالألف إلى الله، وباللام إلى جبريل، وبالراء إلى الرسول؛ أي: ما أنزل الله تعالى على لسان جبريل على قلب الرسول، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:1] أي: تلك دلالة كتاب المحبوب؛ ليهدي أعجب البيان طريق الوصول إلى المحبوب، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [يوسف:2] أي: كتابنا، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:2] أي: كسوناه للقراءة كسوة العربية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:2] حقائق معانيه وأسراره ومبانيه وإشاراته بها أزهى لغتكم كما أنزلنا التوراة على أهلها بلغة العبري، والإنجيل بلغة السرياني يشير به إلى أن حقيقة كلام الله تعالى منزهة في كلاميته عن كسوة الحروف والأصوات واللغات؛ ولكن الخلق يحتاجون في تعقل معانيه إلى كسوة الحروف واللغات.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[1] [يوسف:3] أي: أحسن قصة تدل المحب

---

(1) إنَّ الله سبحانه لما أراد أن يوقع عنقاء همَّته إتعاب قوس نبيه إلى شبكة عشق زينب، وسقاها من مشارب سواقي الالتباس زلال بحر تجلي صفة الجمال بأقداح الأفعال، رأى قدس همته عن علل الإنسانية في ذلك، وغيرته على معهد مشاهدة الأزل تسلِّ قلبه بهذه القصة التي هي مطية رواحل أسرار العاشقين والوامقين، وهو تعالى بجوده واختياره له سيادة الكونين ورسالة العالمين يواسيه لئلا يضيق صدره في محل الامتحان؛ لأنَّ الامتحان بالعشق الإنساني مراقي مشاهدة جمال الآزال والآباد ليسير في ميادين القدم والأبد بمراكب العشق، فإنَّهم بالعشق بلغوا إلى العشق، وحسن القصة بيان عشق الإنساني في مراتب الأرواح العاشقة، وطيرانها من هذه المقامة إلى عشق الألوهية، ومشاهدة الأزلية. فقد بيَّن تعالى

-

على طريق الرجوع والسلوك والوصول إلى المحبوب، وإن كان في كل قصة من القصص التي ذكرناها في القرآن نوع من هذا، ولكن قصة يوسف أحسنها وأجملها وأكملها وأتمها مناسبة ومشابهة بأحوال الإنسان، ورجوعه إلى الله ووصوله إليه؛ وذلك لأنها تشير إلى معرفة تركيب الإنسان من الروح والقلب والسر والنفس، وخواصه الخمسة الظاهرة، وقواه الستة الباطنة، والبدن وابتلائه بالدنيا، وغير ذلك إلى أن يبلغ الإنسان أعلى مراتبه كما سيجيء شرحه في مواضعه إن شاء الله تعالى وحده.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف:3] أي: ندلك بنور إيحاء القرآن إليك على أحسنية هذه القصة، ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [يوسف:3] أي: قبل نور الإيحاء، ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:3] عن هذه الحقائق والدقائق؛ لأنها لا تدرك إلا بنور الوحي.

﴿إِذْ قَالَ﴾ [يوسف:4] عالم الأرواح، ﴿يُوسُفُ﴾ [يوسف:4] القلب، ﴿لِأَبِيهِ﴾ [يوسف:4] يعقوب الروح، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ [يوسف:4] بنور الروحانية، ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾(1) [يوسف:4] وهي: الحواس الخمس من السمع والبصر والشم والذوق

أن قصة العاشق والمعشوق أحسن القصص لما فيها من الأمثال والعبر، والذوق والشوق، والفراق والوصال، والبلاء والعناء، وشأن يوسف عليه السلام كله عَشِقَ به أبوه، وهكذا كل من رآه؛ لأن حسن جمال القديم ألبس وجهه، وكان مرآة الله في بلاد الله تجلّى الحق منها للعباد. وكيف لا يكون أحسن القصص؟! وهذه القصة قديمة أزلية، وكل حسن في العالم هي معدٌ بها، ومنها صدر كل الحسن والمستحسن، ومن كمال حسنها أنّه تعالى أخرجها من تحت التكليف، ولم يذكر في قصة العاشق والمعشوق الأمر والنهي، كأنها خير الوصال وأثر الجمال، ومثل لعشاقه معه.

(1) جمع الله في اسم يوسف عليه السلام أربعة حرف: الياء، والواو، والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف عليه السلام سمي يوسف عليه السلام، وأيضًا كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية.

قال بعضهم: سُمّيَ يوسف بيوسف عليه السلام؛ لأن الأسف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن. جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تعبير الرؤيا كشفًا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثّل عالم الملكوت بما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار. وأيضًا: مثّل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات،

واللمس، والقوى الستة من المتفكرة والمتذكرة والحافظة والمتخيلة والمتوهمة والحس المشترك، فإن كل واحد من هذه الحواس والقوى كوكب مضيء يدرك به معنى مناسب به وهم إخوة يوسف القلب؛ لأنهم تولدوا بازدواج يعقوب الروح ورواحيل النفس كلهم بنواب واحد، ﴿وَالشَّمْسَ﴾ [يوسف:4] شمس الروح والنفس والحواس والقوى.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:5] يشير إلى أن للحواس والقوى حسدًا على القلب لما أودع الله فيه من استدارة قبول الفيض الإلهي ما لم يودع فيها، فلها كيد على حسب حسدها مع القلب بتقوية الشيطان وأعوانه، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف:5].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6].

ثم عبَّر يعقوب بالروح عن رؤيا يوسف القلب بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:6] عن سائر المخلوقات فضلاً عن أقربائك، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:6] وهو العلم اللدني الذي يختص به القلب، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [يوسف:6] بأن يتجلى لك ويستوي عليك إذ القلب عرش حقيقي لله تبارك وتعالى دون ما سوى الله كما قاله تعالى: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن»(1) وهذا الاستحقاق كان ليوسف القلب مختصًا بكمال الحسن.

﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:6] أي: إذا تجلى الله تبارك وتعالى للقلب تنعكس أنوار التجلي على مرآة القلب عن جميع المتولدات في الروح، كالحواس والقوى وغير ذلك

والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف عليه السلام: كان يوسف عليه السلام آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وهاهنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خيرٌ من الملائكة، وكيف لا يسجدون لها، ومن وجهها تتلألأ الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية. [عرائس البيان].

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (2/ 195).

من آل يعقوب الروح، ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:6] وهما: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ [يوسف:6] السر، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:6] الخفي، وبهما يستحق القلب قبول فيض التجلي، ولله في هذا ألطاف خفية لا يطلع عليها إلا صاحب وقت مع الله لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:6] بهذه الأحوال، ﴿حَكِيمٌ﴾ [يوسف:6] فيما يضعها عند المخصوصين بها.

﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ ﴾ [يوسف: 7 - 9].

ثم أخبر عن آيات قصة يوسف وأخواته يشير إلى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف:7] القلب، ﴿وَإِخْوَتِهِ﴾ [يوسف:7] الأحد عشر: الحواس الخمس والقوى الستة، ﴿آيَاتٌ﴾ [يوسف:7] دلالات، ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾(1) [يوسف:7] أي: السائلين طريق العبور إلى الله وهم الطالبون الصادقون، ﴿إِذْ قَالُوا﴾ [يوسف:8] أي: الحواس والقوى في حقيقة الأمر.

﴿لَيُوسُفُ﴾ [يوسف:8] أي: يوسف القلب، ﴿وَأَخُوهُ﴾ [يوسف:8] بنيامين وهو الحس المشترك، فإن له من الحواس والقوى اختصاصًا بالقلب، ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا﴾ [يوسف:8] وهو الروح، ﴿مِنَّا﴾ [يوسف:8] وذلك لأن القلب هو عرش الروح ومحل استوائه عليه الحس المشترك بمثابة الكرسي للعرش.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:8] أي: عشرة من الحواس القوى، ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ [يوسف:8] يعني: الروح، ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف:8] بأن يختار الاثنين على العشرة، ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف:9] أي: يوسف القلب بسكين الهوى، فإن موت

(1) قال البقلي: آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفته بذات الله وصفاته، وكريم الآية ونعمائه ولطيف أفعاله وصنائعه، وما وضع الله في النفس الأمارة من عظيم قهر شهواتها، واستيلاء هواها، وفترتها وشرها، ودقائق خدعتها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبته، وبلوغه إلى أهل التمكين، وما بدا من إخوته من الغيرة والفرقة، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين.

القلب يعني: في الهوى، وهو السم القاتل للقلب، ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف:9] أي: أرض البشرية، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:9] يعني: بعد موت القلب يقبل الروح بوجهه إلى الحواس والقوى؛ لتحصيل شهواتها ومراداتها، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [يوسف: 9] بعد موت القلب، ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف:9] لتنعم الحيواني والنفساني.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝١١ ﴾ [يوسف: 10 - 11].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ [يوسف:10] وهو يهوذا المفكرة، ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف:10] القلب والقوة، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [يوسف:10] جب القالب وسفل البشرية، ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف:10] أي: سيارة الجولات النفسانية، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف:10] فاعلين به.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:11] يشير إلى كيد الحواس والقوى بيوسف القلب، فإن القلب ما دام في نظر الروح مراقب له غير مشغول باستعمال الحواس والقوى في اللعب والهوى والتمتع من مراتع البهيمي على صحته وسلامته، فاستدعى أكواس والقوى من الروح أن يرسل يوسف القلب معهم إلى مراتعهم الحيوانية؛ ليتمتعوا به في غيبة يعقوب الروح وهو لا يأمنهم عليه لأنه واقف على مكيدتهم وأنهم يدعون نصحه وحفظه عن الآفات كما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾(1) [يوسف: 11].

(1) قال الشيخ روزبهان: بيّن الله سبحانه محل امتحانه بأن لم ينجو منه أحدٌ حتى الأنبياء لئلا يأمن من مكره فإنّ كيده متين، وهم في ذلك ما بلغوا مقام النبوة، ولكن عجبت من شأن قهر الله سبحانه، كيف غيّر فطرة المعروفين في ديوان الأزل بالولاية والرسالة حتى يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، وذلك منه تعالى عذرٌ للمذنبين جميعًا، وبيّن أن مكان الصدق يخطر عليه آفاق النفس والحسد والخدعة، بقوله: ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، وهم كانوا يعرفون موضع الخطأ في نفوسهم من إضمار إيذاء يوسف عليه السلام، سبحان من حجبهم من نفسه وكدّر عليهم مشارب الصفاء والمودة، وحجبهم عن العلم بفراسة أبيهم؛ حيث عرّفه الله مكائد نفوسهم! قال بعضهم: لم يكن يأمنهم عليه؛ لما كان يرى من فراسة النبوة في شواهدهم من إضمار الحسد والبغضاء.

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝١٣ ﴾ [يوسف: 12 – 13].

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾ [يوسف:12] في مراتعنا، ﴿وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:12] في ملاعبنا وهي الدنيا، فإنها لعب ولهو، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:12] عن فتنة الدنيا وآفاتها، ﴿قَالَ﴾ [يوسف:13] يعقوب الروح، ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف:13] أي: بيوسف القلب، ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:13] ذئب الشيطان، فإن القلب إذا بعد عن الروح ونظره يقرب منه الشيطان ويتصرف فيه ويهلكه، ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف:13] لانشغالكم بتحصيل مرامكم.

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ ﴾ ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝١٦ ﴾ [يوسف: 14 – 16].

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:14] أي: أهلكه الشيطان، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف:14] لأن خسران جميع أعضاء الإنسان في هلاك القلب، وذبحها في سلامة القلب، ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [يوسف:15] وذلك لأن إلقاء القلب العلوي في سفل جب القلب إنما يكون بإجماع الحواس وقوى البشرية باستعماله في طلب الشهوات.

ثم قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ [يوسف:15] أي: إلى يوسف القلب، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ [يوسف:15] أي: بما أرادوا أن يضروك فينفعوك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:15] يشير إلى أن من خصوصيته تعلق الروح بالقالب أن يتولد منها القلب العلوي والنفس السفلية والقوى والحواس، فيكون ميل الروح والقلب ونزاعهما إلى عالم الروحانية، وميل النفس والقوى والحواس إلى عالم الحيوانية، فإن وكل الإنسان إلى طبعه تكون الغلبة للنفس والبدن على الروح والقلب وهذا حال الأشقياء، وإن أيد القلب بالوحي في غيابة جب القالب إذ سبقت له العناية الأزلية يكون القلب للروح والقلب على النفس والبدن وهذا حال السعداء، ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف:16].

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف: 17 - 20].

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:17] ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: 18] هذه كلها إشارة إلى تزوير الحواس والقوى، وتلبيسها وتمويهاتها وتخيلاتها الفاسدة وكذباتها وحيلها ومكرها وكيدها وتوهماتها وتسويلاتها المجبولة عليها وإلا كانت للأنبياء.

وفي قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:18] إشارة إلى معرفة الروح المؤيدة بنور الإيمان أنه يقف على النفس وصفاتها، وما جبلت الحواس والقوى عليه، ولا يقبل منها تمويهاتها وتسويلاتها، ويرى الأمور كلها من عند الله وأحكامه الأزلية، فصبر عليها صبرًا جميلاً وهو الصبر على ظهور ما أراده الله فيها بالإرادة القديمة، والتسليم لها والرضاء بها.

وبقوله تعالى: ﴿واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:18] يشير إلى الاستعانة بالله على الصبر الجميل فيما يجري من قضائه وقدره، وهذا كله من اختصاص الروح العلوي المؤيد بتأييد الله، ومن ثمرة الصبر الجميل من الروح نجاة القلب من غيابة جب القلب بجذبات العناية كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف:19] وهي هبوب نفحات ألطاف الحق، ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ [يوسف:19] أي: وارد من واردات تلك النفحات، ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف:19] دلو جذبة من جذبات الحق، فخلص يوسف القلب من جُبِّ طبيعة القالب.

﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ [يوسف:19] يشير إلى أن القلب كما له بشارة من تعلق الجذبة وخلاصه في الجب، فكذلك الجذبة بشارة في تعلقها بالقلب

وإخلاصه من الجب وهي من أسرار ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، ﴿واللهُ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:19] بالحكمة في البشارتين، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:19] من شراءه بثمن بخس، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف:20] وهو الحظوظ الفانية، ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف:20] احتظاظ أيام معدودة.

﴿وَكَانُوا فِيهِ﴾ [يوسف:20] أي: في يوسف القلب، ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: 20] لأنهم ما عرفوا قدره؛ وذلك لأن الحواس والقوى مستعدة للاحتظاظ بتمتعاته الدنيوية الفانية، والقلب يعد الاحتظاظ بتمتعات الأخروية الباقية؛ بل هو مستعد للاحتظاظ بشواهد الربانية، وإنه إذا سقي بشراب طهور تجلي الجمال والجلال يهرق سواه على أرض النفوس والقوى والحواس فيحتظون، وللأرض من كأس الكرام نصيب، فلمَّا أخرجوه من جب الطبيعة ذهبوا إلى مِصر الشريعة.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف: 21].

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ [يوسف:21] وهو عزيز مصر الشريعة أي: الدليل والمربي على جادة الطريقة؛ ليوصله إلى عالم الحقيقة، ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ [يوسف:21] وهي الدنيا، ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف:21] اخدمي له في منزل الجسد بقدر حاجته الماسة.

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [يوسف:21] حيث يكون صاحب الشريعة، وملكًا من ملوك الدنيا يتصرف فينا بإكسير النبوة فتصير الشريعة حقيقة والدنيا آخرة، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف:21] نربيه بلبان ثدي الشريعة والطريقة والفطام عن الدنيا الدنية، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف:21] يشير إلى تمكين يوسف القلب في أرض البشرية إنما هو ليعلم علم تأويل الرؤيا وهو علم النبوة، كما قال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:21] فكما أن الثمرة على الشجرة إنما تظهر إذا كان أصل الشجرة راسخًا في الأرض، فكذلك على شجرة القلب إنما تظهر ثمرات العلوم اللدنية

والمشاهدة الربانية إذا كان قدم القلب ثابتًا في طينة الإنسانية.

﴿واللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ بمعنيين: أحدهما: أن يكون الله غالبًا على أمر القلب أي: يكون الغالب على أمره ومحبة الله وطلبه، والثاني: أن يكون الغالب على أمر القلب جذبات العناية لتقيمه على صراط مستقيم الفناء منه والبقاء بالله، فتكون تصرفاته بالله ولله وفي الله؛ لأنه باقٍ بهويته، فانٍ عن أنانية نفسه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:21] أنهم خلقوا مستعدين لقبول هذه الكمالية يصرفون استعدادهم فيما يورثهم النقصان والخسران.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يوسف: 22 - 26].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: مبلغ كمالية استعداده لقبول فيض الألوهية، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أفضنا عليه سجال الحكمة الألوهية والعلم اللدني.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:22] أي: كما أفضنا على القلب ما هو مستحقه من الحكمة والعلم بفضلنا وكرمنا، كذلك نجزي الأعضاء الرئيسية والجوارح؛ إذا أحسنوا الأعمال والأخلاق على قاعدة الشريعة والطريقة خير الجزاء وهو التبليغ إلى مقام الحقيقة.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف:23] يشير به إلى أن يوسف القلب وإن بلغ أعلى مراتبه في مقام الحقيقة وفنائه عن صفات الأنانية واستغراقه في بحر صفات اللاهوتية لا تنقطع عنه تصرفات زليخاء الدنيا مادام هو في بيتها وهو الجسد، فإن الجسد للقلب بيت دنيوي، فالمعنى: إن راودت يوسف القلب زليخاء الدنيا التي يوسف القلب في بيتها أي: في الجسد الدنيوي وعن نفسه؛ لما رأت في نفسه تعلقه بالجسد داعية إلى

الاحتظاظ من الحظوظ الدنيوية ليحتظ بها وتحتظ به.

﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾[1] [يوسف:23] وهي أبواب أركان الشريعة يعني: إذا فتحت الدنيا على القلب أبواب شهواتها وحظوظها غلقت عليه أبواب الشريعة التي يدخل منها أنوار الرحمة والهداية ونفحات الألطاف والعناية.

﴿وَقَالَتْ﴾ [يوسف:23] أي: الدنيا، ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:23] أقبل إليّ وأعرض عن الحق، ﴿قَالَ﴾ يعني: القلب الفاني عن نفسه الباقي بربه، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ﴾ [يوسف:23] أي: عياذي بالله عمّا سواه، ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ [يوسف:23] رباني بلبان ألطاف ربوبيته، ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف:23] مقامي في عالم الحقيقة فلا أعرض عنه، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:23] الذين يقبلون إلى الدنيا ويعرضون عن الولي.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ [يوسف:24][2] أي: همت الدنيا بالقلب لما رأت فيه من الحاجة

---

(1) هي أبواب أركان الشريعة يعنى إذا فتحت الدنيا على القلب أبواب شهواتها وحظوظها غلقت عليه أبواب الشريعة التى تدخل منها أنوار الرحمة والهداية ونفحات الألطاف والعناية، تفسير حقي (6/ ص 78).

(2) قال سيدي روزبهان: خالص الحقيقة في هذا المعنى في تلك الهمتين، إن همّة زليخا سبقت على همّة يوسف ﷺ، وحسن يوسف ﷺ سبق بجذب قلب زليخا وهمّتها إلى معدنه؛ لأنَّ عشق زليخا وحسن يوسف صفتان صادرتان من المعدنين الأزليين، وهما صفة جمال القدم ومحبة الأزل، فلمّا هاجت همّة زليخا بعد انجذاب قلبها إلى معدن عشق يوسف ﷺ هاجت أيضًا همة يوسف ﷺ إلى أهلية عشقها وحسنها وهمتها، فصارت الهمتان بعضها من بعض، فهاجت همة الجوهر إلى الجوهر، والفطرة إلى الفطرة، والطبيعة إلى الطبيعة، والإنسانية إلى الإنسانية، والروحاني إلى الروحاني، والإلهي إلى الإلهي، فصارت جميعها بوصف الهمتين متحيرة، حتى صار شخصهما، وسوادهما، وخيالها، وعقلها، وقلبهما، وروحهما، وسرهما واحدًا في واحد... فكيف نتهم الهمتين، وأصل الجوهر نور الإرادة، وأصل الفطرة فعل الإرادة، وأصل الطبيعة مباشرة القدرة؛ لكن الصورة وأصل الإنسان وجود معجون القهر الروحاني مباشرة اللطف، والإلهي تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، فترقى الهمة من أصل الجوهر إلى نور الإرادة، ومن أصل الفطرة إلى فعل الإرادة، ومن أصل الطبيعة مباشرة القدرة، ومن أصل الإنساني إلى وجود معجون القهر، وذلك سر النفس الأمارة، ومن أصل الروحاني إلى مباشرة اللطف، ومن أصل إلهي إلى تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، ففي عين الجمع أصل العشقين، والهمتين من معنى تجلي الذات والصفات والأفعال، فإذا علمت ذلك فترى شخصهما شخصًا، وروحهما روحًا، وقلبهما قلبًا، وهمتهما همة،

الضرورية للإنسانية إليها، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:24] أي: هم القلب بها فوق الحاجة الضرورية إليها لما ركنت النفس الحريصة على الدنيا ولذاتها، ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى﴾ [يوسف:24] القلب، ﴿بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:24] وهو نور القناعة التي في نتائج نظر العناية إلى قلوب الصادقين، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ [يوسف:24] من القلب بنظر العناية ﴿السُّوءَ﴾ [يوسف:24] وهو الحرص على الدنيا، ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف:24] وهي تصرف حب الدنيا فيه ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [يوسف:24] لا من عباد الدنيا وغيرها، ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:24] مما سوانا أي: المخلصين في جنس الوجود المجازي، الموصلين إلى الوجود الحقيقي، وهذا مقام كمالية القلب أن يكون عبدًا لله حرًّا عمَّا سواه، فانيًا عن أوصاف وجوده، باقيًا بأوصاف ربه.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف:25] يشير إلى أن يوسف القلب لما رأى برهان ربه وهو نور نظر العناية التي من نتائجها القناعة هرب من زليخاء الدنيا وما يخدع بزينتها وشهواتها اتبعته زليخاء الدنيا واستبقا الباب وهو الموت، فإن الموت باب بين الدنيا والآخرة وكل الناس داخله، فمن خرج من باب دار الدنيا دخل باب دار الآخرة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فتعلقت زليخاء الدنيا بيد شهواتها بذيل قميص بشرية يوسف القلب قبل خروجه من باب الموت الحقيقي"(1).

=

وسرهما سرًّا، وكلهما كلاً، وذلك الكل صدر من الكل، وذلك الكل علة العلل، ومعلل الأشياء ومكون الكون أصل الأصول، فمن يدم وغرائب حقيقة قدس المعرفة في الإشارة، إشارة منه بدأت، وإليه تعود بيني وبينك، أني ينازعني، فارفع بلطفك أني من البين يا صاحب الهمة ، إذا تجلى من فعله لفعله بوصف الفعل صار العشق مع الشهوة، وإذا تجلت الصفة بالصفة بوصف الصفة صار العشق مع شهوة الروحاني بلا شهوة الإنساني، وإذا تجلى الذات للذات بوصف الذات صار العشق بوصف العشق الأزلي المقدَّس عن حركات أسرار جميع الشهوات؛ لأن عشقه أزلي بلا علة، فأول همة حركة الفعل إلى الفعل، وهناك موضع الامتحان والفتنة المخالفة الأمر، وأوسط الهمة تجلي الصفة إلى الصفة، فهناك مقام الالتباس، ونهايتها تجلي الذات للذات، وهناك مقام القدس والطهارة من الامتحان، فإذا كان يوسف عليه السلام في بدايتها ووسطها كان في محل العتاب، فإذا تجلت الذات للذات سلبه أنوار الذات من المقامين، ولولا ذلك لبقي في بحر الامتحان وعتاب الرحمن.

(1) لما بدأ ليوسف أوائل سطوات الأزل وأنوار كشف تجلي الأبد لم يحتمل أوائلها، وعجَّل سرَّه في أول بديهة

-

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ [يوسف:25] بشريته، ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف:25] فلمَّا خرج يوسف من باب موت البشرية والصفات الحيوانية واتبعته زليخاء الدنيا، ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف:25] وهو صاحب ولاية تربية يوسف القلب وزوج زليخاء الدنيا، وإنما سمي سيدها؛ لأن أصحاب الولايات هم سادة الدنيا والآخرة، وهم الرجال على الحقيقة يتصرفون في الدنيا كتصرف الرجل في امرأته.

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف:25] يشير إلى أن ما جزاء قلب يتصرف في الدنيا بالسوء وهو على خلاف الشريعة ووفق الطبيعة، ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾ [يوسف:25] في سجن الصفات الذميمة النفسانية، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:25] أي: يعذب بألم البعد والفراق، ﴿قَالَ﴾ [يوسف:26] يوسف القلب وأظهر عداوة زليخاء الدنيا بعد أن خرقت قميص بشريته وخرج من باب الموت عن صفاتها، ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف:26] لأنها كانت مأمورة بخدمتي كما قال: «يا دنيا اخدمي من خدمني»[1] وإني كنت فارًا منها، لقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ [الذاريات:50].

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:26] أي: حكم بينهما حاكم وهو العقل الغريزي دون العقل المجرد، فإن الغريزي دنيوي والمجرد أخروي، فالمعنى أن حاكم العقل الغريزي الذي هو من أهل زليخاء حكم ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ [يوسف: 26] أي: إن كان قميص بشرية يوسف القلب قد من قبل يدل على أن التابع كان يوسف

التوحيد، فرَّ من أماكن الخطر، ولو صبر حتى غاص في بحر الوحدانية لم يحتج إلى الفرار إلى الباب، وإن تمكن في رؤية الحق وبرهانه وسكن ونظر إلى زليخا بنظر التوحيد لتذوب زليخا بنظره إليها، والتقديس من شهواتها؛ لأن حقيقة التوحيد إذا غلبت نادت إلى فناء ما دون الله، وتأثر في كل ناظر إلى صاحبها بألَّا يبقى فيه أثر للشهوة الإنسانية، ولمَّا لم يكن كذلك ما أثَّر في زليخا حتى عدت خلفه إلى الباب وقدَّت قميصه، ولو كان يوسف مستغرقًا في أواخر التوحيد لاحترقت زليخا، وما قدرت أن تعدو خلفه، وتمزَّق قميصه، كان يوسف في أوائل التوحيد، وزليخا في أواخر العشق، فلم يؤثر التوحيد في العشق، وتخريقها ثوب يوسف من غلبة عشق الإنساني على عشق الروحاني، ولمَّا خرقت قميصه من عشق الإنساني، صار تخريق القميص برهانًا ليوسف عليه السلام شاهدًا على صدقه.

(1) تقدم تخريجه.

القلب على قدمي الهوى والحرص، فعدل عن الصراط المستقيم بالعصمة وقدَّ قميص بشريته من قبل ﴿فَصَدَقَتْ﴾ [يوسف:26] زليخاء الدنيا أنها متبوعة ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف:26] في دعواه إنها راودتني عن نفسي واتبعتني.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: 27 - 31].

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾ [يوسف:27] زليخاء الدنيا أنها متبوعة ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:27]؛ يعني: يوسف القلب، وإن زليخاء الدنيا راودته عن نفسه واتبعته وإنه متبوع، ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف:28] حكم حاكم العقل أن يد تصرف زليخاء الدنيا لا تصل إلى يوسف القلب إلا بواسطة قميص بشريته، ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ [يوسف:28] أي: تعلق قميص بشرية يوسف القلب.

﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف:28] أي: من كيد الدنيا وشهواتها، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1] [يوسف:28] لا تكن تكيدن في أمر عظيم وهو قطع طريق الوصول إلى الله العظيم على القلب السليم، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف:29] أي: يا يوسف القلب أعرض عن زليخاء الدنيا، فإن كثرة الذكر تورث المحبة وحب الدنيا رأس كل خطيئة، ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف:29] أي: استغفر يا زليخاء الدنيا، ﴿إِنَّكِ كُنْتِ﴾ [يوسف:29] بزينتك وشهواتك قاطعة عن طريق الله تعالى على يوسف القلب وأنت في

(1) قال الشبلي: على من لم يصحبه من ربه توفيق الرعاية، فأمّا من كان بعين الحق كيف يلحقه كيد كائد، فلما فشي الخبر وكثرت الملامة، وسمعت نساء البلد هاجت سرهن؛ لأنَّ أرواحهن كانت متألفة بروح زليخا، وهن جميعًا مع روح يوسف عليه السلام، فتقاضى سرهن حقائق الخبر، وتفتيش الأمر ليذقن ما ذاقت زليخا فاحتلن، وقلن ذكر ملامتها.

ذلك، ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:29] الذين ضلوا عن الطريق وأضلوا كثيرًا.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [يوسف:30] يشير بالنسوة: إلى صفات البشرية النفسانية من البهيمية والسبعية والشيطانية في مدينة الجسد، ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: 30] وهي الدنيا، ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف:30] تطالب عبدها وهو القلب كان عبد الدنيا في البداية لحاجته إليها للتربية، فلمَّا كمل القلب وصفا وصقل عن دنس البشرية استأهل المنظر الإلهي فتجلى له الرب تبارك وتعالى فتنور القلب بنور جماله وجلاله احتاج إليه كل شيء وسجد له حتى الدنيا ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف:30] أي: أحبته الدنيا غاية الحب لما ترى عليه آثار جمال الحق، ولمَّا لم يكن لنسوة صفات البشرية اطلاع على جمال يوسف القلب كن يلمن الدنيا على محبته، فقلن، ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: 30]، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ [يوسف:31] أي: زليخاء الدنيا، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ [يوسف:31] في ملامتها، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:31] أي: الصفات، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف:31] أي: تهيأت طعمة مناسبة لكل صفة منها، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف:31] وهي سكين الذكر، ﴿وَقَالَتِ﴾ [يوسف:31] زليخاء الدنيا ليوسف القلب، ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:31] وهو إشارة إلى غلبة أحوال القلب على صفات البشرية.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ [يوسف:31] أي: وقفن على جماله وكماله، ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف:31] أي: أكبرن جماله أن يكون جمال البشر ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:31] بسكين الذكر عن تعلق ما سوى الله تعالى، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:31] أي: جماله بشر، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:31] ما هذا إلا جمال ملك كريم، وهو الله تعالى بقراءة من قرأ (ملك) بكسر اللام.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾ [يوسف: 32 - 34].

﴿قَالَتْ﴾ [يوسف:32] زليخاء الدنيا النسوة الصفات، ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف:32] في محبة هذا الجمال، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف:32] اعترفت عند استيلاء المحبة وغلباتها من نالت من محبة بعض ما نالته، وقدمت نفسها لنفس المحبوب، واستهدفت نفسها للملامة، وجعلت العصمة حظ المحبوب.

فقالت: ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:32] يعني: أنا الذي عرضت عليه نفسي وتعرضت للفجور وهو الذي أعرض عني واعتصم بالله، ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ [يوسف:32] وهذا أيضًا إظهار الشر والظلم عن نفسها، وإظهار الخير والعفة عنه عن نفس محبوبها حتى استخرجت منه قول: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:33] فيه إشارة إلى أن القلب إذا لم يتابع أمر الدنيا وهوى نفسه، ولم يجب إلى ما يدعوه وداعي البشرية يكون مسجونًا في سجن الشرع والعصمة من الله.

وفي قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:33] إشارة إلى أن القلب وإن كان في كماله كقلب من الأنبياء لو خلي إلى طبعه ولم يعصمه الله تعالى عن مكائد الدنيا، وآفات الدواعي البشرية، وهواجس النفس، ووسواس الشيطان يميل إلى ما يدعونه إليه ويكون من جملة النفوس الظلومة الجهولة، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ [يوسف:34] يجيب المضطر إذا دعاه، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف:34] عن القلب كيد الدنيا وصفات النفس، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [يوسف:34] لمن دعاه، ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يوسف:34] بذاته وذواتهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 35 – 36].

وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ [يوسف:35] أي: ظهر لمربي القلب بلبان الشريعة وهو شيخ الطريقة ومن راعى صلاحية القلب، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ [يوسف:35] وهي آثار عناية الله تعالى، وعصمة القلب من الالتفات إلى ما سواه، ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ [يوسف:35] في سجن الشرع، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف:35] أي: إلى حين قطع تعلقه عن الجسد بالموت

نظره قول، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:99] أي: الموت إذ النبي مسلم مع كماله في الدنيا، والنبوة والرسالة مأمور من محبوبه بأن يكن مسجونًا في سجن الشرع حتى حين موته فكيف من دونه؟ والله أعلم.

قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف:36] يشير إلى أنه لما دخل يوسف القلب سجن الشريعة، ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف:36] وهما ساقي النفس وخباز البدن غلامان لملك الروح أحدهما صاحب شرابه والآخر صاحب طعامه، فالنفس صاحب شرابه تهيئ لملك الروح ما يصلح له شربه منه، فإن الروح العلوي الأخروي لا يعمل عملاً في السفلي البدني إلا بشرب يشربه النفس، والبدن صاحب طعامه الذي يهيئ من الأعمال الصالحة ما يصلح لغذاء الروح، والروح لا تبقى إلا بغذاء روحاني باق كما أن الجسم لا يبقى إلا بغذاء جسماني، وإنما حبسا في سجن الشريعة لأنهما متهمان بأن يجعلا السم في شراب ملك الروح وطعامه فيهلكاه، وهو سم الهوى والمعصية فإذ كانا محبوسين في سجن الشريعة أمن ملك الروح من شرهما.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف:36] يشير إلى أن النفس البدن كلاهما ينادي وأهل الدنيا نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، وكل عمل يعمل أهل الدنيا فهو بمثابة الرؤيا التي رآها النائم، فإذا انتبه بالموت يكون له تأويله يظهر في الآخرة، ويوسف القلب بتأويل منامات أهل الدنيا عالم؛ لأنه من المحسنين كما قال: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:36].

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف: 39 - 41].

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:37] يعني: قال الذين يعبدون الله على الرؤية والمشاهدة بقلوب حاضرة عند مولاهم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:22-23]، فكل حكم صدر من تلك الحضرة فهم

شاهدوه في الغيب قبل نزوله إلى عالم الشهادة، فكساه القوة المتحلية عند عبوره عليها كسوة خيالية تناسب معناه، تصاحب الرؤيا إن كان عالمًا بلسان الخيال فيعتبره وإلا يعرضه على المعبر ليكون ترجمًا فأله، فيترجم له لسان الخيال ويخبره عن الحكم الصدر عن الحضرة الإلهية، فلهذا كانت الرؤيا الصالحة جزءًا من أجزاء النبوة؛ لأنه نوع من الوحي الصادر من الله، وتأويل الرؤيا جزءًا أيضًا من أجزاء النبوة؛ لأنه علم لدني يعلمه من يشاء من عباده كما قال يوسف ﷺ: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ثم قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [يوسف:37] يعني: تركت هذه الملة، ﴿عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وفيه إشارة إلى أن القلب مهما ترك ملة النفس والهوى والطبيعة علمه الله علم الحقيقة، وملتهم أنهم قوم لا يؤمنون بالله؛ لأن النفس تدعي الربوبية كما قال نفس فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:24] والهوى يدعي الإلهية كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43] والطبيعة هي التي ضد البشرية.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [يوسف:38] السر، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:38] الخفي، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:38] الروح، وكانت ملتهم التوحيد والمعرفة، وأنهم أرباب الكشوف وأصحاب المشاهدات، ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف:38] من الأشياء التي هي ما سوى الحق تبارك وتعالى، ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:38] إذا أعطانا هذه الهداية.

﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ [يوسف:38] يعني: النفس والبدن والأعضاء والجوارح بأن أفضنا عليهم فيما أفاض الله علينا، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ [يوسف:38] يعني: الذين نسوا نعمة الله، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:38] على نور فضله وكرمه.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: 39 - 41].

وقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ [يوسف:39] يشير إلى النفس والبدن أنهما صاحبا يوسف القلب في سجن الشريعة، وأرباب متفرقون من الدنيا والهوى والشيطان، ﴿خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:39] لما دونه، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ﴾ [يوسف:40] يا أهل النفوس، ﴿وَآبَاؤُكُمْ﴾ [يوسف:40] أهل الدنيا ليس تحتها طائل وهي ظل زائل.

﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا﴾ [يوسف:40] أي: بعبادتها، ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف:40] حجة وبرهان، ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ [يوسف:40] في الوجود والعدم، ﴿إِلَّا للهِ﴾ [يوسف:40] بإيجاد المعدود وبإعدام الموجود، ﴿أَمَرَ﴾ [يوسف:40] بحكمه، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف:40] ولا تعبدوا نحوه، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف:40] القيوم والصراط المستقيم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:40] حقيقة هذا المعنى، بل يدعون بعبادة الهوى والدنيا، ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ [يوسف:41] وهما النفس والبدن، ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ [يوسف:41] وهو النفس.

﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ [يوسف:42] أي: سيده وهو الروح، ﴿خَمْرًا﴾ [يوسف:41] وهو ما خامر العقل مرة من شراب الشهوات واللذات النفسانية، وتارة بأقداح المعاملات والمجاهدات شراب الكشوف والمشاهدات الربانية وهي باقية في خدمة ملك الروح، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ [يوسف:41] وهو البدن، ﴿فَيُصْلَبُ﴾ [يوسف:41] بحبل الموت، ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ﴾ [يوسف:41] طير أعوان ملك الموت، ﴿مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف:41] الخيالات الفاسدة التي جمعت في أم دماغه، ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: 41] أي: قضي في الأزل على هذه الصفة الأمر الذي أنتم اليوم فيه تطلبان الفتوى، والله أعلم.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43)﴾ [يوسف: 42 - 43].

وقال: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ [يوسف:42] أي: وقال يوسف القلب المسجون في حبس صفات البشرية للنفس، ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[1] [يوسف:42] وهو الروح يشير إلى أن القلب المسجون في بدء أمره يلهم النفس بأن يذكره بالمعاملات المستحسنة الشريعة عند الروح استقوى بها الروح، وينبه عن نوم الغفلة المنسية من الحواس الخمس، ويسعى في استخلاص القلب عن أسرار الصفات البشرية بالمعاملات الروحانية مستمدًا من الألطاف الربانية.

﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:42] يعني: الشيطان ووسواسه يمحو عن النفس أثر إلهامات القلب؛ لينسي النفس ذكر الروح بتلك المعاملات، وفيه معنى آخر: وهو أن الشيطان أنسى القلب ذكر ربه يعني: ذكر الله حتى استغاث بالنفس؛ لتذكره عند الروح ولو استعان الله لخلصه في الحال.

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:42] يشير به إلى صفات البشرية السبع التي بها القلب محبوس وهي: الحرص والبخل والشهوة والحسد والعداوة والغضب والكبر، وإذا أراد الله أن يخلص القلب عن سجن صفات البشرية يُري الروح الذي هو ملك مصر القالب رؤيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ [يوسف:43] أي: الروح، ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف:43]، وهن صفات البشرية السبع، ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف:43]، يشير بهن إلى صفات الروحانية السبع التي هن أضداده صفات البشرية وهن: القناعة والسخاء والعفة والغبطة والشفقة والحلم والتواضع.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ [يوسف:43] أي: الأعضاء والجوارح والحواس والقوى، ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ [يوسف:43] أي: فيما رأيت في الملكوت بالغيب عنكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ

(1) قال التستري (1/ 235): حكي أن جبريل ﷺ دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لألبثنك بضع سنين قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي.

﴿لِلرُّؤْيَا﴾ [يوسف:43] أي: لا يرى في الملكوت، ﴿تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:43] تعلمون تأويله.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)﴾ [يوسف: 44 - 46].

﴿قَالُوا﴾ [يوسف:44] أي: الأعضاء والجوارح والحواس والقوى، ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ [يوسف:44] لا أصل لها، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف:44] يعني: ليس التصرف في الملكوت، ومعرفة شواهده من شأننا، ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ [يوسف:45] أي: النفس الملهمة من القلب، ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:45] إلى يوسف القلب يشير به إلى أن النفس إذا أرادت أن تعلم شيئًا مما يجري في الملكوت يرجع بقوة التفكر إلى القلب فتستخبر عنه فالقلب يخبرها؛ لأنه يشاهد الملكوت ويطالع شواهده وهو واقف بلسان الغيب، وهو ترجمان بين الروحانيات والنفس مما يفهم من لسان الغيب الروحاني يا أول النفس، ويفهما تارة بلسان الخيال، وتارة بالفكر السليم، وتارة بالإلهام.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾(1) [يوسف:46] أي: يا يوسف القلب، والصديق هو الذي يصدق مما يرى من شواهد الحق ويصدق فيما يرى للحق، وهذا من أوصاف القلب السليم يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:11] وقال الكتاني: حدثني قلبي عن ربي، فصدق القلب فيما حدث به الرب وصدق فيما حدث به عنه، ﴿أَفْتِنَا

---

(1) قال البقلي: سماه الصدِّيق في دعواه علم الغيب، ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه، وذلك تتابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلِّي في قلبه، ووصف هذا استواء الحال، واستقامة الإعمال. قال أبو حفص: الصدِّيق الذي لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره. قال بعضهم: الصدِّيق هو الصادق قولاً وفعلاً وعزمًا وزينةً وعقدًا. وقال بعضهم: الصدِّيق الذي لا يخالف قوله فعله، ولا حاله عمله. قال ابن الفرحي: الصدِّيق كأبي بكر ﷺ الذي يبذل الكونين في رؤية الحق؛ لمَّا قال النبي ﷺ: «ما أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله».

فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ [يوسف:46] أي: إلى الأجزاء الإنسانية، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:46] من أخباركم لهم من الغيب وأحوال الملكوت ما لا تعلمون.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 47-50].

﴿قَالَ﴾ أي: يوسف القلب، ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ يشير به إلى أن تربية صفات البشرية السبع بالعادة والطبيعة، وذلك في سني أوان الطفولية قبل البلوغ وظهور العقل وجريان قلم التكلف عليه ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ [يوسف:47] أي: فما حصدتم من هذه الصفات عند الكمالية فلا تستعملوه وذروه في أماكنه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:47] أي: قليلاً مما تعيشون به وهو بمنزلة الغناء لمصالح قيام القالب إلى أن يبلغوا حد البلاغة، ويظهر نور العقل في مصباح السر عن زجاجة القلب كأنه كوكب دُري ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف:48] من صفات الروحانية والأخلاق الحميدة.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ [يوسف:48] يشير به إلى أن نور العقل إذا أيدناه بتأييد أنوار تكاليف الشرع بعد البلوغ وشرفه بإلهام الحق في إظهار فجور النفس وهو صفات البشرية السبع وتقواها، وهو الاجتناب بالتزكية عن هذه الصفات، والتحلية بصفات الروحانية السبع العجاف قد أكلت السبع السمان، وإنما سمي السبع العجاف؛ لأنها من عالم الأرواح وهو لطيف فسميت العجاف، وصفات البشرية عن عالم الأجسام كثيفات وهو كثيف فسميت السمان، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف:48] أي: لا يبقى من صفات البشرية عند غلبات الصفات الروحانية إلا قليلاً تحصن بها الإنسان حياة قالبه وبقاء صورته.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:49] يشير به

إلى أن بعد غلبات صفات الروحانية، واضمحلال صفات البشرية يظهر مقام فيه يتدارك السالك جذبات العناية يتبرأ العبد عن معاملاته، وينجو عن محبة وجوده وحجب أنانيته، وكان حصنه وملجأه الحق تبارك وتعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ [يوسف:50] أي: الروح، ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ [يوسف:50] أي: فلمّا أخبر القلب بنور الله كما رآه الروح في عالم الملكوت وتأويله استحق لقربة الروح وصحبته فاستدعى حضوره، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ [يوسف:50] وهو النفس، ولاقى رسالة الروح في استحضاره وخلاصه عن سجن صفات البشرية.

﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف:50] أي: الروح، ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:50] يشير بالنسوة إلى الأوصاف الإنسانية، فلمّا رأين جمال يوسف القلب المنور بنور الله ولهن من حسنه وجماله، وقطعن أيديهن عن الدنيا وملاذها وشهواتها، ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:50] أي: بكيد أوصاف الإنسانية في طلب شهوات الدنيا وتبدأ إنما قطعن أيدي طلبهن عنها لما شاهدت كمالات السعادات الأخروية الباقية فآثروها على الدنيا الفانية.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝﴾ [يوسف: 51-52].

﴿قَالَ﴾ [يوسف:51] يعني: الروح للأوصاف الإنسانية، ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف:51] أي: يوسف القلب هل رأيتن فيه مناسبة حتى ملن إليه؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف:51] يناسب حالنا، ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف:51] ظهر الحق وخفي الباطل إذا الأوصاف الإنسانية شاهدة جمال يوسف القلب وعزته في طلب الحق وترك زليخاه الدنيا، ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ بكمال جماله حاله ونقصان قبيح حالي، ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51] في طلب الحق، وترك متابعة الهوى في طلب الدنيا.

﴿ذَلِكَ﴾ [يوسف:52] الرد من الرسول لنفسه؛ أي: طلب الروح، ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ

﴿أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف:52] يشير به إلى كلام القلب المنظور بنظر العناية أنه لمَّا غاب عن حضرة الروح؛ لانشغاله بتربية النفس والقالب وتدبير مصالحها ما خانه بالالتفات إلى الدنيا ونعيمها، ﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:52] أي: لا يرشد كيد من خانه؛ أي: بائع الدين بالدنيا.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: 53 - 57].

ثم قال: إظهار للعجز من نفس والفضل من ربه، ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53] يعني: خلقت النفس على جبلة الأمارية بالسوء طبعًا حين خليت إلى طبعها لا يأتي منها إلا الشر ولا تأمر بالسوء، ولكن إذا رحمها ربها ونظر إليها بنظر العناية يقبلها من طبعها ويبدل صفاتها، ويجعل أماريتها مبدلة بالمأمورية وشريتها بالخيرية، فإذا تنفس صبح الهداية في ليلة البشرية وأضاء أفق سماء القلب صارت النفس لوامة تلوم نفسها على شر فعلتها، وندمت على ما صدر عنها من الأمارية بالسوء، فيتوب الله عليها فان الندم توبة، وإذا طلعت شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس ملهمة إذ هي تنورت بأنوار شمس العناية فألهمها نورها فجورها وتقواها، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية وأشرقت الأرض بنور ربها صارت النفس مطمئنة مستعدة لخطاب ربها بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28]، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ [يوسف:53] لنفس تائبة راجعة إليه، ﴿رَحِيمٌ﴾ [يوسف:53] لمن أحسن طاعته وعبوديته.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:54]، ويشير إلى أن ملك الروح لمَّا وقف على حسن استعداد يوسف القلب، وأن له اختصاصًا بالله في علم تأويل ما يرى الروح ما أراه الحق تعالى من مكنونات الغيب، ولم

يعلم حقيقته إلا أن يؤوله القلب له بما خص الله تعالى القلب بالنظر إليه، وهو ينظر بنور الله الذي هو من خصوصيته نظر الله تعالى إليه فيرى حقائق الأشياء بالنور، فالروح تسعى في خلاص القلب عن سجن صفات البشرية؛ ليكون خالصاً له في كشف حقائق الأشياء، ولم يعلم أنه خلق لإصلاح جميع رعايا مملكته روحانية وجسمانية، كما قال النبي ﷺ: «إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا أصلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهي القلب»[1].

وللقلب اختصاص آخر بالله تعالى دون سائر المخلوقات فهو به خالصته للحق دون الخلق وهو قوله: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن»[2] وهذا كما كان حال ملك مصر مع يوسف لما رأى أن له علم تأويل رؤياه الذي هو بمعزل عن عمله قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف:54] لما علم أنه خلق لإصلاح جميع رعاياها ملك مصر وغيرها، وهو خالصة الله تعالى لا يصلح أن يكون خالصة للملك، ولكن الله تعالى استحسن من الملك إحسانه مع يوسف واستخلاصه من السجن، فما أحسن إليه بأن رزقه الإيمان، واستخلصه من سجن الكفر والجهل، وجعله خالصته بحضرته بالعبودية، وترك الدنيا وزخارفها، وطلب الآخرة ودرجاتها.

﴿قَالَ﴾ يوسف القلب لملك الروح ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾[3] [يوسف:55].

---

(1) رواه أبو عبيد الهروي في الإيمان (1/ 24).

(2) تقدم تخريجه.

(3) قال الشيخ روزبهان: أخبر الله يوسف عليه السلام الملك أيضًا عن مقام تمكينه، وقدرته بالتصرف في الملك الدنيا؛ بألا يتحجب في تصرفها عن مشاهدة الله وملك الآخرة، وليس كل من يتصرف في الدنيا متمكن إلا من كان على وصف يوسف عليه السلام، ووصف يوسف عليه السلام حفظ الأنفاس بالذكر، وحفظ القلب بالفكر، حفظ أنفاسه عن الوسواس، وحفظ قلبه وفكره عن ذكر غير الله، عليم بذات الله وصفاته وآياته وعبادته. وأيضًا: إني حفيظ بنور تفرس نبوتي ما يقع من أمور المقادير عليهم بعلم الله ما يجري في القلوب من الغيوب، وخزائن الأرض في الإشارة قلوب الرياضين من الأولياء والصدِّيقين.

قال الواسطي: مدح النفس قبيح في الشاهد إلا في وقت الإذن فيه، وله حينٌ وأوانٌ، ألا ترى يوسف عليه السلام كيف قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وقال بعضهم: خزائن الأرض رجالها. فقال: اجعلني عليهم أمينًا، فإني حفيظ لما يظهرونه، مكشوف لي ما يضمرونه، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم.

أي: خزائن أرض الجسد، فإن لله تعالى في كل عضو من أعضاء ظاهر الجسد وباطنه خزانة من اللطف والقهر فيها نعمة أخرى، كالعين فيها نعمة البصر فإن استعملها في رؤية البصر ورؤية الآيات والصنائع فيجد اللطف وينتفع به، وإن استعملها في مستلذاتها وشهوات النفس ولم يحفظ نفسه منها فتجد القهر ويضره ذلك، وقس الباقي على هذا المثال، ولهذا قال يوسف: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:55] أي: حافظ نفسي فيها عمّا يضرها عليم بنفعها وضرها واستعمالها فيما ينفع ولا يضر.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ ليوسف القلب، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض الجسد، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ أي: يتصرف في جميع الأعضاء، ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف:56] من تلك الخزائن، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف:56] يشير إلى أن إصابة اللطف من تلك الخزائن دون القهر موكلة إلى مشيئة الله تعالى لا إلى مشيئة الخلق، فإن الخلق لو وصلوا إلى شيمهم ومشيئتهم أصابوا من تلك الخزائن باستعمالهم نعمها في مشتهيات نفوسهم القهر الموجع فيها دون اللطف.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:56] أي: الحافظين نفوسهم عن هواها وشهواتها العاملين بالتصرف في تلك الخزائن على وفق الشرع وخلاف الطبع، ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف:57] أي: رفعة الدرجات الأخرويات والنعم الباقيات، ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:57] من الشهوات الدنيويات الفانيات بالطاعات والقربات، فلمّا تمكن يوسف القلب في حمي مملكة مصر الجسد بالتأييد الرباني، وصارت خزائن أرض الجسد تحت تصرفه واحتاجت رعايا الأعضاء والجوارح إليه حتى أوصاف البشرية التي هي بمثابة إخوة يوسف فجاءوا إليه في طلب الميسرة.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ

وقال أبو سعيد الخرّاز: إن لله عبادًا يدخل عليهم الخلل، ولولا ذاك فسدوا وتعطلوا، وذلك أنهم بلغوا من العلم غاية صاروا إلى علم المجهول الذي لم ينصّه كتاب، ولا جاء به خبرٌ لكن العقلاء العارفون يحتجّون له من الكتاب والسنة، وذلك بحسن استنباطهم، وفهومهم.

عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يوسف: 58 - 62].

كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إخوة يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، وهم الأوصاف البشرية، ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف القلب؛ لأنه ينظر بنور الله، ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف:58] لبقائهم في الظلمة، وحرمانهم عن نور التوبة والاستغفار، وكذا كان حال يوسف مع إخوته فإنه عرفهم بنور المعرفة والنبوة.

﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لبقاء ظلمة معاصيهم وحرمانهم عن نور النبوة والاستغفار، ولو عرفوه حق المعرفة ما باعوه بثمن بخس، ولو لم يعرفهم يوسف أنهم أولاد الأنبياء، وأنهم مستعدون للنبوة ما عفي عنهم واستغفر لهم، ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:92] وما أحال فعلهم إلى الشيطان، وقال: ﴿نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف:100].

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف:59] يشير إلى أن يوسف القلب لمَّا التجأت إليه أوصاف البشرية بدل صفاتها المذمومة النفسانية بالصفات المحمودة الروحانية، واستدعى منها استحضار بنيامين السر وهو أخو يوسف القلب حقًا، وذلك أن السر لا يحضر مع القلب إلا بعد تبديل الصفات الذميمة بالحميدة، وإذا حضر السر مع القلب يوفى إليه بأوفى الكيل ما لم يوف إلى الأوصاف البشرية.

ثم قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف:60] يشير إلى أن كيل الأوصاف إنما يكون بكيل السر وحضوره مع القلب بعد خلاصه عن تصرف الأوصاف، فإذا لم يكن خلاصه عنهم فلا يكون لهم عند القلب كيل حقيقي بتبديل أوصافهم ولا قوة لهم عند القلب فأجابوه، ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف:61] نخدع عنه إياه بإبقاء الكيل عليه كما أوفيت علينا، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف:61] ما نريد من إخفاء السر.

﴿وَقَالَ﴾ [يوسف:62] يعني: يوسف القلب، ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ [يوسف:62] أي:

لصفاته في الأصل، ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف:62] أي: بضاعة إخوته وهم أوصاف البشرية، وبضاعتهم الأعمال الصالحة البدنية يشير إلى أن بضاعة كل عمل من أعمال البدنية التي تجري بها أوصاف البشرية إلى حضرة يوسف القلب هي مردودة إليها؛ لأن القلب مستغن عنها، وإنما أوصاف البشرية محتاجة إليها، فإن النفس تتأدب وتتزكى بها وتتحسن بأخلاقها، وقال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:7].

وإن تربية القلب إنما هي بالأعمال القلبية الروحانية كالنيات الصالحة، ولهذا قال ﷺ «نية المؤمن خير من عمله»[1] وفي رواية: «أبلغ من عمله»[2] وكما العزائم الصادقة، والأخلاق الحميدة، والإقبال على الله، والإعراض عمَّا سواه، وصدق الطلب والتوجه للحق، وتخليص محبة الله عن شركة محبة المخلوقات، والتسليم والرضاء بالقضاء، وبذل الوجود المجازي في طلب الوجود الحقيقي، وهذا كله من قبيل التزكية والتصفية لسعي العبودية، ثم كمال تربية القلب من مواهب الربوبية بالتجلية وهي طلوع شمس مشاهدات أنوار الحق، وإظهار أنواع مكاشفاته من مشارق غيب الغيوب، وتجلي صفاته وذاته.

وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف:62] إشارة إلى أن أوصاف البشرية إذا انقلبوا ببضاعة طاعتها إلى النفس وصفاتها يعرونها أنها تصلح لها لا للقلب، فتزكى النفس بتزكي الطاعات وتتربى بها، فتتزكى عن صفة الأمارية فتصير مأمورة مطمئنة، فتستحق لجذبة خطاب الحق وأمر: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 28] فترجع النفس مع أوصاف بشريتها إلى حضرة الربوبية، فيكون طريقها على يوسف القلب وأهاليه، كقوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29-30].

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا

(1) أخرجه الطبراني (6/ 185، رقم 5942)، والخطيب (9/ 237).

(2) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (2/ 1834).

رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يوسف: 63 - 67].

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ [يوسف: 63] وهو بنيامين السر، ﴿نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:63] يشير إلى أن أوصاف البشرية، ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا﴾ [يوسف:63] عن أحواله إلى ربهم كان عبورهم، ﴿إِلَى أَبِيهِمْ﴾ [يوسف:63] يعقوب الروح، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف:63] أي: الكيل الكامل إذا لم يكن معنا أخونا بنيامين السر فأرسله معنا نكتل بحضوره معنا الكيل الكامل من خزائن يوسف القلب، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:63] عن تصرفات الشيطان ومكائد الدنيا.

﴿قَالَ﴾ [يوسف:64] يعقوب الروح، ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ [يوسف:64] يوسف القلب، ﴿مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف:64] أي: آمنته عليه منكم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:64] لمن يتوكل عليه ويأمنه، ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ [يوسف:65] أي: الذي استغفاره من القلب، ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ [يوسف: 65] أي: فوائد طاعتهم، ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف:65] عائدة عليهم، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ [يوسف:65] ما نطلب وراء هذا، وفي لنا كيل المعرفة والتوحيد، ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا﴾ [يوسف:65] من الأعمال الصالحة، ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف:65] فوائدها ترجع إلى يوسف القلب.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف:65] وهم: الأعضاء والجوارح تحصيل لهم قوتًا روحانيًا يزيد في قوتهم الجسدانية، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف:65] من حوادث النفسانية ووساوس الشيطانية، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ [يوسف:65] بواسطة حضور أخيه السر من القلب، ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:65] من الفوائد الروحانية الربانية، ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: 65] يسّره الله.

﴿قَالَ﴾ [يوسف:66] يعقوب الروح، ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ﴾ [يوسف:66] وهو همة علية وعزيمة صادقة، ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ [يوسف:66] أي: بالسر مع الفوائد الربانية، ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:66] أي: إلا أن يغلب عليكم الأحكام الأزلية والحكم الإلهية، ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف:66].

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ﴾ [يوسف:67] يشير إلى أنه توكيل بعد التوكيل كقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف:67] يشير إلى توصية الروح لأوصاف إلى البشرية عند تقربها إلى القلب واستفادتها منه ألَّا يتقربوا إليه بنوع واحد من المعاملات، ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:67] من أنواع العبودية، فإن في ذلك سعي العباد وجهدهم والمسبب بالأسباب، وما يغني هذه الأسباب من الله وأحكامه الأزلي من شيء إن لم يوافقها، ولا حكم في الأشياء إلا الله ينبغي للمتوكلين أن يتوكلوا عليه لا على الأسباب، فإن الأمر كما قال ﷺ: «لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[1].

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يوسف: 68 - 72].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف:68] إلى قضاها؛ يعني: فعلوا ما أمرهم بعقول الروح، فدخلوا من أبواب من أنواع العبودية وإن لم يغني عنهم من دون الله شيء، ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾

(1) تقدم تخريجه.

[يوسف:68] الروح، ﴿قَضَاهَا﴾ [يوسف:68] وهي امتثال لأمر الحق فيما أمره كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف:68] يعني: ما أمرهم بشيء الإيمان علمناه وأمرناه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ [يوسف:68] يعني: أرباب الصورة، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:68] أن ما يجري على خواص العباد إنما هو بوحينا وإلهامنا وتعليمنا فهم لا يعلمون بها نأمرهم، ونحن نفعل ما نشاء بحكمتنا.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ [يوسف:69] أي: الأوصاف البشرية ومعهم السر، ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:69] القلب، ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف:69] أي: القلب إليه السر لأنه أخوه الحقيقي لمناسبة الروحانية التي اختصا بها دون إخوانها الأوصاف، فإنهم يختصون بالبشرية النفسانية، ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ [يوسف:69] إني أخوك الحقيقي، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [يوسف:69] إن وصلت بي، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:69] ذلك في مفارقتي؛ وذلك لأن السر مما يكون مفارقًا عن القلب مقارنًا للأوصاف يكون محرومًا عن كمالات مستعد لها مباشرًا للأوصاف ممنوعًا عن المرام خاسرًا خائبًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف:70] يعني: القلب لما جهزهم الأوصاف بما يلائم أحوالها، ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف:70] وهي مشربه كان منه شربه؛ ليكون شربهما واحد، فإنهما رضعا بلبان واحد، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف:70]، ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف:71]، ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:72] سرقتم في الأول يوسف وشريتموه بدراهم بخس من متاع الدنيا وشهواتها، وسرقتم في الآخر صواع الملك ومشربته، وما هي بمشاربكم يشير إلى أن من ادَّعى الشرب من مشارب الرجال، وهو طفل بعد أخذ بالسرقة واسترد منه ما نال منها، ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا﴾ إلى ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ فيه إشارة إلى أن من يكون مشاهدًا لحمل البعير الذي هو علف الدواب متى يكون مستحقًا لمشربه هي مشارب الملوك، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف:72] أن من لم يسلم له الشرب من تلك المشارب في حرم عنها لم يحرم عن موانع الحيوانات، فيأكلون كما تأكل الأنعام.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ

إن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 73 - 76].

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف:73] أي: علمتم أننا من المقبلين على يوسف القلب لا من المردودين المعرضين عنه المقبلين على النفس المفسدين في الدنيا كما قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30] ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف:73] إذ أخذنا يوسف القلب وألقيناه في جب البشرية، بل كنا ساعين في نيل مملكة مصر العبودية؛ ليكون عزيزًا فيها ونحن نكون دليلاً له، ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف:74] أي: فما جزاء السارق إن كنتم سارقين. ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف:75] أي: جزاء من وجد فيه هذه المشرب نفسه بأن يفديها في طلب الشرب من هذا المشرب، فإن لكل شارب مشربًا ولكل مشرب فدية، ففدية مشرب الشارب من مشرب الدنيا صنعته وحرفته، وكسب فدية شرب الشارب من مشرب الآخرة ترك الدنيا وشهواتها، وسعادة في الطاعات والعبادات والمجاهدات، وفدية شرب المشارب من شربة محبة الله وطلبه بذل وجوده الشارب، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:60] فهو جزاؤه كل جزاء الحطب الموقد النار الوقود بالنار.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف:75] بل المظلومين الجهولين الذين وضعوا صواع الملك في غير موضعه طمعًا في أن يكون حريف الملك وشريبه قبل بلوغهم، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف:76] والإشارة فيه: إن الأوصاف البشرية مستحقة أن يكون سقاية الملك توجد في أوعيتهم، فإن تلك السقاية إنما توجد في دعاء القلب أو السر.

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:76] يعني: كما كاد أوصاف البشرية في الابتداء بيوسف القلب إذا ألقوه في جب البشرية كدنا لهم عند قسمة الأقوات من خيرات الملك

جعلنا قسمتهم من علف الدواب، وقسم بنيامين السر بقوته الملك، ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ القلب، ﴿مَا كَانَ﴾ [يوسف:76] ليوسف القلب، ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ [يوسف: 76] السر ويضمه إلى نفسه، ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف:76] أي: في طلب دين الملك بل في الملك، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف:76] فيدبر تدبير التيسير هذا الشأن العظيم والشأن الجسيم، فإن المدبر هو الله الرافع لا غيره كقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف:76] من عندنا بأن نؤتيه علم الصعود من حضيض البشرية إلى ذروة العبودية بتوفيق الربوبية.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ [يوسف:76] آتيناه علم الصعود، ﴿عَلِيمٌ﴾ [يوسف:76] بجذبة من المقعد الذي يصعد إليه بالعلم المخلوق إلى مصعد لا يصعد إليه إلا بالعلم القديم، وهو السير في الله بالله إلى الله، وهذا إسراع لما يسعه أدعية الإنسان، والله أعلم.

﴿ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يوسف: 77 – 81].

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف:77] الإشارة فيها أن إخوة يوسف القلب وهم أوصاف البشرية ﴿قَالُوا﴾ تهمة على يوسف القلب وأخيه بنيامين وإن كانا أخوين من أعزة أولاد يعقوب الروح وأطهرهم وأشرفهم وأحبهم إلى أبيهم منهم، فإنهما قابلان لتهمة السرقة في بدء الأمر وهي الإسراف من شهواته الدنيوية النفسانية على أنهما مخصوصان بحظوظ الأخروية الروحانية، فلمّا سمع يوسف القلب ما اتهم وأخيه به من السرقة من قبل أخوته من أوصاف البشرية على أن الخيانة والسرقة من شأنهم.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف:77] إن هذا من شأنكم

وصنيعكم بنا، ﴿قَالَ﴾ [يوسف:77] في نفسه، ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ [يوسف:77] في الخيانة ممن مشبوه بها، ﴿واللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:77] أنه من صفتنا أو صنيعكم.

وفي قوله: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف: 78] إشارة إلى أن أوصاف البشرية لما رأت عزة القلب وعلمت أنه يملك مصر القالب وصار عزيزها، وعرفت اختصاص البشرية بفدائها النفس، وجعلت هذه الفدية وسيلة، وقربة إلى يعقوب الروح، وسببًا لإرضاء القلب لانتفاعها من أجساد كما قال ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(1) [يوسف:78] وإحسانه التجاوز عن إساءتهم والتقرب إليهم بدل إساءتهم إليه.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف:79] أي: معاذ الله أن نقبل بالصحبة والمخالطة من لم يكن من جنسنا، ويكون صحبة معنا بالكراهية والنفاق إلا من وجدنا متاعنا من الصدق والمحبة والطلب والإخلاص، وسر نظر العناية الإلهية عنده وإن قبلنا من لم يكن مخلصًا مستحقًا لصحبتنا ولم نجد عنده متاعنا، ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [يوسف:79] واضعون الشيء في غير موضعه.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾ [يوسف:80] أوصاف البشرية من القلب أن يقبلهم بالصحبة، ﴿مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف:80] أي: خلصوا عن أوصافهم الذميمة في التناجي، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يوسف:80] وهو صفة العقل، ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ [يوسف:80] يعني: الروح، ﴿قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ﴾ [يوسف:80] يعني: يوم الميثاق ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

---

(1) قال روزبهان: أي: ممّن يعفو عمّن ظلمه. وأيضًا: أي: من المشاهدين الملكوت، والمكاشفين لهم أنوار الجبروت. وأيضًا: أي: من العالمين بحل مشكلات الغيوب، وعجائبات القلوب.
وأيضًا: من العارفين بدقائق الأحوال، وحقائق الإجمال. قال ابن عطاء: من المائلين إلى الفقراء بالإحسان إليهم، والقعود معهم والأنس بهم. وقال أبو بكر بن طاهر: إنا نراك من المحسنين، لا ترد عذر معتذر.
وقال بعضهم: إنا نراك من المحسنين إلى من أساء إليك، وهو من شرائط الإيمان.
وقال بعضهم: أي: العالمين بعلم الرؤيا. وقال أبو بكر الورّاق: الراجعين إلى الله في النوائب والمحن.
وقال يوسف بن الحسين: التاركين حظك لحظوظ إخوانك. وقال الجنيد: العارفين حقائق الأمور.

الله﴾ [هود:2].

﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف:80] القلب بأن ألقيتموه في جُبّ البشرية، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ [يوسف:80] فناء القلب وهي الصدر، ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ الله لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف:80] إشارة الله إلى أن صفة العقل لما كلفت عن أوصاف البشرية خرجت عن أوامر النفس وتصرفها، ويصير محكومة لأوامر الروح، ومستسلمة لأحكام الحق والخير له في الاستسلام لأحكامه؛ لأنه ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

وفي قوله: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:81] إشارة إلى أن العقل المخلص من أوصاف البشرية يحكم على أوصاف البشرية بالرجوع إلى عالم أبيهم الروح على أقدام العبودية، وتبديل أخلاقه الذميمة بالحميدة، ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ﴾ [يوسف:81] بنيامين، ﴿سَرَقَ﴾ [يوسف:81] أي: أخذ بالسرقة؛ لأنه وجد في رحله سقاية الملك؛ أي: محبة الله تعالى هي مشربة له، وبها يكتال الملك على وفده من محبته وطالبيه لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف:81] من ظهور أحواله، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف:81] أي: ما كنا عند ارتحالنا من الغيب إلى الشهادة حافظين بأن جعل السقاية في رحله محيط بنا.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: 82 - 86].

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف:82] يعني: أهل مصر الملكوت من الملائكة الكرام الكاتبين، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:82] أرواح الأنبياء والأولياء، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف:82] فيما أخبرناكم، وفي قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ

لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:83] إشارة إلى أن للنفس تسويلات، ولأوصاف البشرية خيالات يتأذى بها يعقوب الروح، وله مقاساتها والمواساة بها لإمضاء أحكام الله وقضائه وقدره صبر جميل، وهو أن يصبر على إمضاء أحكامه، ولا يعترض عليه ولا يعارضه بتبديل الأحكام، بل يستسلم إليه قبل قضائه وقدره ويقول: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:83] يشير إلى أن متولدات الروح والقلب والسر والأوصاف وغيرها، وإن تفرقوا وتباعدوا عن الروح في الجسد؛ لتحصيل أسباب استكمل بها الروح، وترقي عن مقامات الروحانية إلى درجات قربات الربانية، فإن الله تعالى بجذبات العناية يجمعهم ويأتي بهم جميعًا في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 83] بأنه فوقهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾[يوسف:83] فيما فرقهم فبحكمه يجمعهم.

وفي قوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:84] إشارة إلى أن كمالية يعقوب الروح في الإعراض عمّا سوى الحق تعالى، ولا يتأسف على فوات شيء من المخلوقات إلا على يوسف القلب؛ وذلك لأن القلب مرآة جمال الحق تعالى، فتأسف صاحب الجمال على المرآة ما هو على المرآة إنما هو على الجمال، فيكون تأسف الروح على القلب تأسفه وحزنه إلى مشاهد جمال الحق؛ لأنه لا يشاهد إلا في مرآة القلب، ولهذا أشار بقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:84] لأن المشاهدة حظ العين وابيضت عيناه في انتظارها، ولمّا كانت أوصاف البشرية تعدل عمّا كان عند يعقوب الروح من الشوق المبرح والقلق المزعج.

﴿قَالُوا﴾ [يوسف:85] على تأسفه، ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف:85] طالما يلوم أهل الشفاعة المحبين، ومن علامة المحب: ألّا يخاف في الله لومة لائم، فيه يشير إلى أن لا بدّ للمحب من ملامة الخلق، فأول ملامتي في العالم آدم عليه السلام حين لامت فيه الملائكة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] ولو أمعنت النظر لرأيت أول ملامتي على الحقيقة حضرة الربوبية بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وذلك لأنه تعالى كان أول محب أودع المحبة وهو قول ﴿يُحِبُّهُمْ﴾، فافهم جدًا.

﴿قَالَ﴾ [يوسف:86] يعقوب الروح في جوابهم حين حسبوا أن تأسفه وحزنه على

يوسف القلب له خاصة: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ﴾ [يوسف:86] أي: لأني أعلم من جمال الله وكماله وعظمته وجلاله واستحقاقه للمحبة والشوق إلى لقائه، ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:86].

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: 87 - 90].

وفي قوله: ﴿يَا بَنِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ [يوسف:87] إشارة إلى أن الواجب على كل مسلم أن يطلب يوسف قلبه وبنيامين سره، ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ أي: ريحه منهما؛ بل من وجد قلبه وجد فيه ريه؛ إذ هو سبحانه وتعالى متجلٍ لقلوب أولياء المؤمنين وقد وعد الله بوجدانه الطالبين فقال: «ألا من طلبني وجدني»(1) والسر فيه أن طلب الحق تعالى يكون بالقلب لا بالقالب، ووجدانه أيضًا يكون في القلب كما قال موسى ﷺ: «إلهي أين أجدك؟ قال: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»(2) أي: من محبتي.

وفي قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:87] إشارة إلى أن ترك طلب الله تعالى واليأس من وجدانه كفر، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ [يوسف:88] يشير إلى أن إخوة أوصاف البشرية لمَّا وصلوا بسر أحكام الشريعة، وتدبير آداب الطريقة إلى سرادقات حضرة يوسف القلب، وأراد سلطانه في مملكة مصر الملكوت، وشاهدوا منه آثار العزة والجبروت وقد مسهم ضر تعلقات الجسمانية، وتصرفات الدنياوية، وانعدام أقوات الروحانية، وتحقق عندهم احتياجهم لإنعامه وإحسانه، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا﴾ [يوسف:88] وهم قوى الإنسانية ﴿الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ [يوسف:88]

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (4/ 32).

في الأعمال البدنية، والأفعال الإنسانية، والسعي في الترقي عن حضيض الحيوانية إلى ذروة كمال الروحانية.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ [يوسف:88] بإفاضة سجال العوارف الروحانية علينا، وإسباغ ظلال العواطف الربانية لدينا، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:88] بإسبال سبحات الإعزاز والإكرام، وإدرار ما شاء من العطاء والإنعام، ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف:88] بإعطاء الخلق العفو عمّا سلف كما قال تعالى لنبيه ﷺ: «أنفق أُنفق عليك»(1)، ﴿قَالَ﴾ [يوسف:89] يوسف القلب، ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ [يوسف:89] بأوصاف البشرية، ﴿مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ [يوسف:89] القلب أن ألقيتموه في غيابة جب الحيوانية، ﴿وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:89] وبنيامين السر بعدتموه عن يعقوب الروح.

﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:89] أي: إذا كنتم على طبيعة الظلومية والجهولية الإنسانية تظلمون على أرباب الروحانية جهلاً منكم، فلمّا عرفهم ضيفهم به عرفوه، ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:90] القلب الذي ما عرفنا قدرك، وأردنا بالجهل إذلالك، وأراد الحق تعالى إعزازك وإكرامك، ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ [يوسف: 90] وهذا أخي بنيامين السر، ﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:90] بأن جمعنا شملنا بعد ما فرقتمونا، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ [يوسف:90] عن شهوات الدنيا، ﴿وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف:90] على مجاهدة تركها، وأيضًا من يتق عن غير الله ويصبر على مقاساة شدائد طلبه، ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:90] الذين أحسنوا السعي في الطلب بأن يوصلهم إلى المقصود والمطلوب كما قال: «ألا من طلبني وجدني»(2).

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 242، رقم 7296)، وهناد في الزهد (1/ 340)، والبخاري (4/ 1724، رقم 4407)، وابن ماجه (1/ 686، رقم 2123)

(2) تقدم تخريجه.

﴿لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: 91 - 95].

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:91] أي: اختارك بالطلب والصدق والشوق والمحبة والوصول والوصال، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:91] في الإقبال على استيفاء حظوظ الحيوانية، والإعراض عن حقوق الربانية، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:91] يشير إلى أن أوصاف البشرية مجبولة في الهداية على استيفاء حظوظ الحيوانية بصرف القلب والسر والروح، فإذا أدركتها العناية بالجذب، وأذاقها الله من مشارب الروحانية أعرضت عن تلك الحظوظ، وتقبل على تلك المشارب، وتتصرف لصفات القلب يقبلها القلب، ويعفوا عن ما سلف منها في حقه، ويغفر الله تعالى لها ما صدر عنها في البداية؛ لأنه صدر منها ما صدر بحكمة من الله تعالى تربية القلب وإن كان مضرًا له في البداية كما كان حال إخوة يوسف مع يوسف أضره صنيعهم في البداية، ولكنه سبب رفعة منزلته ونيل مملكته في النهاية فلذلك ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف:92].

وفي قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:92] إشارة إلى أنه تعالى أرحم من أن يجزي على عبد من عباده المقبولين أمرًا يكون فيه ضر ولعبد آخر في الحال، ويقع نفع في المآل ثم لا يرفعه لاسترضاء الخصم ليعفوا عنه ما جرى منه، ويستغفر له حتى رحمه الله، وأيضًا: إنه تعالى أرحم للعبد المؤمن من والديه وجميع الرحماء.

وفي قوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف:93] إشارة إلى أن قميص يوسف القلب من ثياب الجنة، وهو كسوة كساه الله تعالى من أنوار جماله إذا ألقى على وجه يعقوب الروح الأعمى يرتد بصيرًا، ومن هذا السر أرباب القلوب من المشايخ يلبسون المريدين خرقتهم؛ ليعزه ببركة الخرقة إلى أرواح المريدين فيذهب عنهم العمى التي حصلت من حب الدنيا والتصرف فيها.

وفي قوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:93] إشارة إلى أن الواجب على أوصاف البشرية إذ وصلوا إلى حضرة القلب أن يأتوه بأهلهم القوى الإنسانية الباطنية، والحواس الخمس الظاهرة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يعني: يتوجهون إلى حضرة القلب، ويعرضون عن

النفس وهواها، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: غير واردات القلب وهبت نفحات ألطاف الحق، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني: يعقوب الروح، ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف:94] القلب كما قال:

نسيمُ الصَّبا أهدى إلى نسيمهَا ... من بلدةٍ فيها الحبيبُ مقيمُ

﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:94] تعيروني بتهمة العشق وقد عيروني ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف:95] أي: من العشق، ولا بدَّ للعشاق من اللائم:

يا عاذِلَ العاشِقينَ دَع فِئَةً ... أَضَلَّها اللهُ كَيفَ تُرشِدُها[1]

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 96 - 100].

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ [يوسف:96] من حضرة يوسف القلب إلى يعقوب الروح بقميص أنوار الجمال، ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:96] يشير إلى أن يعقوب الروح كان بصيرًا في بدء الفطرة ثم عمي؛ لتعلقه بالدنيا وتصرفه فيها، ثم ارتد بصيرًا بوارد من القلب:

وَرَدَ البَشيرُ بِما أَقَرَّ الأَعيُنا ... وَشَفى النُفوسَ وَهَزَّ غاياتِ المُنى[2]

وفيه إشارة إلى أن القلب في بدء الأمر كان محتاجًا إلى الروح في الاستكمال، فلمَّا كمل وصلح لقبول فيضان الحق بين الإصبعين ونال مملكة الخلافة بمصر القربة في النهاية صارت الروح محتاجًا إليه لاستنارته بأنوار الحق؛ وذلك لأن القلب بمثابة المصابيح في قبول أنوار الإلهية، والروح بمثابة الزيت، فيحتاج المصباح في البداية بالزيت في قبول

(1) البيت للمتنبي، وهو من بحر «المنسرح».
(2) البيت للباجي المسعودي، وهو من بحر «الكامل».

النار، ولكن الزيت محتاج إلى مصباح وتركيبه في النار ليقبل بواسطته النار، فإن الزيت بلا مصباح وآلاته ليس قابلاً للنار، فافهم جدًّا.

ثم قال: يعني يعقوب الروح لمّا ارتد بصيرًا، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:96] يا أوصاف البشرية؛ لأنه مخصوص من الله تعالى بنفخته وبالإضافة إلى نفسه تبارك وتعالى بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف:97] فيما فعلنا معك ومع يوسف القلب بالظلومية والجهولية، ﴿قَالَ﴾ [يوسف:98] يعقوب الروح، ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ بواقعة يوسف القلب حين حضوري مع الله، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لمن تاب ورجع إليه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ [يوسف:98] لمن يتوسل إليه بخواصه ومحبته وأوليائه ومقربيه. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ [يوسف:99] يعني: وصلوا الروح وزوجات النفس وأولاده وأوصافه ورفع أبويه على العرش، إذ قال: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف:99] ليعلم أن القلب بمثابة العرش وهو على الحقيقة عرش الرحمن، وفي الآية تقديم وتأخير في المعنى تقديرها: ﴿عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ وأنه رفع أبويه على العرش، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ [يوسف:99] أي: مصر حضرة الملك العزيز، ﴿إِن شَاءَ اللهُ﴾ [يوسف:99] لأن لا يصل إلى حضرته أحد إلا بجذبة مشيئته، ﴿آمِنِينَ﴾ [يوسف:99] على الانقطاع عن تلك الحضرة الملك العزيز، فإنها منزهة عن الاتصال والانفصال والانقطاع عنها.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف:100] لما رأوه وعرفوا أنه عرش الحق تبارك وتعالى، فالسجدة كانت على الحقيقة لرب العرش لا للعرش، وقال يوسف القلب: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:100] أي: من قبل الوجود أن كنت نائمًا بنوم العدم، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:100] أي: جعلها في عالم الوجود الحقيقي، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف:100] أي: من سجن الوجود؛ ولهذا قال: ﴿أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجب البشرية، ونعمة إخراجه من سجن الوجود أو فر من نعمة إخراجه من جب البشرية.

﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي: بدو الطبيعة البشرية، ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي

﴿وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف:100] بالإفساد وقطع رحم الروحانية حتى ألقوني في جب البشرية، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ [يوسف:100] يريد للطفه، ﴿لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف:100] من الأمور المهلكة جعلها أسباب سعادة الدارين لمن شاء، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف:100] بما قدر لعباده كيف تبدو بما دبر من الأمر كيف دبر، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:100] فيما قدر ودبر بما دبر في الأزل وما دبر إلى الأبد شيئًا فشيئًا، بل قدر ودبر بالحكمة البالغة ما شاء كما شاء، كما أنه تبارك وتعالى قدر ودبر جميع مراتب سلوك الإنسان في عالم البشرية من مبدأ سيره إلى انتهاء وصوله إلى حضرة الربوبية مرتبًا على قصة يوسف ويعقوب وولده وعزيز وزوجته - عليهم السلام - وسماها أحسن القصص؛ لأنها أتم وأكمل في القصص كلها في هذا الشأن.

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: 101 - 105].

ثم أنطقه بسوابق إحسانه إليه وسوابغ إنعامه عليه حتى قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف:101] ملك الوصول والوصال ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ وهو مراتب النبوة ونهاية كمالية الإنسان به، ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يوسف:101] أي: فاطر السماوات عالم الأرواح، وفاطر أرض البشرية؛ لتخرجني من فطر الوجود المجازي، ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ﴾ [يوسف:101] أي: أنت متولي أمري لتخلصني من حجب الدنيا والآخرة، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي: أمتني عني بك مستسلمًا، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:101] للبقاء بك بأن تفنيني عني وتبقيني ببقائك الأزلي الأبدي.

قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ [يوسف:102] يشير إلى الذي فهمناك من مناسبة قصة يوسف وإخوته مع أهل السلوك السائرين إلى الله من أخبار الغيب الذي غابت عن

أرباب علم الظاهر، ولا يعمله إلا أهل الغيب وهم الوالجون ملكوت السماوات والأرض، الغواصون في بحر بطن القرآن، المستخرجون درر معانيه من أصداف ألفاظه وكلماته، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف:102] القصة وحقائق معانيها المودعة فيها المستجمعة قواعد سلوك السائرين إلى الله من أخبار الغيبية.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف:102] في الكيد والمكر بيوسف، ولكن كنت بالمعنى حاضرًا ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ يعني: إخوة يوسف القلب وهم أوصاف البشرية؛ ليكيدوا ويمكروا بيوسف القلب ويلقوه في جب البشرية وأسفل الطبيعة وسجن الدنيا، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:102] أي: طبعهم المكر والكيد.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ [يوسف:103] أي: وما أكثر الصفات الناسوتية، ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ [يوسف:103] يا محمد اللاهوتية، ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:103] مصدقيك فيما تدعوهم إليه من مقامات القرب والكمالات والتوحيد والمعرفة.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يوسف:104] يشير إلى أن اللاهوتية غير محتاجة إلى الناسوتية، وإن دعتها إلى الاستكمال؛ لأنها كاملة في ذاتها مكملة لغيرها، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف:104] أي: دعوتها عامة لمن تعلق بالعالمين إلى رب العالمين، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يوسف:105] أي: وكم من آية دالة إلى الحق في سماوات القلوب وأرض النفوس، ﴿يَمُرُّونَ﴾ [يوسف:105] من أوصاف الإنسانية، ﴿عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:105] لإقبالهم على الدنيا وشهواتها.

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) ﴾ [يوسف: 106 - 110].

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ [يوسف:106] أي: وما يؤمن من أكثر أوصاف

الإنسانية بطلب الله والتبديل بصفاته، ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:106] في طلب الدنيا وشهواتها وطلب الآخرة ونعيمها، وأيضًا وما أكثر الخلق بالله وطلبه إلا وهم مشركون برؤية الإيمان والطلب أنها منهم لا من الله، فإن من يرى السبب فهو مشرك، ومن يرى المسبب فهو موحد إن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ في نظر الموحد ﴿إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:88].

﴿أَفَأَمِنُوا﴾ [يوسف:107] أهل الشرك بالأسباب، ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ [يوسف:107] وهي أمر من الله بلا سبب من الأسباب، وفي الحقيقة يشير بالساعة إلى عشق ومحبة من الله بلا سبب من الأسباب، وقيل: العشق عذاب الله، ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:107] له سبب غير الله.

ثم قال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف:108] أي: رؤية الأمور من الله لا من الأسباب، وأيضًا: ﴿قُلْ﴾ يا محمد هذه الدعوة إلى الله فضلاً عن سبيله، ﴿سَبِيلِي﴾ وسنتي من بين سائر الأنبياء والرسل، ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ [يوسف:108] لا إلى سواه، ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:108] أي: على معرفة بالسلوك المسلوك إليه، ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108] أي: هذه الدعوة مخصوصة لي ولمن اتبعني من أمتي مستسلمًا لي عند تسليك الوصول، ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ [يوسف:108] أي: تنزيهًا لله عن شركة الأسباب، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْـمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:108] في الطلب والمخلصين إلى الأسباب.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: 109] إشارة إلى أن الرسالة لا يستحقها إلا الرجال البالغون المستعدون للوحي من أهل القرى بالملكوت والأرواح، لا من أهل المدائن في ملك الأجساد، ولهذا قبل الرجال من القرى، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ [يوسف:109] أهل مدائن الأجساد المطمئنون إلى الدنيا، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف:109] في أرض البشرية على قدمي الشريعة والطريقة؛ ليخرجوا من ظلمة الدنيا إلى نور الآخرة، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف:109] إذ رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وليشاهدوا حقيقة قوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:109] لتعرضوا عن الزكاة إلى الدنيا الدنية، وتقبلوا على

الآخرة الشريعة في طلب والحقيقة.

وفي قوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:109] إشارة إلى أن في إبطاء النصر ابتلاء للرسل والأمم، فأمّا الرسل فاستيأسوا وظنوا أنهم وذلك ليس من شأنهم، وأمّا الأمم فكذبوا الرسل وليس هذا من حقهم، ثم يشير بقوله: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف:110] إلى أن النصر كان للرسل منجيًا عن الابتلاء، وللأمم المكذبة مهلكة بالعذاب، ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:110] أي: المكذبين؛ والمعنى: ويرد بأسنا عن القوم المطيعين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: 111].

ثم أخبر عن حقيقة قصصهم فقالوا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111]، وهم الذين استخرجوا لُباب الحقائق عن شهود الصور، فهم الفائزون بحقائق شاهدوها في مقامات السلوك فعلموا أنها ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من أسرار السير إلى الله والكتب المتقدمة ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: 111] يحتاج إليه السائرون إلى الله في معرفة المقامات، ﴿وَهُدًى﴾ [يوسف:111] أي: هداية، ﴿وَرَحْمَةً﴾ [يوسف:111] في بيان السلوك، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:111] بالوصول والوصال من عباب الكرم والأفضال.

قال الشيخ المصنف ﷺ:

ومن أخبار قصة يوسف ﷺ ما أخبرنا الشيخ ابن أبي الفتوح أسعد بن أبي فضائل بن خلف العجلي في عموم إجازته، قال أبو الفتح إسماعيل بن أبي الفضل المقري إجازة، حدثنا أبو المظفر عبد الله بن شبيب بن عبد الله المقري إملاءً، ثنا القاضي أبو محمد بن يوسف بن يعقوب الطيبي به، ثنا أحمد بن إسحاق بن نيخاب[1]، ثنا محمد ابن أبي

(1) نِيخَاب، بالكسر ثم ياء ثم خاء معجمة وموحدة: أحمد بن إسحاق بن نِيخَاب الطيبي، محدث مشهور.

العوام، ثنا أبي، ثنا داود بن سليمان عن محمد بن مسلم، قال: بلغني أنه لمَّا ألقى يوسف عليه السلام في الجب، قال: يا شاهد غير غائب، يا قريب غير بعيد، يا غالب غير مغلوب، اجعل لي من أمري هذا فرجًا ومخرجًا من حيث لا أحتسب، قال: بات فيه.

وأخبرنا أبو الفتح قال: أنا جعفر بن عبد الواحد بن محمد في كتابه، ثنا أبو بكر محمد بن الفضل، ثنا محمد بن إسحاق بن محمد، ثنا علي بن سليمان بن عبد السلام المقري، ثنا أبو الفضل العباس بن يوسف الشكلي، ثنا أبو حفص - يعني: العلائي -، حدثني القاسم بن الحكم عن محمد بن الحسين، ثنا محمد بن صرف عن نافع بن عمرو ابن الجمحي، قال: قال رجل ليوسف عليه السلام: إني أحبك، قال: ما أريد أن يحبني أحدًا إلا الله عز وجل، وما لقي من الحب أحد ما لقيت، أحبني أبي فأخذوني إخوتي فألقوني في الجب، وأحبتني امرأة العزيز فأخذوني وألقوني في السجن، وقد قيل على لسان: لك المحبة ما عدى منافعها سوى محبة رب واحد صمد أحبه صادقًا في الحب، فاكتتمت منه المحبة بين الروح والجسد، مالي والحب، إن الحب أوردني حبسًا طويلاً بلا جرم إلى أحد.

أخبرنا أبو الحسن المؤيد بن محمد الطوسي، أنا أخبرنا أبو القاسم زاهد بن طاهر أنا، إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني في كتابه، ثنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو سعيد الرحبي، ثنا الحسن بن داود عن الحسن عن سمرة عن كعب قال: نعم ولد ليعقوب يوسف الصديق الذي اصطفاه الله واجتباه وأكرمه، وقسم له من الجمال الثلثين وباقي عباده الثلث، وكان يشبه آدم يوم خلقه الله وصوره ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية فلما عصى آدم نزع منه النور والبهاء والحسن.

وكان الله عز وجل أعطى آدم الحسن والجمال والنور والبهاء يوم خلقه، فلمَّا فعل ما فعل وأصاب الذنب نزع منه، ثم وهب الله لآدم عليه السلام الثلثين من الجمال مع التوبة التي تاب الله عليه، ثم إن الله تعالى أعطى يوسف الحس والجمال النور والبهاء الذي كان نزعه حين أصابه الذنب، وذلك أن الله تعالى أحب أن يري العباد أنه قادر على ما يشاء، وأعطى

-

[تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (1/ 326)].

يوسف الحسن والجمال ما لم يعط أحدًا من الناس، ثم أعطاه الله العلم بتأويل الرؤيا وكان يخبر بالأمر الذي رآه في منامه أنه سيكون قبل أن يكون علمه الله، كما ﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، وكان إذ ابتسم رأيت النور في ضواحكه، وكان إذا تكلم رأيت شعاع النور في كلامه يلتهب التهابًا بين ثناياه عليه السلام.

وتذكير أهل الإشارات نكتًا في قصة يوسف عليه السلام فأردت أن أذكر بعضها تبركًا بكلامهم؛ إذ فيه أنواع المواعظ وقالوا: حكي أن الله تعالى أمر صخرة حتى ارتفعت من أسفل البئر فوقع يوسف عليها وهو عريان، وأتاه جبريل عليه السلام بقميص وألبسه إياه وبشره بالنبوة والمرتبة والعز والمملكة، واحتياج إخوته وقيامهم بين يدي سرير ملكه بالعجز، وضرب جناحه في البئر فصار البئر منورًا، وعلمه أن يقول: يا كاشف كل كربة، يا مؤنس كل وحيد، يا صاحب كل غريب، يا من لا إله إلا أنت، سبحانك أسألك أن تجعل لي فرجًا ومخرجًا، وأن تجرِّد حبك في قلبي حتى لا يكون لي هم، وأن تحفظني برحمتك يا أرحم الراحمين، فاستطاب الموضع وفرح واستبشر، فكذلك المؤمن السعيد المقبول عمله إذا احتضر بكى عليه الأهلون، ورأى هو قداسة القبر واللحد ومفارقة الأولاد وغربة الوحدة، وكذلك يبكي فإذا وضع في القبر وجده روضة، وبشر بالكرامات اطمأن في لحده وتمنى لو كان قبل ذلك، قال الله تعالى أخبارًا عمن هذه حالته قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 26-27].

والناس مسيء أو مصلح ولا يبتغي لواحد منها أن يعقل، فإن كان مصلحًا فقد دنا الفراغ، وإن كان مسيئًا فقد دنا طي صحيفته، وورود حضرته ومعانيه الأهوال، إن لم يغفر له عالم الخفيات فليبادر إلى تدارك أمره، وقيل أيضًا: الناس غني وفقير، فينبغي للفقير أن يرجا الأيام القلائل على طاعة الله كيلا يفتقر في الآخرة، فما أسوأ الفقر بعد التيسير، وما أسوأ الحزن بعد الفرح، وما أشد البلاء بعد النعمة.

وقيل في قوله خبرًا عنهم: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[1] رضي يعقوب بلعبهم لا جرم ابتلي بها

(1) أي: يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل -

ابتلي، فاللعب خلقنا، وقيل: خدعوا أباهم بميعاد لذيذ، ثم فرقوا به بينه وبين والده، فينبغي للمؤمن أن يعتبر ولا ينخدع بما يخدع بالشيطان من المواعيد واللذائذ الباطلة، وقد قيل: أعدت شيء مشتغل بالدنيا، والموت يطلبه، وغافل ليس بمفعول عنه، وضاحك ملأ فيه ولا يدري إلى أي الدارين مصيره، وقيل أيضًا: أكرم الله أربعة من الصبيان في حال صباهم:

* الأول: عيسى عليه السلام كما قال في حقه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 48] ومما حكي من حكمته قوله: معاشر الحواريين لا تجعلوا اليوم همكم، عند كل يوم همه.

* والثاني: يحيى عليه السلام كما قال في حقه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِياً﴾ [مريم:12]، ومما روي من حكمة أنه قال: من حي بالموافقة فإنه لا يموت بالمخالفة، فإن كنت اليوم حيًّا بالمخالفة تكن غدًا ميتًا بالعقوبة، وإنما لقن الحكمة كما حكي؛ ولهذا ندب الآباء إلى تعليم الصبيان أمور دينهم في صباهم؛ ليعتادوها ويشبوا عليها.

* والثالث: سليمان عليه السلام أكرم في صباه بالفهم كما قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:79].

* والرابع: يوسف عليه السلام أوتي الحكمة في صباه فقوي سره لاحتمال البنيان، فأهل الولاء يحتملون أعباء البلاء، وقيل: البئر موضع الهلكة، ولمَّا وصلت إليها بركته صارت موضع السلامة والنار موضع الحرقة، فلمَّا وصلت إليها حشمة الخليل انقلبت بإذن الله نزهته وروضته، والغار كانت محل الوحشة، فلمَّا وصلت إليها حشمة المصطفى ﷺ صارت مزار الأولياء، كذلك القبر محل الوحشة، فإذا وضع فيه من صحبته التوحيد والمعرفة والطاعة انقلب روضة من رياض الجنة كما قال: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: 89].

- ونحوهما مما يكون الغرض منه تعلم المحاربة مع الكفار وإنما سموه لعبا لأنه في صورته وأيضا لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر، تفسير حقي (6/ 53).

وروي أنه لَمَّا جعل يوسف عليه السلام في الجب أضاء له الجب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه من الطعام والشراب.

ومن العبر في قصة يوسف عليه السلام: أن من أراد الله إكرامه فلن يضره كيد كائد، وحكي أنه انتهى رجل إلى باب ملك، فقال له الملك: سل حاجتك فإني سخي بها؟ فقال: زوجني ابنتك، فاستنكف الملك من ذلك وصار رهين قوله فاحتال، فقال: ضاع مني خاتم صفته كذا وكذا، فإن طلبته ووجدته زوجتك ابنتي، فقال الرجل: لا أقعد إلا إن أجده، ثم ذهب فانتهى إلى شط دجلة وكان خائفًا فاتفق أنه رأى حوتًا وأخذ بيده وشق خوفه، فرأى خاتمًا بتلك الصفة، فذهب به إلى الملك، فقال الملك: هذا أراد الله إعزازه فما أصنع فزوجه، فكذا حال يوسف لما أراد الله إعزازه ضاع سعيهم ومكرهم ولم يغنوا شيئًا قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [يوسف:15] ينبغي للعاقل أن ينظر إلى سرور يوسف وقت خروجه مع إخوته المسيرة والتماشي فما كان إلا ساعة، ثم دفع إلى غم طويل ومحنة عظيمة كذلك من سر بشيء سوى الله فإنه يكون سروره ساعة، ثم يدفع إلى غم وبلاء ومحنة لا ينقطع كما قيل السرور بغير الله محال والسكون إلى ما سوى الله محال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ﴾ [يوسف:15] هذا لَمَّا أوحي إليه ذلك طابت نفسه وطاب له محنة البئر، وكذا طاب القتل على الشهداء بوعد الله الصادق في مواعيده، وكذا طاب المرض على المريض لما في الصبر عليه من رجاء الثواب الجزيل، وكذلك سكرات الموت على المؤمن تطيب تنجيز الله وعده الصدق، فسبحانه من لطيف ما أراد به، واجتهد إخوة يوسف في مباعدة يوسف من قلب أبيه، وأوقعوه في مثل تلك المحنة فلم يزدد إلا حبًا، فهكذا ينبغي أن يكون أن أمر المحب لا يزداد بتوالي المحسن عليه إلا حبًّا.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف:16] فليس كل بكاء يكون حقًا فقد يبكي الظالم كما في قصة يوسف وإخوته وجاءت امرأة إلى القاضي أبي هاشم وهي تبكي فقيل له: هذه ضعيفة تبكي، فقال: ليس كل من بكى صدق، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ فالبكاء على وجوه:

* الأول: بكاء الحياء، وهو كان لآدم ﷺ بكى مائتي سنة بعد الذلة حياءً من الله تعالى، وحكي أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «يا ابن آدم أين الشكر على العطاء؟ فإن لم يكن فأين الرضاء بالقضاء؟ فإن لم يكن فأين الصبر على البلاء؟ فإن لم يكن فأين النفي عند الهوى؟ فإن لم يكن فأين الوفاء لإله السماء؟ فإن لم يكن فأين البكاء على الجفاء؟».

* والثاني: بكاء الخجلة، وهو لداود ﷺ بكى أربعين سنة، ثم ملأ كفه دمعًا ودفعها إلى السماء فقال: «يا رب أما ترحم دمعي؟ فأوحى الله تعالى إليه: تذكر دمعك وتنسى ذنبك، فغشي عليه خجلاً مما قاله»، وفي حديث غريب: أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبكي كلما ذكرتك [ففيض] بكائي خجلاً من الله تعالى، فهل ينفعني ذلك؟ فقال ﷺ: «كل قطرة منها تطفئ بحورًا من النار»(1).

* والثالث: البكاء خوفًا من النار، فقال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ [التوبة:82] وحكي أن يحيى بن زكريا - عليهم السلام - كان على المنبر يومًا فقال: أتاني جبريل آنفًا فقال: إن في النار دركة يقال لها: سكران فيها جبل يقال له: غضبان لا ينجوا منها إلا الباكون من خشية الله، ثم بكى حتى غشي عليه وسقط من الكرسي، فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام، وقيل لبعضهم: ما يغنيك لا تخف، وقال: ولو أن الله تعالى أوعدني بعصيانه الحبس في الحمام لكنت خائفًا به كيف، وقد قال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ [النبأ:21] وقال أبو العباس المغربي:

يا سائلَ القلبِ صبًّا كنت تأمن   أما سمعتَ بذكرِ الموتِ والنَّارِ
ما لي أراكَ قد أذنبتَ مبتسمًا   واللهُ خوَّف من يعصيه بالنَّارِ
ما لنَا وأهلِ النارِ في تعبٍ كم   من عذابٍ لأهلِ النَّارِ في النَّارِ

* والرابع: البكاء من هيبة الله وهو بكاء الأنبياء، وكما قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم:58].

* والخامس: بكاء الشوق وهو لشعيب ﷺ، حكي أنه بكى حتى أظلمت عيناه

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (2/ 369).

ثلاث مرات، وحكي أنه كانت لامرأة بنت صغيرة تبكي أبدًا، فجاءت والدتها إلى الحسن البصري - رحمة الله عليه - فعرضت بنتها والتمست أن يحضرها، فجاء الحسن فقال لها: يا جارية إن لعينك عليك حقًا، قالت: إن عيني إن كانت تصلح لرؤية الله فألف مثلها في سبيله، وإن لم تكن أهلاً لذلك فدعها تعمى، فقام الحسن وقال: جئت واعظًا فوقعت بها أوعظ.

* والسادس: بكاء فوت الطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة:92] وحكي أنه دخل رجل على فتح الموصلي وقال: يا شيخ كنت على بساط الأنس وفتح إلى طريق البسط، فتدللت وإليه فوقعت عمّا كنت عليه فكيف السبيل إليه؟ قال: فبكى، قال: كلنا في هذا ولكن أنشدك أبياتًا سمعتها فبكيت عليها:

قف بالديارِ فهذه آثارهمُ ... تبكي الأحبةَ حسرةً وتشوقا
كم قد وقفتُ بها أسائلُ مخبراً ... عن أهلها أو ناطقاً أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقت من تهوى فعزَّ الملتقى[1]

* والسابع: بكاء الحيلة، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: 16] فالإخوة كانوا يبكون احتيالاً شوقًا إلى الله، فشتان ما بين البكائين قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:18] فحكي أنه لما رأى يعقوب القميص قال: فلئن كان كما قلتم كان الذئب مشفقًا على القميص فلبسته أشفق على يوسف كما أشفق على القميص، فلئن كنتم صادقين فاذهبوا فخذوا الذئب وأتوني به، وكان يهوذا رجلاً إذا صاح على أسد سقط من هيبته، فأخذوا ذئبًا ولوثوا مخالبه بالدم وأتوا يعقوب به مشدود اليد والرجل، فقال: خلوه فخلوه، فقال يعقوب: يا روبيل سله لم أكل يوسف، فسأله فلم يجبه، فقال يعقوب: لم لا تجيبه؟ فقال: يا نبي الله إن بنيك عقوك وعصوك، ونحن نُهينا أن نكلم العصاة، فقال: لم لا ترحم يوسف وفجعتني به؟ فقال: بعزة الله ما أكلت يوسف وإني مظلوم مكذوب علي، وأني غريب من بلاد مصر جئت لأهل قرابة لي ها هنا أنا لا أحوم

(1) انظر «سراج الملوك» (1/ 17).

حول غنمك فكيف أكل ابنك؟ فقال يعقوب: فمن فعل؟ فقال: الله لا يهتك سر خلقه، فإنا لا أهتك سرهم، ولمَّا رأى يعقوب القميص صحيحًا مؤخرًا غير مخرق رجا أن يكون يوسف حيًا، فكذا حال المؤمن وإن تلوث بخطاياه فما دام لباس الإيمان صحيحًا فالرجاء باق.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾[1] [يوسف:19] قيل: خرج ثلاثة في طلب ثلاثة، فوجدوا ما هو خير من مطلوبهم؛ خرج موسى للاصطلاء فوجد الاصطفاء، وخرج طالوت في طلب حماره فوجد الملك.

وخرج وارد السيارة فأدلى دلوه، فأخرج به فوجد يوسف، وقيل: وارد السيارة كان شخصًا من جملتهم، ووارد المؤمن في طلبه الدعاء، ووارد السيارة لم يخب سعيه، فكذا سعي المؤمن في طلبه لا يخيب.

وقيل: لمَّا دخل يوسف في الجب لم يكن له بد من حبل يعتصم به الخروج، فأرسل إليه حبل السيارة فأخرج به، كذلك المذنب في جب العصيان محتاج إلى حبل يعتصم به؛ ليخرج منه وهو الالتجاء إلى الله تعالى بالعمل بكلامه واتباع أوامره كما قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾ [آل عمران:103]، وكذا الالتجاء إلى بابه والفرار إليه من الذنوب كما قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ [الحج:78].

قيل: لمَّا مر سيارة بجب يوسف نجا بسببهم، فكذا المارون من أمة محمد ﷺ إذا مروا بجهنم نجا المحبوسون من هذه الأمة ببركة شفاعتهم.

وقيل: طلب السيارة الماء فوجدوا يوسف، وطلب موسى النار فوجد النبوة، وطلب سليمان الحوت فوجد خاتم الملك، وطلبت امرأة العزيز يوسف فوجدت الإيمان،

(1) فلما خرجت الأرواح من أماكن العدم وطارت في هواء القدرة وطلبت أنوار موارد القدم فوجدت قاموس الكبرياء، فأدلت دلاء الهمم فيها، فانكشف لها من مطالع الأزل شموس المشاهدة وأقمار العزة، فلما ظفرت بموارد الحقيقة صاحت بصياح العشق وقالت: يا بشرى، هذا شاهد القدم وعروس الأزل، فوجدت شاهدها، وفرحت بمشاهدته، وطارت سكرانة في هواء آزاله وآباده من الفرح ببقاء؛ لأنها وجدت بضاعة المعارف وربح الكواشف. [العرائس].

وطلب طالوت الحمار فوجد الملك، وطلب بنيامين الطعام فوجد أخاه، فمن لم يطلب يوسف وجده، وعمر ﷺ لم يكن في طلب الإيمان حين قصد الرسول ﷺ فوجد الإيمان، والسحرة لم يطلبوا الإيمان فوجدوا الإيمان، فإذا كان كذلك فالمؤمن يطلب رضا الله مدة عمره بأعماله أولى وأحق بأن يجد مراده.

قوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف:20] لو خرجوا بها سواه لما اشترى؛ لأن قيمة يوسف كانت أكثر من أن يصل إليها الطالبون، فكذلك الجنة لو طلبت بما هو قيمتها بحقيقة لم ينلها أحد، وقال: القيمة لها.

وقيل: اطلبوها ولو بلقمة، ولو بحرفة، ولو تحية، ولو بكلمة طيبة حتى ينالها الطالبون أنه رأى واجدان المشابه في المنام بعد وفاته، وقيل له: كيف حالك؟ فقال: أحسن حالي، قيل: وبما نلت؟ وقال: كنت أمر يومًا ببعض الطرق فرأيت فقيرًا حزينًا وكان معي تفاحة فأعطيتها إياه، فلمّا مت وجدت تلك التفاحة قد سدت باب النار.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف:21] قيل الإحسان حسن إلى كل واحد وإلى المملوك أحسن؛ لأنه لا يجد ملجأ إليه ويعتصم به، وقال عزيز مصر: ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ وكان كما توقع، وكذا قالت آسية بنت مزاحم في حق موسى عليه السلام: ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ [القصص:9] فصدق ظنها ونالت المعرفة بسببه، وقال يعقوب: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ [يوسف:83] فصدق بصدق ظنه، فكذا قول الله ﷻ: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:102] أولى وأحق أن يتحقق قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ [يوسف:23] ليكون نظر يوسف إليها، وكذا إذا أكرم عبدًا أغلق عليه أبواب الشهوات واللذات، ونفره عن الخلق حتى يكون جملة نظره مقصورة على أموره.

وقيل: غلقت هي الأبواب؛ ليكون يوسف معها ويخلو للشهوة، والله تعالى فتح له باب العصمة؛ ليخرج طاهرًا نقيًا من بين ذلك ليعلم أن الباب الذي يغلقه المخلوق يسهل، والباب الذي يغلقه الله لا يفتحه أبدًا أحد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر:2] ولمّا رد يوسف بتهمة وهمية أيد من الله تعالى بالعصمة؛ ليعلم أن من جاهد في الله أيد بتوفيقه كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69].

وقيل: كانت الحكمة في ذلك أن الملائكة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] فابتلوا بهاروت وماروت، وموافقته المرأة من غير مراودة منها، وعصم يوسف مع حسنه وجمال المرأة ومراودتها ليكرمه بالعرض على الملائكة، ويعلمهم أنه يعلم ما لا تعلمون، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] والنكتة فيه أنه لمّا التجأ في ابتداء الأمر إلى الله واستعاذ به أعاذه وعصمه، فينبغي للمؤمن أن يفزع في ابتداء هوله إليه ليعيذه، وكذا ينبغي أن يكون أمر المؤمن في إشارة رضاء الله أغلب من إشارة هوى نفسه، فقد قيل خمسة أشياء من أعجب العجائب:

* أحدها: أن الله تعالى [مهد ويسر] للخلق ما في الأرض، ثم إنهم يبخلون برغيف.

* والثاني: أنه أمدهم بنعمه، قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:53]، ثم إنهم استعملوها في خدمة عدوه.

* والثالث: أنه يغيث لمن استغاث، وهم يفزعون إلى مخلوق ضعيف لا ينفع ولا يضر في إلا بإغاثة الله تعالى إياه كذلك.

* والرابع: أنهم يرجون ثوابه، ثم يعملون للخلق.

* والخامس: أنه خالقهم ورازقهم وملكهم، وتمر إليه كل أمورهم وهو مطلع عليهم، ثم أنهم يستحيون عنه في ضعيف مثلهم ولا يستحيون منه.

وقيل لمّا اجتمع يوسف والمرأة في موضع واحد صاح الشيطان فرحًا، قال: ظفرت به، فرد فرحه بعصمة الله، ولمّا وصل موسى إلى البحر وكان وراءه فرعون وجنوده فرح الشيطان وقال: البحر أمامهم والسيوف وراءهم ولم يدر أن النجاة كانت حظهم من الله تعالى، فكذلك أمر المؤمن وقت النزع إن أيد بعناية لن يضره من شيطان ونجا من المخاوف على مراغمة الشياطين عصمنا الله في شرهم.

وروي أن كافرًا قتل مسلمًا في غزاة، ثم إن القفل انفتح في قلب القاتل وأقبل إلى صف المؤمنين، وآمن وأقبل على الكفار وقاتلهم حتى قتل فدفنا في موضع واحد، وروي

أنهما معًا في الجنة، فإذا كان الله معك فمن يضرك، وإذا كان الله عليك فمن ينقذك، وإذا نصرك فمن يهينك، وإذا خذلك فمن ينصرك، جعلنا الله من المحظوظين بعنايته ورعايته.

وقوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف:26] لمَّا بهتت عليه أخذ يقضي عن حقيقة الحال، ولو لم يبهت لما فضحا قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:26] قيل كان صبيًا في المهد شهد بذلك كرامة ليوسف، ولم يكن في ضمير يوسف أن ينطق الله ذلك النبي، فلمَّا حفظ يوسف أمر الله حفظ الله أمره وأنطق ببراءة يوسف.

وقوله: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف:25] لمَّا دفع يوسف قدمًا لله تعالى لا آثما به، أيده الله بعصمة، ولمَّا تحير التجأ إلى الله تعالى فأعانه وحكي أن واحدًا من المشايخ جاور مكة عشرين سنة، فاشتهى اللبن فخرج بطلبه فوقع بصره على جارية عسقلانية وشغف قلبه بها فقال: يا جارية أين تذهبين؟ فقالت: يا شيخ لو كنت عارفًا لما تبعت شهوتك، ولو كنت صادقًا في دعوى المحبة لما تعلق قلبك بي، ولمَّا تجاسرت على النظر إلي، فلمَّا سمع الشيخ كلامها ندم وقلع عينيه بإصبعه ورمى بها، فمضت أيام وأزالت الألم عنه القرار، فرأى ليلة يوسف في منامه وقال له: أقر الله عينك بسلامتك عن الجارية العسقلانية، ومسح بيده عينه، فاستيقظ وله عينان مضيئتان أشد ضوءًا مما كانت قبله.

وقوله: جزاء عنها ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ [يوسف:25] إلا كانت تكرمه وتعظمه وتدار به، فلمَّا وصلت إلى حضرة سيدها، وخافت سطوته قلبت الأمر وسعت به وخاصمته ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ فكذا العبد ينفق عمره على مراعاة الأهل والولد ويسعى بأمورهم، فإذا رأى أهوال القيامة، وخاف من سطوة الملك الجبار أعرض عن الكل كما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس:34-35].

فمحبة العادات تدوم إلى مخالفة الحبيب فحينئذ تنقطع، ومحبة الشهوات تدوم إلى زوال الشهوة، ومحبة الولادة تدوم إلى الموت، ومحبة الواصلة تدوم إلى الفراق، ومحبة العشق إلى أن تتباعد، ومحبة الطمع في الأغنياء تدوم إلى المنع والرد، ومحبة التعاون على أمر الحق والتوافق على الاعتقاد والحق تدوم إلى الجنة كما قال: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:67] ومحبة الحق تعالى مؤبدة كما قال الله تعالى:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

ولمَّا شهد اليهود على مريم بالفساد، وشهد عيسى ببراءتها كما قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ [مريم:30] إلى قوله: ﴿وَبَراً بِوَالِدَتِي﴾ [مريم:32] ولمَّا رمي يوسف بالتهمة شهد الصبي ببراءته، ولمَّا شهد الكفار بأن الله اتخذ ولدًا شهد المؤمنون ببراءته وتقديسه غير ذلك، ولمَّا شهد المنافقون على عائشة- رضي الله عنها - مما لم تفعل برأها الله مما قالوا، ويحكى أنه لمَّا نال يوسف الملك أمره الله على لسان جبريل بأن يجعل ذلك الشخص الذي شهد ببراءته وهو في المهد وزيرًا له قضاء لحق شهادته له، فنرجو أن الله لا يضيع شهادتنا بتوحيده وتقديسه مدة عمرنا.

وقيل: إن المرأة لم تدر أن الشاهد في البيت ولو علمت ما فعلت فالعبد المذنب لو استيقظ من نوم الغفلة وعقل وعلم أن الشهود منه مستبقيًا كأنه يراهم لما أقدم على المعصية، قال الله تعالى: ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:9] وقال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:18].

وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:28] قيل: سمي عظيمًا؛ لأنه بهتان وذنب البهتان أثقل من السماوات، وإنما قال: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء:28] لأن الآدمي يسعى مدة عمره في نيل مراده، ثم يموت قبل أن يناله.

وقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف:29] قيل: فعل عزيز مصر فعل الكرام؛ لأنه قال في الابتداء: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف:21] ولمَّا رأى تلك الحالة لم يتعجل بعقوبته، ثم تثبت وتعرف الحال حتى شهد شاهد بذلك، ولمَّا بيَّن الأمر عفا عن المجرم ويشفع إلى المظلوم بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أو قيل: لمَّا قصد يوسف الخروج من دارها وجد العصمة، فكذلك المؤمن إذا قطع طريقه عن الشيطان وهي الدنيا وجد العصمة أيضًا.

ويحكى أنه كان لشقيق البلخي صاحب، فخرج يومًا بيت نار المجوس لينظر فاعتبر به، فرأى شيخًا يوقد النيران فرأى جارية بين يديه لم ير أحسن منها فعلق قلبه بها وقال: ليتني أرزق هذه، فخرج من بيت النار وفرش السجادة وجعل يبكي ويتضرع، فلمَّا كانت

وقت الصبح سمع صياحًا داخل البيت وقيل: ماتت الجارية، فسمعوا صوتًا أخرجوها إلى الرجل حتى يقرأ عليها فتصح، فأخرجوها فرآها مغشيًا عليها لعلة عرفها، فقال: أن برأت هل تسلم وتزوجنيها؟ قال: نعم، فقرأ عليها القرآن فأفاقت وبرأت وأسلم الرجل وأسلمت الجارية وزوجها إياه وأسلم جماعة بيت النار.

وعن علي بن معاذ أنه خرج إلى مقبرة بالبصرة فرأى شابًا في زاوية عريانًا يقول: يا سيد ما أعظم ما واريتني، وما أجل ما ألبستني، فقال له: تقول هذا وأنت عريان؟ قال: عراني مما يورث الندامة وألبسني ما يورث الكرامة، وعراني مما يوجب الملامة وألبسني مما يوجب السلامة، وإن يوسف خاف عن معصية الله حتى هرب، وإن الإيمان أصل الخوف، فمن لا خوف له لا إيمان، فلما كادت تلك المرأة رجع وبال كيدها إلى نفسها حتى أقرت بذنبها، وقال: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ﴾ [يوسف:51] أنا راودته ليعلم أن المكر لشيء حاق بأهله، كاد نمرود إبراهيم فأهلكه الله ونجا إبراهيم، وكاد فرعون موسى فدمر عليه ونجا موسى من كيده، وكاد تسعة رهط صالحًا فنجا وأهلكوا، وكادت قريش الرسول ﷺ فأهلكوا وأظفر عليهم الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ﴾ [يوسف:30]، قيل: أحببن ثلاث نسوة ثلاثة من المؤمنين فنلن أكبر مما طلبن:

* الأولى: أحبت امرأة العزيز يوسف عليه السلام فنالت من بركته المعرفة، فيحكى أن هؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهن قلن ليوسف وهو في السجن: أحب سيدتك التي اشترتك وإن أردتنا فنحن لك، فيقول يوسف: معاذ الله لا أعصي الله وإن بقيت في السجن، ولمَّا علم عزيز مصر أن امرأته عشقت يوسف حلف أنه لا يخرج من السجن مادام حيًّا، فتفكرت المرأة وقالت: شاب حديث السن ويخاف عقوبة الله فأنا أولى أن أخاف، فآمنت واشتغلت بعبادة الله تعالى.

* الثانية: آسية امرأة فرعون أحبت موسى فنالت ببركة موسى الجنة ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ﴾ [التحريم:11].

* الثالثة: خديجة ـ رضي الله عنها ـ أحبت محمدًا ﷺ قبل النبوة نالت بركة الهداية

بالإسلام، فمحبة أولياء الله سبب لنيل الرحمة فما ظنك بمحبة الله تعالى.

وقيل أيضًا: هؤلاء النسوة أصابتهن الغمة والمحنة، فالغمة نعمة الضيافة، والمحنة قطع الأيدي، ثم كن تنسين الكل عند رؤية يوسف، فكذا المؤمن تصيبه النعمة والمحنة في الدنيا، وفي القبر يرى الوحشة، وفي القيامة يرى الأهوال، وعلى الصراط يرى أنواع عذاب جهنم، وفي الجنة يرى ألوان نعمها، فإذا أكرم برؤية الله تعالى نسي الكل وشغله عن كل نعيم، قال الحسن: لو يبقى أهل الجنة في الرؤية على حالتهم لا يخطر ببالهم شيء.

وقيل: هؤلاء النسوة يحملن ما أصابهن في مشاهدة يوسف، وكذا المرء يتحمل مؤنة الزوجية بمشاهدة الأهل والولد فكيف لا يتحمل مدعي المحبة الله تعالى مشقة بلائه طمعًا في مشاهدته؟

وقيل: هؤلاء النسوة لَمَّا شغلن بجمال يوسف قطعن أيديهن ولم يحسسن بذلك، فلمّا أفقن وجدن ألم القطع والتلوث بالدماء وبقيت الحسرة عليهن، فكذا طالب الدنيا يتعب نفسه بطلبها ويتحمل المشاق في جمعها ويبتلى بذلك ولا يحس بآلامها، ثم عند انقطاع الأنفاس يفيق من سكرته ويرى ديوانه مسودًا بالسيئات وعمره ضائعًا في الزلات ويبقى في غصص الحسرات نعوذ بالله منها.

وقيل: أكمل الله تعالى ليوسف ثلاثة أشياء الحسن كما روي أنه أعطي ثلثي الحسن، وحكي أنه في سنة الجدب كانوا ينظرون إليه فيشبعون، وكانت رؤية عذابهم وكانوا لا يحسون بألم الجوع في مشاهدته، وأكمل له المحبة أيضًا فجمع له بين فراق الوالد وغصة الغربة ومشقة الجب والحبس والابتلاء بالنسوة، وأكمل له العصمة حتى عصم مع شدة السيئات، وشره الشهوة، وجمال النسوة، وإمكان انتهاز الفرصة، والتمكن من قضاء الشهوة في الخلق.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف:33] أي: الدعاء باسم الرب آداب الملائكة والأنبياء المرسلين، قال الله تعالى خبرًا عن حملة العرش: إنهم يقولون:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ [غافر:7].

وقال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:100] ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ

مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:37] ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح:21]، قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾ [الأعراف:151] وقال شعيب: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:89] وعلَّم نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدعوه باسم الرب قال: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً﴾ [آل عمران:191].

وقيل: قال يوسف: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف:33] وقال الغافل: الدنيا أحب إليَّ ورضي بالحياة الدنيا، وقال الكافر: عبادة الصنم أحب إليّ ورضي بالحياة الدنيا ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة:165]، وقال المؤمن: الرب أحب إليّ من نفسي وروحي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً للهِ﴾ [البقرة:165] وكلٌّ موكلٌ بمحبوبه، فللكافر صنمه ولصاحب الدنيا دنياه، وللمؤمن مولاه كما قال: ﴿أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:40].

وقيل: السجون ثلاثة: سجن يوسف، وسجن يونس، وسجن المؤمن.

* وقال يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:33] أي: من فراق الخليل، وعصيان الجليل، ومن مقاساة النيران، ومن سرابيل القطران.

* وأمَّا يونس: فلمَّا حبس أقر بالظلم على نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:87] ولما ذم نفسه فهو ممدوح، ولمَّا مدحه الله بقوله: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات:143] ليعلم أن من مدح نفسه فهو مذموم، ومن ذم نفسه فهو ممدوح، ولمَّا مدح إبليس نفسه فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:12] ذمه الله تعالى بقوله: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34] فلمَّا ذم آدم نفسه بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23] مدحه الله تعالى ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [طه:122] وكذا الكفار مدحوا أنفسهم فقالوا: ﴿أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:53] فذمهم الله بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:6] ولمَّا ذم المؤمنون أنفسهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [الأعراف:147] مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة:112].

* وأما الدنيا فإنها سجن المؤمن وإن كان غنيًا متنعمًا فيها، فذلك بالإضافة إلى نعيم الجنة سجن وأن الكافر وإن كان فقيرًا فذلك بالإضافة إلى عذاب الآخرة جنة.

وقيل: سميت الدنيا سجن المؤمن؛ لأن من سجن فإنه يقدم ما معه إلى بيته، والمؤمن ينبغي أن يقدم ما معه إلى داره وهي الآخرة.

* ولأن المسجون أبدًا يلزم نفسه ويقول: مالي ولهذا العصيان، والمؤمن يقول: مالي وزخارف الدنيا وغرورها ومكرها.

* ولأن المسجون ممنوع من مراده ومقصوده كما شاء، فكذا المؤمن ممنوع عما يشاء ويهواه من أمانيه البطالة.

* ولأن المسجون يخاف كل ساعة أنه يخرج ويقام عليه الساسة، والمؤمن ممنوع عما يشاء ويهواه من أمانيه إلى القيامة ويقام عليه ما يستحقه.

* ولأن المسجون يجتهد أن يرضي خصومه لئلا يتظلموا عليه عند الملك فيقسم عليه الساسة، فكذا المؤمن يجتهد في دنياه أن يرضي خصومه لئلا يخاصموه بحضرة مولاه غدًا.

* ولأن المسجون يتضرع إلى الثواب والحجاب وكل نفس لها تعلق بالملك ويتشفع به إليه في أمره، فكذا المؤمن يتوسل بكل أحد إلى الله تعالى ويسأل الله بكل لسان بأن ينقذه عن مهاوي الهلكة.

* ولأن المسجون يدعي رفع الصفة كل يوم بل كل وقت فلعل الملك يرحمه في وقت من الأوقات، فكذا المؤمن ينبغي ألَّا يفتر عن رفع قضيته كل ساعة فعسى الله أن يرحمه.

* ولأن المسجون إذا جوزي في السجن ولم يفضح بين أيدي الناس فذلك أهون عليه، فكذا المؤمن إذا ابتلي في دار الدنيا فإنه يحمد الله على أن جوزي بذنوبه في هذه الدنيا الفانية ولم تؤخر عقوبته إلى دار البقاء.

* ولأن المسجون يرجو الفرج وإن كان على خطر ولا يأمن وإن كان يرجو الخروج، فكذا المؤمن يرجو عمره بين خوفه ورجائه إلى أن ينتهي عمره.

وقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف:41] قام الطباخ والساقي فرأيا رؤياهما فوصل أحدهما إلى نعيم الدنيا، والآخر إلى العقوبة، ﴿فَرِيقٌ

فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:7]، ولو كان يعلم الطباخ ما يرى في منامه لما نام، فكذا الغافل لو أنه يدري ما يصيبه من الغفلة ما غفل ساعة، والساقي ترك الخيانة وأشفق على سيده ولم يداهن فنجا وفاز، والطباخ خان وداهن وأعرض عن مراعاة حق سيده فهلك، فكذا أمر الخائن العاصي المداهن المعرض عن طاعة الله المتبع أوامر أعدائه قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف:50].

ويحكى أنه لمَّا دخل يوسف السجن بكى وقال: هذا غضب مخلوق فكيف سخط الخالق؟ فقيل له: أطلب منه ألَّا يحبسك، فقال: هو ربي يفعل ما يشاء، وإنما قال هذا يعني الله تعالى، فظنوه يعني مشتريه، فقالوا: نعم العبد هو لمولاه.

وقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:46] اعلم أنه سمى الله تعالى إبراهيم صديقًا، قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياًّ﴾ [مريم:41] وسمى إدريس صديقًا: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياًّ﴾ [مريم:56] وأخبر عن تسمية يوسف صديقًا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾.

وسمى مريم صديقة ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة:75]، وسمى أبا بكر: صديقًا، ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الزمر:33] وسمى المؤمنين صديقين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد:19].

وأعطى إبراهيم الخلة، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:125]، وأعطى إدريس الرفعة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياًّ﴾ [مريم:57] ويوسف التمكين ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:56]، ومريم الاصطفاء والطهارة كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران:42] والصديق الخلافة كما قال: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [النور:55] والمؤمنين ملازمة الإيمان كما قال: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح:26].

قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ [يوسف:47] قال يوسف لهم: ما بين أيديكم أيام السعة ومن بعدها أيام المحنة، فادخروا في السعة للضيق، ومن أيام النعمة لأيام المحنة، ومن أيام الزائلة لأيام الباقيات، فيا مؤمن أنت في دار الدنيا في نعمة ومكنة وفسحة، فخذ من نفسك لنفسك، ومن حياتك لموتك، ومن فراغك لشغلك، ومن

غنائك لفقرك.

وقوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ [يوسف:47] أي: إن أظهرتموه فأصابه الغبار والآفات وأكله الديدان والأكلة، فييأسون من جعل طاعتك تخفيًا كيلا يصيبها آفات الرياء والعجب فتحبط وتصير هباءً منثورًا، وكان أمر براءة يوسف خافيًا، فلمّا باحت وأظهرت الستر ﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف:51] وأقرت هي بجرمها وببراءة يوسف، فكذا في القيامة يتبين أمر المطيع من أمر العاصي، ويتميز المجرم من الصالح كما قال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:59]، وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:9].

وقيل: من له ذخيرة في أيام القحط فإنه يكون مسرور الحالة، ومن يكون فقيرًا معدمًا فإنه يكون حزينًا متحيرًا، فكذا أمر المطيع والعاصي في القيامة؛ فالمطيع: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة:21-22] والعاصي في حسرة يا لها من حسرة ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:24] وفي القحط يتضرع الفقير إلى الغني ولا يغنيه ذلك، وكذلك في الآخرة يتضرع العاصي إلى المطيع؛ ليحنو عليه بحسنة ولا تسمح نفسه بذلك لا يتحمل عنه خطيئة واحدة كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:18].

ويحكى أنه لمّا اشترى يوسف أهل مصر ولم يبق لهم شيء وبقي من سنين القحط بقية قالوا ليوسف: نحن الآن عبيدك ونفقتنا عليك وقد جعنا، فتحير يوسف فأتاه جبريل وقال: اخرج إليهم فإن الله تعالى جعل مشاهدتك غذاءهم، فأمر يوسف أن يخرج أهل مصر بنسائهم ورجالهم وصبيانهم ويقفوا بالطرقات ففعلوا وخرج يوسف ومر بهم، فلمّا رأوه شبعوا ولم يحتاجوا إلى الطعام والشراب إلى أسبوع آخر، فجعل الله لقاء يوسف غذاء لهم سنة كاملة إلى أن حصل الخصب والنعمة، وإنما لم يلم يوسف في تزكية نفسه ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:55] لأنه أراد حفظ أمور الرعية، وبث العدل بينهم، والإنفاق عليهم بقدر ما يكفيهم لئلا يهلكوا بسنين الجدب، وأراد بتولي ذلك إبقاءً عليهم، ومراعاة لحياتهم، وأراد تحقيق رؤياه؛ ليصل إليه إخوته منقادين خاشعين لحاله، ويصل هو إلى لقاء الشيخ الحزين عليه السلام.

قوله: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف:58] قيل: إنما أنكروا؛ لأنهم كانوا قد جفوه، والجفاء يورث الوحشة ويذهب الألفة، ويورث المخالفة ويذهب الموافقة، ويورث المحاربة ويذهب المسالمة، ويبعد ولا يقرب، وينكر المعروف، ولمَّا صفوا تحت سريره فكان بلسان الحال ناداه انظروا ماذا فعلتم بيوسف؟ وماذا صنع الله به؟ أنتم أهنتموه والله أعزه، وأنتم جعلتموه في الجب والله جعله على سرير الملك؛ ليعلم العالمون أن العزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26].

وقيل: إن يوسف جعل في الجب ثم في السجن، فلم يعرضه الله تعالى في تلك الحالة على إخوته، ولمَّا توجه بتاج الملك عرضه عليهم، وكذا أمر المؤمن يكون نطفة ثم علقة ولا يعرض في هذه الأحوال، فإذا تمت خلقته وكملت صورته أظهر وعرض، ثم إذا توفاه يعرض للإتيان أماته وأقبره، فإذا أعاد خلقه عرضه مكرمًا بلباس التوحيد متوجًا بتاج الملك كما قال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:85].

ويحكى أنه لمَّا دخل إخوته مصر نادى منادٍ: لا ينبغي أن يبايع ويشاري الكنعانيين أحد؛ لأن الملك يريد مبايعتهم وكأنهم قالوا في أنفسهم: ولم لم يعد لهم بمنادٍ ينادي: لا ينبغي أن يبايع ويشاري الكنعانيين، فأجابهم بلسان الحال؛ لأن معظم مقصود يوسف بتمكينه كان أولئك فحسب، كما قال اليهود والنصارى: «ما لنا أكثر عملاً وأقل أجرًا، وأمة محمد أقل عملاً وأكثر أجرًا، فقيل لهم: أظلمتكم شيئًا؟ وهل أنقصتكم شيئًا من أجوركم؟ فقالوا: لا، فقيل: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»(1)، فالمقصود هو محمد وأتباعه، وقيل: «لولا محمد ﷺ لما خلق آدم».

وحكي أنه كان يؤخر قضاء حاجات إخوته كيلا يتنحوا عن بابه ويكونوا بحضرته، وكان يسارع في قضاء حاجات الأغيار؛ ليصرفهم عن بابه، فالله تعالى يقضي حاجات المطرودين عن قريب لئلا يكونوا على بابه، ويؤخر قضاء حاجات المؤمن؛ ليبقى على بابه.

قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف:64] لما استحفظ الله ابنه حفظه ورده

---

(1) رواه أحمد في مسنده (13/ 71).

إليه، فإنه لا يضيع، قوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ أضافهم لنفسه وإن جفوه ولم يقطع نسبهم بسبب جفائهم كما قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر:53].

وقوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:67] قال: هذا الافتراق بقي في بني إسرائيل، انفلق البحر لهم اثنتي عشرة فلقة كما قال: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:63].

وقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ [الأعراف:160] وقال: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ [البقرة:60] وقال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ [المائدة:12] وقال في حق المؤمنين: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:63] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:45] وقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:35] وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:71] فلا ينبغي للمؤمنين أن يتفرقوا؛ بل ينبغي أن يكونوا كنفس واحدة يشد بعضهم بعضًا.

وقيل: أربعة نفر أمروا بدخول أربعة أبواب كما قال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:189] وذلك لموافقة الشرع ومخالفة الهوى، وأمروا إخوة يوسف بدخول أبواب مصر؛ لكمال النفقة وحسن المقال: ﴿لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف:67] وأمروا الكفرة بدخول أبواب النار لإظهار العقوبة والنكال كما قال: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر:72] وأمر المؤمنون بدخول الجنان بكمال الكرامة وإظهار النوال كما قال: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:49].

وقيل: أربعة أبواب فتحت لأربعة نفر لأربعة أشياء فتحت أبواب النعمة للغافلين؛ للاستدراج والإمهال كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:44]، وفتحت أبواب السماء على قوم نوح للخزي والنكال كما قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:11]، وفتحت أبواب النار على الكفار للعقوبة والسلاسل والأغلال كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر:73]، وفتحت أبواب الجنان على المؤمنين للفضل والأفضال كما قال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ [73].

وقوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف:65] كان ظاهر الدنيا الإهانة، وباطنها الإكرام كما كل ممنوع ومردود مهان، وليس كل من لا يستطيع الحج مطرودًا، ولاً كل من لا يجد مالاً يتصدق به مهجورًا، وقوله لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:143] لم يرد بذلك إهانته؛ بل إكرامه إذا لم يكن يطيق ذلك، أو لو تجلى له لما بقي كما يدك الجبل، فالدنيا دار البلاء لا دار الفناء مع هذه الدنيا الخسيسة كيف ينال العبد شرف رؤية الله تعالى وهو أشرف كل شرف وأكرمه، وروي عن عبد الله بن المبارك أراد يغزو سنة فلم يوفق لذلك تلك السنة، فحزن لذلك فرأى في المنام: لا تحزن، فإنك لو غزوت لأسرت، ولو أسرت لكفرت.

وورد في حكاية أنه خرج واحد للحج فلمّا جاء فاته وقت الحج فقال: آه، فأعجب بتأوهه إنسان فقال له: كذا حجة أبيعك بهذه التأوه، فقال: اشتريتها، فرأى في المنام أنك ما تعرف قدر ذلك التأوه وبعته رخيصًا، ورأى المشتري في منامه أنه قيل له: اشتريت التأوه رخيصًا، فذلك الأنين خير لك من كذا وكذا حجة.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف:65] فاستبشروا، كذا المؤمن عند الموت إذا كان معه بضاعته فرح فرحة لا يوازيها فرحة، ومن خسر الأصل والربح بقي في حسرة لا يوازيها أعاذنا الله منها.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ [يوسف:70] ذكر في القرآن أذان الظالمين ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الأعراف:44] وأذان الحاج، ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: 27]، وأذن البراءة في المشركين ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ [التوبة:3]، وأذان إخوة يوسف ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ فأذان الظالمين لتعسرهم وطردهم، وأذن المشركين للبراءة منهم، وأذان الحاج للدعوى والكرامة، وأذان إخوة يوسف للعتاب والملامة، ونسبة بنيامين إلى الشرف لم يكن إهانة له؛ بل كان تدرجًا في إكرامه؛ لينتزعه من أيديهم ويمسكه عنده على أكرم وجه، وهذا كما خرق الخضر عليه السلام السفينة لا ليغرقها؛ بل لينقذها من أيدي الظالم الغاصب، ثم لمَّا نجا أهلها أصلح بلوح أعاده فيها، فكذا بنيامين استنقذه من أيديهم ثم لمَّا وصل يعقوب إلى يوسف أظهر الحال وبان أن ذلك كان تدرجًا

إلى إعزازه وإكرامه.

قال المؤذن: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:72] لأنه كان سقاية الملك وكان مخصوصًا، فمن كان يأتي به فله النوال، ومن كان يكيد له فعليه النكال، وكذا قلب المؤمن خزانة أمر الحق فمن أتاه به فله النوال، ومن أخان له عن حقوقه خيف عليه النكال، والصدوق إذا لم يكن فيه جوهر فأي قدر له، فالقلب إذا لم يكن فيه اهتمام بأمور الآخرة فأي قدر وقيمة له قلب ملة أمور الحق فأكرم به من خزانة، وفي محالات الدنيا فحظر الحسرات قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر:23].

وقيل: استدرجهم يوسف على أحسن وجه ففرحوا وقالوا: رعانا الملك برعايته، وعاملنا باللطف ولم يشعروا بالأمور المعقب عنهم حتى ساروا قليلاً، فأذن مؤذن خلفهم: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف:70] فانصرفوا عن وجهتكم، فكذا العبد يقر بنعمته، وحصول مآربه، وتيسير مقاصده، ولا يعلم الشر المعقب إلى أن يحضره الموت، فإذ ذاك تبين حقيقة حاله من المقربين أم من المستدرجين.

وقيل: الحكمة في ذلك مكافأتهم بأن لم يرحموا يوسف حتى كان يتضرع إليهم في أن لا يجعلوه في الجب فلم يجيبوه إلى ذلك فكان فكافأهم بأن ألجاهم إلى أن يتضرعوا ويقولوا: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف:78] فتضرعوا إليه ولم يسعفهم بمرادهم، ثم مع ظهور أمر السرقة وخوف الساسة والنكال فادوا أخاهم بأنفسهم وقالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف:78].

وقيل: فعل إخوة يوسف ما لم يكن لهم أن يفعلوه فبقوا مدة أربعين سنة وأكثر في غم جفاء الأخ وعقوق الوالد ومعصية الرب، فكذلك العبد العاصي يغر بالدنيا ويعصي الله غافلاً، ثم يفاجئه الأجل فيفارق الدنيا ويتوجه إلى الآخرة ويدخل القبر إلى يوم النشور ومعه عمله وحكم الحاكم العدل الذي لا يميل ولا يخال قدامه، وفقنا الله لما فيه نجاتنا، ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

ويحكى أن يوسف عليه السلام كان إذا اجتمع إخوته على بابه أمر بنيامين ليقف بالعرش، وإذا خلا به أحله على سرير الملك، وكان إخوته إذا رأوه حزنوا فيما أصابه، فكذا المؤمن

المقبول يأتيه الموت ويجعل في حصار لحده ويبكي أقاربه عليه ويقولون: المسكين بقي في وحشة القبر وظلمته، ولا يدرون أنه في لذة ما توازيها لذة، وفي راحة لا تساويها راحة كما قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* مَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس:26ـ27] ولمَّا أرادوا أن يذهبوا بنيامين معهم قالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ [يوسف:63] فنسبوه إلى أنفسهم ولمَّا رأوه بالسرقة لم ينسبوه.

وقيل: إن يتنهي بلاء بقرب سبب رد السائل وذبحه العجل بحضرة أمه، ثم ينفرج وينكشف، فما أمر البلاء إلى الفرج بعد اشتداده وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:84] كأنه خلا عنهم بنفسه، واشتغل بما ابتلي به، وتأسف على يوسف، فلهذا كان خوفه على يوسف أشد، وأتاه كيدهم فإنه مقيم باختباره.

وقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ [يوسف:84] إشارة إلى أنه ينبغي أن يذكر الأنبياء بالحرمة، فلم يقل عمي عند بلائه بعبادة حسنة، فقال: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:86] إنما قال ذلك لأنه روي أنه أتاه ملك الموت وهو في صومعته فسلم عليه، فقال له يعقوب: من أنت؟ فقد اقشعرت أعضائي واضطربت بسلامك، فقال: أنا ملك الموت الذي لا يمنعني حصن حصين، فقال يعقوب: كنت أرجو أن أرى يوسف قبل أن أموت، فالآن جئتني لقبض روحي، فقال: ما جئت روحك ولو جئت كذلك ما أمهلت ساعة، فقال له يعقوب: بحق الله هل قبضت روحي يوسف؟ قال: لا هو حي وستلقاه عن قريب.

فلذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعض أهل الإشارة: لمَّا كان خوف يعقوب من قبض ملك الموت روح يوسف أتاه الأمن جهة خوفه فبشره ملك الموت، فكذا المؤمن خوفه من الموت ولا خوف على المؤمن إن مات على الإيمان كما قال: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:30].

وروي أيضًا: أن يوسف كان يومًا في الصحراء فرأى أعرابيًا ركاب نجيبة فقال له: أين تقصد؟ قال: كنعان، فقال يوسف: لي معك سفر فمن حقك أن تحقني ما أعهد إليك، فعاهده الأعرابي أن يأتي بما تعهد إليه، فقال له: إذا دخلت أرض كنعان فاذهب إلى يعقوب

فقل له: إن ابنك يوسف بأرض مصر، وإن طلب منك علامة فالعلامة هذه السقطة على سرتي، فلمّا وصل الأعرابي إلى أرض كنعان أتى إلى يعقوب وقال: يا نبي الله أبشر فيوسفك المفقود بأرض مصر ويقرأ عليك السلام، فقال: بأي علامة؟ فذكر العلامة، فقال: ما حاجتك؟ فقال الأعرابي: لي مال كثير وليس لي ولد، ادعو الله لي بالولد فدعا له فرزقه بنين له، فلهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

فأملى يعقوب كتابًا فكتبوه:

من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله إلى والي مصر:

اعلم أني قد كبرت وضعفت، وذهب عني النوم و[الراحة]، ونحن أهل بيت هم أهل البلاء، وهدف المحنة، وامتحنت بفراق قرة عيني يوسف منذ أربعين سنة أنا مبتلي بفراقه، وهذا الابن الآخر اتهمته بالسرقة وهو ابن نبي الله وليس بسارق، فالله أرسله إلي فهو مؤنسي، وإن لم ترسله إلي ضرك دعائي عليك، فإن الله لا يرد دعاء المظلومين، ودفعه إلى روبيل ابنه حتى يوصله إلى يوسف.

فقال يوسف: بلغه سلامي وقل له: إن إبراهيم صبر وظفر، وكذا إسحاق فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا، فلمّا سمع جواب الكتاب قال: هذا كلام الأنبياء! يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف:88] أظهروا عجزهم وأعرضوا ما كان لهم وعدوه يسيرًا، ثم أظهروا ضرهم بقولهم: فأوف لنا الكيل ثم أظهروا ضرورتهم، فقالوا: أو تصدق علينا، ثم نكروا كرم الحق بقولهم: ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف:88] ففعل يوسف أيضًا خمسة أشياء عاتب بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:89] لقنهم حجتهم بقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:89] حتى يقولوا: فعلنا بجهالة، ثم عفا بقوله: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:92] وثم صار شفيعًا في حقهم بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ [يوسف:92] ثم قوى رجاهم في قلوبهم بقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:92].

فكذلك أيها العبد المؤمن تب إلى الله كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ [العنكبوت:69]

وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون وأنب إليه كما قال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:45] ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ [الذاريات:50] ثم تستمر لعبادته كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69] احترز من كيد الشيطان كما قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:6] ثم خالف هواك كما قال: وأمّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإذا فعلت ذلك أكرمت بالقبول كما قال: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر:3] وبالمغفرة كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:53] وتبديل السيئات الحسنات كما قال: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:70] وبالنجاة من العذاب كما قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم:72] وبدخول الجنة كما قال: ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:40].

وقوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف:94] يحكى أن ريح الثوب لم يجدها الإخوة ووجدها يعقوب؛ لأن الإخوة كانوا عاقين لوالديهم، وكان الثوب من الجنة فلم يجدوا ريحه، ثم بعد ذلك رحموا وغفروا وقيل لم يجدوا ريح الثوب؛ لأنهم ما احترموا يوسف، بل هتكوا حرمته فلا جرم لم يجدوا ريحه كما لا يجد غير التائب ريح التوبة في الآخرة.

وقيل: كان ليوسف قميص المحبة ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:18]، وقميصه الفتنة ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:25] وقميصه البشارة، ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف:93] ولمّا كان يوم البلاء تباغضوا، ولمّا كان يوم الفرح توادوا واستبشروا وتنافسوا أنهم يذهب بالقميص ويبشر يعقوب به، هكذا قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:140] فسبحانه من عزيز حميد فقال: لما يريد بقلب الدهور ويحدث الأمور بعد الأمور.

وقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف:98] قيل: إنما أخر؛ لأن ما ينال بالهوينا لا يعرف قدره فأراد أن يكونوا بين الخوف والرجاء، ثم إذا نالوه فإن أهل الجنة لو طلقوا فيها لما عرفوا قدرها، وقيل: إنما أخر الاستغفار؛ لأن يعقوب ﷺ كان شفيعًا، والشفيع لا يشفع إلا برضاء الخصم، فأخر حتى يسترضي يوسف قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي

إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف:100] ولم يقل: إذ أخرجني في الجب بحضرة إخوته إنه كان في الجب أيامًا قليلاً وهي ثلاثة أيام.

وروي أنه ما بات في الجب وبقي في السجن سنين كان مع غير أبناء الجنس، وكان في الجب الملك يؤنسه؛ ولأنه لم يرد أن يذكر أمر الجب بحضرة إخوته إذ هم جعلوه فيه تكرمًا وتلطفًا، فلقد عفا عنهم ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:92] وطلب المغفرة لهم كما قال: ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ [يوسف:92] وقوى رجائهم بقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:92] ولم يذكر لهم ما فعلوه معه وأحال ذنبهم على الشيطان فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف:100]، وبدأ بنزغ الشيطان بنفسه فقال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف:100] وصلوات الله عليه وعلى نبينا محمد ﷺ خاصة، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين الذين كانوا معادن الكرم واللطف ومحاسن الشيم عامة.

وقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف:101] أضاف إعطاء الملك من الله تعالى؛ لأنه هو ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]، وقال: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ ولم يقل: من الملك؛ لأنه كان ملك مصر فحسب، وكذا ملك المخلوقين في الدنيا لا يكون كاملاً بل يكون معيبًا بالنقائص وآمنًا ملكهم التام في الدار السلام؛ إذ يلقون ما يشتهون ولا يمتنع عليهم مراد كما قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ [الإنسان:20] أهلنا الله لذلك بلطفه وكرمه، وإنما بدأ بذكر الله ثم بعلم التأويل؛ لأن مقصوده من الملك كان بث المعدلة وإمساك الطعام على الدعية، والسبب إلى إبقاء أرواحهم فكان هذا النفع أعم من نفع علم التأويل، فلهذا قدم ذكره وقيل: أعطي ثلاثة من الأنبياء النبوة والعلم والملك، وأود كما قال: ﴿وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:251] وسليمان ويوسف، وأعطي محمد ﷺ النبوة والعلم وملك القناعة، وأعطي عيسى النبوة والعلم وملك الزهد في الدنيا.

وأخبر عن يوسف أنه قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ﴾ [يوسف:101]، وقال لحبيبه ﷺ: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ [القصص:64] ثم كيدون فلا تنظرون ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي

نَزَّلَ الكِتَابَ﴾ [الأعراف:196] وقال في حق المؤمنين: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 257] فانظر هل توازي هذه الكرامة كرامة؟ ثبتنا الله على الإيمان.

قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ [يوسف:101] يدل على: إن من حق العبد أن يتضرع دائمًا إلى الله في تثبيته على الإيمان، وكذا قوله تعالى خبرًا عن إبراهيم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35]، وروي أن جبريل ﷺ قال: «متى لُعن إبليس لم يبق ملك مقرب إلا وهو يخاف زوال الإيمان»، ويقول: ربنا لا تغير اسمنا ولا تبدل جسمنا ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، فكأن يوسف قال: رب احفظني في ميزان التأديب حتى لم أرض أضرع، واحفظني في ملك حتى لم أظلم بل عدلت، وقد بقي الفزع الأكبر فلا تمتني إلا مسلمًا، وألحقني في الآخرة بالصالحين.

قال يحيى بن معاذ: من تمام نعمة الله على يوسف بأن يجعله [منبأ] على أخوته، واضطرهم إلى الخضوع له والتذلل بين يديه بقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:91] وقال سهل: نعمته عليك تصديق الرؤيا الذي رأيته لك.

وقال بعضهم: ويتم نعمته عليك بأن عصمك عن أفعال ما تليق بك ولآبائك، قال الحكماء في قوله: ﴿واللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:21] أي: حيث أمر يعقوب يوسف - عليهم السلام - بألّا يقص رؤياه على إخوته فغلبه أمر الله تعالى حتى قص، ثم أراد يعقوب ألّا يكيدوا فغلب أمره حتى كادوا، ثم أراد إخوة يوسف قتله فغلب أمره حتى لم يقتلوه، ثم أرادوا أن يلقوه في الجب ليلتقطه بعض السيارة فيندرس اسمه فغلب أمره حتى لم يندرس اسمه وصار مذكورًا مشهورًا، ثم باعوه ليكون مملوكًا فغلب أمره حتى صار ملكًا وسجدوا بين يديه، ثم أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمره حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، ثم دبروا أن يكونوا من بعده قومًا صالحين تائبين فغلب أمره حتى نسوا الدين، وأضروا حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد أربعين سنة فقالوا: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:91].

وقالوا لأبيهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالقميص والدم والبكاء فغلب أمره حتى لم يخدع، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ [يوسف:18] ثم

احتالوا أن تذهب محبته عن قلب أبيه فقلب أمره حتى زادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي فغلب أمره حتى نسي الساقي ذكر يوسف ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:42]، ثم احتالت امرأة العزيز أن تزيل المراودة عن نفسها حين قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ [يوسف:25] فغلب أمره حتى شاهد الشاهد من أهلها.

وقال ابن عباس ﷺ: ﴿واللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:21] على ما أراد من قضائه لا يغلب على أمره غالب، ولا يبطل إرادته منازع فهو قادر على أمره من غير منازع، قال جعفر بن محمد الصادق سلام الله عليهما: البرهان النبوة التي أودع الله تعالى في العلم في صدره فهي التي حالت بينه وبين ما يسخط الله، وقيل: هو ما أتاه الله تعالى في العلم والحكمة.

وقال أهل الإشارة: إن المؤمن له برهان من ربه في صدره من معرفته فرأى ذلك البرهان وزواجره، وقال سهل: عصمه الله من الفعل ولم يعصمه من الهم، وقال المزني: غلب عليها الطبع فهمت بالمعصية وغلب على يوسف التوفيق.

ومن العبر والمواعظ والفوائد في هذه القصة:

* أنه قال: لقد كان في يوسف وإخوته فلم ينقطع الوصلة بينهم بالجفاء الذي وقع منهم؛ لبقاء أصل الدين في مؤاخاته بخلاف ابن نوح، فإنه قال في حقه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46] ولا في إخوة يوسف عزموا على أن يتضرعوا إلى الله إلى التوبة والإنابة.

كما أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ [يوسف:9] قال بعض المفسرين: وأمّا كنعان فلم يعزم على الالتجاء إلى الله تعالى، بل ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:43].

* ومنها: روي أنه ابتلي بذلك الفراق؛ لأن امرأته حين وجدت ريح قدرهم فسألت عن يعقوب من ذلك الطعام فقال: اذهبي إلى بيتك مشاهدي إليك، ثم نسي وعدهم فابتلي بذلك الفراق، وقيل: ببيدائه ذبح عجلاً بحضرة أمه فينبغي أن يعتبر ويحترز من أمثال ذلك.

* ومنها: أنه أظهر لبنيه زيادة محبة ليوسف فحملهم ذلك على أن فعلوا ما فعلوا، فينبغي أن يعتبر المؤمن ويسوي بين أولاده جهده في المحبة وأن لم يمكنه فليكتم ذلك عنهم، ولذلك يستحب في شرعنا التسوية بين الأولاد في العطاء.

* ومنها: ألّا يأمن من نزغات الشيطان في حال من الأحوال، فإنهم كانوا من أبناء النبي ﷺ ومع ذلك نزع الشيطان بينهم.

* ومنها: اجتناب الحسد إذا حملهم الحسد على فعلهم ذلك.

* ومنها: أن المحبة سبب البلاء، فمن ادَّعى المحبة فليستعد للبلاء.

* ومنها: ألّا يوثق بكل أحد، ولا يؤتمن على أحد، ائتمن يعقوب بنيه على ابنه فأصابه منهم ما أصاب.

* ومنها: أن الأولاد فتنة، ولقد روي في القصة أنه التمس من الله أن يرسله، فيعمد إلى الصحراء فلم يرد أن يمسكه.

* ومنها: فضيلتي الصبر، فلقد صبر يعقوب فنال الفرج، وصبر يوسف فنال الملك والمراد، وصبرت زليخاء فبلغت المقصود.

* ومنها: فضيلة الحلم، فلقد حلم عنهم حين قدر عليهم وقال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

* ومنها: أن الإقرار بالذنب سبب العفو، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ قابلهم بأنه قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

* ومنها: من يريد الله رفعه فلن يضره كيد كائد، فلقد كادوا ليوسف فلم يمكنهم دفع رفعته ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ ولقد كاد الكفار رسولنا ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:30] فلم يدفعوا مراد الله فيه، فكذلك المؤمن إذا كانت معه عناية الله لم يضره كيد جني ولا كيد أنسي به، ونسأل الله تعالى ألّا يخلينا عن عنايته ورعايته بفضله وكرمه فهم بموعظتها، وقال رويم: همت زليخاء بالمعصية، وهم يوسف بالرجوع إليها في الفرار منها، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قال ابن عطاء: لولا أن رأى برهان

ربه أي: واعظًا من قلبه، وهو قوله ﷺ: «واعظ الله في قلب كل مؤمن»[1].

وقال الجنيد: تحرك طبع البشرية في يوسف ولم يعدوه طبع العادة والعبد في تحريك الخلقة غير مذموم، وفي مقالة المعصية ملوم، وذكر الله على يوسف همه على طريق المحمدة لا على طريق المذمة.

وقال أبو عثمان: ما كان هم بها إلا هم شفقة عليها، ودعا إلى الله في قطع تلك الهمة الدنية عنها كيف يكون هم يوسف غير ذلك أو هم أنها بدا والله تعالى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف:24]، فكانت الفحشاء مصروفة عنه كيف يبقى عليه موضع هم دوني.

قال الشيخ المصنف ﷺ: همت به زليخاء هم النفسانية الهوائية، لكن بمناسبة وقضاء الربانية، وهم بها يوسف هم ائتلاف الروحانية لمناسبة أحكام الأزلية بينهما بالزوجية، فإن كان هم زليخاء هم العاشقين بالمعشوق وكان هم يوسف هم الزوج بزوجته لولا أن رأى برهان ربه وهو وارد رباني يرد على قلب نوراني مؤيد بروح من عالم الأنبياء الذي يحكم على الغيب بعلم تأويل الأحاديث فأنبأه أنه زوجته، ولكن ما قال بعد وقت الازدواج فهم بسائق والزجر لعدم انقضاء مدة كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف:24] والسوء شغل البضع بنكاح الغير، والفحشاء المباشرة قبل النكاح.

قال الجنيد: سئل السَّري ما علامة المحبة قال: ما ذكره الله في كتابه (قد شغفها حبًّا)، قال: ألَّا يرى جفاء الحبيب جفاء، بل يرى جفاؤه وفاء.

وقال الشبلي: علامة الصدق في المحبة استواء المحبة في الشدة والرخاء، وقال سمنون: الشغاف في المحبة امتلاء القلب منها حتى لا يكون لشيء عندها فيه مكان، وقال الشبلي: الشغاف نهاية العشق.

وقال جعفر: الشغاف مثل القيم أظلم قلبها عن النظر في غيره والاشتغال بسواه.

وقال بعضهم ﷺ: الشغاف جلد رقيق على وجه حبة القلب وهو مبلغ غاية عشق

---

(1) ذكره الشيخ حقي (6/ 457).

المخلوق، فلا يتجاوز عشق المخلوق الشغاف وجه القلب هي مبلغ عشق الخالق، فيجاوز الشغاف ويبلغ حبة القلب.

قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف:31] يشاهدن حسنًا غير موضع الشهوة مؤيدًا بعصم النبوة فأكبرنه.

وقال أبو سعيد الخراز: المحب من يكون في حال المشاهدة غائبًا عن حسه فانيا عن نفسه لا يحسن بما يجري عليه.

قال مخلوف: في رؤية مخلوقٍ لم يتألم بقطع اليد ولم يحس به وأنتم تتألمون مما يصيبكم من أثقال المحبة بالحقيقة.

قال سهل: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:24] ما هذا إلا ملك في أخلاقه بشر في صورته.

قال محمد بن علي بن زين العابدين- سلام الله عليهم-: ما هذا بأهل أن يدعي إلى المفاسد بل مثله يكرم، وينزه عن مواضع الاعتراضات لكرم أخلاقه ولطف شمائله.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53] بالنفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بحمد عن سوء المطالبة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عناده النفس وغفل عن الرعاية الأدب، فمهما أماتها فهو شريك في مرادها.

وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه والعبودية ملازمة الأدب والطغيان سوء الأدب.

وقال سهل: خلق الله النفس، وجعل طبعها بالجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها، وجعل الهوى الباب الذي منه الهلاك.

وقال الواسطي: النفس ظلمة وسراجها سرها، فمن لم يكن له سر فهو ظلمه أبدًا.

وقال سهل: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ ليس لها في الأخلاق نصيب.

وقال الشيخ ﷺ: إن النفس خلقت أمارة بالسوء، فإذا رحمها ربها جعلها مأمورة، وبنور الرحمة مستورة، وبالواردات الربانية مقهورة، وبنظر العناية منظورة، وذنوبها

مغفورة، وأخلاقها المذمومة محمودة، وعلى العبودية مطمئنة، ولجذبات الإلهية قابلة، وإلى ربها راجعة راضية مرضية في زمرة خواص العباد داخلة، ولجنة جوار الحق مستلهمة، ويسطوات تجلي صفات الجمال والجلال فانية، وبصفة بقاء الله باقية.

وعن محمد بن كعب القرطبي عن الإمام علي بن أبي طالب- عليه السلام- قضى القضية فقال رجل من ناحية المسجد: يا أمير المؤمنين ليل القضاء كما قضيت، قال: كيف هو؟ قال: هو كذا أو كذا، قال: صدقت وأخطأت ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].

قال بعضهم في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [يوسف:76] بالعلم، وقيل: بالتقوى، وقيل: بنزع الشهوات والأهواء عنه، وقيل: بالاستقامة، وقيل: بالمكاشفة والمشاهدة، وقيل: بالفراسة الصادقة، وقيل: بالمعرفة والتوفيق، وقيل: بإجابة الدعاء، وقيل: بالإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا، وقيل: بمعرفة مكائد النفس.

وقال الجنيد: رفع درجات في يشاء بإسقاط الكونين عنه ورفعه عن الالتفات إلى الأحوال والمقامات؛ ليكون خالصًا لنا بلا علة.

وقال بعضهم ﷺ: نرفع درجات من نشاء بالبقاء بعد الفناء؛ ليكون فانيًا عن وجوده المجازي باقيًا بوجوده الحقيقي.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل ذي معرفة عارف إلى أن تنتهي المعرفة إلى المعروف، فتسقط الأوصاف ويبقى حقًا محضًا.

وقال بعضهم: العلوم تتفاوت على مقدار الصنائع والتعليم إلى أن ترى من يتلقف العلم من الحق ورزق العلم اللدني، فذلك العالم بالعلم اللدني الذي لا عالم فوقه في الخلق.

وقال الشيخ ﷺ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ في المنقول والمعقول ﴿عَلِيمٌ﴾ هو عالم بالله.

وقال بعضهم: الصبر الجميل الذي ليس فيه إظهار الشكور والإحساس بالبلوى.

وقال الشيخ ﷺ: الصبر جميل إن ترى البلاء جميلاً من الجليل، والصبر يدفع البلاء إلى الخليل.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [يوسف:84] وقال: يا أسفًا على يوسف أعرض عنهم لما لم يجد من عندهم الفرج، ولم ير فيهم [مسكا لب كوباه][1]، ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لم يترك في هذا النفس الواحد بقيا حتى أوحى الله تعالى إليه أن يا موسى على غيري ذلك الصبر الجميل الذي وعدتنا في نفسك أبنائي، وقد أخذنا منك واحدًا، وأبقيناك عشرًا وأنت مع هذا تظهر الشكوى وتقول: صبر جميل.

قال ابن عطاء: بكاء يعقوب وتأسفه لفقد الألفة، وذلك أنه لما لقي يوسف عليه السلام زاد في البكاء، فقال: يا أبت أتبكي عند الفراق وعند التلاقي، قال: ذلك بكاء حرقة القلوب وهذا بكاء الدهش.

وقال أبو سعيد القرشي: أوحى الله تعالى إلى يعقوب تتأسف على غيري وعزتي لأخذن عينك ولا أردهما إليك حتى تنساه.

وسئل أبو سعيد القرشي لِمَ لم يذهب عين آدم وداود من هول بكائهما وذهبت عين يعقوب؟ قال: لأن بكاءهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب كان على فقد ولده فحفظا وعوتب.

وقيل: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:84]، وقال: بكاء الأحزان؛ يعمي العيون، وبكاء الشوق يجلي العيون، وقال أيضًا: الطبيب الحاذق من يأخذ الدواء من الداء الذي يعقوب عمى بفقد يوسف فلم يبصر الآباء بإلقاء الثوب على وجهه، وأنشد المجنون في معناه:

تَـداوَيتُ مِـن لَـيلى بِلَـيلى عَـنِ الهَـوى   كَـما يَـتَداوى شـارِبُ الخَمـرِ بِالخَمرِ[2]

قال الشيخ رضي الله عنه: ما كان بكاء يعقوب وتأسفه على فقد صورة يوسف، وإنما كان على خوف فقد قلب يوسف في يوسف، وابيضت عيناه من الحزن على هذا المعنى ألا ترى أنه لما ألقى على وجهه بقميص يوسف كيف ارتد بصيرًا؛ لأنه شم في قميصه رائحة سلامة قلبه، فكما أنه كان عماه من حزن فقد قلب يوسف كان بصره من سرور وسلامة قلب

(1) ما بين المعكوفتين كلام فارسي.

(2) البيت لمجنون ليلى، والبيت من بحر «الطويل».

يوسف.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ كان علمه الله كان حقيقة وعلمكم به علم استدلال.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ [يوسف:87]، تحقق رجاء الراجين عند تواتر النعم وترادف المصائب؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ [يوسف:87] والنبي ﷺ يقول: «أفضل العبادة انتظار الفرج»(1).

قال أبو عثمان في قوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف:101]، قال بما كان يجري عليه في حالتي السراء والضراء وهذا هو الملك.

قال ابن عطاء: الملك هو احتياج حساده إليه وقال بعضهم: هو القناعة فيه.

قال الشيخ ﷺ: هو أراه البرهان أخبرهم بها ليملك نفسه وينهاها به عن الهوى.

وقال الصادق في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أوقف حكم عباده تحت مشيئته إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن شاء قربهم، وإن شاء بعدهم؛ لتكون المشيئة والقدرة له لا لغيره.

وعن سهل في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ قال: أمتني وأنا مسلم إليك أمري معرض إليك شافي لا يكون لي إلى نفسي مجال ولا تدبير في سبب من الأسباب.

وقال: الدينوري: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ في إصلاحهم لمجالستك وحضرتك، وأسقطت عنهم الخلق، وأزلت عنهم رعونات الطبع.

قال أبو صالح: من العبّاد من زين الله تعالى ظاهره بآداب الخدمة، ونور باطنه بنور المعرفة.

وجعله راحة للخلق سعد ببركته من قصده، وما يؤمن من أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

قال الواسطي: وهم مشتركون في ملاحظة الخواطر والكرامات، وقال بعضهم:

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (7/ 204 ، رقم 10005)، والقضاعي (2/ 245 رقم 1283). والديلمي (1/ 355 ، رقم 1426).

وما يؤمن أكثرهم باللسان إلا وهم مشركون عند نزول النوائب في الرجوع إلى سواه، والاعتماد فيه على ضعيف مثلهم وفي قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108].

قال ابن عطاء: أدعوكم إلى من تعودتم من النعم والأفضال والبر والتوال على الأفعال، وهو الله الذي لم يزل ولا يزال تبارك العزيز المتعال.

وقال بعضهم: فرّق بين من دعا إلى الله وبين من دعا إلى سبيل الله؛ فمن دعا إلى الله يدعو الخلق إليه به لا يكون فيه حظ لنفسه، ومن دعى إلى سبيل الله يدعوهم بنفسه إليه لذلك كثرت الإجابة لمن يدعوا إلى سبيله لمشاكلة الطبع، وقل من يجيب لمن يدعو إلى الله؛ لأن فيه مفارقة الطبع والنفس، وقال بعضهم: البصيرة من لباس الأرواح، وليس لها من الأجسام حظ.

وقال الواسطي: على بصيرة أيقن بالله أنه ليس إليه من الهداية شيء.

وقال ابن عطاء: منهم: من اتبع على الظاهر، ومنهم: من اتبعه على الحقيقة، والتحقيق فذلك الذي قال الله تعالى: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108]، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب.

قال الصادق: لأولي الأمر أو مع الله، وقال ابن عطاء: عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ في آن، أن النفس ليست بمحل الأمن والاعتقاد عليها، وصلى الله تعالى على محمد وآله أجمعين.

سورة الرعد

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: 1 - 4].

فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ﴾ [الرعد:1] أي: تلك الحروف من ﴿الـمر﴾[1] آيات

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه تجلي من فعله الخاص لفعله العام؛ فأجاد من بين الفعلين حروفًا جعلها صادق أسرار الصفات والذات، وأخبار الغيب، وغيب الغيب؛ فوضع في الألف سر الألوهية لنفسه، وسر الأنانية لصفوة توحيده، ووضع في اللام سر أزليته لنفسه، وسر لطفه وفي ظهوره بوصف الأزل لأهل التباسه من أهل عشقه وشوقه، ووضع في الميم سر محبته في هواء أزليته لطلب ألوهيته، ووضع في الراء أنور ربوبيته، وجعلها مرآة لعبوديته لعباده؛ فيرون منها لطائف صفاته وروح ملكوت قدسه؛ فلمّا انحسرت الأرواح من طلب الألوهية وجعلت إلى معادن أنوار الربوبية، وسكنت جمادات من مرآة حرف الراء من رحمته الكافية ورأفته الشافية من كل شيء دون الله؛ فالألف صندوق الألوهية لا ينفتح إلا لأهل الأنانية في التوحيد، واللام صندوق نور الأزلية والجمال ولا ينفتح إلا لأهل الوله في شوقه، والميم صندوق محبته الأزلية ولا ينفتح إلا لأهل محبته؛ فالراء صندوق نور ربوبيته ولا ينفتح إلا لسلاك عبوديته الذين مرادهم منه نفسه لا غير.

قال الشبلي: ما من حرف من الحروف إلا وهو يسبح الله بلسان ويذكره بلغة بكل لسان منها حروف، ولكل حرف لسان وهو سر الله في خلقه الذي يقع زوائد المفهوم وزيادة الأذكار.

وقال الحارث المحاسبي: إن الله لما خلق الأحرف دعاها إلى الطاعة؛ فأجابت على حسب ما حلاها الخطاب وألبسها، وكانت الحروف كلها على صورة الألف إلا أن الألف بقيت على صورته وحليتها التي بها ابتدأت، ثم من سنّة الله سبحانه أن وضع ما تكلم به من الأسرار في لباس الحروف على رأس

الكتاب، وبها يقسم فبالألف منها يشير إلى قوله: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:255] وباللام يشير إلى: قوله: ﴿له مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الشورى:12] وبالراء إلى رسوله، واللهُ أعلم ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد:1]، فمن القسم وجوابه أن الذي أنزل إليك من ربك من القرآن حق وصدق فمن اعتصم به، وهو حبل الله ينجيه من الأسفل الذي هبط إليه بقوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة:38]، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بأن هذا القرآن حبل من الله يوصل المعتصم به إليه.

ثم قال تأكيدًا لإيمان أهل الإيمان به: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:2] يعني: رفعها بالعمد، وهي القدرة والحكمة، ولكن لا ترونها أنها قائمة بها يعني الله الذي رفع السموات بالقدرة والحكمة قادر على أن يوصل المعتصم بحبل القرآن إلى أعلى الدرجات، وأفضل القربات على أنه جل جلاله، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(1) بعد رفع السموات من كمال قدرته وحكمته أي: غلبه بقدرته لتدبير المكونات ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد:2] لمصالح العالم، وإظهار القدرة عليه ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ من آجال الخلق، والعالم بالإفناء والإحياء والإيجاد والإعدام ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أمر العالم، فهذا يدل على أن الاستواء لتدبير لا لتشبيه ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ [الرعد:2] التي تدل على كمال القدرة والحكمة ﴿لَعَلَّكُم﴾ بهذه الاستدلالات ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ [الرعد:2] بالوصول إليه ﴿تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:2] فتجاهدون في طلبه.

﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ من حسن تدبيره ﴿مَدَّ الأَرْضَ﴾ [الرعد:3] أرض البشرية

كل صورة.

(1) أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهورَ للحَشَم والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في ألوان مشاهدهم فأخبر الحقُّ- سبحانَه- بما يَقْرُب من فَهم الخلْقِ ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدَّس الجبَّارُ عن الأقطار، والمعبودُ عن الحدود، تفسير القشيري (3/ 191).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد:3] أوصاف الروحانيات ﴿وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد:3] من مياه القدرة والحكمة، ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد:3] أي: مشاهدات روحانية ومكاشفات ربانية ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد:3] أي: يغشي ليل أوصافه النفسانية منها أخلاق الروحانية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:3] في حقائق الأشياء، فيهتدون بها إلى معرفة مدبرها ومنشئها، ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:4] الإنسانية قطع من النفس والقلب والروح والسر والخفي ﴿مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ متقاربات بقرب الجوار مختلفات في الحقائق: فمنها: حيوانية، ومنها: ملكوتية، ومنها: روحانية، ومنها: جبروتية، ومنها: عظموتية.

﴿وَجَنَّاتٌ﴾ وبالجنات يشير إلى هذه الأعيان المستعدة لقبول الفيض عند قبولها، وتثميرها ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ وهي ثمر النفس من الصفات ما يدل على الغفلة والحماقة والسهو واللهو، فإنها أصل السكر ﴿وَزَرْعٌ﴾ وهي ثمرة القلب، فإن القلب بمثابة الأرض الطيبة القابلة للزرع من بذر صفاته الروحانية والنفسانية، فيأتي بذر صفة من الصفات؛ إذا زرعت يتجوهر القلب بجوهر تلك الصفة؛ فتارة: يصير بظلمات النفس ظلمًا نبتًا، وتارة: يصير بنور الروح نورانيًا، وتارة: يصير بنور الرب ربانيًا.

كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:69]، ﴿وَنَخِيلٌ﴾ وهو الروح ذو فنون من الأخلاق الحميدة الروحانية؛ كالكرم والجود والسخاء والشجاعة والقناعة والحلم والحياء والتواضع والشفقة ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ وهي ثمر الجبروت وبه يكشف أسرار الجبروت التي بين الرب والعبد، ولها مثل ومثال يحكى منها.

كما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:10]، وكما قيل بين المحبين سر ليس مفشيه ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ [الرعد:4] وهو ماء القدرة والحكمة ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد:4] في الثمرات والنتائج فبعضها أشرف من بعض، وإن كان لكل واحدة منها شرف في موضعه لاحتياج الإنشاء في أثناء السلوك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:4] الذين يلتمسون من القرآن أسرار أو آيات تدلهم على السير إلى الله، وتهديهم إلى صراط المستقيم إليه.

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد: 5 -9].

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ [الرعد:5] أي: تعلم أنك يا محمد لا تعجب شيئًا؛ لأنك ترى الأشياء منا ومن قدرتها، وإنك تعلم أنا على كل شيء قدير، ولكن تعجب على عباده أهل الطبيعة إذا رأوا شيئًا غير معتاد لهم أو شيئًا ينافي نظر عقولهم ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: فتعجب من قولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ [الرعد:5] أي: صرنا ترابًا بعد الموت.

﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:5] أي: يعود تراب أجسادنا أجسادًا كما كان، ويعود إليها أرواحنا فنحيى مرة أخرى، فمعنى الآية أنهم يتعجبون من قدرة الله بأن يكونوا خلقًا جديدًا بعد الموت، وليس هذا تعجب من قدرة الله؛ لأن الله هو الذي خلقهم من لا شيء في البداية إذا لم تكن الأرواح والأجساد ولا التراب فلا أهون عليه أن يجعلهم من شيء وهو التراب والأرواح، ولكن العجب تعجبهم بعد أن رأوا أن الله خلقهم من لا شيء.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد:5] وهي أغلال الشقاوة التي جعل التقدير الأزلي في أعناقهم كما قال: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:13] ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[الرعد:5] أي: هم الذين قال الله تعالى فيهم في الأزل: «هؤلاء في النار ولا أبالي وهؤلاء في الجنة ولا أبالي»(1) قال أمرهم إلى أن يكونوا أصحاب النار إلى الأبد.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [الرعد:6] أي: من أمارة هؤلاء القوم استعجالهم

---

(1) أخرجه أحمد (4/ 186، رقم 17696)، قال الهيثمي (7/ 186): رجاله ثقات. وابن سعد (1/ 30)، والحكيم (4/ 202)، والحاكم (1/ 85 ، رقم 84)، وقال: صحيح .

بالكفر والمعاصي ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [الرعد:6] أي: قبل الإيمان والطاعة؛ لأنهم أهل الخذلان ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد:6] أي: مضت من قبلهم وجودهم في التقدير الأزلي العقوبات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:6]، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي»(1).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد:7] أي: علامة يستدل بها على نبوتك يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد:7] على الفريقين أي: ليس عليك هدايتهم، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾ من الفريقين ﴿هَادٍ﴾ [الرعد:7] يهديهم إلى الجنة، وإلى النار وهو الله الذي قال لهم: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»(2) هاد لأهل العناية بالإيمان، والطاعة إلى الجنة، وهاد لأهل الخذلان بالكفر والعصيان إلى النار ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد:8] من السعيد والشقي والولي والعدو والجواد والبخيل والعالم والجاهل والعاقل والسيد والكريم واللئيم وحسن الخلق وسيىء الخلق، وأيضًا: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد:8] ذرة من ذرات المكونات من الآيات الدالة على وحدانيته؛ لأنه أودعه فيها وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، وقال الشاعر:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

أيضًا يعلم أنه ما أودع فيها من الخواص والطباع ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: 8] أي: أرحام الموجودات وأرحام المعدومات أي: وما تغيض من المقدرات أرحام الموجودات والمعدومات بحيث يبقى في الأرحام ولا يخرج منها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد:8]، وما يخرج منها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(3) [الرعد:8] أي: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ مما يخرج من أرحام

(1) تقدم.

(2) تقدم تخريجه.

(3) قال البقلي: أي: بقدر، وعزوا بشرف، إذ الكل منه يبدوا، وقدرها من قدره، وشرفها من شرفه، وأيضًا أي كل شيء عنده لفظات بيد قدرته، ولها حد ومقدار؛ لأن من أوصاف الحدثين الحدود والنقصان، أي
=

الموجودات والمعدومات، وما يبقى فيها عند علمه، وحكمته ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ معين أي: معين موافق لحكمة خروج ما خرج، وبقاء ما بقي؛ لأنه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الرعد:9] أي: ﴿عَالِمُ﴾ بما غاب عن الوجود والخروج بحكمته، وبما شهد في الوجود والخروج ﴿الْكَبِيرُ﴾ [الرعد:9] في ذاته، وأحاط علمه بالموجودات والمعدومات وبما في أرحامها ﴿الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:9] في صفاته بأنه منفرد بها.

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد: 10 - 15].

﴿سَوَاءٌ مِّنْكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ [الرعد:10] في مكن الغيب بحيث لم يخرج منه، ولا شعور له به، ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ بأن يظهر القول، ويخطر بباله وله به شعور ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ [الرعد:10] أي: بليل العدم، ولم يخرج منه ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد:10] أي: بنهار الوجود كل هذا سواء عنده؛ لأن علمه به يحيط ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ [الرعد:11] أي: لله معقبات في العلم والحكمة ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الرعد:11] أي: من بين يديه ما هو معلوم له.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:11] الذي لأمر الله بحيث لا يخرج إن

كل شيء محدود مقدور لإجلال قدر القدم.

قال الإمام الحسين: كل ربط بحده، وأوقف معرفته، فلا يجاوز قدره إلا من يعدو طوره.

قال بعضهم: كل شيء بوزن ومقدار، ومن لم يزن نفسه ولم يطالع أنفاسه فهو في حيز الغافلين، ومن لم يعرف مقداره وقدر عظيم النعمة عنده أعجب بنفسه، أو بما يبدو منها.

شاء تكوينه يكونه، وإن شاء إعدامه فيعدمه ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ [الرعد:11] في الوجود والعدم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11] باستدعاء الوجود، أو العدم بلسان استحقاق الوجود والعدم على مقتضى حكمه ووفق مشيئته ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ [الرعد:11] لاقتضاء حكمته الأزلية ﴿فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد:11]؛ لأنه محفوظ بمعقبات من بين يديه ومن خلفه لأمر الله ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:11] يحولهم من حال إلى حال ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد:12] يشير إلى أن البروق مختلفة، فإذا أرى الله تعالى السائر برقًا من لمعان أنوار الجلال يغلب عليه خوف الانقطاع واليأس، فإذا أراه برقًا من تلألؤ أنوار الجمال يغلب عليه الرجاء والاستئناس.

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:12] من أثر الفضل والنوال بمطر الإقبال والإفضال ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد:13] يشير إلى أن الرعد ملك خلق من نور الهيبة الجلالية، فإذا سبَّح وقعت الهيبة على الخلق كلهم حتى الملائكة وتسبِّح ﴿الْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد:13] أي: من هيبته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ [الرعد:13] أي: صواعق القهر من بروق أنوار جلال ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ [الرعد:13] من أهل الخذلان والضلال فيحرق حسن استدلالهم في قبول الإيمان، ويغرقهم في بحر الكفر والطغيان.

﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ﴾ [الرعد:13] أي: في ذاته وصفاته يشير به إلى أن أهل الخذلان في ذات الله وفي صفاته مثل الفلاسفة والحكماء اليونانية الذين لم يتابعوا الأنبياء، وما آمنوا بهم، وتابعوا العقل دون السمع، وبعض المتكلمين من أهل الأهواء والبدع هم الذين أصابتهم صواعق القهر، واحترقت استعداداتهم في قبول الإيمان؛ فظلوا يجادلون في الله، هل هو فاعل مختار أو موجب بالذات لا بالاختيار؟

ويجادلون في صفات الله هل لذاته صفات قائمة به أم هو قادر بالذات، ولا صفات له؟ ومثل هذه الشبهات المكفرة المضلة من سبيل الرشاد ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: 13] أي: الله تبارك وتعالى شديد العقوبة، والأخذ لمن جادل فيه بالباطل ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: دعوته حق لمن دعاه تبارك وتعالى، والأخذ لمن جادل فيستجيب كما دعا السموات والأرض.

وقال لها: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] فاستجابوه وأيضًا ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد:14] أي: له دعاة يدعون الخلق بالحق إلى الحق، وأيضًا أي: من دعا الخلق للحق تعالى فهو الحق، ومن دعا للهوى فهو باطل، وإن دعا إلى الحق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ [الرعد:14] أي: يدعون لغير الحق ﴿لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: 14] أي: لا يقبلون النصح إذا خرج من القلب والتناجي، ولا يتأثر فيهم ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ [الرعد:14] أي: كي يبسط يده إلى الماء أداة للخلق بأن يريد شربه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد:14]، إلى فمه فلا يحصل الشرب على الحقيقة، وأنه توهم الخلق أنه شارب، وهذا مثل ضربه الله تعالى للدعاة من أهل الأهواء والبدع يدعون الخلق لغير الله، فلا يستجيبون على الحقيقة، وإن استجيبوا في الظاهر؛ لأنهم استجابوا لهم على الضلال يدل عليه قوله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [الرعد: 14] يعني: الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء، وأهل الدرجات من المؤمنين والأرض، أي: ومن في الأرض من الملائكة والمؤمنين ﴿طَوْعاً﴾ [الرعد:15]، ومن الكافرين والمنافقين والشياطين ﴿وَكَرْهاً﴾ [الرعد:15] بالتذليل والتسخير تحت الأحكام والتقدير.

﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:15] أي: نفوسهم، وإن النفوس ضلال الأرواح، وليس السجود بالطوع من شأن النفوس؛ لأن النفوس أمارة بالسوء طبعًا إلا ما رحم الرب تعالى، فسجد طوعًا، والإكراه على السجود بتبعية الأرواح، وأيضًا ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الرعد:15] أي: في سماوات القلوب من صفات القلوب والأرواح، والعقول طوعًا ﴿وَالأَرْضِ﴾ [الرعد:15] أي: ومن في أرض النفوس من صفات النفس الحيوانية والتبعية كرهًا؛ لأنه ليس من طبعهم السجود والانقياد.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿16﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ

وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: 16 - 18].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ﴾ [الرعد:16] السموات: سموات القلوب، والأرض: أرض النفوس، ومن دبر فيها درجات الجنان بالأخلاق الحميدة، ودركات النيران بالأخلاق الذميمة، وجعل مشاهد القلوب مقامات القرب في شواهد الحق ومراتع النفوس، وشهوات الدنيا، ومنازل البعد ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي: أجب أنت عن هذا السؤال؛ لأن الأجانب منه بمعزل ﴿قُلْ﴾ للأجانب ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الرعد:16] من الشيطان والدنيا والهوى وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا في الدنيا والآخرة؛ لأنهم مملوك والمملوك لا يملك شيئًا.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الرعد:16] الأعمى من يرى غير الله مالكًا، ومتصرفًا في الجود والبصير ضده، وأيضًا الأعمى وَهُمُ النفوس؛ لأنها تتعلق بغير الله وتحب غيره، والبصير للقلوب؛ لأنها تتعلق بالله، وتحب له. فالأعمى من عمى بالحق، وأبصر بالباطل، والبصير ضده، وأيضًا، الأعمى من أبصر بظلمات الهوى، والبصير من أبصر بأنوار المولى ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد:16] أي: هل يستوي المسكن في ظلمات الطبيعة والهوى، ومن هو مستغرق في بحر نور جمال المولى ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أهل الهوى ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [الرعد:16] من الدنيا وأهلها.

ثم قال: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد:16] أي: خلقوا الدنيا، وأهل الدنيا شيئًا مما لهم بخلق الله تعالى ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد:16] أي: على أهل الهوى الذين يطلبون حوائجهم فرجعوا إليهم في الطلب أو جعلوا ما سوى الله شريكًا في الطلب في المحبة.

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:16] وليس غيره خالق تدل هذه الآية على أنه تعالى خالق الخير والشر ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ [الرعد:16] في ذاته وصفاته ﴿الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16] لمن دونه أي: هو الواحد في خلق الأشياء، وقهرها لا شريك له فيه، ولا في المطلوبية ولا المحبوبية ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:17] من سماء القلوب ماء المحبة ﴿فَسَالَتْ

﴿أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:17] أودية النفوس ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾[1] [الرعد:17] من الأخلاق الذميمة النفسانية والصفات البهيمية الحيوانية، وأنزل من سماء الأرواح ماء مشاهدات أنوار الجمال فسالت أودية القلوب بقدرها.

---

(1) شبَّه الله سبحانه أنزل الماء من السماء إلى الأودية بما نزل من مياه بحار أنوار ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحدين والعارفين والصديقين والمكاشفين والمشاهدين والعاشقين والمشتاقين والمحبين والموقنين والمخلصين والمتعبدين والمريدين، وكما يحتمل الأودية بضعفها، وقوتها وضيقها، وبسطها ماء المطر، فكذلك تلك القلوب تحتمل مياه أنوار قاموس الكبرياء من الذات والصفات والأوصاف والنعوت والأسماء والأفعال بقدر حواصلها، وأقدار استعدادها من المحبة والمعرفة والتوحيد، وكما أن قطرات الأمطار تكون في الأودية سيلاً؛ فتحمل المسيل زبدًا وحثالة، وما يكون مانعًا من جريان السيل في الأودية؛ فكذلك يكون تواتر أنوار تجلي الحق ويكون سيل المعارف والكواشف؛ فتسيل من جداول القلوب أنهار الغيوب، فتحتمل من أوصاف البشرية، وما دون الحق الذي يمنع القلوب من رؤية الغيوب؛ فيذهب به عن صحاري القلوب وقيعانها التي هي أصدافهم العالية في طلب جواهر الحكم من بحار المشاهدة، فتصير بعد ذلك صافية مقدسة من زبد الرياء والسمعة والشك والشرك والنفاق والخواطر المذمومة، فتبقى القلوب في بحر المشاهدة سابحة في نور الأزل والأبد بلا علاقة، ومانع من العرش إلى الثرى، وذلك من بركة تجلي مشاهدة الله سبحانه التي بدت من الحق بلا واسطة ولا سبب، كما أن المطر ينزل من السماء بلا سبب من أسباب الخلق، ولا بعلة طلبهم بل محض فيض فياض القديم الأزلي على الذي ارتضى برضاه من أهل رضوانه في الأزل؛ فمياه تلك البحار في أودية تلك القلوب، بعضها من بحر الذات، وبعضها من بحر الصفات، وبعضها من بحر الأسماء، وبعضها من بحر الأوصاف، وبعضها من بحر النعوت، وبعضها من بحر الأفعال. فالذي من بحر الذات يجري في أودية قلوب الموحدين والعارفين والمنفردين والمتجردين، ويذهب بما في قلوبهم من أوصاف الحدوثية، وينبت أوراق ورد الربوبية من هناك يدعون الاتحاد، ويولهون في الانبساط.

وأما الذي من بحر الصفات؛ فيجري على قلوب العاشقين والمحبين والمشتاقين، ويذهب منها أوصاف النفوسية، وحثالة الطبيعة، وينبت فيها نرجس الأنس وياسمين القدس، ومن هناك يدعون السكر والهيجان والمواجيد.

وأما الذي من بحر الأوصاف والنعوت؛ فيجري على أودية قلوب الموقنين والمشاهدين والمكاشفين، ويذهب منها غبار الخطرات وزبد الهواجسات، وينبت فيها رياحين الدقائق والحقائق.

وأما الذي من بحر الأسماء؛ فيجري على أودية قلوب المخلصين والمتعبدين، ويذهب منها وسواس الشيطان والميل إلى الحدثين، وينبت فيها زهر الحكمة والفطنة.

وأما الذي من بحر الأفعال؛ فيجري على أودية قلوب المريدين، ويذهب منها زبد الشهوات، وينبت فيها شقائق المعاملات وعبر المراقبات؛ فسبحان الذي خصَّ كل قلب من قلوب هؤلاء بمورد من موارد ألطافه، ومشرب من مشارب أعطافه. [العرائس].

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد:17] من أوصاف البشرية والإنسانية وأنزل من سماء الأسرار كشف ماء أنوار الجلال فسالت أودية الأرواح ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ من أنانية الروحانية، وأنزل من سماء الجبروت ماء تجلى لصفات الألوهية ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ الأسرار ﴿بِقَدَرِهَا﴾ فاحتمل السيل زبد الوجود المجازي، ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ [الرعد:17] من البقاء ﴿فِي النَّارِ﴾ ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: 6-7] لكيلا تبقي ولا تذر، وهي المتزكية ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾، وهي التحلية بالبقاء، ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ وهو التمتع به منه ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد:17] أي: مثل زبد البشرية، وهو زبد المعرفة والتوحيد ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾(1) [الرعد:17] في الأحوال كلها ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [الرعد:17] بالفناء.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ من البقاء لله ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:17] في أرض الوحدة المستعدة لقبول الفيض الإلهي ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ [الرعد:17-18] دعوة الحق إلى الله لربهم أي: لطلب ربهم والوصول إليه ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ [الرعد:18] أي: للذين أجابوا الله فيما دعاهم إليه إنما أجابوه ليسبق العناية الأزلية فيهم بأحسنه كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: 101]، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ [الرعد:18] أي: لم يجيبوه فيما دعاهم إليه للوصول والوصال.

﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ [الرعد:18] أي: لو جعل لهم ما في الأرض البشرية من أنواع اللذات الحيوانية والحظوظ النفسانية وأضعافها ﴿لَافْتَدَوْا

(1) كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قُسم لهم من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي، ومثَّل العمل الخالص الذي تَصفَّى من الرياء والعجب وسائر العلل، بالحديد المصفى من خبثه؛ لتصنع منه السيوف والآلات، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأواني، وغيرها مما ينفع به الناس، ومثَّل الحال الصافي من العلل بالذهب المصفى أو الفضة، إذا صفيت وذهب خبثها؛ ليصنع بهما الحلي والحلل؛ ليتزين بها أهلها. البحر المديد (3/161).

بِهِ﴾ [الرعد:18] يوم القيامة، أي: جعلوه فداء لهم من عذاب القطيعة والفراق عن التلاق ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:18] إذا حاسبوا الوصول مع القطعية، والوصول مع الفراق ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الرعد:18] وهي نار القطيعة والبعد ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد:18] أي: المصير والمعاد.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)﴾ [الرعد: 19 - 24].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد:19] يشير به إلى أنه العالم بحقيقة نزول الوحي من الله هو البصير بنور الله والجاهل بحقيقته هو الأعمى، وهما لا يستويان ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ [الرعد:19] حقيقة هذا المعنى ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:19]، وهم المستخرجة عقولهم عن قشور آنات الحواس والوهم والخيال المؤيدة، فيجل أنوار الجمال والجلال.

ثم شرح أحوالهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾ [الرعد:20] أي: الذين عاهدهم الله على أن يحبهم ويحبونه، فأوفوا بعهده وما أحبوا غيره ﴿وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد:20] الذي جرى بينهم إذ أخرجهم عن ظهر آدم، وعاهدهم على التوحيد والعبودية كقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:60]، فالعهد عهدان: عهد المحبة وهو للخواص، وعهد العبودية وهو للعوام، فأهل عهد المحبة ما نقضوا عهودهم أبدًا، وأهل عهد العبودية من كان عهدهم مؤكدًا بعهد المحبة ما نقضوه أيضًا، ومن لم يكن عهدهم مؤكدًا نقضوه.

ثم وصف الذين لم ينقضوه فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:21] الوصلة مع الله بصدق الطلب، والميل إليه،

ـ والانقطاع عما سواه، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [الرعد:22] على الانقطاع عما سواه ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:22] أي: طلب الوصول إليه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ [الرعد:22] أي: أداموها؛ لأن الصلاة معراج المؤمن، وبها يصل إليه ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [الرعد:22] أي: انفصلوا عما سواه؛ ليصلوا به ﴿سِراً وَعَلانِيَةً﴾ [الرعد:22] أي: انقطعوا عما يشغل بواطنهم بالاشتغال إلى الله وما سواه وعما سواه؛ ليصلوا به لغير الله ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:22] أي: يدفعون بالأعمال والأحوال الحسنة في صدق الطلب بالأعمال، والأحوال السيئة من الواقعات والقربات.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:22]، وهي دار الوصول إلى الكمال ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد:23] من له صلاحية الدخول فيها قريبًا كان أو غريبًا ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم﴾ [الرعد:23] تبركًا وتيمنًا بهم تبعًا لهم ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد:23] دخولهم بالاستقلال على أقدام السير إلى الله بالله، ويقولون: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:24] على صدق الطلب، وبما صبرتم عن غير الله فسلمكم الله مما سواه، وبلغكم بجذبات عنايته إلى مقامات الوصول، ودرجات الوصال ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:24] التي أنزلكم فيها بقربه وجواره.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: 25 - 29].

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد:25] يشير إلى ما عاهدهم عليه يوم الميثاق حين أخرج ذرات ذرياتهم من صلب آدم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ويحبونه ولا يحبوا معه شيئًا إلا له، فنقضوا العهد وعبدوا غيره، وأشركوا به الأشياء وأحبوها للهوى ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد:25] أي: صلة رحم

العبودية في طلب وصال الربوبية ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد:25]؛ أي: يسعون في إفساد أرض الاستعداد الإنسانية لقبول الفيض الربانية، ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: 25] أي: الطرد والبعد والفراق ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد:25] أي: دار القطيعة والهجران وأليم عذابها.

﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ [الرعد:26] الكشوف والشهود ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده المحبين والمحبوبين ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد:26] أي: يضيق لمن فتح عليهم أبواب الدنيا وشهواتها؛ فأغرقهم فيها ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد:26] أي: باستيفاء للذاتها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ﴾ [الرعد:26] أي: باستيفاء لذاتها في الآخرة بالنسبة إلى من عبر عنها، ولم يلتفت إليها فيجد في آخرها ما يجد ﴿إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ أي: متاع أيام قلائل بأدنى شيء خسيس، فإن به ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الرعد:27] كفروا الحق بالباطل ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: على من يدعو الخلق إلى الحق به ﴿آيَةٌ﴾ [الرعد:27] ظاهرة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ من المعجزات والكرامات، كما نزل على بعض ليستدلوا بها على صدق دعوتهم.

﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ [الرعد:27] أي: يضله إليه مطالبًا مشتاقًا بجماله ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:27] أي: يرشد الطالب وهو من أهل الهداية في البداية، وليس ممن يشاء الله ضلالته في الأزل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28] يعني: أهل الهداية هم الذين آمنوا، ولتعلم أن القلوب أربعة:

قلب قاسٍ: وهو قلب الكفار والمنافقين فاطمئنانه بالدنيا وشهواتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد:26] واطمأنوا بها.

وقلب ناسٍ: وهو قلب المسلم كقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه:115] فاطمئنانه بذكر الله؛ كقوله تعالى بالتوبة ونعيم الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122].

وقلب مشتاق: وهو قلب المؤمن المطيع، فاطمئنانه بذكر الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد:28].

وقلب وجداني: وهو قلب الأنبياء وخواص الأولياء فاطمئنانه بالله وصفاته كقوله تعالى لخليله ﷺ في جواب قوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260] بإراءتك بأي كيفية إحياء الموتى إذا تجلى لقلبي بصفة محبتك فأكون يحيي الموتى؛ ولهذا إذا تجلى الله تبارك وتعالى على قلب العبد يطمئن به، فينعكس نور الاطمئنان من مرآة قلبه على نفسه فتصير النفس مطمئنة أيضًا فتستحق بجذبات العناية، وهي خطاب ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] فافهم جدًا.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الرعد:29] يشير إلى الذين غرسوا غرس الإيمان، وهي كلمة لا إله إلا الله في أرض القلب، وربوه بماء الشريعة ومذهب الطريقة، وهي الأعمال الصالحة حتى صار شجرة طيبة كما ضرب الله بها مثلاً فقال: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم:24] فلما كملت الشجرة وأثمرت ثمرة الحقيقة كانت ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ وهو الرجوع والإنابة إلى الله بنفسه لا إلى ما سواه، وهذا ثمرة الحقيقة يدل عليه قوله: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل:19] على هذا يشير بطوبى إلى حقيقة شجرة لا إله إلا الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «طوبى شجرة أصلها في داري وفرعها على أهل الجنة»(1)، فإن حقيقته لشجرة لا إله إلا الله في قلب النبي ﷺ، وفي قلب كل مؤمن منها غصن، فافهم جدًا.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: 30 - 32].

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

(1) ذكره القرطبي في تفسيره (9/ 317)، وروى الطبري في تفسيره (13/ 149)، نحوه.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾[الرعد:30] أي: بالرحمن يشير إلى أن الأمم لما كفروا بالله كفروا بالرحمن؛ لأن الرحمانية قد اقتضت إيجاد المخلوقات، فإن القهارية كانت مقتضية الوحدانية بألا يكون معه أحد، فسبقت الرحمانية القهارية في إيجاد المخلوقات.

ولهذا السر قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:93] فأرسل الله تعالى الرسل، وأنزل معهم الكتب ليقرأوا عليهم ويذكروهم بأيام الله التي كان الله ولم يكن معه شيء ثم أوجدهم وأخرجهم من العدم إلى الوجود، وهو الذي رب كل شيء وخالقه ولا إله إلا هو وإليه المرجع والمآب.

كما قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [الرعد:30] إذ لا خالق ولا رازق إلا هو ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:30] وبهذا كان مأمورًا أن يتلو على أمته، كما كان الرسل مأمورين بتلاوته على الأمم؛ ليؤمنوا بالرحمن ولا يكفروا به.

ثم أشار بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد:31] جبال النفوس ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾ [الرعد:31] أرض البشرية ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد:31] موتى القلوب أي: أن لتلاوة القرآن عليهم وإن كانت هذه التأثيرات والخاصيات ويريد الله فتنتهم، كفروا بالرحمن، ولم يؤمنوا به ﴿بَل للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:31] في الهداية والضلالة ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الرعد:31] بهداية الله عن إيمان من خذله الله، وقد علموا ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:31] كما هداهم ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد:31] من الأحكام الأزلية تقرعهم في أنواع المعاملات التي تصدر منهم موجبة للشقاوة ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ﴾ يشير به إلى أن الأحكام الأزلية تارة تصدر منهم، وتارة من مصاحبهم، فتوافقوا في أسباب الشقاوة، وتوافقوا لما أوعدهم الله من درك الشقاوة، كما قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد:31] لأهل الشقاء وإلى أن يبلغه حدها.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يشير به إلى أن من أمارات أهل الشقاء الاستهزاء بالأنبياء والأولياء ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الرعد:32] أي: أمليت أهل الشقاء ليتدرجوا بدرجات الاستهزاء إلى أعلى مقام الشقاوة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أمسكتهم؛

لئلا ينجوا عن مقام الشقاء وهو غاية البعد ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد:32] أي: عقابي لهم بعقاب الفرقة والقطيعة.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: 33 – 37].

وبقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:33] يشير إلى أن ليس لنفس اختيار ولا قدرة على الكسب، بل هو القائم والمتولي بأمورها فيما ليس لها فيه كإيجادها من العدم وإعدامها من الوجود وفيما لها قيمة كسب كالحركات والسكون وغير ذلك فالمعنى أنه هو قائم بنفسه وقائم على إيجاد كل نفس وإعدامها وحركاتها وسكونها، كمن هو غير قائم بنفسه وغير قائم على أمور نفسه ولسوء نفس غيره ﴿وَجَعَلُوا﴾ أمثال هؤلاء العجزة ﴿لله شُرَكَاءَ﴾.

ثم قال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:33] بما ترون منهم من صفات الله يشير إلى أن الأسماء مأخذها من الصفات، فإن لم تروا منهم شيئًا من صفات الله فكيف يسمونهم بها ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ إله غيره بل ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف:84] ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ القَوْلِ﴾ [الرعد:33] يقولون ما لا يعلمون ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ [الرعد:33] وهو اتخاذهم لله شركاء خذلانًا من الله ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد:33] من سبيل الوصول، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ﴾ بالخذلان عن سبيله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إلى سبيله بالوصول.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد:34] وهو عذاب البعد والحجاب والغفلة

والجهل وعذاب عبودية النفس والهوى والدنيا والشياطين والإنس ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد:34] وهو عذاب نار القطيعة وألم البعد وحسرة التفريط في طاعة الله وندامة الإفراط في الذنوب والمعاصي على الخسارات والهبوط من الدرجات ونزول الدركات ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ﴾ من خذلان الله في الدنيا وعذاب الله في الآخرة ﴿مِن وَاقٍ﴾ من الخذلان والعذاب.

﴿مَّثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾ [الرعد:35] يشير إلى حقيقة أمر الجنة التي وعدها الله للمتقين، ووصفها بأنها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾، وهي أنهار الفضل والكرم، ومياه العناية والتوفيق ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ [الرعد:35] وهي مشاهدات الجمال، ومكاشفات الجلال، ﴿وَظِلُّهَا﴾ أنهم في ظل هذه المقامات والأحوال التي هي منه من وجوده لا في شمس وجودهم على الدوام بحيث لا يزول أبدًا، ثم أشار بقوله: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرعد:35] إلى أن تلك الأحوال والمقامات عاقبة من اتقى بالله عما سواه ﴿وَعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي: عاقبة من أعرض عن هذه المقامات والأحوال نار القطيعة والحسرة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ [الرعد:36] يشير به إلى الروح والقلب والسر فإنهم أهل نزول أسرار الكتاب وحقائقه عليهم ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:36] لإيتائهم أسرارها ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ﴾ وهم النفس والهوى والقوى ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ لثقل تكاليفه وجهل فوائده ﴿قُلْ﴾ يا طالب الحق ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ أي: أسلك طريق العبودية إلى عالم الربوبية ﴿وَلاَ أُشْرِكَ إِلَيْهِ﴾ في طلبه ﴿بِهِ﴾ شيئًا من الدنيا والآخرة ﴿أَدْعُو﴾ أي: أدعو العباد إلى الله لا إلى ما سواه ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: ولا بد أن يكون الإياب إليه طوعًا أو كرهًا.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الرعد:37] أي: كما أنزلنا إلى العرب هذا الحكم باقي الطلب لا يشركوا بالله شيئًا، ﴿أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ [الرعد:37] أي: أهواء العرب وهي الشرك في الطلب ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ [الرعد:37] وهو طلب الوحدانية ببذل الأنانية ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ﴾ [الرعد:37] يخرجك من ظلمات الأنانية

إلى نور الوحدانية ﴿وَلاَ وَاقٍ﴾ [الرعد:37] يقيك من عذاب البعد وحجاب الشركة في الوجود بالتجرد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: 38 - 43].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:38] يشير إلى أن الرسل لما جذبتهم العناية في البداية رقتهم من دركات البشرية الحيوانية إلى درجات الولاية الروحانية ثم رقتهم منها إلى معارج النبوة والرسالة الربانية في النهاية فلم يبق فيهم من دواعي البشرية وأحكام النفسانية ما يزعجهم إلى طلب الأزواج بالطبيعة والركون إلى الأولاد بخصائص الحيوانية؛ بل جعل لهم رغبة في الأزواج والأولاد على وفق الشريعة بخصوصية إطلاقه في إظهار صفة الخالقية.

كما قال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:59] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [الرعد: 38] إشارة إلى أن حركات عامة الخلق وسكناتهم بمشيئة الله وإرادته وإن حركات الرسل وسكناتهم بإذن الله ورضاه.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:38] أي: لأجل أهل المشيئة والإرادة في حركاتهم وقت معين لوقوع الفعل فيه وكذلك لأهل الإذن والرضا ثم ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ لأهل السعادة من أفاعيل أهل الشقاوة ﴿وَيُثْبِتُ﴾ لهم من أفاعيل أهل السعادة ويمحو ما يشاء لأهل الشقاوة من أفاعيل أهل السعادة ويثبت لهم أفاعيل أهل الشقاوة ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:39] الذي مقدر فيه حاصل أمر كل واحد من الفريقين، وحاصلهم لا يزيد ولا ينقص ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ [الرعد:40] أي:

نريك بالكشف والمشاهدة بعض الذي وعدناهم من العذاب والثواب قبل وفاتك كما كان النبي ﷺ يخبر عن العشرة المبشرين وغيرهم دخولهم الجنة، وقد أخبر السائل عن أبيه حين قال إن أباك في النار وقال النبي ﷺ: «رأيت الجنة وفيها فلان، ورأيت النار وفيها فلان»[1].

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [الرعد: 40] قبل أن نريك من أحوالهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ [الرعد:40] فيما أمرناك بتبليغه ولا عليك القبول فيما يقول: ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ في الرد والقبول ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ﴾ [الرعد:41] أرض البشرية ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: من أوصافها بالازدياد في أوصاف الروحانية وأرض الروحانية حيث ننقصها من أخلاقها بالتبديل بالأخلاق الربانية وأرض العبودية ننقصها من آثار الخلقية وإظهار أنوار الربوبية ﴿واللهُ يَحْكُمُ﴾ [الرعد:41] من الأزل إلى الأبد.

﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:41] أي: لا مقدم ولا مؤخر ولا مبدل لحكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:41] فيما قدر ودبر وحكم فلا يسوغ لأحد تغيير حكم من أحكامه، ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الرعد:42] إشارة إلى أن أهل كل زمان وهم يمكرون ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:42] ليمكروا بمكره ويمكروا مكرًا مع أهل الحق ليبتليهم الله بمكرهم ويصبروا على مكرهم ثقة بالله أنه خير الماكرين فيثيبهم على صبرهم ثواب الصابرين ويعذب الماكرين الممكورين ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الرعد:42] من الماكرين ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾ الذين يسترون الحق بالباطل مكرًا وحيلة ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عند كشف الغطاء يوم اللقاء.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد:43] فيه إشارة إلى أن من يقول عن الرسول ﷺ إنه ليس مرسلاً من الله كما قالت الفلاسفة: إنه حكيم وليس برسول فقد كفر ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد:43] بتحقيق رسالتي مرسلاً من الله، كما قالت الفلاسفة: إنه حكيم وليس برسول فإنه أرسلني وأنزل علي الكتاب الذي جئت به إليكم ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهو الذي علمه القرآن وعلمه البيان وأراه آيات القرآن

---

(1) ذكره حقي (6/ 287).

ومعجزاته فبذلك علم حقيقة رسالته وشهد بها، والله أعلم.

قال أهل المعاني: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ [الرعد:11] أي: أن أوامر الله ﷻ على وجهين: أحدهما: قضى حلوله ووقوعه لصاحبه ذلك مما لا يوصفه أحد ولا يغيره بشر، والآخر: قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ والدليل، على هذا قصة قوم يونس في دفع النداء عنهم بدعائهم وتضرعهم وتوبتهم، وروي أنه: دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي عَنْ الْعَبْدِ، كَمْ مَعَهُ مِنْ مَلَك ؟ فَقَالَ: عَلَى يَمِينِك مَلَكٌ عَلَى حَسَنَاتِك، وَهُوَ أَمِينٌ عَلَى الْمَلَكِ الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ، فَإِذَا عَمِلْت حَسَنَةً كُتِبَتْ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلْت سَيِّئَةً قَالَ الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ لِلَّذِي عَلَى الْيَمِينِ: أَأَكْتُبُ؟ فَيَقُولُ لَهُ: لَا، لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ اللهَ وَيَتُوبُ، فَإِذَا قَالَ ثَلَاثًا، قَالَ: نَعَمْ، اُكْتُبْ أَرَاحَنَا اللهُ مِنْهُ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ، مَا أَقَلَّ مُرَاقَبَتَهُ للهِ، وَأَقَلَّ اسْتِحْيَاءَهُ مِنَّا، يَقُولُ اللهُ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، وَمَلَكَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْك وَمِنْ خَلْفِك يَقُولُ اللهُ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:11] وَمَلَكٌ قَابِضٌ عَلَى نَاصِيَتِك، فَإِذَا تَوَاضَعْت للهِ رَفَعَك، وَإِذَا تَجَبَّرْت عَلَى اللهِ قَصَمَك، وَمَلَكَانِ عَلَى شَفَتَيْك، لَيْسَ يَحْفَظَانِ عَلَيْك إِلَّا الصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَمَلَكٌ قَائِمٌ عَلَى فِيك، لَا يَدَعُ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَّةُ فِي فِيك، وَمَلَكَانِ عَلَى عَيْنَيْك، فَهَؤُلَاءِ عَشَرَةُ أَمْلَاكٍ عَلَى كُلِّ ابْنِ آدَمَ يَتَبَدَّلُونَ، مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ عَلَى مَلَائِكَةِ النَّهَارِ، لِأَنَّ مَلَائِكَةَ اللَّيْلِ سِوَى مَلَائِكَةِ النَّهَارِ، فَهَؤُلَاءِ عِشْرُونَ مَلَكًا، عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ، عشرة بالنهار وعشرة بالليل وَإِبْلِيسُ بِالنَّهَارِ، وَوَلَدُهُ بِاللَّيْلِ»[1] قال قتادة وابن جريج: هذه ملائكة الله ﷻ يتعاقبون فيكم بالليل والنهار وذكر لنا أنهم يجتمعون عند صلاة العصر وصلاة الصبح، قال: إن السر في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2] [الرعد:12]

(1) ذكره الزيلعي في نصب الراية (2/ 425).

(2) بيّن سبحانه هزمنا مقامات المريدين والمتوسطين حيث ذكر البرق والخوف والطمع، وأين العارفون من مقام الخوف والرجاء وهم في قنوط النكرة وأمن المعرفة، وأين هم من مقام البرق وهم محترقون في بروق شموس مشاهدة القدم والأزل، هذا حال سلاك الطريقة إذا سافروا في بيداء المحبة والشوق وهم عطاش في سراب الحيرة؛ فيتلطف بهم تعالى وينشئ شمال الشفقة وسحاب الألفة ويريهم برق تجلي المشاهدة ويمطر عليهم وابل أوصال من مزن الجمال؛ فيخافون من فواته تارة، ويطمعون بقاءه

يريكم أنوار محبته فمن خائف من يساره وطامع في يمينه.

وقال أبو بكر الثقفي: وورود الأحوال على الأسرار عندي كالبرق ولا يمكث، بل يلوح فإذا لاح ربما أزعج في خائف خوفه وربما حرك من محب محبته، قال أبو بكر بن طاهر: خوفًا من أعراض الكدورة في صفاء المعرفة، وطمعًا في الملاك به في إخلاص المعاملة.

وقال أبو يعقوب الأبهري: خوفًا من القطع والفراق وطمعًا في القرب والاشتياق، وقال ابن الريحاني في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد:13] الرعد صعقات الملائكة والبرق زفرات أفئدتهم والمطر بكاؤهم، وفي قوله تعالى: ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد:14].

قال ابن عطاء: أصدق الدعاوى دعاوى الحق فمن أجاب داعي الحق بلغه إلى الحق، ومن أجاب داعي النفس رمي إلى الهلاك.

وقال الجنيد: داعي الحق فمن داعي الرسل لا يقع فيه للشيطان يد، ولا يكون فيه للنفس نصيب في دعاوى الحق إذا بدت أنوار الحق فلا يبقى على المدعو ريب ولا شك بحال.

وقال بعضهم: داعي الحق من يدعو بالحق إلى الحق وفي قوله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد:14].

قال جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ: من دعا بنفسه إلى نفسه دعاء فهو الكفر والضلال، وذلك محل الخيانة ولسقوط من درجات الأمانة فإن الدعاوى تختلف بين داعٍ بالحق وداعٍ بالحق إلى الحق ودعٍ إلى طريق الحق كل هؤلاء دعاة يدعون الخلق إلى هذه الطريق لا بأنفسهم فهذه طريق الحق وداعي يدعو بنفسه قال: أي شيء دعاؤه فهو ضلال.

تارة، وأيضًا هو الذي يري المحبين برق المكاشفة، ويكشف لهم نور المشاهدة وينشئ للعارفين سحاب العظمة الثقال بأنوار الهيبة، ويمطر عليهم طوفان بحر الأزل والآباد؛ فيفنيهم لطوارق العظمة، ويحييهم بماء حياة ألوهية فسقر الإرادة تحت سحاب المنة، وكشف برق المشاهدة وخوف الفرقة وطمع الوصلة [عرائس البيان].

وفي قوله تعالى: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:15] قال الجنيد: العارض طوعًا والمعروض كرهًا، وقال: إذا جاءته المصائب ذل وإذا جاءه الرجاء مثل ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الرعد:16] قال أبو عثمان: لا يستوي من كحل بنور التوفيق مع من هو في ظلمة التدبير.

وقال أبو حفص: الأعمى حقًا من يرى الله بالأشياء ولا يرى الأشياء بالله، والبصير من يكون نظره من الحق إلى المكونات(1).

وفي قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:17] قال الواسطي: خلق الله درة بيضاء صافية فلاحظها بعين الحال فذابت حياء منه ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:17] فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليه وجمال الأسرار من نزول ذلك الشرب.

وقال ابن عطاء: هذا مثل ضربه الله للعبد إذا سال السيل في الأودية لا تبقى في الأودية نجاسة إلا كنسها أو أذهبها كذلك النور الذي قسم الله للعبد في نفسه لا يبقى فيه غفلة ولا ظلمة في أودية القلوب ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [الرعد: 17] بذلك النور يصير القلب نورًا فلا يبقى فيه جفوة ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17] يذهب الأباطيل ويبقي الحقائق.

---

(1) قال الشيخ البقلي في تفسير هذه الآية: أي: لا يستوي المطموس عين قلبه عن شهود مشاهدة القدم ورؤية أنوار الأزل بمَنْ يبصر بصر روحه بنور الحق جمال الحق على نعت السرمدية بلا غواشي الطبيعة ومعارضة الخليقة، ولا يستوي ارتفاع ظلمة دخان النفوس في معارك العبودية بسطوع أنور الأرواح إلى صفائح القدس، ينعت بنفسها في مجالس الأنس، وأيضًا ولا يستوي من يبصر رسوم العالم برسوم العلم، ولا يستوي نور وجوه العارفين بما يبدو من غيره القهر عن وجوه المدعين.
قال أبو عثمان: لا يستوي من كُحِلَ بنور التوفيق وهدي لطريق الخدمة، ومن عمي عنها وحرم دونها، أم هل تستوي من هو في أنوار التوفيق مع من هو في ظلمات التدبير.
وقال أبو حفص: الأعمى حقًا من يرى الله بالأشياء ولا يرى الأشياء بالله، والبصير من يكون نظرة من ربه إلى المكونات.
قال الأستاذ: من جملة الظلمات الركون في أوطانها التدبير، ومن جملة النور الخروج إلى ضياء شهود التدبير.

وقال بعضهم: أنزل من السماء ماءً لكم في القلوب فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه، فكل قلب كان مؤيدًا بنور التوفيق أضاء فيه سراج التوحيد، وكل قلب أيد بنور التوحيد أضاء فيه سراج التوحيد، وكل قلب أيد بنور المحبة أضاء فيه لهب الشوق، وكل قلب عمر بلهب الشوق أضاء فيه أنس القرب فالقلوب تنقلب من حالة إلى حالة حتى تستغرق في أنوار المشاهدة أخذ كل قلب بحظه ونصيبه إلى أن تبدو الأنوار على الشواهد من فضل نور السر، قال القسم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ [الرعد:25] نقض العهد هو الخروج من العبودية والدخول في الربوبية، وقال بعضهم: نقض العهد هو لزوم التدبير والاختيار وترك التسليم والتفويض بعد أن أخبرك الحق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:128].

وقال أبو القاسم الحكيم: نقض العهد هو السكون إلى غير مسكون إليه والفرح بغير مفروح إليه، وبه قال الواسطي ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد:26] الدنيا قذرة ولك منها عبرة فمن أسرته عندها فهو أقل منها، ومن ملك جناح بعوضة أو أقل منها فذلك قدره وقال أيضًا: لا تدعوا الدنيا تغرقكم في بحارها وأغرقوها في بحر التوحيد لا تجدوا منها شيئًا.

وقال بعضهم: أخبر الله تعالى عن الدنيا أنها في الآخرة مبلغ والآخرة أقل خطرًا في جنب الحقيقة من خطر الدنيا في الآخرة، وقال بعضهم في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ [الرعد:27] ﴿يُضِلُّ﴾ من قام إليه بنفسه واعتمد على طاعته عن سبيل رشده، ويهدي إلى سبيل رشده من رجع إليه في جميع أموره وتبرأ من حوله وقوته.

وقيل في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد:28] إن القلوب على أربعة أوجه:

قلوب العامة: اطمأنت بذكر الله وتسبيحه وحمده والثناء عليه لرؤية النعمة الجارية والعافية الدائمة.

وقلوب الخاصة: اطمأنت بذكر الله وذلك في أخلاقهم وتوكلهم وشكرهم وصبرهم فسكنوا إليه.

وقلوب العلماء: اطمأنت بالصفات والأسماء والنعوت فهم يلاحظون ما يظهر بها ومنها على الدهور.

وأما الموحدون: كالفرق لا تطمئن قلوبهم بحال كيف تطمئن قلوبهم بذكر من عرفوه أو كيف تطمئن بذكر الله فمن لم يؤمنهم بل خوفهم وحذرهم.

وقال إبراهيم الخواص: يعرف الناس في حالين فمن دام سعيه وحركته كان موصوفًا بنفسه لغلبات شواهد نفسه عليه لقوله: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11] ومن دام سكونه كان موصوفًا بالحق لغلبات شواهد الحق في سكينته لقوله: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

وقال الحسن: من ذكره الحق بخير اطمأن إليه في أبده.

وقال النهرجوري: قلوب الأولياء مواضع المطالع فهي لا تتحرك ولا تنزعج، بل تطمئن خوفًا من أن ترد عليه مخافة مطالعه فتجده مترنمًا بسوء الأدب، قال الواسطي: هذه على أربعة أضرب:

فالأولى: للعامة؛ لأنها إذا ذكرته ودعته اطمأنت إلى ذكرها فحظها منه الإجابة للدعوة.

والثانية: الخاصة التي أطاعته وصدقت ورضيت عنه فهم مرابطون في أماكن الزيادات اطمأنت قلوبهم إلى ذلك للخاصة الذين أقبلوا فكانوا أئمًا وهي الملاحظة بشواهدهم وفاسدي الطبائع برؤية طاعاتهم.

والثالثة: خصوص الخصوص الذين عرفوا الأسماء والصفات فعرفوا ما خاطبهم الله تعالى به فاطمأنت قلوبهم بذكره ولها شكرها له وبرضاه عنها لا برضاها عنه.

والرابعة: الأولياء وهم الذين كشف لهم عن ذاته وعلمهم علم صفاته، فأصبح لهم الصفات فأراهم أنها تعرف إلى الخلق على أقدارهم وعلمهم أخطارهم فعلموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إليه ولا تسكن إليه، فمن كانت الأشياء في سره كذلك فبماذا يسكن ويطمئن؟! فلا يجد لقلبه طمأنينته بقدر المطمئن إليه كلما عادت الزيادة عليها أتاها حجابًا لا ينقطع بالبرق النقي؛ لأنها حجاب مستور وهباء منثور، فإذا عزمت الدخول في

هذا المقام فاحتسب حظك وأعظم الله عليك أجرك.

قال الجريري: في قوله: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ [الرعد:29] طوبى لهم طوبى لمن طاب قلبه مع الله لحظة من عمره ورجع بقلبه إلى ربه وقتًا من أوقاته، وقال الشيبان: طوبى لمن غاب في حضرته وحضر في غيبته، وأصبح وأمسى مراعيًا لسريرته، وقال الجنيد: طابت أوقات العارفين بمعروفهم، قال الجنيد في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾(1) [الرعد:33] بالله قامت الأشياء وبه فنيت وبتجليه حسنت المحاسن وباستدباره فجت وسمجت.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ [الرعد:33] زين طرق الهلاك في عين من قدر له الهلاك فيراه رشدًا فيوصله إلى المقضي عليه الهلاك.

قال أبو يزيد: اجتنب مكر النفس وانتبه له فإنه أخفى من كل خافية، وهو الذي أهلك من هلك، سُئِلَ أبو حفص في قوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ﴾ [الرعد: 36] بالعبودية، قال: ترك ما لك ملازمة ما عليك مما أمرت به، وقال أبو عثمان: العبودية اتباع الأمر على مشاهدة الآمر.

وسُئِلَ سهل بن عبد الله: متى يصح للعبد مقام العبودية؟ قال: إذا ترك تدبيره ورضي بتدبير الله تعالى فيه(2)، وقال الشيخ ﷺ: العبودية محو حظوظ العبد في إثبات حقوق الرب، وبذل الوجود في نيل المقصود من العبودية.

وقال الحسين بن الفضل في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:37] تصح حكم العافية؛ لأنه لا حكم ينفرد به العرب إلا حكم العافية، وقال بعضهم: أحكام

---

(1) هو تعالى قائم على كل نفس قدر قوتها حمل أثقال ربوبيته، وأنوار عظمته وتربية جوده وحفظه وعنايته؛ فمن نفس قام عليه بفعله، ومن نفس قام عليه بصفته من حيث كشف الصفة لها وكشف نور الفعل لها، ومن نفس قام عليها بالذات من حيث كشف سبحات الذات لها؛ فإن كسبت النفس عبوديته؛ فهي في مشاهدة أنوار فعله، وإن كسبت النفس محبته؛ فهي في رؤية أنوار صفاته، وإن كسبت معرفته وتوحيده في رؤية سحاب أنوار ذاته؛ فإن قصرت للنفس الأول في عبوديته بالتفاتها إلى حظها أخذها الحق بعقوبة المجاهدة، وإن قصرت النفس الثاني في محبته بأنها استلذت محبته، ووقفت باللذة عنه أخذها الحق بأن وقعها في بحر النكرة، لكن الأخذ هاهنا الزيادة معرفتها لأنه سبحانه مشفق على النفس العارفة، وهو تعالى أخذ هذه النفوس قائم بنعت حفظ أنفاسها في طلبها الحق. [عرائس البيان].

(2) انظر «تفسير» التستري (1 / 251).

العرب السخاء والشجاعة وهما من عُرقي الإيمان.

قال جعفر الصادق في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:38] أي: للرؤية وقت، وقال ابن عطاء: لكل علم بيان، ولكل إنسان عبادة، ولكل عبادة طريقة، ولكل طريقة من لم يتميز بين هذا الأحوال فليس له أن يتكلم.

وعن الواسطي في قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾(1) [الرعد:39] قال: منهم من جذبه الحق ومحاه عن نفسه بنفسه، ومنهم من فني عن الحق بالحق فقيام الحق بالحق عن الربوبية فضلاً عن العبودية، وقيل: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من شواهده حتى لا يكون على سره غير ربه ويثبت من يشاء في ظلمة مشاهده حتى يكون غائبًا عن ربه أبدًا.

وقال ابن عطاء: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ عن رسوم الشواهد والأعراض وكلما يورد على سره من عظمته وهيبته وألوان أنواره فقد آتاه وأحضره، ومن محاه فقد غيبه، والحاضر مرجوع له بعدوه والغائب لا مرجوع له بعدوه ولا سبيل بعدوه إليه.

وقال الواسطي: يمحوهم عن شاهدهم وغيبهم في شواهد الحق، ويمحوهم من شهود العبودية وأوصافها ما يشاء في شواهدهم، ويمحو رسم نفوسهم ويثبتهم برسمه.

وقال ذو النون: العافية في قميص العبودية إلى أبد الأبدية، ومنهم من هو أرفع

(1) يمحو بإرادته القديمة من نفوس المريدين صفات البشرية ويثبت في قلوبهم صفات الروحانية، ويمحو من قلوب المحبين معارضة الامتحان، ويثبت في أرواحهم حقيقة نور الإيقان، ويمحو عن أسرار العارفين أوصاف العبودية، ويثبت فيها أوصاف الربوبية، وأيضًا يمحو عن ألواح العقول صورة الأفكار، ويثبت فيها نور الأذكار، ويمحو عن أوراق القلوب علوم الحدثان، ويثبت فيها لدنيات علم العرفان، وأيضًا ويمحو عن أرواح الصديقين أعلام المرسومات المكتسبات، ويثبت فيها نوادر الإلهيات في حقائق المراقبات، وأيضًا يمحو عن عيون العقول شواهد الآيات، ويريها أنوار الصفات، وأيضًا يخفي في القلوب آثار الصفات، ويبدي لعيونها أنوار الذات، وأيضًا يمحو بفضله خاطر الوسواسية والهواجسية عن قلوبهم الخاصة، ويثبت فيها خواطر حقائق المعرفة، وإذا كان أسرار أهل التوحيد في بحر التجريد بنعت التفريد سائحة فيغرقها الحق في بحار نكرات القدم تارة، تبحيرها وفنائها ويغرقها في بحار معرفة الأزلية ببقائها مع الحق ومشاهداته، فالفناء حق القدم يغلب على البقاء، والبقاء حق الأبد فيغلب على الفناء، وذلك من بدء نور الذات في الصفات، وبدء نور الصفات في الذات، لتلك الأسرار والصفات والذات أصل تلك الغرائب والعجائب. [عرائس البيان].

منهم درجة عليه شاهله الربوبية، ومنهم من هو أرفع درجة منهم درجة جذبهم الحق محاهم عن نفوسهم وأثبتهم عنده كذلك، قال: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾.

وقال سهل: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأشياء ﴿وَيُثْبِتُ﴾ الأشياء في عنده ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ القضاء المبرم الذي لا زيادة فيه ولا انقضاء.

وقال ابن عطاء: ﴿يَمْحُو﴾ أوصافهم ﴿وَيُثْبِتُ﴾ أسرارهم؛ لأنه موضع الشهادة.

وقال الشبلي: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الأسباب ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء من الأقدار، وقال بعضهم: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ يكشف من قلوب أهل محبة أحزان الشوق إليه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ تبجيل أهل السرور والفرح به.

وقال بعضهم: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ من قلوب أعدائه آثار حكمه وأنوار بره ﴿وَيُثْبِتُ﴾ في قلوب أوليائه ما أجرى عليها من معرفة نعوته منهم المقدمون في الأوقات والقائلون بحقوق الله من غير كلفة ولا شدة.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد الصادق قال: يمحو الكفر ويثبت الإيمان، ويمحو النكرة ويثبت المعرفة، ويمحو الغفلة ويثبت الذكر، ويمحو الهدى ويثبت العلم، ويمحو البغض ويثبت المحبة، ويمحو الضعف ويثبت القوة، ويمحو الشك ويثبت اليقين، ويمحو الهوى ويثبت الحق على هذه النسق، ودليله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29] ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:39].

قال جعفر الكتاب: قدر فيه السعادة والشقاوة فلا يزاد فيه ولا ينقص، كما قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:29] قال الشيخ ﷺ: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأخلاق الذميمة النفسانية ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء من الأخلاق الحميدة الروحانية للعوام، ويمحو من الأخلاق الروحانية ويثبت من الأخلاق الربانية للخواص، ويمحو آثار الوجود ويثبت أنوار الجود لأخص الخواص ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(1) [القصص:88].

(1) أي كل شيء من الأشياء الموجودة في العين هالك من حيث تعيُّنه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية الذي هو الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وكل من العرش والشرع مقلوب الآخر، فكما أن

﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ وهو العلم الأزلي الأولي السرمدي القائم بذاته تعالى ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:12] بلا زيادة ولا نقصان ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8].

وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد:41] قال محمد بن علي الباقر: يخرب الأرضون بذهاب أهل الولاية من بينهم، فلا يكون لهم مرجع في وقت محنتهم ونوائبهم فتواتر عليهم المحن فلا يكون فيهم من يكشف الله عنهم بدعائه فتخرب.

قال أبو عثمان: هم الذين ينصحون عباد الله ويحملون على طاعة الله فإذا ماتوا مات بموتهم من يصحبهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ المَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:42] قال ابن عطاء الله: المكر الحقيقي ما مكر بهم الحق حتى توهموا أنهم يمكرون ولم يعلموا أنه مكر بهم حيث سهل لهم سبيل المكر.

وقال الحسن: لا مكر أعظم من مكر الحق بعباده حيث أوهمهم أن لهم إليه سبيل أو للحدث اقتران مع القدم في وقت، والحق ثابت وصفاته ثابتة إن يكون ذكروا فلأنفسهم وإن شكروا فلأنفسهم، وإن أطاعوا فلنجاة أنفسهم ليس للحق منهم شيء بحال؛ لأنه الغني القهار.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[2] قال سهل: الكتاب عزيز وعلم الكتاب

الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوي على الشرع الشريف، ومحلّه في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلاً من الأمر والنهي إنما ظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح.

(2) قال روزبهان: يعني: علم إشارات الله من أزله في كتابه، يعني لطائف الحروف المتشابهة المشيرة إلى دقائق أسراره وملكوته وحقائق جبروته، أي من علم الكتاب ولهم سر الخطاب بلا واسطة من حيث الكشف والإلهام والمشاهدة والكلام، متحققًا في هذه مشاهدته وشاهدته وشاهد آيات رسله نائب أنبيائه وسفير الحق إلى خلقه، له لسان العجائب من علوم الإلهية وغرائب حقائق الربوبية، وله لسان الخصوص من المعرفة والتوحيد، وله لسان خصوصية الخصوصية من بيان النعوت والأسماء والأوصاف والصفات

أعز، وعلم الكتاب عزيز والعمل به أعز، والإخلاص في العمل أعز والإخلاص عزيز، والمشاهدة أعز والمشاهدة عزيزة في الموفقة أعز والموافقة عزيزة، والأنس في الموافقة أعز والأنس عزيز، وآداب محل الأنس أعز وصلى الله على محمد وآله الطيبين أجمعين.

وأنباء الغيب، وغيب الغيب والفِراسات الصادقة، والآيات الواضحة. قال ﷺ في وصفهم: «إنَّ في أمتي محدَّثين مكلَّمين، وإنَّ عمر منهم». وله لسان العموم في علم المقامات من الصدق والإخلاص، والفرق بين الإلهام والوسواس والرياضات والمجاهدات وبيان عيوب النفس ومداواتها، وهو لسان الحق في العالم إذا نطق نطق الحق؛ لأن الحق نطق به.

سورة إبراهيم عليه السلام

وهي مكية وآياتها خمسون واثنتان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: 1 – 5].

﴿الر﴾ [إبراهيم:1] يشير بالألف إلى القسم بآلائه ونعمائه، وباللام إلى لطفه وكرمه، وبالراء إلى القرآن؛ يعني: أقسم آلائي ونعمائي أن صفة لطفي وكرمي اقتضت إنزال القرآن وهو ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾(1) بدلالة القرآن وتعليمه ونوره وخلقه وهداه ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ وهي ظلمات الخلقية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ وهو نور تجلي صفة الربوبية، وذلك أن الله تعالى خلق عالم الأجساد وجعل زبدته جسم الإنسان حجابًا بالنور

---

(1) قال الأستاذ: أقسم بهذه الحروف: أنّه لَكِتَابٌ أُنْزِل إليك لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومنْ ظُلماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْعِ بإذن ربهم وبإرادته ومشيئته، وسابِقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد ، تفسير القشيري (4/ 24).

صفات روح الإنسان وهي ظلمات الخلقية الإنسانية، وجعل العالمين بظلماتها وأنوارها حجابًا لنور صفة الألوهية، كما قال ﷺ: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور الظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»(1) وما جعل الله لنوع من أنواع الموجودات استعداد الخروج من هذه الحجب إلا للإنسان، ولا يخرج منها أحد إلا بتخريجه إياه منها، واختص المؤمن بهذه الكرامة، كما قال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257] فجعل القرآن والنبي ﷺ من أسباب يخرج المؤمن بهما من حجب الظلمات إلى النور ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بحوله وقوته لا سبيل له إلى ذلك الآية، وإنما قال ربهم لأنه تعالى هو مربيهم، وما قال بإذن ربك ليعلم أن هذه التربية من الله لا من النبي.

ويشير بقوله: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إلى أن العبور على الظلمات الجسمانية والأنوار الروحانية هو الطريق الله، وهو العزيز الذي لا يصل العبد إليه إلا بالخروج عن هذه الحجب، وهو الحميد الذي يستحق من كمالية جماله وجلاله أن يحتجب بحجب العزة والكرامة والعظمة.

وبقوله: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:2] يشير إلى أن سير السائرين إلى الله لا ينتهي بالسير في الصفات وهي العزيز الحميد، وإنما ينتهي السير في الذات وهو الله فالمكونات أفعاله، فمن بقي في أفعاله فلا يصل إلى صفاته، فمن بقي في صفاته لا يصل إلى ذاته، ومن وصل إلى ذاته وصولًا بلا اتصال ولا انفصال بل وصولاً بالخروج عن أنانيته إلى هويته تعالى يبقى به في صفاته وأفعاله، ثم قال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ

---

(1) أخرجه مسلم (1/ 161 ، رقم 179) ، وابن ماجه (1/ 70 ، رقم 195)، وأحمد (4/ 405 ، رقم 19649) ، وأبو عوانة (1/ 127 ، رقم 379) ، وابن حبان (1/ 499 ، رقم 266) ، والطبراني في الأوسط (6/ 139 ، رقم 6025).

﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو شدة ألم الانقطاع عن الله والبعد عنه.

ثم وصفهم ليعلم أن الكافر الحقيقي من هو ولا يرضي العبد باسم الانقطاع ولا يقنع بالإيمان التقليدي فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:3] بالجد والاجتهاد في طلب الدنيا وشهواتها وترك الآخرة بإهمال السعي في طلبها، واحتمال الكلفة والمشقة في مخالفة هوى النفس وموافقة الشرع في تربية القلب والسير إلى الله ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ ويصرفون وجوه الطالبين عن طلب الله، ويقطعون عليهم طريق الحق في صورة النصيحة، ويلزمون الطلاب على ترك الدنيا والعزلة والغربة والانقطاع عن الخلق للتوبة إلى الحق ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويطلبون الآخرة بالاعوجاج عن طريقها ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق وبعدوا عنه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم:4] أي: ليتكلم معهم بلسان عقولهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الطريق إلى الله طريق الخروج عن كلمات أنانيتهم إلى نور هويته ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ﴾ بأنانيته ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالخروج إلى هويته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: هو أعز من أن يهدي كل أحد إلى هويته ﴿الْحَكِيمُ﴾ بأن يهدي من هو المستحق للهداية إليه. فمن هنا تحقق أنه تعالى هو الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور وغيره.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ [إبراهيم:5] أي: أرسلنا جبريل الجذبة إلى موسى القلب بعصا الذكر واليد البيضاء من الصدق والإخلاص في استعمالها ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ وهم الروح والسر والخفي ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الوجود المجازي إلى نور الوجود الحقيقي بالمداومة على الذكر ونفي الوجود المجازي وإتيان الوجود الحقيقي ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾ التي كان الله ولم يكن معه شيء لا من أيام الدنيا ولا من أيام الآخرة، وكانوا في مكنون علم الله وهو يحبهم بلا هم ويحبونه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾

التذكير والذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ في الخروج عن الوجود المجازي ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يصير بالله مع الله عن غير الله شكور لنعمة الوجود الحقيقي ببذل الوجود المجازي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: 6 - 9].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ [إبراهيم:6] القلب ﴿لِقَوْمِهِ﴾ الروح والسر الخفي يا قوم ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ النفس وهم صفاتها والدنيا والشيطان ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾ بالقهر والغلبة عليكم ويأخذونكم سخرة في تحصيل مرامهم ونيل مقاصدهم ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: ينفقون ما سنح منكم من الخواطر الروحاني الملكي ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يثبتون الخواطر المتولدة من الطبيعة الإنسانية الملائمة لهوى النفوس ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ لو خلاكم في تلك الحال إلى أنفسكم فأنجاكم منها.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ [إبراهيم:7] وفقكم للخروج ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ التوفيق ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ في التقرب إليَّ، ولئن شكرتم التقرب لأزيدنكم في تقربي إليكم، ولئن شكرتم لقربي إليكم لأزيدنكم في المحبة لأزيدنكم في الوصول، ولئن شكرتم الوصول لأزيدنكم في التجلي، ولئن شكرتم للتجلي لأزيدنكم في الفناء عنكم، ولئن شكرتم الفناء

لأزيدنكم في البقاء، ولئن شكرتم في البقاء لأزيدنكم في الوحدة، ولئن شكرتم لأزيدنكم في الصبر على الشكر على الصبر والصبر على الصبر والشكر على الشكر؛ لتكونوا عبادًا شكورين[1]، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمتي في المقامات كلها ﴿إِنَّ عَذَابِي﴾ مفارقتي بترك وصلي ﴿لَشَدِيدٌ﴾ فإن فوات نعيم الدنيا والآخرة شديد على النفوس، وفوات نعيم الموصولات إليَّ أشد عذاب للقلوب والأرواح.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ [إبراهيم:8] القلب ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ﴾ أيها الروح والسر والخفي بالإعراض عن الحق والإقبال على الدنيا متابعة للنفس ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من النفس والهوى والطبيعة في أرض البشرية ﴿فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ﴾ بجماله وجلاله، وكمالية ذاته وصفاته من الأزل إلى الأبد ﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله لا تفاوت له بإيمان أحد ولا بكفره.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:9].

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن

---

(1) قال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي؛ ولئن شكرتم خدمتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي لأزيدنكم رؤيتي.

وسُئِل ابن عطاء عن قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها فقد تم الشكر.

وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس.

وقيل: إني خلقتكم لأزيدنكم الأنس بعد الوحشة، والقرب بعد البعد، والحضور بعد الغيبة.

قال الواسطي: ذكر الزيادة حجبهم عن الحقيقة، ثم كشفت الحقيقة لأقوام متواجدين.

ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم: 10 – 14].

الإشارة في تحقيق قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم:10] أن السموات والأرض تدلان بها كون فاطر فطرهما فإن ثبوتهما بلا كون مكون واجب الكون محال؛ لأنه يؤدي إلى التسلسل والتسلسل محال، وذلك الكون هو الله ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ من المكونات إلى المكون لا لحاجته إليكم بل لحاجتكم إليه ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بصفة الغفارية ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ التي أصابكم من حجب ظلمات خلقية السماوات والأرض فاحتجبتم بها عنه ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ المعنى لنا أخرجكم من حجب الظلمات بصفة الغفارية يؤخركم عن السير في الصفات والذات إلى أوانه حكمة منه ﴿قَالُوا﴾ أي: للرسل ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تعبدون الهوى والدنيا كما كان يعبد آباؤنا ﴿تُرِيدُونَ﴾ بمقالتكم ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الدنيا وشهواتها لتتمتعوا بها دوننا ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ببرهان يبين لنا صدق دعواكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ﴾ [إبراهيم:11] أي: كنا ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ في البشرية نعبد الهوى والدنيا ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بأن يهديهم للإيمان وللمعرفة والمحبة؛ ليتركوا ما سواه ويطلبوه يبذل الموجود في نيل المقصود فإذا وجدوه

دلوا عباده عليه وذلك ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي: أتيكم بها يتسلط عليكم ليفطركم إلى الله ﴿وَعَلَى اللهِ﴾ في الهداية إليه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين يؤمنون بالوصول إليه.

﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾ [إبراهيم:12] في الهداية ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وهي الإيمان والمعرفة والمحبة فإنها سُبل الوجود ومقاماته، فكذلك يهدي لنا إليه إذا توكلنا عليه ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ بالتكذيب ورد الدعوة والإعراض عن الله ﴿وَعَلَى اللهِ﴾ في الهداية إليه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على الله في الهداية إلى سبيله فإن للتوكل مقامات فتوكل المبتدئ قطع النظر عن الأسباب في طلب المرام ثقة بالمسبب، وتوكل المتوسط قطع تعلق الأسباب، وتوكل المنتهي قطع التعلق بها سوى الله للاعتصام بالله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [إبراهيم:13] أي: ستروا الحق بالباطل وهم النفس والهوى ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ وهو القلب والروح فإنهما محل إلهام الحق ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾ أو أرض الإنسانية ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وهي طلب الدنيا وشهواتها والتلذذ بنعيمها ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ ألهمهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لنهلكن النفس والهوى بسطوات أنوار الشريعة في استعمالها بالطريقة.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ﴾ [إبراهيم:14] أرض الإنسانية ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هلاكهم وتبدل أخلاقهم بأخلاق الروحانية والربانية ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الغلبة والتمكن والاستيلاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي: خاف مقام الوصول، وقال: العوام يخافون دخول النار والمقام فيها، والخواص يخافون فوات المقام في الجنة لأنها دار المقامة، وأخص الخواص يخافون فوات مقام الوصول ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1] أي: وعيد القطيعة والبعد.

(1) أي: قيامه للحساب بين يدي في القيامة، أو قيامي على عبادي، وحفظي لأعمالهم، واطلاعي على سرهم
-

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ۝١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: 15 - 20].

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ [إبراهيم:15] أي: استنصروا القلب والروح من الله على النفس. والهوى فنصرهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ وهو النفس ﴿عَنِيدٍ﴾ وهون لأنه عاند الحق ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم:16] أي: قدام النفس في متابعة الهوى جهنم الصفات الذميمة والأخلاق الردية ﴿وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو ما يتولد عن الصفات والأخلاق من الأفعال النفسانية الحيوانية السبعية يسقى به الروح صاحب النفس الأمارة الكافرة.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم:17] بالتكلف ﴿وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ لأنه ليس له من شربه ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أسباب الموت من العقوبات ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من مكان كل فعل مذموم ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ يستريح من ألم العقوبات التي تتولد من الأفعال في الحال ﴿وَمِن وَرَائِه عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وهو قطيعة البعد والحرمان.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [إبراهيم:18] يشير إلى أعمال الذين ستروا الحق بالباطل من أهل الأهواء والبدع ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وهي ريح البدعة والاعتقاد السوء ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ من القبول ﴿ذَلِكَ هُوَ

وعلانيتهم، أو خاف عظمة ذاتي وجلالي، (وخاف وعيد) أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار. البحر المديد (3 / 192).

﴿الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ أي: المبعد عن الله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [إبراهيم:19] يخاطب روح النبي ﷺ فإن أول ما خلق الله روحه، ثم خلق السماوات والأرض وروحه ناظر به يشاهد خلقتها ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالله ونوره وأيضًا ألم تشاهد أن الله خلق السموات بالحق مناسبًا لسماوات الأرواح وأرض النفوس ليكون بقاء النفوس وفناؤها وصلاح النفوس وفسادها وسعادة النفوس وشقاوتها بتدبير الأرواح وإفاضتها لاستعدادها قبول الفيض الإلهي في اللطف والقهر، وذلك تقدير العزيز العليم ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: هذا الإنسان المستعد لقبول فيض اللطف والقهر ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مستعد لقبول اللطف والقهر ويأت بخلق جديد مستعد لقبول لطفه وقهره من غير الإنسان ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: 20] وأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82].

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [إبراهيم: 21 – 24].

ثم أخبر عن حال يوم القيامة فقال: ﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعًا﴾ [إبراهيم:21] أي: خرجوا من القشور الفانية المحجبة الباقية جميعًا من الضعيف والقوي ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾

وهم المتقلدة لأهل البدع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: للمبتدعين الزائفين عن الحق والسنة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ بالتقليد ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾ [إبراهيم:21] عذاب البعد والانقطاع عن الله ﴿قَالُوا﴾ يعني: أهل البدع ﴿لَوْ هَدَانَا اللهُ﴾ إلى طريق أهل السنة والجماعة، وهو الطريق إلى الله وقربه ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ إليه به يشير إلى أن الهداية والضلالة من نتائج لطف الله وقهره ليس إلى أحد من ذلك شيء، فمن شاء جعله مظهرًا لصفات لطفه ومن شاء جعله مظهرًا لصفات قهره ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا﴾ في طلب النجاة من ورطة الهلاك وعذاب البعد ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ انتظار الرحمة ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ للنجاة لأنه ضاع منا آلة النجاة وأوانها.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ [إبراهيم:22] من أمر أهل السعادة بالسعادة وأمر أهل الشقاوة بالشقاوة ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وهو وعد وهو حق لأهل الحق ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فيما وعدكم ربكم وهو تكذيب اللقاء والتلاقي وهو وعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي﴾ فيما وعدتكم بالباطل لأني خلقت لهذا، ولأني عدو مبين لكم وقد حذركم الله عداوتي ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ بأن صدقتموني فيما كذبتم وكذبتم الله فيما قصدتكم، وذلك أن مقالتي كان ملائمًا لهوى أنفسكم وكلام الحق مخالف لهواها، ومر على مذاق النفوس ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ مكافيًا فيما صدقتموني ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ مكافيًا في الإحسان فيما أسأت إليكم من كرامة الإنسانية ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ وآمنت بوحدانية الله حين لا ينفع نفسًا إيمانها ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو الشيطان ومتبعوه من الإنس والجن إن الشيطان وضع الدعوة إلى الباطل من غير موضعه، وأنهم وضعوا الاتباع في غير موضعه.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [إبراهيم:23] يشير إلى أن الإنسان إذا خلا إلى طبعه لا يؤمن ولا يعمل الصالحات ولا يدخل الجنة؛ لأنه خلق ظلومًا جهولاً لا كفارًا سفلي الطبع ونفسه ﴿لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53] وأدخله بفضله في الإيمان والأعمال الصالحة والحسنات ﴿جَنَّاتٍ﴾ القلوب ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ من ماء الحكمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لعنايته فإن لم تكن العناية لا يبقى أحد في جنة القلب ساعة، كما لم يبقَ آدم عليه السلام في الجنة خالدًا ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ أي: تحية أهل القلوب على أهل القلوب وأهل النفوس سلام فأما على أهل القلوب لسلامة قلوبهم، وأما على أهل النفوس سلام من قلوبهم ليسلموا من شر نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان:63].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [إبراهيم:24] ألم تشاهد بنور النبوة يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ مناسبًا للاستعداد الإنساني القابل لفيض نور الإلهية دون سائر مخلوقاته بقوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كلمة لا إله إلا الله وهي كلمة القديم وصفة وحدانيته وصورة أحديته ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي شجرة طيبة عن لوث الحدوث مثمرة شواهد أنوار القدم ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الحضرة الألوهية فإنها صفة قائمة بذاته تعالى ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ سماء القلوب[1].

---

(1) قال الورتجبي: أشار سبحانه إلى كلمة القديمة التي تكلم بها في اصطفائيته أهل معرفته طلبت كلمته، وهي أطيب الطيبات باصطفائيته أهل الولاية، وتلك الكلمة القديمة شجرة الصفات أصلها ثابت في القدم وفروعها في سماء البقاء، وتلك الشجرة منزهة عن تغاير الحدثان وعن التبديل بطوارق القهريات، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ﴾ مياه تلك الشجرة من بحار حسن العناية الأزلية والإرادة القديم، تؤتي أكلها ثمرات تجليها بالأرواح المحبين والعارفين والموحدين كل حين تفيض فيض أنوارها على أفئدة الصديقين وعقول المقربين؛ فأكل تلك الشجرة ثمرات تجلي جميع الصفات والذات تربي بها قلوب الأولياء والصديقين، فثمرة مشاهدة الذات يورث لقلوب الموحدين التوحيد
-

﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

والتفريد والفناء والبقاء والصحو والمحو والحياة والوله، وثمرات الصفات يورث لفكر العارفين على قدر تجليها؛ فكل صفة يورث لها حقيقة من تلك الصفة؛ فميراث صفة العظمة الهيبة والخوف والإجلال، وميراث الكبرياء والبهتة والخجل والحياء، وميراث الجلال الخشية والخضوع، وميراث الجمال المحبة والشوق والعشق، وميراث العلم المعرفة بالعلوم اللدنية، وميراث القدرة الكرامات، وميراث نور السمع استماع أصوات هواتف الغيب، وميراث نور البصر الفراسات الصادقة ورؤية الغيب وغيب الغيب، وميراث نور الخطاب والكلام والإطلاع على الأسرار والوله والهيمان في الأنس والمناجاة، وميراث الحياة وحياة القلب بالرب وحياة العقل بنور القلب وحياة الروح بروح الوصال، وميراث رؤية القدم والبقاء الزفرات والعبرات والمواجيد والصعقات، وميراث رؤية أنوار الحكمة بيطون الأفعاليات ودقائق المقامات وحقائق المقامات وإدراك نور شواهد الآيات في كل ذرة في مرائي الأفاق، وميراث ثمرة الإرادة صدق العبودية وإخلاص المحبة ويسهل له جميع المرادات مادام متصفًا بالإرادة، ومَنْ أكل ثمرًا من ثمار تلك الشجرة يحي بحياة الأبدية، ويبقى في أنوار الأزلية لا يطرأ عليه بعد ذلك طوارق الفناء، وأيضًا الكلمة الطيبة كلمة ألهمت في قلوب أحبائه، تلك الكلمة شجرة المعرفة أصلها ثابت في ارض القلوب وفرعها في سماء الأرواح ومياه تلك الشجرة من بحر كشف المشاهدة، تؤتي أكلها كل حيث بإذن ربها من أنواع المقامات والحالات والمكشوفات والكرامات والفراسات وحركتها في بستان الوصلة من جائحات الوسواس والهواجس، وأيضًا تلك الشجرة الطيبة كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وأصلها هناك ثابت بالتوفيق، وفرعها في سماء القرب، وسقاها من سواقي العناية يرويها المعرفة وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وثمرها العشق، وحارسها الرعاية، ومزرعها الكفاية، ونهارها الأنس تؤتي أكلها كل حين في جميع الإنفاس من لطائف العبودية، وعرفان أنوار الربوبية ساكن ظلها العقول، وظلها من ظلال الجمال، وهذه الثمرات في أواني كمالها مرفوعة على خوان المشاهدة والقربة.

قال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: «لا إله إلا الله» على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالثقة بالله، والانقطاع إليه عما سواه.

قال محمد بن علي: الشجرة الطيبة الإيمان أثبتها الله في قلوب أوليائه، وجعل أرضها التوفيق، وسماءها العناية، وماءها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس؛ فأصلها ثابت في قلب الولي، وفرعها في السماء ثابتة بالمريد من عند الجبار؛ فالأصل يربي الفرع بدوام الإشفاق والمراقبة، والفرع يهدي إلى الأصل ما يجتنبه من محل المشاهدة والقرب، هكذا أبدا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: خزائن الله في السماء الغيوم، وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله خلق قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنسته من الكفر والشرك والنفاق، ثم أنشأ سحابة فأمطرت فيه، ثم أنبتت شجرًا، فأثمرت الرضا والمحبة والشكر والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله تعالى: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: 25 - 27].

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ [إبراهيم:25] من أنوار المشاهدات وأثمار المكاشفات ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ بتقرب العبد إلى ربه يتقرب الرب تعالى إليه، وهو معنى قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ لمن نسي العهد الأول واستحقاقه لقبول فيض الألوهية وترك السعي في طلب تلك السعادة العظمى وأبطل استعداده في طلب الدنيا والإعراض عن المولى فهو أعظم البلوى والطامة الكبرى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الحالة الأولى وقربهم من المولى، ويتفضلون بها ويعلمون أن هدى الله هو الهدى.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم:26] وهي كلمة تتولد من خباثة النفس الخبيثة الظالمة لنفسها بعقيدة السوء في ذات الله وصفاته، أو باكتساب المعاصي والظالمة لغيرها بالتعرض لعرضه وماله ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي النفس الخبيثة الأمارة بالسوء ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ بظهور المعاملات الخبيثة فوق أرض البشر ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾(1) لأنها من الأعمال الفانيات الفاسدات لا من الباقيات الصالحات.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:27] أي: يمكنهم في مقام الإيمان بملازمة كلمة لا إله إلا الله والسير في حقائقها ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: في مدة بقائهم في الدنيا ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: بعد مفارقة البدن به يشير إلى أن سير أصحاب الأعمال ينقطع

---

(1) قال القشيري: (4/ 44): والشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّ من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوس وتسويلات ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة .

عند مفارقة الروح عن البدن، وسير أرباب الأحوال الذين ثبت الله تعالى بأنوار الذكر أرواحهم وسيرهم في ملكوت السماوات والأرض، بل طيرهم في عالم الجبروت بأجنحة أنوار الذكر وهي جناحا النفي والإثبات، فإن نفيهم بالله عما سواه وإثباتهم بالله في الله لا ينقطع أبد الأبدين ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يضل أصحاب النفوس الخبيثة الظالمة عن سبيل الرشاد في الإنارة بنور الألوهية بأن يخذلهم في طلب الدنيا وشهواتها ليذرهم في دركات جهنم النفوس حينًا.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم: 28 - 33].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ [إبراهيم:28] هذا إشارة إلى نعمة ألوهيته وخالقيته ورازقيته عليهم بدلوا ﴿كُفْرًا﴾ بالكفر والإنكار بالجحود ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: أرواحهم وقلوبهم ونفوسهم وأبدانهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي: الهلاك فأنزلوا أبدانهم ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:29] وهي غاية البعد عن الحضرة والحرمان من الجنان وأنزلوا أنفسهم الدركات وقلوبهم العمى والصم والجهل وأرواحهم العلوية أسفل سافلين الطبيعة بتبديل نعم الأخلاق الملكية الحميدة بالأخلاق الشيطانية السبعية الذميمة.

﴿وَجَعَلُوا للهِ أَندَادًا﴾ [إبراهيم:30] من الهوى والدنيا وشهواتها ﴿لِّيُضِلُّوا﴾ بها ويضلوا الناس بالامتناع ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ عن طلب الحق تعالى والسير إليه على أقدام

الشريعة والطريقة للوصول إلى الحقيقة ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بشهوات الدنيا ونعيمًا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ نار جهنم للأبدان، ونار المحق والحرمان للنفوس، ونار الحياة للقلوب، ونار القطيعة للأرواح.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ [إبراهيم:31] لا لعباد الهوى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بنور العناية وعرفوا قدر نعمة ألوهيتي ولم يبدلوها كفرًا ﴿يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ ليلازموا العبودية ويديموا العكوف على بساط القربة ويثبتوا في المناجاة والمكالمة ﴿وَيُنفِقُوا﴾ على الطالبين المريدين ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا﴾ من أسرار الألوهية ﴿وَعَلانِيَةً﴾ من أحكام العبودية في طريق الربوبية ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو مفارقة الأرواح على الأبدان ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: لا يقدر على الإنفاق بطريق طلب المعارضة ﴿وَلاَ خِلالٌ﴾ أي: ولا بطريق المخاللة من غير طلب العوض؛ لأن آلة الإنفاق خرجت من يده، وبطل استعداد دعوة الخلق إلى الحق وتربيتهم بالتسليك والتزكية والتهذيب والتأديب.

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم:32] سماوات القلوب ﴿وَالأَرْضَ﴾ أرض النفوس ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ سماء القلوب ﴿مَاءً﴾ الحكمة ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ثمرات الطاعة ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: رزقًا لأرواحكم فإن الطاعات غذاء الأرواح كما أن الطعام غذاء الأبدان ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ فلك الشريعة ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ﴾ بحر الطريقة ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بأمر الحق لا بأمر الهوى والطبع؛ لأن استعمال فلك الشريعة إذا كان بأمر الهوى والطبع سريعًا يهلك ويغرق، ولا يبلغ ساحل الحقيقة إلا بأمر أولي الأمر وبملاحيه وهو الشيخ الواصل الكامل المكمل كما قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:59] وقال النبي ﷺ: «من أطاع أمري فقد أطاعني

ومن أطاعني فقد أطاع الله»(1).

وكم من سفن لأرباب الطلب لما شرعت فى هذا البحر بالطبع انكسرت بنكباء الأهواء وتلاطم أمواج العزة وانقطعت دون ساحلها، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ أنهار العلوم اللدنية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ﴾ [إبراهيم:33] شمس الكشوف ﴿وَالْقَمَرَ﴾ قمر المشاهدات ﴿دَائِبَيْنِ﴾ بالكشف والمشاهدة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ ليل البشرية ﴿وَالنَّهَارَ﴾ نهار الروحانية وتسخير هذه الأشياء عبارة عن جعلها سببًا لاستكمال استعداد الإنسان فى قبول الفيض الإلهي المختص به من بين سائر المخلوقات.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: 34 - 37].

وفى قوله: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾(2) [إبراهيم:34] إشارة إلى أنه تعالى

---

(1) أخرجه البخاري (3/ 1080، رقم 2797)، ومسلم (3/ 1466، رقم 1835)، والنسائي (7/ 154، رقم 4193)، وابن أبي شيبة (6/ 418، رقم 32529)، وأحمد (2/ 252، رقم 7428)، وابن ماجه (2/ 954، رقم 2859).

(2) قال الورتجبي: إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمَنْ شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومَنْ شغله به جعل الأشياء كلها طوع يديه؛ فتنقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب، ويخبر عمّا أراد، وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد

أعطى الإنسان فى الأزل حسن استعداد استدعى منه لقبول الفيض الإلهي وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] ثم للابتلاء رده إلى أسفل سافلين ثم آتاه من كل ما سأله من الأسباب التي تخرجه من ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5] وتصعده إلى أعلى عليين فإذا أمعنت النظر فى هذه الآيات رأيت أن العالم بما فيه خلق تبعًا لوجود الإنسان، وسببًا لكماليته كما أن الشجرة خلقت تبعًا لوجود الثمرة وسببًا لكماليتها فالإنسان البالغ الكامل الواصل ثمرة شجرة المكونات، فافهم جدًّا.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ لأن نعمته على الإنسان قسمان: قسم يتعلق بالمخلوقات كلها وقد بينا أنها خلقت لاستكمال الإنسان وهذه النعمة لا يحصى عدها لأن فوائدها عائدة إلى الإنسان إلى الأبد وهى غير متناهية فلا يحصى عدها.

وقسم يتعلق بعواطف ألوهيته وعوارف ربوبيته فهى أيضًا غير متناهية فلا يحصى عدها.

وقسم يتعلق بعواطف ألوهيته وعوارف ربوبيته فهى أيضًا غير متناهية ﴿إِنَّ

نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تتابعه النعم. قيل: أجلّ النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطيق القيام بشكرها أحد. وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفّار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية. وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوه، بأن جعل السفير فيها بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

وقال ابن عطاء: أجلّ النعمة رؤية معرفة النعم، ورؤية التقصير في القيام بشكر المنْعم. وقال: أيضًا النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون شكره أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وروحًا وقلبًا؛ فنعمة النفس الطاعة، ونعمة الروح الخوف، ونعمة القلب اليقين، ونعمة الروح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة، والنفس في أبحر الطاعات تتنعم، والقلب في بحر النعيم يتقلب، والمعرفة في أبحر القربة وانتظار العيان تتنعم. وقال :أيضًا سخّر لكم الليل والنهار جعلهما ظرفًا لعبادتك ووعاء لطاعتك، وسخّر لك الشمس والقمر لتستدل بهما على أوقات العبادات، وسخّر قلبك لمعرفته ومحبته؛ لأن حظ الحق من العبيد قلوبهم.

﴿الإِنسَانَ لَظَلُومٌ﴾ لنفسه بأن يفسد هذا الاستعداد الكامل بالإعراض عن الحق والإقبال على الباطل ﴿كَفَّارٌ﴾ لنعم الله إذا لم يعرف قدرها ولم يشكر لها وجعلها نقمة لنفسه بعدما كانت نعمة من ربه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم:35] إبراهيم هو الروح والبلد هو القلب اجعله آمنًا من وساوس الشيطان وهواجس النفس وآفات الهوى ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وهم الفؤاد والسر والخفاء ﴿أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ فكما أن صنم النفس الدنيا وصنم القلب العقبى وصنم الروح الدرجات العلى وصنم الفؤاد العرفان وصنم الخفاء الركون إلى المكاشفات والمشاهدات وأنواع الكرامات ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:36] أي: من الناسين الذين نسوك عند استجلاء القلب والكرامات فانقطعوا بهن عنك ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في محبتك وترك ما سواه لك ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي﴾ في مخالفتك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تغفر لهم فإن لم يجدوا مقام الخلة ترحم عليهم بالمقام في الخلد، وأيضًا حفظ الأدب فيما قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾وما قال: ومن عصاك؛ لأن بعصيان الله لا يستحق المغفرة والرحمة والإشارة فيه أن من عصاني لعلي لا أغفر له ولا أرحم عليه فإن المكافأة في الطبيعة واجبة ولكن من عصاني فتغفر له وترحم عليه يكون غاية كرمك وعواطف إحسانك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم:37] وهو وادي النفس ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أن يكون بيتًا لغير الله كما قال: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن»(1) وأيضًا قوله: ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يشير إلى محمد ﷺ فإنه كان من ذريته وكان من صلب إسماعيل يتوسل بمحمد ﷺ إلى الله تعالى في

(1) تقدم تخريجه.

رعاية هاجر وإسماعيل يعني: إن ضيعت إسماعيل ليهلك فقد ضيعت محمدًا ﷺ وأهلكته.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أسكنهم عند بيتك فريدًا وحيدًا بلا طعام ولا شراب ولا صديق ولا أنيس؛ ليناجوك ويقيموا عبادتك ويتوكلوا عليك ويستأنسوا بك ولا يلتفتوا إلى غيرك وأيضًا أسكنت من ذريتي الروحانيات بوادي النفس في مجاورة القلب ﴿لِيُقِيمُوا﴾ بآلات النفس وأدوات الجسم طاعات وعبادات من ﴿الصَّلَاةَ﴾ والزكاة والصيام والحج والجهاد وغيره من شرائع الإسلام ما لم يكونوا مستعدين للقيام به في عالم الأرواح ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ ليتوسلوا بهواهم إليك ويستحقوا بذلك منك أن تجعلهم منهم ومعهم؛ لأنه «من أحب قومًا فهو معهم»[1]، وأسكنت من ذريتي من الرحمة ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: فاجعل وتيرة الصفات الناسوتية ﴿تَهْوِي﴾ إلى الصفات الروحانية ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ثمرات الصفات اللاهوتية التي رزقها للصفات الروحانية ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ شكر النعمة الجسمية التي بمعزل عنها الملائكة المقربون، وفي هذا سر عظيم لا يمكن إفشاء سر الربوبية لقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا

---

(1) روي بلفظ: «المرء مع من أحب»: حديث أنس: أخرجه ابن أبي شيبة (7/ 503، رقم 37561)، وأحمد (3/ 104، رقم 12032)، والبخاري (5/ 2283، رقم 5819)، ومسلم (4/ 2032، رقم 2639)، وأبو داود (4/ 333، رقم 5127)، والترمذي (4/ 595، رقم 2385) وقال: صحيح. وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد (ص 377، رقم 1265)، وأبو يعلى (5/ 270، رقم 2888)، وابن حبان (1/ 308، رقم 105)، والطبراني في الأوسط (7/ 267، رقم 7465)، وفي الصغير (1/ 109، رقم 154).

حديث عبد الله بن مسعود: أخرجه البخاري (5/ 2283، رقم 5816)، ومسلم (4/ 2034، رقم 2640). وأخرجه أيضًا: الطبراني (10/ 12، رقم 9781).

حديث أبي ذر: أخرجه أيضًا: الدارمي (2/ 414، رقم 2787).

حديث جابر: أخرجه عبد بن حميد (ص 321، رقم 1054). وأخرجه أيضًا: الحارث كما في بغية الباحث (2/ 990، رقم 1106).

حديث أبي موسى: أخرجه أحمد (4/ 395، رقم 19544)، والبخاري (5/ 2283، رقم 5818). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (2/ 316، رقم 557)، والطبراني في الأوسط (6/ 91، رقم 5893).

﴿تُخْفِي﴾ [إبراهيم:38] من حقائق الدعاء والإشارة المودعة فيها ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ من ظاهر الصفة ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ﴾ أرض الصورة من المعاملات والمقالات الظاهرة ﴿وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ سماء القلوب من أحوال الغيوب والأسرار الباطنة.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [إبراهيم: 39 - 43].

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ [إبراهيم:39] وهذا دعاء وحمد وشكر لإبراهيم الروح أن وهب له الله تعالى يعني: من تعلقه إلى القالب ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ السر ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ الخفي أي: قبل تعلقه بالقالب وازدواجه بالجسم لم يكن له هذه التولدات ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ يعني: في الأزل قد سمع دعاء الروح وهو في العدم وآثاره في الوجود عند تعلقه بالقالب ما سأله ومن حسنها الاستعداد لقبول الفيض الإلهي كما قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:34].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ [إبراهيم:40] أي: دائم العروج فإن الصلاة معراج المؤمن وبه يشير إلى دوام السير في الله بالله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ فيهم دعائي الذي دعوت لهم في العدم وسمعتهم في الأزل إلى الأبد ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ [إبراهيم:41] أي: استر لي بصفة مغفرتك؛ لئلا أرى وجودي فإنه حجاب بيني وبينك ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ ولمن كان سبب وجودي من آباء العلوي وأمهات السفلى لكيلا يحجبونه عن رؤيته ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾ وهو يوم كان في جناب الله في الأزل بقوم كمالية كل

نفس أو نقصانيتها.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا﴾ [إبراهيم:42] أي: في الأزل ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: كل عمل يعمله الظالمون لم يكن الله غافلاً عنه في الأزل، بل كل ذلك بقضائه وقدره وإرادته سببًا على حكمته البالغة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني: الظالمين ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:43] إشارة إلى أنه تعالى جعل سعادة أهل السعادة وشقاوة أهل الشقاوة مودعة في أعمالهم، والأعمال مودعة في أعمارهم ليبلغ كل واحد من الفريقين على قدر أعمالهم الشرعية والطبيعية إلى منزل من منازل السعداء، أو منزل من منازل الأشقياء يوم القيامة فلهذا أخر الظالمين ليزدادوا إثما يبلغهم منازل الأشقياء.

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: 44 - 48].

ثم أكد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [إبراهيم:44] يعني: أرجعنا إلى الدنيا ﴿أَخِّرْنَا﴾ لنطيعك ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ كما أخرتنا وألبستنا لازدياد الإثم بمعاصيك في الدنيا.

ثم أجابهم بقوله: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ يشير به إلى المناسخة فإنهم يزعمون ألّا زوال لهم في الدنيا ولا أحد منهم إذا مات ينقل روحه إلى قالب آخر فأرادوا بهذا الجواب أن لو رجعناكم إلى الدنيا لتحقق عندكم مذهب التناسخ وما أقسمتم من قبل على أن ما لكم من زوال.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم:45] أي: أقمتم مقامات الظالمين على أنفسهم في السير على قدمي الظلم والمعاصي إلى منازل الأشقياء ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ أي: بعد أن تبين لكم ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: بالأشقياء حين نزلهم منازلهم وشاهدتم أحوالهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ يشير إلى أن الحقائق والمعاني الغيبية لا تتبين إلا بالأمثال كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ [النحل:72].

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:46] أي: إن كان مكرهم هذا الأمر لا يقدر بشر إلا بإذن الله ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم:47] في جزاء أهل المكر ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ في ذاته لا يهدي إليه كل ماكر ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ لأهل المكر حيث ينتقم منهم على قدر مكرهم.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:48] أي: نبدل أرض البشرية بأرض القلوب فتضمحل ظلمتها بأنوار القلوب وتبدل السموات بالأسرار بسموات الأرواح، فإن شموس الأحوال إذا تجلت على كواكب الأسرار أفنت تحت أنوار كواكبها بسطوة أشعة شموسها، بل تبدل أرض الوجود المجازي عند إشراق تجلي أنوار الربوبية بحقائق أنوار الوجود الحقيقي.

كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:69] ﴿وَبَرَزُوا﴾ عن الوجود المجازي ﴿للهِ الْوَاحِدِ﴾ أي: لله ووحدانيته ﴿الْقَهَّارِ﴾ لا يعجزه ما سواه فإن شموس

الأرواح عند تجلي نور الألوهية تمحى بسطوته كما تمحى الكوكب عند تجلي شموس الأفلاك والأرواح.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: 49 - 52].

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ [إبراهيم:49] هم أرواح أجرموا إذا اتبعوا النفوس ووافقوها في طلب الشهوات والإعراض عن الحق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم التجلي ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾أي: مقيدين مع النفوس بقيود صفاتها الذميمة الحيوانية لا يستطيعون البروز والخروج لله، ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم:50] المعاصي وظلمات النفوس وهم يحجبون بها عن الله ﴿وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ نار الحسرة والقطيعة والحرمان.

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ [إبراهيم:51] أي: كل أرواح ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من صحبة النفس وموافقتها ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الأرواح بالسرعة في الدنيا ويجزيهم بما كسبوا في متابعة النفوس من العمى والصم والجهل والغفلة والبعد وغير ذلك من الآفات قبل يوم القيامة ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:52] لأرواح نسوا عالم الوحدة وشهودهم مع الله بلا حجب الغفلة ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي: ليتنبهوا بهذا البلاغ قبل المفارقة عن الأبدان لينتفعوا به فإن الانتباه بالموت لا ينفع[1] ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

(1) فإن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.

قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي، والمخوَّف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأمَّا الجسماني بإحراق النار الصورية، وأمَّا الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلِّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة، فكما أن أهل الجمال مقرَّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل الجلال مبعدون؛ ليُحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ

فيعبدوه ولا يعبدوا إلهًا غيره من الدنيا والهوى والشيطان وما يعبد من دون الله ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ وليذكر عالم الوحدة وشهودهم مع الله أولوا الألباب الذين خرجوا من قشر البشرية متوجهين إلى عالم الوجود بل المجذبون من قشر الوجود المجازي الواصلون بلب الوجود الحقيقي العالمون بأنه إله واحد كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد: 19] والله أعلم.

﴿الـر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم:1] قال جعفر عهد خصصت به فيه بيان سالف الأمم وأحوالهم ونجاة أمتك عنهم ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ [إبراهيم:1] من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة البدعة إلى نور السنة ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب، وقال أبو بكر بن طاهر: من ظلمة الظن إلى أنوار الحقيقة، قال أبو جعفر: من ظلمة رؤية العقل إلى نور رؤية العقل.

وفي قوله تعالى: ﴿اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:2] قال الواسطي: الكون كله له، من طلب الكون فاته المكون ومن طلب الحق فوجده سخر له الكون بما فيه.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:3] قال أبو علي الجوزجاني: من أحب الدنيا حرم عليه الآخرة، ومن طلب الآخرة حرم عليه طريق

عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:15]، ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأمّا هم فمنهم قرباء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضًا، والفرق بينهم، وبين الإنس: أن الإنس مُبشّرون، كما أنهم منذرون، وأمّا الجن: فمنذرون فقط، دلّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:31] حيث خصّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

النجاة، ومن طلب طريق النجاة حرم عليه رؤية فضل الله، ومن طلب طريق رؤية الفضل حرم عليه الوصول إلى المتفضل.

قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:7] سُئل ابن عطاء عن هذه الآية قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها تقديم الشكر، وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم الأنس، وقال الحريري: كمال الشكر في مشاهدة العجز عن الشكر.

وروي عن داود عليه السلام قال: «**يا رب كيف أشكرك وشكري لك تجديد نعمة منك عليّ؟ قال: يا داود الآن شكرتني**»[1]، قال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي لأزيدنكم رؤيتي، وعن جعفر الصادق رضي الله عنه قال: إذا سمعت النعمة الشكر تأهبت للمزيد.

قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:8] قال الواسطي: ليس الإيمان يقرب إلى الحق ولا الكفر يبعد عنه، لكن جرى به الأمر في الأزل بالسعادة والشقاوة فظاهر الإيمان والكفر إعلام الخلائق والحقائق القضاء الذي سبق الدهور لا الأزمان.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [إبراهيم:19] قال سهل: خلق الأشياء كلها بقدرته وزينها بعلمه وأحكمها بحكمه، فالناظر من الخلق إلى الخالق يتبين له

---

(1) رواه أبو نعيم (6/ 56).

من الخالق عجائب الخلقة، والناظر من الخلق إلى الخلق يكشف له عن إشارة أنوار حكمته وبدائع متعته.

وقال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: لا إله إلا الله على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تطهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالتعبد لله والانقطاع إليه عما سواه، وقال محمد بن علي الباقري: الشجرة الطيبة الإيمان أنبتها الله تعالى وجعل أرضها التوفيق، وسماؤها العناية، وماؤها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس فأصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها في السماء ثابت بالمريدين عند الجبار، فالأصل يرد الفروع بدوام الإشفاق والمراقبة والفرع يهدي إلى الأصل بالخشية من محل الشهادة والقرب هكذا أبدًا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: وخزائن الله في السماء الغيوب وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله تعالى جعل قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنه عن الكفر والشرك والنفاق؛ لأن الله تعالى جعل قلبًا ثم أنبت شجرة فأثمرت الرضا والمحبة والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:24] وذكر كل شيء من الدنيا إذا لم يكن لها حظ من الآلاء جف والشجر الذي في قلب المؤمن يجف إذا لم يسقها بماء التوبة ثم بماء الرحمة من فوق فيكون طريًا شهيًا ثم يأتيه ثلاثة أشياء:

طريق العبودية في النفس، وطريق المحبة في القلب، وطريق الذكر في السر فخدمة النفس الطاعة، وخدمة القلب النية، وخدمة السر المراقبة على الدوام، ثم يمطر عليها أمطار على النفس مطر الهداية، وعلى اللسان مطر اللطافة، وعلى القلب مطر العظمة، وعلى السر مطر النعمة، وعلى الروح مطر الكرامة، فينبت مطر اللسان الشكر والثناء، ومن مطر

النفس الطاعة، ومن مطر القلب الصدق والصفاء، ومن مطر السر الشوق والحياء، ومن مطر الروح الرؤية والبقاء.

قال محمد بن علي: الشجرة الخبيثة اللسان ما لم يقطعها المؤمن بسيوف الخوف فإنها تثمر أبدًا الكلمة الخبيثة، وقال بعضهم: الشجرة الخبيثة النفاق وهي التي لا تقر قرارًا حتى تهوي صاحبها في النار.

وقال ابن عطاء: الشجرة الخبيثة الغيبة والبهتان وهما يفتحان على الإنسان باب الكذب والهجاء، وقال جعفر: الشجرة الخبيثة الشهوات وأرضها النفوس وماؤها الأمل وأوراقها الكسل وثمارها المعاصي وغايتها النار.

وقال الواسطي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم:27] الإيمان أي: فإن حقيقة مضاد الروح الإيمان وإيمان محبة عن ظلمات الروح وذلك استثناء من استثناء في إيمانه كيف يأمنه العبد وهو لا يخلف الميعاد ويثبت الله الذين أمنوا على مقدار المواجيد يكون الخوف والأمن ولم ينزع عن أحدٍ الخوف ولا انقلب منه أحد الخطيئة، وما من أحد يسعى إلا يخاف عقباها أي: عقبى سعيه فمن يثبت بالقول الثابت في الحياة الدنيا تسقط عنه تلك المخاوف وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: 32] قال الصادق: وسخر لكم السموات بالأمطار، والأرض بالنبات، والبحر أن يتخذ تنورًا وسحرًا.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [إبراهيم:33] تدوران عليك وتوصلان إليك منافع السموات والنبات والزروع وسخر لكم قلب المؤمن لمحبته ومعرفته وخاصة الله من العباد القلوب لا غير؛ لأنها موضع نظره ومستودع أمانته ومعرفة إفاضة أسراره.

قال يحيى بن معاذ في قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:34] إن

الله أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه أعطاك من غير سؤالك وهو التوحيد فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤالك؟! فاجتهد أيها العبد ألا يكون سؤالك إلا منه ولا رغبتك ولا رجوعك إلا إليه فإن الأشياء كلها له فمن شغل بغيره فقد تقطع عليه طريق الحقيقة، ومن شغل منه جعل الأشياء كلها طوع يده فتنقلب الأعيان ويقرب له البعيد ويمشي حيث أحب ويجري كما أراد، وهذا من مقامات العارفين.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34] أي: عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء فكيف إذا تتابعت النعم؟! وقيل: أجل النعم استواء الخلقة وإلهام المعرفة والذكر من بين سائر الحيوان ولا يطيق القيام لشكرها أحد، وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه شيطان، إن شكره يقابل نعمه كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البداية والتعاقب، وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله بمحمد ﷺ لا تحصوها بأن جعل السفير فيما بينه وبينكم الأعلى والواسطة الأولى.

وقال ابن عطاء: أجل النعم رؤية معرفة النعم ورؤية التقصير في القيام لشكر النعم، وقال: النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون الشكر أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وقلبًا وروحًا فنعمة النفس الطاعة، ونعمة القلب اليقين، ونعمة الأرواح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة والنفس في أبحر الطاعات تتنعم والقلب في أبحر النعم، والمعرفة في بحر القربة والعيان يتنعم.

وروي عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم:35] يعني: أفئدة العارفين اجعلهم آمنين من الشرك آمنين من قطيعتك.

وقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم:37] قال: ارزقهم شكر ما أوليتهم من

معرفتك، ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35] أي: نعبد الهوى.

قال الدنيوري: محاربة الأصنام مختلفة، فمنهم من صنمه نفسه، ومنهم من صنمه ماله، ومنهم من صنمه ولده، ومنهم من صنمه أقاربه، ومنهم من صنمه زوجته ومنهم من صنمه ضيعه، ومنهم من صنمه صلاته وزكاته وحجه وصيامه، ومنهم من صنمه حاله، والأصنام مختلفة وكل واحد من الخلق مربوط بصنم من هذه الأصنام والتبرؤ هو ألا يرى الإنسان لنفسه خلاقًا ولا مجالاً لا يعبد من أفعاله شيئًا ولا يسكن من حاله إلى شيء، رافعًا على نفسه باللوم في جميع ما يبدو منها من الخير والشر غير راضٍ به، وقال جعفر: لا تردني إلى مشاهدة الخلة ولا ترد أولادي إلى مشاهدة النبوة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ [إبراهيم:35] قال: إن الله أمر إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة فلما بناها قال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة:127] فأوحى الله إليه: «يا إبراهيم أمرتك ببناء البيت وخصصتك من الأنبياء بذلك، ومننت عليك ووفقتك لما وفقتك له ، ودفعت عنك النار، فقيل له: ألا تستحي أن تمن عليَّ وتقول: ربنا تقبل منا، فثبتت منتي عليك وذكرت رؤية فعلك ومنتك» فمن أجل ذلك قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35] قال: إن نفسي أشد صنم وشرها إذا تابعت هواها واشتغلت بحظها فاشغلها بك واقطعها عما سواك.

قال الجنيد: وامنعني وبني أن نرى لأنفسنا وسيلة إليك، غير الافتقار، وقال ابن عطاء: الأصنام الخلة والركون إليها وهي خطرات الغفلة وحجاب الخلة، وقال أيضًا: هي النفس لأن لكل نفس صنمها من الهوى إلا من ظهر بأنواع التوفيق.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:36] لما ذهب فمن استبشر رأفة للمؤمنين قيل له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قال في قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ [إبراهيم:36] لم يطع

ولكن قال: فإن من صفتك الغفران والرحمة وليس على العباد.

وقال في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37] من انقطع عن الخلق بالكلية صرف الله إليه وجوه الخلق وجعل مودته في صدورهم ومحبته في قلوبهم وذلك من دعاء الخليل لما انقطع بأهله عن الخلق والأقارب والأسباب دعاهم فقال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37].

وقال الخواص في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم:38]: ما نُخْفِي من حبك وما نعلن من شكرك، وقال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأدب، قال أبو عثمان: طهر سرك وأعمر باطنك وأصلح خفيات أمورك، فإن الله لا يخفى عليه شيء وهو الذي يعلم ما نخفي وما نعلن.

وقال أحمد بن خضرويه: لو أذن الله لي في الشفاعة ما بدأت إلا بظالمي، قيل له: فكيف؟ قال: لأني قلت بظالمي لم أقله بوالدي، قيل: وما ذلك؟ قال: لعن الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم:42] وقال بعض المتقدمين: الظلم على ثلاثة أوجه: ظلم مغفور، وظلم محاسب، وظلم غير مغفور، فالظلم المغفور: ظلم الرجل نفسه، والظلم المحاسب: ظلم أخاه، والظلم الذي لا يغفر: هو الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:43] قال ابن عطاء: هذه صفة قلوب أهل الحق ألا ترى أن الهوى قائم بالمشيئة والإرادة غير قائمة بعلائق فوقهما كذلك قلوب أهل الحق متعلقة به لا يقر إلا معه ولا يسكن إلا إليه ليس في قلوبهم محل لغير الله لا يساكن هوى الله ومثل قلوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:88] لا يلتفت إلى سواه ولا له قرار مع غير الله.

وفي قوله ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم:45] قال أبو

عثمان: مجاورة الفساق وأهل المعاصي من غير فسق الكافر ومعصيته مستقرة في القلب؛ لأن الله تعالى ذم قومًا من عباده، وقال: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم:45] ولم يعذر من أقام فيها، وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء:98] ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:52] ذلك لما يظهر من كشف حقائقه من بني آدم من أحبائه وأوليائه؛ لأن الأرض والسماوات لا تصير لما يظهر عن الأبدان من أنوار الحق، وقال جعفر: موعظة الحق وإنذار لهم ليجتنبوا أقران السوء ومجالسة المخالفين، فإن القلوب إذا تعودت مجالسة الأضداد تدنس، وقال بعضهم: كشف للخلق ما يبدو لهم وأمروا به.

فهرس المحتويات

AL-TA'WĪLĀT AL-NAJMIYYAH

by

Najmuddīn al-Kubrā

Followed by

ʿAYN AL-ḤAYĀT

by

ʿAlāʾuddawlah al-Simnāni

Edited by

Aḥmad Farīd al-Mizyadi

Volume III

